

المُتَبَيَّنُ وَشَوْقِي

دَرَا سَةُ وَنَقْدٌ وَمُوَازَنَةٌ

تأليف

عباس حسن

الأستاذ المساعد بكلية دارالعلوم جامعة فواد الأول

١٤١٠
 ١٤١١
 ١٤١٢
 ١٤١٣
 ١٤١٤
 ١٤١٥
 ١٤١٦
 ١٤١٧
 ١٤١٨
 ١٤١٩
 ١٤٢٠
 ١٤٢١
 ١٤٢٢
 ١٤٢٣
 ١٤٢٤
 ١٤٢٥
 ١٤٢٦
 ١٤٢٧
 ١٤٢٨
 ١٤٢٩
 ١٤٣٠
 ١٤٣١
 ١٤٣٢
 ١٤٣٣
 ١٤٣٤
 ١٤٣٥
 ١٤٣٦
 ١٤٣٧
 ١٤٣٨
 ١٤٣٩
 ١٤٤٠
 ١٤٤١
 ١٤٤٢
 ١٤٤٣
 ١٤٤٤
 ١٤٤٥
 ١٤٤٦
 ١٤٤٧
 ١٤٤٨
 ١٤٤٩
 ١٤٥٠
 ١٤٥١
 ١٤٥٢
 ١٤٥٣
 ١٤٥٤
 ١٤٥٥
 ١٤٥٦
 ١٤٥٧
 ١٤٥٨
 ١٤٥٩
 ١٤٦٠
 ١٤٦١
 ١٤٦٢
 ١٤٦٣
 ١٤٦٤
 ١٤٦٥
 ١٤٦٦
 ١٤٦٧
 ١٤٦٨
 ١٤٦٩
 ١٤٧٠
 ١٤٧١
 ١٤٧٢
 ١٤٧٣
 ١٤٧٤
 ١٤٧٥
 ١٤٧٦
 ١٤٧٧
 ١٤٧٨
 ١٤٧٩
 ١٤٨٠
 ١٤٨١
 ١٤٨٢
 ١٤٨٣
 ١٤٨٤
 ١٤٨٥
 ١٤٨٦
 ١٤٨٧
 ١٤٨٨
 ١٤٨٩
 ١٤٩٠
 ١٤٩١
 ١٤٩٢
 ١٤٩٣
 ١٤٩٤
 ١٤٩٥
 ١٤٩٦
 ١٤٩٧
 ١٤٩٨
 ١٤٩٩
 ١٥٠٠

الْمُتَّبِعِي شَوْقِي

دراسة ونقد وموازنة

تالیف

عباس حسن

الأستاذ المساعد بكلية دارالعلوم-جامعة فواد الأول

الطبعة الأولى

1901 - 1940.

حقوق الطبع محفوظة

الاهداء



أمير الشعراء أحمد شوقي بك
(١٨٦٨ - ١٩٣٢ م)



المتنبي (كما تخيله بعض الأدباء)
(٣٠٣ - ٣٥٤ هـ)

لى أكبر شاعرَيْن عرَفَهما العروبة ، وسجل التاريخ الأدبي اسمهما
فى صحف الخالدين .

إلى : « المتنبي » الذى يصف نفسه بقوله (مخاطبا سيف الدولة) :

وَمَا الدَّهْرُ إِلَّا مِنْ رُؤَاةٍ قَلَانِدِي إِذَا قُتِلَ شِعْرًا أَصْبَحَ الدَّهْرُ مُنْشِدَا
فَسَارَ بِهِ مَنْ لَا بَسِيرُ ، مُشَمِّرَا وَغَنَى بِهِ مَنْ لَا يُغْنِي ، مُفَرِّدَا
أَجِزْنِي إِذَا أَنْشَدْتَ شِعْرًا ؛ فَإِنَّمَا بِشِعْرِي أَتَاكَ الْمَادِحُونَ مُرَدِّدَا
وَدَعَّ كُلَّ صَوْتٍ بَعْدَ صَوْتِي ؛ فَإِنِّي أَنَا الصَّائِحُ الْمَحْكِيُّ ، وَالْآخِرُ الصَّدَى

وإلى : « شوقي » الذى يصف فنه حين يصف فنَّ « شكسبير » بقوله :

شِعْرٌ مِنَ النَّسَقِ الْأَعْلَى ، يُؤَيِّدُهُ مِنْ جَانِبِ اللَّهِ إِلَهَامٌ وَإِيحَاءُ
مِنْ كُلِّ بَيْتٍ كَأَيِّ اللَّهِ ؛ تَسْكُنُهُ حَقِيقَةُ مِنْ خِيَالِ الشُّعْرِ غَرَاءُ
وَكُلُّ مَعْنَى كَمِيسَى فِي تَفَرُّدِهِ جَاءَتْ بِهِ مِنْ بَذَاتِ الشُّعْرِ عَذْرَاءُ
أَوْ قِصَّةٍ كَكِتَابِ الدَّهْرِ جَامِعَةٍ كِلَاهُمَا فِيهِ إِضْحَاكٌ ، وَإِنْكَاءُ

* * *

بيان

أحمدُ الله أزكى الحمد ، وأصلى على رسـله أطيب الصلاة ، وأدعو بخير لمن
جاهد في سبيل الحق ، وعَمِل على تأييده .

وبعد ؛ فقد أتاحت لى الفرص البارة أن أقرأ كثيراً من الشعر العربى
قديمه وحديثه ، وأتابع (أدب الضاد) فى حاضره وماضيه ، وأتملى روائعه فى أناته ،
ورغبة ، واستقصاء .

وكان طبيعياً^(١) أن تختلف وقفاتى أمام الشعراء طولا وقصراً ، وتباين آرائى
فيهم رضاً وسخطاً . لكن فيهم من أغرائى بإطالة الوقوف معه ، وانتزاع
الإعجاب القوى بفنه . وفى مقدمة هؤلاء : (المتنبى) و (شوقى) ؛ فقد حانى الأول
على مصاحبته طويلا ، وإدامة النظر فى شعره ؛ فرأيتنى أمام شاعر جبّار ؛
أعترف له بالعظمة والسبق ، ولكنى أنكر إمارته العامة على الشعراء الذين
عاصروه أو سبقوه . وتلطف الثانى ؛ فحبب إلىّ مصادقته فى ديوانه ، ومتابعته
فى نثره ، وقصصه ، وسائر طرائفه ؛ فاستهوانى . ولم أكـد أستخلص نفسى من
فتنته ، حتى رفعت الصوت جهرة بأنه : « شاعر العربية الأكبر ، وأمير
بيانها الجليل » .

ولست فى هذا رأى مسرف ولا متعجلا ؛ فقد سبقنى إلى تقريره والجر به

(١) النسبة إلى طبيعة : طبعى ، وطبعى .

وفود البلاد العربية التي اجتمعت بالقاهرة^(١) ، في مؤتمر حافل لم يعرف التاريخ له مثيلاً ؛ أعلنت فيه إمارة شوقي الأدبية ، وبايعته بالزعامة على شعراء عصره جميعاً ، وسجلت له اللقب الأسمى الذي كان يلقب به قبل المبايعة الرسمية العامة . على أن هؤلاء حين قَصَرُوا إمارته على شعراء عصره ، وأدباء زمانه — غمطوه قدره ، وأسأوا إليه بهذا التحديد ؛ فالذي أدين به — وأريد اليوم إعلانه وتأيينه — أن (شوقي) شاعر العربية كلها ؛ حاضرها ، وماضيها ، قديمها الغابر ، وحديثها القائم . أما مستقبلها فغيب لا يعلمه إلا الله .

ولو أن سائلاً طلب إلى أن أرشده إلى شاعر عربي يستغنى به عن غيره ، ويكتفى بشعره عن كل شعر — ما ترددت أن أرشده (لشوقي) . ولو جاز لبعض المثقفين والطلاب — ممن ضاق وقتهم ، وعجزت وسائلهم — أن يقتصروا على شاعر عربي واحد ما كان غير شوقي .

وأود بهذه المناسبة أن أشير إلى أمرين جليلين :

أولهما : أن تَفَرَّدَ شوقي بالزعامة الأدبية ليس معناه التفرد بالمزايا الأدبية كلها ؛ فإن هذا التفرد لم يهياً لأحد قط . وليس معناه التنزه عن العيب الفني ، والبراءة من الزلل ؛ فالعصمة الفنية أو ما يشبه العصمة لم توهب لأديب . ولكن معناه أنه جمع من المزايا الأدبية العالية ما لم يجمعه غيره من أدباء لغته ، وسَلِمَ من أدران كثيرة لم يسلم أحدهم منها ؛ فهو — بما اجتمع له ، وسَلِمَ منه — قد أدرك من الوسائل ما جعله أثيراً بالإمارة ، فريداً في مكان الصدارة .

(١) في آخر شوال سنة ١٣٤٥ هـ وآخر إبريل سنة ١٩٢٧ م ، فقد اجتمعت تلك الوفود بدار الأوبرا الملكية بالقاهرة ، وأقامت مهرجاناً أدبياً فريداً ؛ لم تشهده البلاد ، ولم يعرفه الأدب العربي من قبل . واستمر أسبوعاً كاملاً ، أعلنت فيه إمارة شوقي على أدباء عصره في البلاد العربية كلها .

وثانيهما : أن هذا اللقب السابغ الذى أضفيناه عليه ليس إلا دعوى كسائر
الدعاوى ؛ لاتصح إلا بحجة قوية ، وبرهان مبين . وهذا ما أكلف نفسى أداءه
اليوم ، والقيام بأعبائه . وستكون حجتي فيه مستمدة من المقاييس العربية
الخالصة ، وضوابط النقد الأدبى ، ومعايير البلاغة التى دونها الثقات من أعلام
العربية دون سواهم ؛ فليس من العدل حين أتكلم عن شعراء العربية ، وأوازن
بين القدامى منهم والمحدثين — أن أستوحي الأحكام عليهم من مقاييس لم
يعرفوها ، ولعل الكثير منها لم يظهر إلا بعد أن ماتوا ، واحتوتهم الأرض
فى ثناياها ..

وشئ آخر ؛ فقد كنت أريد أن أسلك فى البحث مسلكاً جديداً ؛ أزعم
أنه أهدى المسالك ، وأقربها إلى تحقيق الغاية فى ثقة ، وأمن ، ووضوح ؛ وذلك
بعقد موازنة فنية دقيقة بين (شوقى) وكل شاعر كبير عاصره أو سبقه ؛ كي
يكون البحث وافياً ، ويجىء الحكم صحيحاً قاطعاً . ولكنى لم أستطع تحقيق
هذه الأمنية ؛ إذ رأيتها فوق جهد الفرد ، وأوسع من فسحة الأجل ؛ فهدأت
عنها — مضطراً — إلى أخرى قد تشبهها فى مزاياها ، وتخلو من قسوتها
وإغنائها ؛ تلك هى تقسيم العصور الأدبية قسمين ، حاضراً وسالفاً ، وإثبات
الزعامة لشوقى فى كل منهما .

فأما إثباتها فى العصر الحديث فقد كفانى مؤنثه ذلك المؤتمر التاريخى العظيم
الذى أشرت إليه^(١) .

وأما إثباتها فيما قبله من العصور فسبيل إلى أن أستغنى عن التعميم بالتخصيص الذى يفيد فائدته ، وأتعوّض عن التقيص الكمال بالإجمال الذى يعنى غناه ؛ فأوازن بين شوق وأكبر شاعر عربى شهد له السابقون بالإمارة ، واعترف له التاريخ — أوكاد — بأنه زعيم الشعراء فى عصره وقبل عصره ؛ فكأنه فرد يمثل طائفة ، أو طائفة تمثل فى فرد ، أو شاعر تتركز فيه مزايا الشعراء جميعاً ، ويحمل راية الزعامة عنهم .

اطمأنت نفسى لهذا رأى ، ومِلْتُ إلى المراجع الأدبية أستلهمها ذلك الشاعر الأكبر ، وأسائلها عنه ؛ فأشارت إلى أمراء كثيرين ، فى عصور مختلفة ؛ نالوا من الشهرة ، وذيوخ الصّيت أوفى نصيب . ولكن واحداً منهم لم ينفرد بتاج الزعامة كما انفرد به شوق فى عصرنا الحديث .

أشارت إلى امرئ القيس ، والنابغة ، وزهير ، فى الجاهلية . وإلى حسان ، وجبرير ، والفرزدق ، فى صدر الإسلام . وإلى أبى تمام ، والمتنبي ، والمعري ، فى الدولة العباسية . وليس بين هؤلاء جميعاً ولا معاصريهم من تفرد بالإمارة الإجماعية كما تفرد بها شوق ، وليس فى المتأخرين بعد المعري من فاز بها ، أو فاز بأن يكون فى عِداد الشعراء السابقين . اللهم إلا شوق .

بيد أنى رأيت المتنبي — برغم مساويه — أعلى الجميع مكانة ، وأكثرهم شيعة ، وأقربهم من الصدارة منزلة ؛ إن لم يظفر بها حقاً فكأن قد ، وإن لم يصرحوا بإمارته فقد صرحوا بأنه آخر الشعراء ^(١) . بل إن شوق — نفسه — خصه بإعجابه ^(٢)

(١) انظر صفحة ٨ وما بعدها . (٢) فى صدر الصفحة الأولى من أهرام

٢٨ شوال سنة ١٣٤٥ هـ و ٣٠ أبريل سنة ١٩٢٧ م .

وتقديره ، واعترف بفضلته عليه . لهذا تخيرته ، وبادرت بعقد الموازنة بينه وبين شوقي الذي جاد به الزمان أخيراً . وكأني بهذا أعقدها بين شوقي وشعراء العربية جميعاً ؛ ممثلة في النائب عنهم ، الجامع للكثير من مزاياهم .

وبهذه الموازنة أصيب في وقت واحد هدفين نفيسين ؛ هما : إثبات الدعوى التي أتصدى لإثباتها ، والدراسة الوافية لأكبر شاعرين دراسة فنية تسايرها الموازنة التطبيقية التي توضح المحاسن ، وتبرز العيوب ، وتجلى الحقائق ، وتعرض المعنوى في مظاهر الحسوس ، وتميز الأشياء بضدها ، وتبين قيمتها الحقبة بنظائرها .

والدراسة على هذا الوجه تجمع بين مزايا الدراسة الفردية والجمعية ، وتنظم محاسنها معاً ، وتتوق مساوئها ؛ ومن ثم كانت دراسة شوقي دراسة أساسها المماثلة والتنظير أنفع في تبيان قدره ، وإظهار حقيقته - من تلك الدراسة الفردية التي تقتصر عليه دون مقابلة أو مقايسة . وهذا يقتضيني أن تكون مقاييس الحكم وضوابط النقد ، ومعايير البلاغة عربية خالصة - كما سبق - فن الظلم أن نأخذ الشعراء السابقين ، أو من ينوب عنهم - كالمقنبى - بمقاييس لم يعرفوها ، وأن نحجهم إلى المقاييس الأجنبية في شأنهم . ومن الظلم (لشوقي) أن نخضعه لهذه المقاييس الأفرية أيضاً ؛ فإننا لم ننصبه أميراً للشعراء عامة ؛ عرب وغير عرب ، ولم نقد له الزعامة على أدباء « الضاد » وغيرهم ، وإنما قصرنا ولايته على أبناء العروبة ، الناشئين نشأته ، الناطقين لغته ؛ سواء أ كانوا معاصرين أم سابقين . ونحن الآن نوازن بينه وبينهم ؛ فننطق الحق يقضى أن يكون الميزان عربياً خالصاً .

ومن آثار هذه الطريقة أنها تزيل شبهة الذين يزعمون الموازنة لا تكون إلا بين أهل العصر الواحد ، والبيئة المتشابهة ، ولا تقع إلا بين من اتحدت أوصافهم

زمانا ، ومكانا ، وملايسات ؛ فذلك وهمٌ فائِلٌ^(١) ؛ إذ لاضير من الموازنة بين من
اختلفت أحوالهم وبيئاتهم ، مادام المرجع الأخير في الموازنة للأصول العامة التي
لا تتغير ، والقواعد الثابتة التي لا يكون الأدب أدبا بغيرها ، ولا ينالها على وجه
الزمان تغيير . فهل تتغير بتغير العصور خصائص الألفاظ ومزايها ، ومحاسن المعاني
وجالها ، وأركان الشعر ودعائمه ، وصوغ الأسلوب ووسائل اتّساقه^(٢) ؟

إن ما يتغير من ذلك لا يصيب الصميم من تلك الدعائم ؛ وإنما يصيب ذيلها
وأطرافها ؛ خضوعا لدواعي كل عصر ومقتضياته ، وهي لاتمدو المظهر والشكل ،
دون الجوهر واللب ؛ فهما ثابتان ، وما عداهما لا يثبت على حال . فما يكون من
إيثار بعض الألفاظ ، أو المعاني ، أو الأغراض حيناً ، وما يكون من خصب الخيال
أو جذبته ، وما يكون من التشبيه والمجاز والكناية أو غيرها من المحسنات البلاغية
- مقبولا في عصر قد يكون مردولا في آخر ، وما يستحسن من هذا كله في موضع
قد يستقبح في آخر . ولكن الأصول والقواعد العامة التي تتحكم في تلك الأشياء
وفي تأليف الكلام ، وصوغ الأسلوب - لاتتغير تغيرا ذاتيا ؛ فلا بدو ألفاظهم ،
ومعانيهم ، وأخيلتهم ، وطرائقهم في اختيار وسائل التعبير التي تناسبهم . وللاحضر
كذلك ما يناسبهم ، ويلئم أذواقهم التي صقلتها الحضارة والثقافة ؛ ولكن هؤلاء
وهؤلاء لا يختلفون في الخضوع لتلك الأصول العامة ، والقواعد الكلية ؛ وفيها
من المرونة واللين ما يساعد على أن تستجيب لدواعي كل عصر ، وتتسع لحاجاته
البلاغية . وما مثلها إلا كذلك القواعد الشرعية العامة التي لاتتغير بتغير الأزمنة

(٢) راجع ص ١٦ وما يليها .

(١) خاطيء .

والأمكنة ؛ وهي مع ذلك تفسح في صدرها لدواعي الحياة المستحدثة ، ومطالب
العصور المختلفة .

لهذا رأينا الموازنات تقع بين أهل العصر الواحد والعصور المتباينة ؛ رأينا^(١)
يوازنون بين زهير والنابعة ، أو غيرهما من عصر الجاهلية ، وبين جرير والفرزدق
والأخطل وغيرهم من العصر الأموي ، وبين البحتري والمتنبي وسواهما من
العباسيين ، كما يوازنون بين أبي نواس والنابعة ، أو بين مسلم وزهير ، أو بين
بشار وامرئ القيس . وهؤلاء مختلفون في عصورهم وبلادهم . فلا علينا - إذا -
أن نوازن بين شوقي والمتنبي .

(١) راجع العمدة ج ١ ص ٥٩ وما بعدها (باب المشاهير من الشعراء) حيث أشار إلى
المفاضلة بين شعراء مختلفين في عصورهم وبلدانهم . و ص ٢٤٣ ج ٢ من الصبح النبي
هامش الكبير .

وسائل الرأى عند القدماء . رأيهم فى المتنبي

لم يكن للسابقين دستور يرجعون إليه فى الحكم على الأدباء ، وترتيب أقدارهم ومنازلهم ؛ بل كانوا يختلفون فى ذلك على حسب العصور والملاسات . فأهل الجاهلية يعقدون الأسواق العامة فى عُكَّاز^(١) والرَّيْد^(٢) كل سنة فى موسم معين ، لأغراض متباينة ؛ منها : التسابق فى الخطابة ، وإنشاد الشعر ، والاحتكام فى شأنه إلى بصيره ، خبير بأسراره (كالنابغة) يرتضونه فيصلا بينهم ، يقضى لهذا بالسبق ، ولذلك بالتخلف^(٣) ، وتشهد الوفود المختلفة حكمه ، وتنقله إلى قبائلهم ؛ فلا يلبث السَّبَّاقُ أن يشتهر فيه -م- ، ويجرى اسمه على ألسنتهم . فما أشبه الأسواق فى أيامهم بالمؤتمرات الأدبية فى أيامنا . وإن شئت فقل إنها تشبه - من بعض الوجوه - مؤتمر الوفود العربية لتكريم شوقي ومبايعته . غير أن مؤتمراتنا لا تتصدى للحكم إلا بعد بحث شامل ، ودراسة وافية لكل ما صدر عن الأديب مما له صلة بالأدب وفنونه . أما تلك الأسواق فحكمها مقصور على الجديد الذى أعدّه ليومه ، أو موسمه . وشتان بين حكيم يصدر أحدهما بعد أناة ، وطول بحث ، وعظيم استقصاء ، ويصدر الآخر فى تسرع ، وتحفف ، وعدم استيفاء .

(١) فى الجنوب الشرقى من مكة على نحو عشرة أميال من الطائف .

(٢) من ضواحي البصرة .

(٣) الأغاني ج ٨ ص ١٩٤ ، وصفة جزيرة العرب ص ٢٦٣

وقد كان إلى جانب هذه الأسواق الموسمية العامة أسواق فرعية ، ومجالس خاصة ، يتذاكر فيها الجاهليون شئون الشعر ورجاله ؛ فيقدمون هذا أو ذاك لقصيدة ، أو بيت من الشعر ، أو أبيات .

وهذه الطريقة بتراء كسابقتها ، لاتصلح وسيلة لمفاضلة صحيحة ، ولا أساساً لحكم سليم .

وقد ظلت الأسواق العامة قائمة بعد ظهور الإسلام إلى أن قضت عليها الأحداث في العصر الأموي . وظلت الطريقة الثانية تجتاز العصور عصراً فعصراً حتى وصلت إلينا . وكان الخلفاء والأمراء والولاة يحضرون مجالسها ، بل يعقدون لها الحافل والمناظرات أحياناً ، ويحضرها معهم أهل الرأي ، وذوو البصر بشئون اللغة وفنون الأدب ، وسائر العلوم المعروفة لعهدهم ؛ فهذا عمر بن الخطاب يدور في مجلسه الحديث عن الشعراء فيقول : أشعرهم لعهدهم ؛ فهذا عمر بن الخطاب يدور في مجلسه الحديث عن الشعراء فيقول : أشعرهم لعهدهم ؛ وهذا عبد الملك يطأرح أهل مجلسه الشعر ، ويجادلهم فيه ، ويختلفون في أشعر الشعراء ؛ فيقول : أشعرهم الذي يقول : وذى رحم ... الخ (يريد معن بن أوس) .

وهذا المنصور ، والرشيد ، والمأمون ، وسيف الدولة ، والصاحب بن عباد ... وغيرهم من ذوى المسكنة وإلجاء - لم تشغلهم شئون الملك ، ودواعى الإمارة عن النظر في الشعر ، وعقد المجالس له ، والموازنة بين رجاله .

نعم وصلت إلينا هذه الطريقة الثانية . ولما سكن سايرتها طريقة أخرى منذ أوائل الدولة العباسية (حين اتسعت الحضارة ، واستبحر العمران ، وتيسرت أسباب العلم والكتابة ، وكثر التدوين والتأليف) فقد تجمعت أشعار الشعراء

في دواوين خاصة بعد أن كانت مبعثرة ، وسُجِّلت الآثار الأدبية في كتب معينة يسهل الرجوع إليها لدراسة أصحابها قبل الحكم عليهم ، وانبرت طائفة من العلماء والباحثين يتناولونها بالفحص والنقد حيناً ، وبالشرح وكشف الغامض حيناً آخر . وقد يعرضون لآراء صاحبها ، ومذاهبه الأدبية وغير الأدبية ، ثم ينزلونه المنزل اللائق به بين نظرائه وأنداده . فعل ذلك صاحب كتابي نقد الشعر ونقد النثر ، وصاحب الكامل ، وصاحب طبقات الشعراء ، وصاحب الشعر والشعراء ، والعمدة ، والوساطة ، والصناعتين . كذلك فعله العُكْبَرِيُّ ، والواحدى ، وابن جنى ، والمعرى (وهؤلاء الأربعة من شراح ديوان المتنبي . . .) وغيرهم كثير .

ولعل هذه الطريقة هي أقوم الطرق الثلاث في انتزاع الأحكام الأدبية ، وأقربها إلى السداد ؛ فقد كان القائمون بها من أهل الكفاية والدراية في عصرهم والوقت متسع لديهم ، وآثار الأديب كلها بين أيديهم ، لا يصدرون عن رأى إلا بعد تريض ، وتفحص ، وطول دراسة . نعم قد يشوب الهوى آراءهم ، ويفسد الغرض أحكامهم ؛ ولكن هذا لاسبيل إلى توقيه في عصر من العصور إلا بوازع من الضمير الحى ، وسيتاج من الخلق الكريم .

فلم يكن عجيباً أن أعتمد على أصحاب هذه الطريقة لأعرف رأى القدماء في المتنبي ، وأتبين مكانته عندهم . لجأت إليها ، فراعنى اختلاف الآراء باختلاف الأهواء ، وشهدت من تباين النزعات وتحكم الميول مالا نظيره في الحكم على شاعر آخر . ولكنى شهدت كذلك مَنْ وَقَفَ موقف الحايذ ؛ يصف ما يراه ، ويدون ما يسمعه ، من غير أن يبدى رأياً خاصاً ، أو يصدر حكماً مستقلاً ؛ فيقول

عن المتنبي^(١) : « قد شغل به الألسن ، وسهرت في أشعاره الأعين ، وكثر الناسخ لشعره ، والغائص في بحره ، والمفتش عن 'جمانه ودره . وله شيعه تغسلو في مدحه ، وعليه خوارج تنغالي في جرحه » اه .

« وألفت^(٢) الكتب في تفسير شعره ، وحل مشكله وعويصه ، وكثرت الدفاتر على ذكر جيده ورديثه ، وتكلم الأفاضل في الوساطة بينه وبين خصومه ، والإفصاح عن أبكار كلامه وعيونه ، وتفرقوا فرقا في مدحه ، والقبح فيه ، والنضج عنه ، والتعصب له وعليه » اه .

بيد أني رأيت المعجبين به أوفر من الزارين عليه ، والمفتونين بشعره أكثر من المنصرفين عنه . وكلاهما مسرف في رأيه ، مُفرط في هواه ، ناظر بعين الحب وحده ، أو بعين البغض دون سواه .

أما صاحب الرأي المستقل الذي يصدر فيه عن عدالة ونزاهة فلم أجده بينهم . على أن الفريق الأول أدنى إلى الحق ، وأقرب إلى الدواب ، برغم مخالفتي إياه في كثير مما يراه .

نعم رأيت الجهرة الغالبة تؤيد المتنبي ؛ وفيهم أصحاب علم ، وذكاء ، ورجاحة ؛ وإليك صورا مما يقولون :

(١) مَا رَأَى^(٣) النَّاسُ ثَانِيَّ الْمُنْبِيِّ أَيْ ثَانٍ يُرَى لِبِكْرِ الزَّمَانِ ؟
هُوَ فِي شِعْرِهِ نَبِيٌّ ، وَلَكِنْ ظَهَرَتْ مَعْجَزَاتُهُ فِي الْمَعَانِي

(١) أعلام الكلام للقبوري ص ٢٥ باختصار وج ١ ص ٢٥٥ من الصبح طبعة هامش

العكبري . (٢) يتيمة الدهر ج ١ ص ٧٨

(٣) الصبح ج ١ ص ٢٤٠ من رثاء أبي القاسم الطنبسي المتنبي عند وفاته .

(ب) « وليس ^(١) في المولدين أشهر اسما من الحسن أبي نواس ، ثم حبيب ، والبحترى ، ويقال إنهما أختلأ في زمانهما خمسمائة شاعر ؛ كلهم مجيد . ثم يتبعهما في الاشتهار ابن الرومي ، وابن المعتز ، وطار اسم ابن المعتز حتى صار كالحسن في المولدين ، وامرئ القيس في القدماء ؛ فإن هؤلاء الثلاثة ^(٢) لا يكاد يحلمهم أحد من الناس . ثم جاء المتنبي ؛ فلا الدنيا ، وشغل الناس » .

(ح) « وليست ^(٣) اليوم مجالس الدرس أعمرَ بشعر أبي الطيب من مجالس الأنس ، ولا أقلام كتاب الرسائل أجري به من ألسن الخطباء في المحافل ، ولا لحون المغنين والقوالين أشغل به من كتب المؤلفين والمصنفين » .

(د) « وقد ^(٤) غطت شهرته على جميع معاصريه ، ولم يُذكر واحد منهم بجانبه ، إلا أبو فراس الحمداني ؛ وذلك لقربته من الأمير ^(٥) . ولولا مكانه من السلطان لأخفى اسمه كما أخفى غيره من الشعراء » .

(هـ) « ونقلوا ^(٦) أن رجلا من مدينة دار السلام كان كلما وصل بلدا سمع بها صيت أبي الطيب ، فيرحل عنها ، حتى وصل إلى أقصى بلاد الترك ؛ فسأل عن أبي الطيب ، فلم يعرفوه ، فتوطنها . فلما كان يوم الجمعة ذهب إلى صلاتها بالجامع ، فسمع الخطيب يُنشد (بعد سرود أسماء الله الحسنى) قول المتنبي :

(١) العمدة ج ١ ص ٦٣ (٢) هم : أبو نواس ، وحبيب ، والبحترى .

(٣) يتيمة الدهر ج ١ ص ٧٨ (٤) العمدة ج ١ ص ٦٤ منقولا بالفتح .

(٥) كان أبو فراس ابن عم الأمير سيف الدولة الحمداني .

(٦) الصبح ج ١ ص ٢٠٧ نفس الطبعة .

أَسَامِيًّا لَمْ تَزِدْهُ مَعْرِفَةً وَإِنَّمَا لَذَّةٌ ذَكَرْنَاَهَا

فعاد إلى دار السلام .

(و) وشبيهه^(١) بهذا مارواه صاحب لابن العميد ؛ قال : زرتة يوما قبل اتصال المتنبي به ؛ فرأيتة واجماً ، وكانت أخته قد ماتت من عهد قريب ، فظننته حزينا بسببها . فقلت : لا يحزن الله الأمير ، فما الخبر ؟ قال : إنه ليفيظني أمر هذا المتنبي ، واجتهادى في أن أُخمدَ ذِكْرُهُ ، فقد ورد على من كتب التعزية ستون ونيف ، مامنها إلا وقد صُدِّرَ بقوله^(٢) :

طَوَى الْجَزِيرَةَ حَتَّى جَاءَنِي خَبْرٌ فَزَعْتُ فِيهِ بِأَمَالِي إِلَى السَّكْذِبِ
حَتَّى إِذَا لَمْ يَدْعُ لِي صَدْقُهُ أَمَلًا شَرِقتُ بِالْمَعْرِ حَتَّى كَادَ يَشْرِقُ لِي
فكيف السبيل إلى إخماد شهرته ؟ فقلت له : القَدَرُ لا يغالِبُ . والرجل ذو حظ من إشاعة الذكر ، واشتہار الاسم ، فالأولى ألا تشغل فكرك بهذا الأمر .

(ز) ولم يُسمع^(٣) بديوان شعر في الجاهلية ولا في الإسلام شُرحَ مثل الشروح الكثيرة لبديوان المتنبي ، ولا تداول في ألسنة الأدباء في نظم ونثر أكثر من شعر المتنبي .

(ح) ولقد اطلع^(٤) بعض قدامى الباحثين على أكثر من أربعين شرحا له بين مطولات ومختصرات .

(١) الصبح ج ١ ص ١٨٢ (٢) البتان من قصيدة المتنبي أرسلها من بغداد

إلى سيف الدولة يعزبه في أخته . (٣) الصبح ج ١ ص ٤٢٧ .

(٤) تاريخ ابن خلكان في ترجمة المتنبي . وكذلك ترجمته آخر شرح العكبرى .

(ط) وقال أحد شراحه^(١) الأجلاء في خاتمة كتابه :

«دعاني إلى تصنيف هذا الكتاب - مع خمول الأدب ، وانقراض زمانه -
اجتماع أهل مصر قاطبة على هذا الديوان ، وشغفهم بحفظه وروايته ،
والوقوف على معانيه ، وانقطاعهم عن جمع أشعار العرب ، جاهليها ،
وإسلامها ، إلى هذا الشعر ، واقتصارهم عليه في تمثلهم ، ومحاضراتهم ،
وخطبهم ، ومخاطباتهم ، حتى كأن الأشعار كلها فقدت ... » اهـ .

وحسب المتنبي فخراً أن يكون من بين شراحه جماعة من أعظم رجالات
العلم والأدب في العصور السالفة ، كالعمري^(٢) ، وابن جني^(٣) ،
والتبريزي^(٤) ، والقاضي الجرجاني^(٥) و ... و ... و ...

(ي) وكان العمري^(٦) - على جلال شأنه ، وعظيم قدره - يذكر الشعراء بأسمائهم
المجردة ، فإذا وصل إلى المتنبي لم يذكره باسمه ، وإنما يذكره بلقب :
« الشاعر » تعظيماً له ، وإكباراً .

(١) علي بن أحمد الواحدى العالم الأديب المتوفى سنة ٤٦٧ هـ .

(٢) أبو العلاء المعري ، من أكبر شعراء العربية وفلاسفتهم . ولد سنة ٣٦٣ هـ وتوفى

سنة ٤٤٩ هـ . (٣) أبو الفتح بن جني من أكبر علماء اللغة والنحو .

ولد سنة ٣٣٠ هـ وتوفى سنة ٣٧٢ هـ . (٤) عالم لغوى أديب عظيم المنزلة .

ولدت سنة ٤٢١ هـ ومات سنة ٥٠٢ هـ . (٥) أحد قضاة الدولة البويهية

وأدبائها الأعلام . مات سنة ٣٦٦ هـ . (٦) الصبح ج ١ ص ٤٧ الطبعة السابقة .

(ك) « ولقد بدى^(١) الشعر بكِنْدَة^(٢) ، وختم بكِنْدَة^(٣) ، فأبو الطيب خاتمة الشعراء لا محالة » .

« وسبحان^(٤) من ختم بهذا الفاضل الفحول من الشعراء ، وأكرمه ، وجمع له من الحاسن ما فضل به كل من تقدمه . ولو أنصف لعلق شعره كالسبع المعلقات بالسكبة ، ولقدّم على جميع شعراء الجاهلية في الرتبة » .

(ل) « وعلى الحقيقة^(٥) فإنه خاتم الشعراء . وهما وصف به فهو فوق الوصف ، وفوق الإطراء . ولقد صدق في قوله عن نفسه (من أبيات يخاطب بها سيف الدولة مادحا) .

لَا تَطْلُبَنَّ كَرِيماً بَعْدَ رُؤْيَيْهِ^(٦) إِنْ الْكَرَامَ بِأَسْخَامِ يَدَا خُتِمُوا
وَلَا تُبَالِ بِشَعْرِ بَعْدَ شَاعِرِهِ^(٧) قَدْ أَفْسَدَ الْقَوْلَ حَتَّى أَحْمَدَ الصَّمَمُ

وبعد : فذلك لون من ألوان الحكم القديم على المتنبي ، وذلك بعض ما قاله الأنصار والمشايخون ، وما أكثر ما يقولون !! ...

* * *

(١) الصبح ج ١ ص ٢٦٢ .

(٢) يشيرون إلى امرئ القيس الذي يرجع نسبه إلى قبيلة : « كندة » البينية .

(٣) يشيرون إلى المتنبي الذي نشأ في محلة : « كندة » من نواحي الكوفة - كاسيجي . - ولا علاقة لهذه بقبيلة « كندة » البينية .

(٤) الصبح ج ١ ص ٢٦٢ . (٥) الصبح ج ١ ص ٢٥١ .

(٦) أى : رؤية سيف الدولة . (٧) أى : بعد شاعر سيف الدولة . وهو المتنبي

كيف تكون الموازنة؟

ليس للنقد الأدبي والمفاضلة بين الشعراء موازين مضبوطة موحدة ، يعتمد عليها الباحث ؛ فالقدماء كانوا يقولون فيهما على مايسمونه : **بِنية الشعر** ^(١) يريدون لفظه ، ووزنه ، ومعناه ، وقافيته) . وبها يُحد الشعر عندهم ، ومنها يتركب . ولكل واحد من هذه الأربعة محاسنه ومساويه . ووظيفة الناقد أن يُفقدش عن هذه المحاسن والمساوى ، ويُقدّر الشاعر بقدر نصيبه منهما .

والمحدثون - من أهل العصور الأخيرة ، ومنها عصرنا - كالقدماء في هذا . ويفضلونهم بمزيد من العناية بوجهونه إلى بعض أمور أخرى عرفها القدماء ، ولكن لم يؤلّوها نصيبها من العناية ، وكال الرعاية .

(أ) كحرص الشاعر على أداء مهمته الأدبية كاملة في ألسب وقت ، وانهاز الفرص لتحقيق رسالته الشعرية من غير إهمال ولا إهمال . (وسنوضح تلك الرسالة بعد ^(٢)) .

(ب) وكصدق العاطفة ، وتدقيق الإحساس في الشعر ؛ بحيث يدرك القارئ أو السامع حرارة تلك العاطفة ، وتيار الشعور .

(ح) وكالتخيال اللامح الذي يبتدع الصور غير مسبوقة ، وينشئ من القديم المبدول جديداً شائقاً .

- (د) وكالموسيقى المنبعثة من الألفاظ ، المناسبة من الوزن والقافية .
(هـ) وكالأغراض التي يتناولها الأديب ، والتجديد الذي يدخله في نواحيها المختلفة .

تلك أمور لا يُفْلَها الناقد اليوم ؛ لبليغ أثرها في دقة البحث ، وصواب الرأي ، وصدق الحكم . ولهذا كان من الواجب أن تقوم الموازنات الشعرية على الأسس الآتية :

- (١) رسالة الشاعر ، ومبلغ نجاحه في تأديتها .
- (٢) الألفاظ وما يتصل بها (كموسيقى اللفظ ، والبحر ، والقافية ...)
- (٣) المعاني وما يتصل بها (كصدق العاطفة ، وبراعة الخيال ...)
- (٤) الموضوعات والأغراض ، وكيفية معالجتها .
- (٥) ما يشتهر به الشاعر في ناحية معينة : كالحكم ، أو الفخر ، أو المدح ، أو الغزل ...

وهذه الأسس هي العناصر التي يتكون من مجموعها ما يسمى الآن :
(الشاعرية) . وإليك تفصيلاً عن كل واحد ، وحظ الشاعرين منه .

* * *

(١) الشاعر ، رسالته

نصيب المتنبي وشوقي من أدائها

بم استحق الشاعر هذا اللقب الرفيع ؟ وماذا يجب أن يعمل كي يؤدي الرسالة الشعرية من غير تقصير ؟

سؤالان أجابت عنهما المراجع اللغوية والأدبية ؛ فقد تملأت على أن الشعر معناه : العلم والفطنة (وإن^(١) غلب على الكلام الموزن) . وأن الشاعر مشتق من الشَّعْر ؛ لعله وفطنته^(٢) . أو : لأنه يشعر بما لا يشعر به غيره ، أى : يعلم ويفطن^(٣) . وإذا لابد أن يكون الشاعر صاحب علم وفطنة ، (ومن مجموعهما يكون الشعور) . ولا بد أن يكون نصيبه منهما (أى : من الشعور) أكل وأوفى من غيره ، وإلا كان الناس جميعاً شعراء ؛ إذ ليس فيهم من حُرِمَ أنارة^(٤) من علم ، وحظاً من فطنة .

على أن نصيبه الأوفى منهما لا يكفي ، فلا مناص - مع قوة الشعور - من قدرة ممتازة على وصف ما يحسه ، والتعبير عما يشعر به تعبيراً صادقاً ؛ يكون ترجمة صحيحة كاملة لكل ما أحسّه وشعر به ، بل مرآة سليمة تنعكس عليها الصور التي مازجت نفسه ، وانطبعت على صفحاتها ، فيشاركه كثيرون فيما أدرك ولم يدركوه بأنفسهم ، أو أدركوه ولكن على وجه غامض ، وصورة مبهمه ؛ لا تركيز فيها ، ولا وضوح .

(١) تاج العروس ، مادة : شعر .

(٢) المصباح .

(٣) التاج .

(٤) بقية .

ولولا هذا لم يكن للشاعر نفع ، ولا في مواهبه خير . وهذا تأويل قولهم ^(١) :
« إنما سمي الشاعر شاعراً لأنه يشعر من معاني ^(٢) القول ، وإصابة الوصف ،
بما لا يشعر به غيره . . . وكل من كان خارجاً عن هذا الوصف فليس بشاعر ؛
وإن أتى بكلام موزون مُقَفًى » .
وبيان آخر :

ذلك أن الشعور والإحساس مختبئان في نفس الشاعر ، لا يدرك حقيقتهما
ودرجتهما غيره . ولا سبيل لأحد أن يطلع عليهما ، كما لا سبيل للحكم على صاحبهما
بأنه شاعر إلا إذا كشف عنهما ، وتولى بنفسه عرضهما بأجمع طريقة أعدت
لذلك ؛ وهي : الشعر . فالشعر هو الوسيلة الفريدة التي يُظهر بها الشاعر دخائله ،
ويعلن مواهبه ، وقوة مشاعره . ولولاه لبقيت دخائله وخصائصه كمنية ، محتجبة ،
ولبقى صاحبها مجهولاً مغموراً ؛ فيسبى إلى نفسه بغمطها قدرها ، وإلى مواهبه
بإهمالها ، وعدم استغلالها ، وإلى الرسالة الشعرية بتقويض أهم دعائمها ؛ فإن
هذه الرسالة إنما تقوم على حس مرهف . يلتقط - في سرعة ومهارة - كل ما يقع
في دائرته ، ويبعث به إلى أعماق النفس ؛ فتتفاعل بالقوى منه ، وتهتز له ،
ولا تستأثر بإدراكه ؛ بل تتجاوب معه تتجاوبا يكون من أثره أن تبادر إلى إبرازه
وإعلانه كلاماً مؤثراً ، وترجمته شعراً قوياً ، يغذى الناس بشعور جديد ، وحس
جديد لم يكن لهم من قبل ، أو كان لهم من قبل في صورة غامضة ، مبهمه ،

(١) نقد النثر ، باب : تأليف العبارة ، ص ٨٥ .

(٢) أى : المعاني المدركة التي تصل للنفس .

غير متميزة العالم والشَّيَآتِ ، لا يستطيع صاحبها أن يدركها واضحة ، ولا أن يعبر عنها صريحة جلية ؛ لأن العبارة الجلية أثر للصورة النفسية الجلية .

فهمة الشاعر أن يزود الناس بالجديد من الشعور ، وأن يكشف عن مُدْرَكَاتهم ما قد يغشيها من غموض وتعمية ، ويشركهم معه في مباحثه ، وآلامه ، وينقلهم إلى جوّه ؛ ليدركوا ما يدرك ، ويحسوا ما يحس ، ويمثلوه شعوراً ووجداناً .
فقوام الرسالة الشعرية أمور ثلاثة :

حس دقيق ، مرهف ، مغناطيسي ، وتصوير كلاميٍّ للمهم من الحس ، وبراعة فنية في التصوير والترجمة ؛ ترفع السامع والقارئ إلى حيث الشاعر ، وتجمل منهما شخصين متكافئين حساً وإدراكاً . وبديه أننا لا نبغي من الشاعر تصوير كل حس يدركه ؛ وإلا كان حاكياً مهذاراً ، لا تطرب النفس لتصويره ، ولا تهتز ؛ وإنما نريد أن يتجه في التصوير إلى ما يحرك مشاعرنا ، ويشير وجداننا ، وينجح في نقلنا إلى جوّه ، واشتراكناه معه ، ويتخير من الصور والمشاهد ما يمينه على ذلك .

فإن حرم الشاعر بعض المزايا الثلاث ، أو أغفل ، أو قصّر - فليس بالشاعر المثالي ، وليس بالقادر على أداء الرسالة الشعرية على وجهها الأكمل ، وليس بالذي ترتبه أمته ، وتتطلع إليه أنظارها ؛ بل أنظار الأمم جميعاً .

ولأمر ما « كانت ^(١) القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائلُ فهنأتها ، وصنعت الأطعمة ، واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعون

(١) العمدة ج ٣٧ .

في الأعراس ، ويتباشر^(١) الرجال والولدان ؛ لأنه حماية لأعراضهم ، ودفاع عن أحسابهم ، وتخليد لما آثرهم ، وإشادة بذكركم . وكانوا لا يهنتون إلا بفلام يولد ، أو شاعر ينفخ ، أو فرس تنتج .

ومما سبق نعلم أثر الشعراء والشعر في إيقاظ مشاعر الناس ، وتنبيه حسهم ، وإلهاف وجدانهم . كما نعلم أن نجاح الشاعر في أداء رسالته رهْنٌ - إلى أكبر حد - بمقدرته على ترجمة مشاعره ، ترجمة صادقة ، في مناسباتها المختلفة . فنحن نتظر منه أن يهتف بالترجمة الشعرية لكل طارئ هام يحسه ، ويصدق بالنغم لكل ما يهز جوانب نفسه . ولا علينا أن يكون الطارئ ذاتياً^(٢) أو غير ذاتي . بيد أن الشاعر الإنساني الذي يتحدث عن الموضوع من ناحية عامة تتصل بشعور كثيرين ، ويحرك أوتار قلوبهم - خير ممن يتحدث عن موضوع ذاتي (شخصي) لا يمثل إلا شعور صاحبه ، ولا يحرك إلا وجدانه أو نفرا قليلا معه . ومن ثم كان الشاعر الذي يتحدث عن نفسه ، وحسد الحساد^(٣) له ، ونقمتهم عليه ، وغيطه لهم ، وانتقامه منهم - أقل شأنًا ، وأضعف أثرا ، ممن يتحدث عن أمرة بعينها ، وروابط أفرادها ، وأثر ذلك في حياتها^(٤) . وهذا الثاني أو هي

(١) يبشر بعضهم بعضاً . (٢) أى : في موضوع شخصي خاص بالشاعر وحده .

(٣) كالمتنبى ؛ حيث يقول مخاطبا سيف الدولة :

أزل حسد الحساد عني بكبتهم فأت الذي صيرتهم لي حسدا

(٤) كمن بن أوس في قصيدته التي يقول فيها :

وذى رحم قلت أظفار ضفنه بحلمى عنه وهو ليس له حلم
يحاول رغمى لا يحاول غيره وكالموت عندى أن يحل به الرغم

مكانة ، وأضال قيمة - ممن يتحدث عن الوطن وأمجاده ، ومباهجه ومفاخره ،
ورفعة شأنه ، وإعلاء منزلته . وهذا قليل النفع ، محدود الفائدة ، إذا قيس إلى
الشاعر العالمى الذى يتحدث عن الإنسانية فى بعض مظاهرها ؛ كسأمها ،
وحربها ، وعوامل تقدمها وضعفها ، وأسباب شقوتها وهنائها ، و... و... من
غير أن يخص بذلك أمة دون أمة ، أو قبيلة دون قبيلة . فكلما كان الشاعر أعم
وضوعاً ، وأشمل غرضاً ، وأوفى غاية - كان أعظم نفعاً ، وأكبر أثراً ، وأحق
باسم الشاعر ، وأسبق فى صفوف الشعراء .

على ضوء ما تقدم نعود للكلام عن شاعرية المتنبى وشوقي .

(١) المتنبي^(١)

هو : أبو الطيب أحمد بن الحسين الكِنْدِي . ولد سنة ٣٠٣ هـ بالكوفة ،
في محلة تُسمى : « كِنْدَة » ؛ فنسب إليها ، لا إلى قبيلة « كِنْدَة » اليمنية .
ويقال إن والده كان سَقَاءً بالكوفة ، وأنه رحل بابنه إلى الشام ، فشب فيها
مولماً بفنون اللغة ، حريصاً على طلبها ، ساعياً إلى أهلها في البادية والحضر ؛ حتى
قال منها أوفر نصيب .

وينسب لأبي الطيب أنه ادعى النبوة^(٢) في بادية « السماوة » ؛ فَأَغْوَى
كثيرين من بني كَلْب وغيرهم . حتى خرج إليه لؤلؤ أمير حِمْص من قبل
الأخشيديين ؛ فأسره ، وفرق أصحابه ، وحبسه طويلاً حتى تاب فأطلقه .
وفي سنة ٣٣٧ هـ اتصل ببلاط سيف الدولة الحمداني أمير حاب ، وظل
يمدحه سنوات بأبدع الشعر وأروعهِ ؛ فيكافئه بأعظم العطايا والمنح .

(١) نسق ترجمته التاريخية موجزة ، لا تفصيل فيها ، ولا استقصاء ؛ فليس يعنينا من
سيرته ، وأطوار حياته — إلا ماله صلة قوية بالناحية الفنية الأدبية التي هي موضوع
بحثنا . وقد اعتمدنا في هذه الترجمة على الملخص المدون بآخر الجزء الأول من
العكبري وعلى يتيمة الدهر .

(٢) الراجع أنها صحيحة ؛ إذ سئل عنها فقال : كان ذلك في عهد الحداثة .

حتى وقعت بينهما جَمُوءة قضت على الشاعر أن يفارقه إلى دِمَشق ، والرملة ،
فصر . وقد دخلها سنة ٣٤٦ ، واتصل بوالها كافور ، ومدحه ؛ طمعاً
في أن يوليه إحدى الإمارات . ولكن كافورا خيب ظنه ؛ حين رأى
غطرسته ، وكبره ، وعرف طموحه ، وسعة مطامعه ؛ فحنق المتنبي عليه ،
وهجاه أشنع هجاء ، وفر غاضباً سنة ٣٥٠ هـ إلى بغداد ، مقر الخليفة العباسي ،
فلم تطل بها إقامته ؛ إذ تملاً عليه حساده ، ومنافسوه من الشعراء ،
والأدباء ، واثمروا به ؛ فتظاهر أول الأمر باحتقارهم ، وعدم المبالاة بهم .
ولكنه لم يجد بدا من أن يؤثر السلامة والهدوء بترك بغداد لهم ، وقصد
الكوفة ، ثم أَرَجَان ؛ حيث ابن العميد الأديب ، العالم ، المشهور ،
وزير ركن الدولة . فأقام عنده فترة كانت من أطيب أيام حياته ، ولقى
من عطفه ، ورعايته ما أنساه كثيراً من متابعيه .

ثم غادرها إلى « شيراز » فاصداً أميرها الديلمي ، عضد الدولة بن بُويّه ؛
فأغدق عليه ، وأرضاه بالعطايا الكثيرة . ثم اشتاق إلى بلاده ؛ فاستأذنه
في العودة ؛ فأذن له . فاتجه إلى بغداد ، ثم الكوفة . وفي طريقه إليها
قابله رجل يقال له : فانتك الأسدي ، في جماعة من أصحابه (وكان المتنبي هجا
أخته أقذع هجاء ، وأخشاه ؛ فخذ عليه « فانتك » وأسرته ، وأضمر له
الشر ، حتى حانت هذه الفرصة) . فخرج عليه وقتله ، وقتل ابنه مُحمداً ،
وغلامه مُفلحاً ، وأخذ جميع ماله ، وفرّق أصحابه . وكان ذلك في رمضان

سنة ٣٥٤ هـ ، بالقرب من موضع يقال له : الصّافية ، بالجانب الغربي من بغداد ، عند دِرِّ العاقول^(١) .

تلك سيرة موجزة المتنبّي . ومنها نعلم أمرين هامين :

أولها : أنه عاش النصف الأول من القرن الرابع الهجري ؛ فأدرك فترة خطيرة من حياة الدولة العباسية وصفها المؤرخون بأنها كانت مليئة بالاضطرابات السياسية ، والفتن الدينية والمذهبية ، وتنازع الحكام ، وثورات المحكومين ، وتنافس الدول الناشئة ، وتقاتلها ومن أمثلة ذلك فتنة الشيعة ، والإسماعيلية ، وثورة القرامطة ، وفضائهم ، وحروب مصر مع جاراتها ، وحروب الخلافة مع الخارجين عليها ، أو مع الدويلات المنفصلة عنها

ثانيهما : أنه خَبَرَ حياة البدو والحضر خبرة واسعة ، وانغمس فيها من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ؛ فعرف الصحراء ، وأهلها ، وطبائعهم ، ووسائل عيشهم ، وكل ما يتصل بهم . كما عرف الحضر ، وزار أشهر مدنه ، وخالط ملوكا وأمراء ، وأدرك ما هم عليه من ترف ، ومُتعة ، وما عليه المحكومون من نعمة ورخاء ، أوضيق وبؤس ، ونصيبهم من الحضارة بمختلف مظاهرها العلمية والأدبية ، وسائر فنونها وصناعاتها .

فما الذي سجله المتنبّي من كل هذا في شعره ؟ وأين المؤثرات القوية

(١) بينه وبين بغداد نحو ميلين .

التي انفلت بها نفسه ، واستجابت لها ، فأحالتها صُورًا بيانية ناطقة ، وتَرَجَّمَتها شعراً بارعا يمثل صورتها الأولى الصحيحة ، وينقل سامعها أو قارئها إلى حيث الشاعر ؛ فيشتركان معا ؛ حِسًّا ، ووجدانا ، كما أسلفنا ؟ لانبجذ شيئًا ذا بال .

لقد أدرك تلك الحياة الصاخبة ، المضطربة ، المليئة بالفوضى ؛ في نواحيها السياسية ، والدينية ، والمذهبية ، وكل ما يتصل بهذا أو ينشأ عنه ؛ من فتن ، وثورات ، ومذابح ، وتخريب ، ونصر أمير ، وخذلان أمير ، وتأييد مذهب ، واستنكار مذهب ، وقيام دولة ، وسقوط أخرى . وغير ذلك مما كان القرن الرابع الهجري مسرحا له وميدانا ، فإذا نقل إلينا من تلك المشاهد ؟

عرف الصحراء ، وأقام بها يافعا بين سنتين وثلاث ؛ فإذا ترك لنا من وصف رمالها ، وصخرها ، وجوِّها ، وحيوانها ، وحياة الناس فيها ؟

وعرف الحضَر ، وطاف بمدنه ؛ فإذا صوَّر لنا من وصف بلاد الشام ، وأقاليمها المعروفة أيامه ، وما نقله إلينا المؤرخون عن زروعها ، وضروعها ، وغياضها ، وأوديتها ، وجبالها ، وأنهارها ، وثمارها ، وقصورها ، وأمرائها وشـمـرائها ، وطوائف الناس فيها ، وأخلاقهم ، وأعمالهم ، ومظاهر حياتهم ؟

دخل مصر ؛ فإذا وصف من جمال واديها ، وخصب أرضها ، واعتدال جوها ، وفضل نيلها ، وحضارتها القديمة والحديثة ، وكثرة آثارها ، وسماحة أهلها ؟

طاف بالعراق ، وأقام به طويلا ؛ فماذا سجل عن مَقَاتِنِهِ ، وَفَتَنِهِ ، وعن الخلافَةِ وضعفها ، واستبداد المماليك والإماء والجنود والنساء بشؤونها ؟ وماذا نقل إلينا من مدارس الجامعة ، ومجالس العلم والأدب الحافلة ، والمناظرات العامة ، وتنافس المدن الكبيرة في الدراسات المختلفة ، ولا سيما الدراسات اللسانية ؟

وقصد البلاد الفارسية ، وتنقل بين ربوعها ، وأقام فيها حيناً ؛ فماذا دَوَّنَ من مشاهدِها الرائعة ، وطبيعتها الساحرة ، وحضارتها المتميزة ، وأجوائها المختلفة^(١) ، وذكاء أهلها ، ونبوغ كثير منهم في العلوم ؟ لم نجد من ذلك كله شيئاً يُؤْبَهُ له ، اللهم إلا :

١ — قصائد المديح ، يزجيها لنفسه ، ولمن أغدق عليه من الملوك ، والولاة ، وأشباههم . (ويتصل بالمديح ما يدخل في بابهِ ؛ كالاستعطاف والاعتذار ، والتهنئة ، والفخر ؛ فإن هذه أنواع من المديح وإن اختلفت أسماؤها) .

٢ — رثاء الذين أغدقوا عليه ، أو جمعتهم به صلة القربى ؛ كجَدِّته .

٣ — هجاء من أساءوا إليه ، أو خيَّبوا أمله في ولاية ، أو عطاء ، أو قاوموا غروره وادعائه . (ويتصل بهذا : شعره في ذم الزمان ، وسخطه على الدهر ، وتبرمه بنفسه وبالناس) .

هذا هو التراث المنحدر إلينا من المتنبي ، وكله من الشعر الذاتي (الشخصي) قليل النفع ، ضئيل القيمة ؛ إذ لا يكاد يمتد أثره لغير قائله ، ولا ينجح في إثارة وجدان غير وجدانه . وكان ميسورا أن يسلك بهذه الأنواع مسلك غيره من كبار

الشعراء الذين بعدوا بها عن الذاتية ؛ فرفعوا قيمة شعرهم ، وعمموا النفع به . على أن المتنبي - وقد سلك مسلك الذاتية الخالصة - لم يعادل فيما تحبزه ، بل أسرف في المدائح عدداً ونوعاً ؛ حتى كاد شعره ينقلب مديحاً مُفرطاً . وليته كان مديحاً مُجَدِّداً ؛ ولكنه معانٍ مكررة ، وفكرٌ معادة ؛ كشأنه في الهجاء ، والرثاء . (وسنوضح هذا كله بإفاضة وتمثيل في موضعه من الكتاب^(١)) . وفي سبيل هذه الأغراض الثلاثة - ولا سيما المديح - أهمل الأغراض الشعرية الأخرى ، وفي مقدمتها الوصف الذي هو عنوان الشاعرية ، ومقياس قوتها . وَصَحَّ أن يُقال عنه : إنه شاعر نفسه .

لا نريد من المتنبي - ولا من شاعرٍ سواه - أن يسجل الحوادث تسجيل المؤرخ ؛ يستقصى أسبابها ، ويستوعب تفاصيلها ، ويجرى وراء نتائجها . ولا نريد منه أن يكون رَحالة ؛ غايته من الرحلة رؤية البلاد ، ومشاهدها ، وطوائف الناس وأحوالهم ، ويكثر من هذا ما استطاع ليعود فينقله - كما رأى - حديثاً مُرَدِّداً ، أو يدونه كتاباً من كتب السياحة المبدولة .

نعم لا نريد من شاعرٍ هذا ، ولو فعل ما استحق الحمد ، بل ما استحق أن يلقب : بالشاعر ؛ وإنما نريده مصوراً هاوياً ، أو رساما فناناً ؛ يتخير المناظر والمشاهد الرائعة ، ويتقن تصويرها إتقاناً يسايره دواعي الفن ، وأمارات التفنن . ثم يرسل الصورة للعين ؛ فلا تدرى أهي صورة أم حقيقة ؟ وللنفس فتتأثر بها في بعث المشاعر والأحاسيس كما تتأثر بالأصل . بل قد تنفعل بالصورة المتقنة التي تناولها الفن بالإبداع ما لا تنفعل بالأصل .

(١) عند الكلام على الموضوعات الشعرية .

نعم نريده فنانا أدبيا ؛ إذا عرض للحديث عن مدينة أثرية كبيرة - كالفسطاط ، ودمشق ، وبغداد - لا يصدع الرءوس بتاريخ إنشائها ، وطريقة بنائها ، وعدد سكانها ، وأسماء ولايتها ، وما إلى هذا من شئون المؤرخين ، والحسابين ، ورجال الإحصاء ؛ وإنما يفرغ لمبَاهجها ، ومفاتيحها ، ومواضع العبارة والتأمل العمورى فيها . ويعرض لهذا كله عرضا كاملا ، متماسكا ، لاصلة له بالإحصاء والتعداد ؛ فحين يعرض لمبَاهجها يذكر بساكنيها ، ورياضها ، من غير أن يتصدى لحصر أشجارها ، وما تدره على أهلها - فليس هذا من وكّد الشاعر كما قلنا - وإنما يتصدى لخصائصها الشائعة بينها ؛ من ألوان ، وأنوار ، وروائح ، وأثمار ، وتلاعب نسيم ، وتراقص أغصان ، وجرى مياه ، وتناسق زروع ...

وحين يتأمل مواضع العبارة في تلك المدينة لا يذكر أن جانبها الشرقى غرق يوما ، أو احترق ، وأن جانبها الغربى تهدم ، أو زلزل ، وأن غيرها ضاق ، أو اتسع ، مقتصرًا على هذا أو ما يشبهه من الوصف القائم ، القائم على التقصى والحصر ؛ وإنما يذكر ما يليق بالشاعر ورسالته ؛ من وصف أهلها بالسعادة أو الشقاء ؛ لأخذهم بأسباب الحضارة ، أو لتخلفهم عن ركب المدنية ، وأنهم أقوياء أو ضعفاء بأخلاقهم ، وتعلقهم بالفضيلة ، أو بتخلّهم منها . ويظيل الوقوف أمام هذا كله وقفة المستلهم الذى يستنطق المشاهد والحوادث ، ويستخلص منها العبر والعظات ، ويثير بها مكامن الشعور والوجدان

يرى النيل فيصف لنا فضله ، وفيضه ، وصفاءه ، وكدره ، وسفنه ، وشواطئه ، ورضاه ، وغضبه ، وشمس ضحاه ، وأصيله ، ولياليه القمرية ، وحضارة الأمم

التي قامت على جانبيه ، وما فعل الزمان بهم ... ، كل أولئك في صورة شعرية صناع ؛ نترقبها من المتنبي ، ونظرائه . فماذا حقق لنا مما أردنا ؟
لقد تكفل ديوانه الضخم بالإجابة عن السؤال ؛ فجاء خالياً مما نرجيه ، ونطمع فيه . إلا قصائد المدح والرثاء والهجاء - كما أشرنا - .

على أن الإنصاف يقتضينا أن نقول : إن بين صفحاته بضع قصائد ومقطوعات لا تتجاوز أصابع اليدين قد ضمنت بعض ما نرجوه . وهي - على قلتها - متفاوتة القيمة ، متباينة الأثر . وإن هناك أبياتاً مُحْكَمَةً ، متناثرة ؛ لو بنيت على أمثالها قصائد كاملة لبلغت الغاية . والذي يعيننا الآن هو تلك القصائد والمقطوعات . فمن أجملها قصيدته النونية في مدح عضد الدولة ، ومطلعها :

مَعَانِي «الشَّعْبِ» ^(١) طَيْباً ^(٢) فِي الْمَعَانِي بِمَنْزِلَةِ الرَّبِيعِ مِنَ الزَّمَانِ
ومنها :

طَبَّتْ ^(٣) فُرْسَانَنَا وَالْحَيْلَ ؛ حَتَّى خَشِيتُ - وَإِنْ كَرُمْنَا - مِنَ الْحِرَانِ ^(٤)
غَدَوْنَا ^(٥) ، تَنْفُضُ الْأَغْصَانُ فِيهِ عَلَى أَعْرَافِهَا مِثْلَ الْجُمَانِ ^(٦)

-
- (١) يريد : شعب بوان ، بفارس ، وهو موضع كثير الأشجار والمياه والزرع . ويعدّه العرب من جنات الدنيا . (٢) تطيب طيباً ، أو : هي من جهة الطيب في المعاني بمنزلة الربيع من الزمان . (٣) طابت ، ودعت . (٤) العصيان وعدم الطاعة ؛ لرغبتها البقاء في ذلك المكان . (٥) ذهبنا . (٦) يريد : أن الشجر في هذا الموضع يسقط الندى عليه ليلاً فينفضه على أعراف الجياد كالجان (وهو قطع من فضة تشبه اللؤلؤ) .

فَسِرْتُ، وَقَدْ حَجَبَنَ الشَّمْسَ عَنِّي وَجِئَنَ مِنَ الضِّيَاءِ بِمَا كَفَانِي
وَأَلْقَى الشَّرْقُ مِنْهَا فِي ثِيَابِي دَنَانِيرًا ؛ تَفَرُّ مِنْ أَلْبَنَانِ (١)
لَهَا نَمَرٌ تُشِيرُ إِلَيْكَ مِنْهَا بِأُشْرِبَةٍ ؛ وَقَفَنَ بِلَا أَوَانِي (٢)
وَأُمُوءَ يَصِلُ بِهَا حَصَاهَا صَلِيلَ الْحُلَى فِي أَيْدِي الْغَوَايِ (٣)

.....

وبالرغم من أنها إحدى المدائح التي يوصف أدبها : « بالذاتية » جاءت بارعة الأداء ، بادية الجودة ، عامرة بأنواع من الجلال ، والخيال الرائع . وكثير من أبياتها بعيد عن الأدب الذاتي الواهن .

وبليها في الجودة قصائده في وصف الحروب ؛ ومنها قصيدته اللامية في مدح سيف الدولة ، ومطلعها :

لِيَأْلِي بَعْدَ الظَّاعِنِينَ شُكُورُ (٤) طَوَالَ ؛ وَلَيْلُ الْعَاشَةِ بَيْنَ طَوِيلُ

.....

وفيهما يقول (٥) :

رَمَى الدَّرْبَ (٦) بِالْجُرْدِ الْجِيَادِ إِلَى الْعِدَا وَمَا عَلِمُوا أَنَّ الْمَهْمَامَ خُبُولُ
فَمَا شَعَرُوا حَتَّى رَأَوْهَا مُغِيرَةً قَبَاحًا . وَأَمَّا خَلْقُهَا فَجَمِيلُ

(١) يريد : أن الشمس تنفذ من بين الأغصان ؟ فتلقى من ضوءها أجزاء شبيهة بالدنانير .

ولكن لا تمسك بالأصابع . (٢) يقول : هذه الأغصان لها ثمار

رفيقة صافية ؛ تبدو كأنها أشربة فائمة بنفسها ، لا أواني لها .

(٣) ولها مياه بصوت جصاصها من تحتها كصوت الحلى في أيدي الجيلات .

(٤) متشابهات (المفرد : شَكْل) (٥) باختصار .

(٦) الدخول إلى أرض العدو .

سَحَابٍ يُمَطِّرُنَ الْحَدِيدَ عَلَيْهِمْ
وَأُمْسَى السَّابَا يَذْتَحِينَ بَعْرَةً^(١)
تَسَايَرُهَا النِّيرَانُ فِي كُلِّ مَسَلَكٍ
وَرَعْنُ^(٢) بِنَا قَلْبِ الْفُرَاتِ ؛ كَأَنَّمَا
يُطَارِدُ فِيهِ مَوْجُهُ كُلِّ سَابِحٍ^(٣)
تَرَاهُ ؛ كَأَنَّ الْمَاءَ مَرَّ بِجِسْمِهِ
فَكَلُّ مَكَانٍ بِالشُّيُوفِ غَسِيلُ
كَأَنَّ جُيُوبَ النَّاسِ كِلَاتِ ذُبُولُ
بِهِ الْقَوْمُ صَرَغَى ، وَالْدِّيَارُ طُلُولُ
تَحَرُّ عَلَيْهِ بِالرَّجَالِ سُيُولُ
سَوَاءَ عَلَيْهِ غَمْرَةٌ^(٤) وَمَسِيلُ^(٥)
وَأَقْبَلَ رَأْسُ وَحْدَهُ ، وَتَلِيلُ^(٦)

.....

ومنها قصيدته في وصف القلعة التي بناها ببلاد الروم ، وسماها : الحدث ،
ومطلعها :

عَلَى قَدَرِ أَهْلِ الْعَزْمِ تَأْنِي الْعَزَائِمُ وَتَأْنِي عَلَى قَدَرِ الْكِرَامِ الْمَكَارِمُ
وفيه يقول :

هَلِ « الْحَدَثُ الْحَمْرَاءُ »^(٧) تَعْرِفُ لَوْنَهَا ؟
وَتَعْلَمُ أَيْ السَّاقِينَ الْعَمَامُ^(٨) ؟

-
- (١) موضع ببلاد الروم .
(٢) فرس سريع يمد يديه .
(٣) مجرى ماء المطر .
(٤) أزعجن وخوفن .
(٥) النليل: العنق . ومعنى البيت : إن الفرس إذا سبح في الماء لم يظهر منه إلا الرأس والعنق .
(٦) سميت حمراء لسكونها ماجرى عندها من الدماء . وقيل : لأن حجارتها حمراء . والأول أبلغ .
(٧) يريد : أتعلم أي الساقين سقاها وعمرها ؟ أموال العام الذي أمطرها الماء ، أم الجاجم التي تساقطت فوقها فأمطرها الدماء ؟ . « وحذف الجاجم اعتمادا على فهمها من السياق ومن البيت التالي » .

سَقَتَهَا النِّعَامُ الْغُرُّ قَبْلَ نُزُولِهِ فَلَمَّا دَنَا مِنْهَا سَقَتَهَا الْجَمَاجِمُ
بَنَاهَا فَأَعْلَى ، وَالْقَنَا تَقَرَّعُ^(١) الْقَنَا وَمَوْجُ الْأَمْنِيَا حَوْلَهَا مُتَلَاطِمُ
وَكَانَ بِهَا مِثْلُ الْجُنُونِ ، فَأَصْبَحَتْ وَمِنْ جُثِّ الْقَتْلِ عَلَيْهَا كَمَا^(٢)
خَيْسُ^(٣) بِشَرْقِ الْأَرْضِ وَالْغَرْبِ زَحْفُهُ

وَفِي أُذُنِ الْجَوَزَاءِ مِنْهُ زَمَارُ^(٤)
تَجَمَّعَ فِيهِ كُلُّ لِسَنِ^(٥) وَأَمَّةٍ فَمَا تَفْهَمُ الْحُدَاثَ^(٦) إِلَّا التَّرَاجِمُ^(٧)
فَلِلَّهِ وَقْتُ ذَوْبِ الْفَسِّ نَارُهُ !! فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا صَارِمُ^(٨) أَوْ ضَبَارِمُ^(٩)
تَقَطَّعَ مَا لَا يَقْطَعُ الدَّرْعَ وَالْقَنَا وَفَرَّ مِنَ الْأَبْطَالِ مَنْ لَا يُصَادِمُ
نَثَرَتْهُمْ فَوْقَ الْأَحْيَادِ^(١٠) نَثْرَةً كَمَا نُثِرَتْ فَوْقَ الْعُرُوسِ الدَّرَاهِمُ

وقصيدته في مدحه أيضاً ، ومطلوعها :

الرَّأْيُ قَبْلَ شَجَاعَةِ الشُّجْعَانِ هُوَ أَوَّلُ وَهْيِ الْمَحَلِّ السَّانِي

وفيها يقول :

قَادَ الْجِيَادَ إِلَى الطَّعَانِ ، وَلَمْ يَقْدِرْ إِلَّا إِلَى الْعَادَاتِ وَالْأُوطَانِ^(١١)

(١) تدق . (٢) جمع تيممة ، وهي : التعويذة التي تمنع الجنون والأمراض في زعمهم .

(٣) جيش عظيم . (٤) أصوات مختلفة لا تفهم ، (المفرد : زَمْزَمَةٌ) .

(٥) لفة . (٦) جمع : حادث ، بمعنى : متحدث .

(٧) جمع : ترجمان . (٨) سلاح قاطع .

(٩) أسد شديد غليظ . (١٠) اسم جبل .

(١١) يقول : قاد ذيله إلى الطعان ؛ فكأنه ساقها إلى عاداتها ووطنها .

فِي جَحْفَلٍ سَتَرَ الْعَيُونَ غُبَارُهُ فَكَأَنَّمَا يُبْصِرُنَ بِالْأَذَانِ^(١)
يَرْمِي بِهَا الْبِلْدَ الْبَعِيدَ مَظْفَرٌ كُلُّ الْبَعِيدِ لَهُ قَرِيبٌ دَانٍ

.....

ويلى هذه القصائد الحربية وصفه للحمى فى قصيدته التى مطلعها :

مَلُومُكُمْ كَمَا يَجِلُّ عَنِ الْمَلَامِ وَوَقَعُ فَعَالِهِ فَوْقَ الْكَلَامِ

وفىها يقول :

وَزَارْتِنِ كَأَنَّ بِهَا حَيَاءً فَلَيْسَ تَزُورُ إِلَّا فِي الظَّلَامِ
بَذَلْتُ لَهَا الْمَطَارِفَ وَالْحَشَايَا فَعَاقَبَتَا ، وَبَاتَتْ فِي عِظَامِي
يَضِيقُ الْجِلْدُ عَنْ نَفْسِي وَعِظَامِي فَتَوَسَّعَتْهُ بِأَنْوَاعِ السَّقَامِ
إِذَا مَا فَارَقْتَنِي غَسَّ لَتَنِي كَأَنَّا عَاكِفَيْنِ عَلَى حَرَامِ

.....

وقد يبدو للقارى المتسرع أن هذه الأبيات وما سبقتها فى الحرب نوع من الأدب الذاتى الذى لا يمثل غير صاحبه ، ولا يصف إلا شعوره ؛ ولكن التلبث يراها أدبا عاما ، إن قيل فى أحوال خاصة بصاحبه فإن لها أشباها ونظائر كثيرة من أحوال الناس .

(١) يريد : أنها - لكثرتها - هيجت الغبار الذى ملأ الجو ، فنع العيون أن تبصر فصارت الجبل تسمع الأصوات ، وتعمل ما تقتضيه تلك الأصوات ؛ فكأنما ترى بأذانها .

وبلى هذا كله مانظمه في وصف الصيد ، ومجالس الشراب^(١) (وما أهونه
وصفاً إذا قيسَ إلى ما أبدعه أبو نواس ، وابن الرومي ، وابن المعتز) .
ومن الخير - توفيةً للبحث قبل ختامه - أن أعرض أمثلة أخرى من الشعر
الوصفي للمتنبي ، لنرى مبلغ براعته في التصوير ، فيزداد الرأي وضوحاً ، والحكم
قوة .

قال في وصف حديقة : (وقد سابر أبا محمد بن طُفَّج ، من غير أن يدري
وجهته ، حتى دخل معه ضيعته) .

فَذِيَارَةٌ عَنْ غَيْرِ مَوْعِدٍ كَالْفُغْمِضِ فِي الْجَفَنِ الْمُسَهَّدِ
مَعَجَّتْ^(٢) بَنَّا فِيهَا الْجِيَا دُمَعَ الْأَمِيرُ أَبِي مُحَمَّدٍ
حَتَّى دَخَلْنَا جَنَّةً لَوْ أَنَّ سَاكِئَهَا مُحَلَّدٌ
خَضِرَاءُ حَمْرَاءُ الْإِثْرَا بَ ؛ كَأَنَّهَا فِي خَدِّ أَغْيَدٍ
أَحْبَبْتُ تَشْبِيهَا لَهَا فَوَجَدْتَهُ مَالِيسٌ يُوجَدُ
وَإِذَا رَجَعْتَ إِلَى الْحَقَا ثَقِيَ فِيهِ وَاحِدَةٌ لِأَوْحَدٍ

فإذا عرض من وصف الحديقة بزروعها ، وأزهارها ، وثمارها ، ومجالى
الحسن فيها ؟ وماذا أدركنا من صورتها ؟ وأي فائدة لنا في أن يقول : أحبيت لها
تشبيها فلم أجده ؟ وبم نفسر هذا ؟

واستمع إليه يصف جَوْشَنًا^(٣) أخرجه إليه أبو العشائر الحمداني ، وسأله
عن رأيه فيه ؛ فأجاب بالبيتين التاليين :

(١) من السير الرجوع إلى هذه الموضوعات في ديوانه فلها عناوين خاصة فيه وفي
دواوين من ذكرنا من الشعراء . (٢) سارت لينة هادئة .
(٣) درعا .

به وبمثله شُقَّ الصفوفُ وَزَلَّتْ عَنْ مُبَاشِرِهِ الْحُتُوفُ
فَدَعَهُ لَقَى^(١)؛ فَإِنَّكَ مِنْ كِرَامِ جَوَاشِيهَا الْأَسِنَّةِ وَالسُّيُوفِ

فأى وصف هذا ؟ وأى إجابة ؟

بل أى وصف يعرضه علينا حين يصف لعبة عند بدر بن عمار بقوله :

وَذَاتِ غِدَائِرٍ لَا عَيْبَ فِيهَا سَوَى أَنْ لَيْسَ تَصْلَحُ لِلْعِنَاقِ
أَمَرْتُ بِأَنْ تُشَالَ فَقَارَقَتْنَا وَمَا أَلِمْتُ لِحَادِثَةِ الْفِرَاقِ
إِذَا هَجَرْتُ فَعَنْ غَيْرِ اجْتِنَابٍ وَإِنْ زَارَتْ فَعَنْ غَيْرِ اشْتِيَاقٍ

فهل أدركنا شيئاً من الصورة بهز مشاعرنا ، ويحرك خواطرنا ؟ هل وازن بينها وبين الصورة الحية في الحركة ، والأثر ، والجمال ؟ وهل وضح لنا شيئاً من خصائصها (كطولها ، وحجمها ، ولونها ، وثيابها) ؟ هل عرض للروح ، وفضلها ، وقيمتها ؟ لا شئ من ذلك كله .

وتعال نستمع إليه وهو يرتجل - في مجلس ابن العميد - وصفاً لمِجْمَرَةٍ محشوة بالترجس والآس ، والدخان يخرج من خلال ذلك :

أَحَبُّ أَمْرِي حَبَّتِ الْأَنْفُسُ وَأَطْيَبُ^(٢) مَا شَمَمْتُ مَعَطِيسُ
وَنَشَرُ^(٣) مِنَ النَّدِّ^(٤) أَلَكِنَّمَا مَجَامِرُهُ الْآسُ وَالنَّرْجِسُ

(١) مهملاً مرصياً . (٢) يريد : الممدوح أحب امرئ ... والبخور أطيب مشعوم .

(٣) رائحة قوية . (٤) نوع من الطيب

وَأَسْنَأَ نَرَى لَهَا بَهَا هَاجَهُ فَهَلْ هَاجَهُ عِرْكَ الْأُنْقَسُ^(١) ؟
وَإِنَّ الْفِتَامَ^(٢) الَّتِي حَوَّلَهُ لَتَحْسُدُ أَرْجُلَهَا الْأَرْوُسُ

أترى فى هذا الوصف شيئاً يوضح فطنة المنظر وجماله ، وينقل إلى النفس
بهى صورته ورؤائه ؟ أترى للخيال وبراعته أثراً ؟

وما رأيك فى القطعة التالية التى قالها حين انصرافه من مصر ،
واقترابه من بُسَيْطَةَ^(٣) ؛ فبدا لبعض غلمانه ثور ، فظنه منارة الجامع ، ولآخر
نعامة ، فحسبها نخلة ؟ :

بُسَيْطَةُ ، مَهْلًا ، سُمِّيتِ الْقِطَارَا^(٤) تَرَكَتِ عُيُونَ عَبِيدِي حَيَارَى
هَظَنُوا النَّمَامَ عَلَيْكَ النَّمِيلَ وَظَنُوا الصَّوَارَ^(٥) عَلَيْكَ النَّارَا
قَامَسَكَ صَحْبِي بَأْ كَوَارِمٍ وَقَدْ قَصَّدَ^(٦) الضَّحْكَ فِيهِمْ وَجَارَا
فهل رأيت - كهذا - وصفاً غُفْلاً ، وشعراً ساذجاً ؟ إنه لا يبعدو أن يكون
كلاماً مألوفاً يحوى خبراً من الأخبار المرددة .

وسنوفى المقام حقه من البيان حين تنكلم على موضوعات الوصف بعد .
وحسبنا هذا الآن .

وإن الإنصاف الذى اقتضانا أن نسجل فضله فى بعض شعره هو الذى

(١) الجماعات .

(١) الثابت الأعلى .

(٤) المطر .

(٣) موضع قرب السكوفة .

(٦) اقتصد ، ولم يزد عن الحد الحمود .

(٥) الفطيع من بقر الوحش .

يحملنا على الجهر بأنه أساء إلى نفسه وإلى مواهبه ، وإلى الرسالة الشعرية
باغفاله مالا يصح أن يغفله شاعر كبير . فهل كان ذلك قصورا منه
أو تقصيرا ؟

إني أميل إلى الأول ؛ اعتمادا على مايفت . فليس بموهوب ولا كامل
الشاعرية من تتوالى عليه بدائع المشاهد ، وفتن الجبال ، وتتردد أمامه
كبار الحوادث ، وعظائم الأمور - فلا يخفق لها قلبه ، ولا يتأثر بها وجدانه
تأثرا يظهر على لسانه وصفاً وتصويرا . ولو كان الأمر مجرد تقصير مالا لزمه
في أكثر حالاته ملازمة قضت عليه بالتخلف ، وعاقته عن أن يكون بين
المُجَلِّين . فلقد سبقه من هذه الناحية كثير من شعراء العباسيين الذين
عاصروه أو تقدموه ؛ كهيار ، والوأواء ، وأبى تمام ، وأبى نواس ، وابن المعتز ،
وابن الرومي . فليس مما يُعتذر به عن المتنبي أن طريقتَه كانت الطريقة
السائدة في عصره ، وأن مسلكه كان مسلك شعراء زمانه ؛ فتلك معذرة
واهية ، بل غير صحيحة . ولو صحت ما كانت شفيعاً له ، ولا مانعة أن نطالبه
بالتجديد ، والابتكار المحمود ، ومخالفة الشعراء في هذا . ولقد أصاب
(شوقي^(١)) حيث يقول :

(ألم يكن من الغبن على الشعر والأمة العربية أن يحيا المتنبي مثلاً
حياته العالية التي بلغ فيها إلى أقصى الشباب ، ثم يموت عن نحو مائتي
صحيفة من الشعر ؛ تسعة أعشارها لممدوحيه ، والعشر الباقي - وهو الحكمة
والوصف - للناس ؟)

(١) في مقدمته للطبعة الأولى القديمة من ديوانه ص ٦ و ٧ .

ويقول :

(ألا إن هناك مُلكاً كبيراً ما خلق الشعراء إلا ليتغنوا بمدحه ، ويتغنوا بوصفه ، ذاهبين فيه كل مذهب ، آخذين منه بكل نصيب ؛ وهذا الملك هو : السكون . فالشاعر من وقف بين الثريا والثرى ؛ يقلب إحدى عينيه في الذر ، ويجعل أخرى في الدُّرّ . يأسر الطير ويطلقه ، ويكلم الجراد ويُنطقه ، ويقف على النبات وقفة الطلّ ، ويمر بالعراء مرور الوبل . فهناك ينفسح له مجال التخيل ، ويتسع له مكان القول ، ويستفيد من جهة علما لا تجويه الكتب ، ولا تعيه صدور العلماء ، ومن جهة أخرى يجد من الشعر مسلياً في الهم ، ومنجياً من الغم ، وشاغلاً إذا أمل الفراغ ، ومؤنساً إذا تملكك الوحشة . ومن جهة ثالثة لا يلبث أن يفتح الله عليه ، فإذا الخاطر أسرع ، والقول أسهل ، والقلم أجري ، والمادة أغزر ، بحيث لا تضي السنون حتى تتداول الأيدي مؤلفاته وإذا مات أكبر الناس من بعده مُخلفاته . . .)

ذلك مجمل الرأي عندي في رسالة المتنبي الشعرية . وسيزداد أمرها وضوحاً بما أعرض له من الموضوعات الأخرى التي لها صلة بفنه وأدبه .

(ب) أحمد شوقي بك^(١)

يَنتسب (شوقي) لأسرة مختلفة الأصول والأعراق ؛ جَدُّه^(٢) لأبيه تركي يمتد نسبه إلى الأكراد فالعرب . قدم مصر أيام ولاية محمد علي باشا ، فألحقه بمخاصته ، واستعان به في كثير من المكاتبات الدبلوماسية ، حين عرف عنه إجادته التركية والعربية خطًّا وإنشاءً . وظل يتقلب في المناصب حتى صار أمينًا « للجمارك » المصرية في عهد سعيد باشا . وجمع ثروة طائلة مات عنها ، وتركها لابنه (والد الشاعر) فبددها الابن ، وكاد يقع فريسة الفقر والبطالة ، لولا أن تداركه الخديوي (توفيق) فأقامه مفتشًا بمخاصته .

وجدته لأبيه جركسية ، عرفت بحزمها وكياستها . وجدته^(٣) لأمه تركي ، قدم مصر فتيا ، فاستخدمه إبراهيم باشا ، وزوجه بجارية معتوقة مصرية^(٤) الأصل . وبقى يصعد في المناصب حتى مات وهو وكيل لخاصة الخديوي إسماعيل باشا .

تلك هي الأصول التي ينتسب إليها (شوقي) وبسببها يقول : « إني عربي ، تركي ، يوناني ، جركسي . أصول أربعة ، في فرع مجتمعة . تكفله لها مصر ، كما كفلت أبويه من قبل . وما زال لمصر الكنف المأمول

(١) لخصنا هذه الترجمة الموجزة مما كتبه الشاعر عن نفسه في مقدمة الطبعة الأولى القديمة لديوانه ، وزدنا عليها ما جدَّ بعد كتابته .

(٢) اسمه أحمد بك شوقي ، وعنه أخذ شاعرنا الاسم واللقب .

(٣) اسمه أحمد بك حليم النجدي ؛ نسبة إلى قرية : « النجدة » من قرى

الأناضول . (٤) من بلاد الموزة ؛ إحدى المقاطعات اليونانية إذ ذاك .

والنائل الجزل . على أنها بلادی ، وهى منشئ ومهادى ، ومقبرة أجدادى ،
ولد لى بها أبوان ، ولى فى تراها أب وجدان ، وبيعض هذا تحبب إلى
الرجال الأوطان) .

ولد شوقى بالقاهرة سنة ١٨٦٨ م . ولما بلغ الرابعة من عمره دخل
مكتب الشيخ صالح^(١) ، ثم مدرسة المبتديان الابتدائية ، فالمدرسة التجهيزية
(الثانوية) . ولما أتم دراسته الثانوية دخل مدرسة الحقوق ، وقضى بها
سنتين . ثم أنشئ فيها قسم للترجمة ؛ فتحول إليه ، وقضى به سنتين ،
نال بعدها الشهادة النهائية فى الترجمة .

وقد كان الخديوى توفيق معجباً به وبشعره الذى ينشره وهو طالب ،
فاختاره بعد تخرجه مبعوثاً إلى فرنسا ، لىتم دراسته فى الحقوق والآداب
هناك . فأقام (بمونبيه ثم باريس) ثلاث سنوات ونصف سنة ، أكل
فيها دراسته ، واستزاد مما سافر له . وقد مكنته هذه الفرصة من الطواف
بأنحاء فرنسا ، والاطلاع على كثير من شئونها ، وأحوال أهلها ، وزيارة
إنجلترا ، وبلاد الجزائر (فى شمال إفريقيا) ، ثم عاد إلى بلاده فضمه الخديوى
إلى حاشيته ، ونذبه بعد ذلك لتمثيل مصر فى مؤتمر المستشرقين بجنيف
(عاصمة سويسرة) . فاختلفت الفرصة ، وتنقل فى تلك البلاد الفاتنة ، وغادرها
بعد المؤتمر إلى بلجيكا ، فزار حاضرتها ، وبعض مدائنها الكبيرة . وقفل
راجماً إلى وطنه وعمله .

ولما مات الخديوى توفيق وتولى العرش بعده ابنه الخديوى عباس

(١) بحى السيدة زينب .

زاد في إكرامه وتقريبه ، وجعله أديب مجلسه ، ورفيق رحلته ، فوق أنه شاعره الخاص .

ثم اشتعلت الحرب العالمية الأولى^(١) والخديوي يصطاف وحده في بلاد الترك (وكانت مصر تابعة لهم من الوجهة السياسية مع احتلالها بالإنجليز) فأعلن هؤلاء حمايتهم عليها ، ومنعوا الخديوي من الرجوع إليها ؛ لانهم هم إياه بأنه عدو لهم ، وأنه تركي الهوى ، راض عما فعله الترك ، من انضمامهم في الحرب إلى صفوف الألمان ، أعداء المحتلين . وقد اضطهد الإنجليز كثيرا من الوطنيين ، وشردوا المقربين إلى الخديوي ، ومنهم (شوقي) فنفوه إلى بلاد الأندلس ، وظل بها إلى آخر سنة ١٩٠٩ ، فسمحوا له بالعودة ، فوصل أول سنة ١٩٢٠ ، ولكن أميره لم يعد ، لأسباب سياسية حالت دون ذلك . فانطوى شوقي على نفسه حيناً ، وتفرغ لأدبه ، وتتمية ثروته . وقد هيأت له الفرص أن يزور بلاداً وأفطاراً غير التي أشرنا إليها قبلاً ؛ فزار بلاد الترك ، ولبنان ، وسورية . وتجلت عبقريته كاملة بعد عودته من المنفى ، وطلع على الناس أنضج فكراً ، وأصفى قريحة ، وأقوى شاعرية ، وأغزر إنتاجاً ؛ فأرسل روائع الشعر ، وبدائع النثر ، وفواتن القصص المسرحية ، وغير المسرحية . وانطلقت ملامكته الموهوبة تبارى استعدادها المهيأ في جمع المجد له ، وقصره عليه . وقد تم لهما ما أرادا ، فلم يظفر شاعر عربي معاصر بمثل ماظفر به شوقي من شهرة وصيت .

واتفقت كلمة البلاد العربية — لأول مرة في تاريخها — على أنه أمير

(١) في أغسطس سنة ١٩١٤ وظلت إلى نوفمبر سنة ١٩١٨ .

شعرائها . ولم يكتفوا بترديدها متفرقة في بلدان العروبة ، بل سجلوها في إجماع رائع على لسان وفودهم التي اجتمعت بالقاهرة سنة ١٩٢٧ في مؤتمر عام ، تعلن زعامته الشعرية ، وتنادى به أميراً للشعراء ، وتقدم له - في ابتهاج وإكبار واطمئنان - تاج الإمارة ولقبها . وظلّ محتفظاً بهما لايزاحمه عليهما شاعر حتى ودع العالم سنة ١٩٣٢ . ولم يلمع في سماء الشعر العربي حتى الساعة من توهله مواهبه للزعامة العامة ، وترشحه للإمارة بعده . تلك الإمارة سريعة بحياة هذا الشاعر . ومنها نعلم :

١ — أنه عاش قرابة أربعة وستين عاما فياضة بالأحداث الهامة في بلاده ، وفي المملكة العثمانية التي تتبعها بلاده ، وفي العالم أجمع . في تلك الفترة وقع الاحتلال الإنجليزي لمصر ، وامتدت آثاره وآثامه لكل شأن من شئونها ، ونشأت الأحزاب السياسية المصرية ، وفي مقدمتها الحزب الوطني ، ووقعت الحرب العالمية الأولى التي احتملت البلاد كثيراً من ويلاتها وأهوالها . ثم تمت الهدنة ، وما تبعها من ثورة مصر سنة ١٩١٩ ثورة تاريخية جارفة ؛ كي تسترد حريتها ، وتطالب باستقلالها ، ومن أحداث سياسية أخرى ؛ كتصريح ٢٨ فبراير ، وصدور الدستور ، وقيام الحياة النيابية ... وغيرها من شئون خطيرة ؛ داخلية ، وخارجية .

٢ — وأنه تلقى علومه المختلفة في مصر والخارج ، وأتاحت له رحلاته العلمية وغير العلمية أن يشاهد كثيراً من البلدان الإفريقية ، والأوروبية ، والآسيوية ، وأن يطلع على حضارات ومدنيات متباينة ، وأن يقابل

ملوكا وأمراء كثيرين ، ويتصل بعضهم اتصالا قويا ، ويخالط الشعوب ،
ويقف على الكثير من شؤونها .

فما أشبه هذا التاريخ الموجز لحياة شوقي بتاريخ نظيره المتنبي في الأساسين
العامين ؛ فكلما الشَّاعِرَيْن قد نهل من ثقافة عصره حتى ارتوى ، وجمع منها حتى
استوعب أو كاد . وكلاهما قد طَوَّف في مشارق الأرض ومغاربها ، وملأ حواسه
من مشاهدتها ، وعاصر أحداثا سياسية وغير سياسية في بلاده وفي خارجها ، وقد
عرفنا ماسجله المتنبي مما وقع تحت حسه ، ونصيب الأدب الذاتي وغير الذاتي
منه ، فما الذى سجله شوقي ؟ وما نصيبه من الذاتية وغيرها ؟

يجيب عن هذا ديوانه - بأجزائه الأربعة - ونفاثه الأدبية الأخرى .
وحسبنا أن نستعرض عناوين ديوانه ؛ فنقرأ فيها كل هام من موضوعات
السياسة المصرية والحزبية ، وكبار الحوادث الداخلية والخارجية ، ومظاهر
الحضارة المختلفة ، ووصف المجتمع ... و ... و ... فلماذا كله نصيب محمود بين
تلك العناوين التى تضم تحتها صوراً فنية رسمها صَنَعَ فنان .

نقرأ فى الجزء الأول أحاديث عن الشؤون المصرية - تثير مكانم الشعور
المصرى ، وتهز جوانبه - وقد استطاع الشاعر بمهارته أن يرتفع بالكثير منها
عن الأدب الذاتى ، وأن يجعلها إنسانية تثير كل وجدان ، وتهيج كل حس .
نقرأ فى هذا الجزء العناوين التالية :

كبار الحوادث فى وادى النيل ، توت عنخ آمون ، محمد على ، وداع اللورد

كرومر ، حادث دنشواى ، الخديو إسماعيل ، السلطان حسين ، مشروع ملتر ،
تصريح ٢٨ فبراير و ... و ... و ...

كما نقرأ فيه عن الحوادث الخارجية : الأندلس الجديدة ، رومية ، الدستور
العثمانى ، نكبة بيروت ، تكليل أنقرة ، تحية للترك ، الأسطول العثمانى ،
الانقلاب العثمانى ، انتصارات الترك ، خلافة الإسلام و ... و ... و ...

ونقرأ فى الجزء الثانى : شكسير ، مسجد أياصوفيا ، المرأة العثمانية ،
البنفسور ، دمشق ، البحر الأبيض ، نكبة دمشق ، جسر البنفسور ، لبنان ،
البرلمان المصرى ، مؤتمر الأحزاب المصرية ، صقر قريش .

ونلاحظ فى هذا الجزء كثيرا من قصائد الوصف ، وتصوير المشاهد ،
والحوادث الكهنية ، ومختصرات العصر ، فهو يصف أويتحدث عن :
مرقص ، الربيع ، غاب بولونيا ، الهلال ، منظر الطبيعة ، البنفسور ،
الأندلس ، أنس الوجود ، الكونكوردي ، النيل ، معرض ، باريس ،
طوكيو ، دمشق ، لبنان ، زحالة ، الحرية الحمراء ، طيارة ، غواصة ،
البريد ، البرلمان .

وترى فى الجزء الثالث — وهو خاص بالثناء — دموع الإكبار والوفاء ،
والاعتراف بالجميل لأولئك القادة ، والزعماء ، والعلماء ، والأدباء ، وغيرهم
من قدموا لمصر وغيرها ، مفتحاً جساما ، وأيادى بارة ؛ فسجلها الشاعر لهم ،
وخلد بها صفاتهم ، وسلك فى رثائهم مسلكاً فذاً يرضى الشاعرية والعبقرية
معاً — كما سنعلم بعد :

نسمع رثاءه لأمثال : مصطفى كامل ، سعد زغلول ، قاسم أمين ،

إسماعيل صبرى ، تواستوى ، هيجو ، جورجى زيدان ، محمد فريد ،
الشاعر الموسيقى فردى ، حافظ إبراهيم

وترى فى الجزء الرابع قصصاً خفيفة قصيرة ، وحكايات على ألسنة
الحيوان والطيور ؛ تنطق بالحكمة وتقود إلى الهداية . فى لغة سهلة ، وبيان
جذاب . يجد فيها الكبير لذته العقلية ، والصغير ما يرضيه . مثل :
العصفورتان والوطن ، الأسد والفيل ، أمة الأرانب ، القبرة وابنها
. . . .

تلك إشارة موجزة إلى بعض ما حواه الديوان . ويطول بنا الكلام
لو عرضنا لكل عناوينه . فكيف بنا لو عرضنا لكل قصائده ، وما حوت
من سحر ، وروعة ، وأفانين ؟ بل كيف بنا لو عرضنا لكل ما جادت به
قريحته ، وخطه بنانه .

على أن هذا لا يمنعنا أن نسوق بِلالة من ذلك النبع العذب المنهر ،
تكون مذاقاً للتشهى المتعجل ، ولن يكون له من ورائها إلا المبالغة فى التشهى
والحرص على الاستزادة .

استمع إليه يخاطب المتنازعين بسبب تصريح^(١) ٢٨ فبراير سنة ٢٢ ،
وما جره النزاع من فرقة وبلاء بين المصريين :

(١) هو تصريح تمهيدى ؛ اعترفت فيه لإنجلترا لمصر بالحرية والاستقلال . لكن قيدت
هذا الاعتراف بقيود وشروط أفقدته مزيته فى رأى فريق من المصريين ، ولم تؤثر
فيه أثراً خطيراً فى رأى فريق آخر . ومن هنا انقسمت البلاد ، وتنازعت
الأحزاب ، وأساء بعضها لبعض .

إِلَامَ الْخُلْفُ بِدَنْسِكُمْ إِلَّا مَا ؟ وَهَذِي الضَّجَّةُ الْكُبْرَى عَلَامَا ؟
وَفِيمَ يَكِيدُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ ؟ وَتُبْدُونَ الْعِدَاوَةَ وَالْحِصَامَا ؟
وَأَيْنَ الْفَوْزُ ؟ لِمَصْرُ اسْتَقَرَّتْ عَلَى حَالٍ ، وَلَا السُّودَانُ دَامَا
وَأَيْنَ ذَهَبْتُمْ بِالْحَقِّ لِمَا رَكِبْتُمْ فِي قَضِيَّتِهِ الظَّلَامَا ؟
لَقَدْ صَارَتْ لَكُمْ حُكْمًا وَغُنْمًا وَكَانَ شَعَارَهَا الْمَوْتَ الزُّوَامَا

...

تَرَامَيْتُمْ ، فَقَالَ النَّاسُ : قَوْمٌ إِلَى الْخِلْدَانِ أَمْرُهُمْ تَرَامَى
وَكَانَتْ مَصْرُ أُولَ مَنْ أَصْبَحَتْ فَلَمْ تُحْصِ الْجِرَاحَ وَلَا الْكِلَامَا^(١)

وَيَقُولُ فِي أَوَّلِ مَجْلَسٍ^(٢) نِيَابِي بَعْدَ الدِّسْتُور :

حَارُ النِّيَابَةِ لَقَدْ صُفَّتْ أَرَانِكُمَا لَا تَجْلِسُوا فَوْقَهَا الْأَحْجَارَ وَالْخُشْبَةَ
الْيَوْمَ يَأْقُومُ - إِذْ تَبْنُونَ مَجْلِسَكُمْ - تَبْنُونَ لِلْعَقَبِ الْأَيَّامَ وَالْحَقْبَا
فَمَا هُوَ الْفَرْدُ ! إِنْ شِئْتُمْ سَمَاءَ صُعْدَا إِلَى الثَّرِيَّا ، وَإِنْ شِئْتُمْ هَوَى صَبَا
وَإِنْ رَضِيتُمْ عَمَرْتُمْ رُكْنَهُ ثِقَةً وَإِنْ غَضِبْتُمْ تَرَكْنُمُ رُكْنَهُ خَرَبَا
وَإِنَّمَا هُوَ سُلْطَانٌ يُدَانُ لَهُ إِذَا تَكَفَّلَ بِالْأَعْبَاءِ وَانْتَدَبَا
يَقُولُ عَنْكُمْ ، وَيَقْضِي غَيْرَ مُتَمِّمٍ الْعَهْدُ مَا قَال ، وَالْمِيثَاقُ مَا كَتَبَا

وَيَصِفُ الْوَسِيلَةَ لَجَلَاءِ الْمُحْتَالِينَ عَنِ الْبِلَادِ بِقَوْلِهِ :

دُونَ الْجَلَاءِ وَدُونَ يَأْنَعِ وَرَدِهِ خُطُوتُ شَنْبٍ فِي الْقَتَادِ تُسَارُ
وَبَنَاءُ أَخْلَاقٍ ، عَلَيْهِ مِنَ النَّهْيِ سُورٌ ، وَمِنْ عِلْمِ الزَّمَانِ إِطَارُ

(١) الجروح (الفرد : كَلَمَ) . (٢) انعقد سنة ١٩٢٤ .

وحضارة ، من منطقي الوادي لها أصل ، ومن أدب البلاد نيجار
ويقول في الدستور :

الحقُّ أبلج ، والكفانة حرّة والعزُّ للدُّستور ، والإكبارُ
الأمرُ شورى ، لا يعيْثُ مُسلّطٌ فيهِ ، ولا يطفئُ به جبارُ
إن العناية للبلاد تميّزت والخيرُ ما تقضى وما تختارُ
عهدٌ من الشورى الظليلة ، نُصّرت آصّاله ، واخضّاتِ الأسجارُ
تجنّى البلادُ به نمارَ جهودها ولكلُّ جُهدٍ في الحياة نمارُ
و . . . و . . . و . . .

وإليك لمّا مما صوّره عن الأحداث الخارجية . قال في نكبة
دمشق^(١) :

سلامٌ من صبا (بردى)^(٢) أرقّ ودمعٌ لا يكفّ بكفّ يادِمْشَقْ
ومعذرةُ البراعة والقوافي جلالُ الرُّزءِ عَنْ وَصفٍ يدقّ
وذكري عن خواطرها لقلبي إليك تلمّتُ أبداً وخفق
وبى مما رمقك به الليالى جراحاتُ لها في القلبِ عُقْ

(١) كانت سورية جزءاً من المملكة العثمانية فاحتلها الفرنسيون عقب الحرب العالمية الأولى
التي انتهت في نوفمبر سنة ١٩١٨ - كما سبق - والتي انهزم فيها الترك وحلفاؤهم .
فلما كانت سنة ١٩٢٦ هب السوريون يطالبون باستقلالهم ، وثاروا ثورة عنيفة
قابلها الفرنسيون بالعنف البالغ ، وقتلوا بهم أشنع قتل ، وخرّبوا كثيراً من دمشق
بمدافعهم . وظل النزاع بين الفريقين يهدأ ويشد ، ويخمد ويستيقظ - إلى أن نال
السوريون ما أرادوا عقب الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥) وتم لهم
الاستقلال .

(٢) نهر عظيم يمتدّ من دمشق .

رَبَّاعُ الْخُلْدِ - وَيَحْكُ - مَا دَهَاها؟
 وَهَلْ غَرَفُ الْجِنَانِ مُنْضَدَاتٌ؟
 وَأَيْنَ دُمَى الْمَقَاصِرِ مِنْ حِجَالِ
 بَرْزَنْ وَفَى نَوَاحِي الْأَيْكِ نَارُ
 إِذَا رُمْنَ السَّلَامَةُ مِنْ طَرِيقِ
 بَلْبَلٍ لِلْقَذَائِفِ وَالْمَنَابِ
 إِذَا عَصَفَ الْحَدِيدُ أَحْمَرُ أَفْقِ
 سَلَى مَنْ رَاعَ عِنْدَكَ بَعْدَ وَهْنِ
 وَلِلْمُسْتَعْمِرِينَ - وَإِنْ الْأَنْوَا -
 أَحَقُّ أَهَّأَ دَرَسَتْ؟ أَحَقُّ؟
 وَهَلْ لِنَعِيهِنَّ - كَأَمْسٍ - نَشَقُّ؟
 مُهَيَّكَةً ، وَأَسْتَارَ نَشَقُّ؟
 وَخَلَفَ الْأَيْكِ أَفْرَاحُ تَرْقُ
 أَنْتَ مِنْ دُونِهِ لِمَوْتِ طَرْقُ
 وَرَاءَ سَمَائِهِ خَطْفُ وَصَقُ
 عَلَى جَنَابَتِهِ وَاسْوَدَّ أَفْقُ
 أُبَيَّنَ فُؤَادِهِ وَالصَّخْرِ فَرَقُ؟
 قُلُوبُ كَالْحِجَارَةِ لَا تَرَقُ

.....

وقال في الثورة العثمانية التي انتهت بإسقاط السلطان عبد الحميد^(١) :

سَلِّ « يَلْدِرًا »^(٢) ذَاتَ الْقُصُورِ هَلْ جَاءَهَا نَبَأُ الْبُدُورِ؟
 لَوْ تَسْتَطِيعُ إِبْجَابَةً لِبِكْمَتِكَ بِالْذَمِّ الْفُزِيرِ
 أَخْفَى عَلَيْهَا مَا أَنَا نَحْ عَلَى الْخَوَرَنْقِ وَالسِّدِيرِ^(٣)
 وَدَهَا الْجَزِيرَةَ^(٤) بَعْدَ إِسْمَاعِيلَ ، وَالْمَلِكِ الْكَبِيرِ
 ذَهَبَ الْجَمِيعُ ؛ فَلَا الْقُصُورَ رُتِرَى ، وَلَا أَهْلَ الْقُصُورِ

- (١) أحد سلاطين الترك ، اشتهر بالبطوة والبأس ، والفنك بخصومه ، والحرص على الحكم المطلق ، والإسراف في التمتع . وكان يوم سقوطه سنة ١٩٠٨ عيدا عاما في البلاد التركية ، التي خضعت بعده للحكم الدستوري .
 (٢) كلمة تركية معناها : الجسم ، وبه سُمي قصر عظيم لعبد الحميد . ثم سميت البقعة باسم القُصْر .
 (٣) الخورنق والسدير : قصران بالحيرة ، للوك المأذرة .
 (٤) جزيرة قصر النيل ، غربي القاهرة ؛ حيث منطقة « الزمالك » وما حولها الآن . وكانت مقر أعظم القصور وأعجب الحقائق التي أسسها الخديوي إسماعيل .

فَلَكُ يَدُورُ سَمُودُهُ وَنُحُوسُهُ بِيَدِ الْمُدِيرِ
 أَيْنَ الْأَوَانِسُ فِي ذَرَا هَا ؛ مِنْ مَلَانِسِكَةٍ ، وَحُورِ ؟
 الْمُنْتَرَعَاتُ مِنْ النِّعَمِ ، الرَّاوِيَاتُ مِنَ السَّرُورِ
 الْعَائِرَاتُ مِنَ الدَّلَالِ ، النَّاهِضَاتُ مِنَ الْغُرُورِ
 النَّاعِمَاتُ ، الطَّيِّبَاتُ الْمَرْفِ ، أَمْثَالُ الزُّهُورِ
 سَمُودُهُ « يَلْدِرُ » وَالْأَفُورِ لُنْهَائِهِ النِّجْمِ الْمُنِيرِ

.....

ويقول في « طوكيو »^(١) وقد رماها زلزال عنيف بفجائع مروعة :
 أَتَتِ الْأَرْضُ وَالسَّمَاءُ بِطُوفَانٍ ؛ يُنْسَى طُوفَانُ نُوحٍ ، وَعَامَةٌ
 فَتَرَى الْبَحْرَ جُنَّ حَتَّى أَجَارَ^(٢) الْبَرْ ، وَاخْتَلَّ مَوْجُهُ أَعْلَامَهُ^(٣)
 مُزِيدًا ، نَارُ الْأَجَاجِ ، كَجَيْشٍ قَوَّضَ الْعَاصِفُ الْهَبُوبُ^(٤) خِيَامَهُ
 فُلُكُ نُوحٍ تَعُودُ مِنْهُ بَنُوحٍ لَوْ رَأَتْهُ ، وَتَسْتَجِيرُ زِمَامَهُ

....

أما تصوير المشاهد خافل به ديوانه . وإليك قطرات من مناهله :
 قال يصف الآثار الفرعونية بأسوان ، وفي مقدماتها قصر أنس الوجود
 القائم في النيل ؛ وقد أذاب الماء جدرانها ، وكاد يذهب به :
 قَفَّ بَتْلَاقِ الْقُصُورِ فِي الْيَمِّ ، غَرَقَ مُنْسَكًا بَعْضُهَا مِنَ الذَّعْرِ بَعْضًا
 كَعْدَارَى ، أَخْفَيْنِ فِي الْمَاءِ بَضًا^(٥) سَابِحَاتٍ بِهِ ، وَأَبْدَيْنَ بَضًا

- (١) عاصمة اليابان . (٢) اجتاز . (٣) جباله . (المفرد : عَلم) .
 (٤) الذي يشبه الغبرة . (٥) جسمًا ناعمًا لينًا .

مُشْرِفَاتٍ عَلَى الزَّوَالِ ، وَكَانَتْ مُشْرِفَاتٍ عَلَى الْكَوَاكِبِ نَهَضًا
شَابَ مِنْ حَوْلِهَا الزَّمَانُ ، وَشَابَتْ وَشَابَ الْفَنُونُ مَا زَالَ غَضًّا
رُبَّ نَقْشٍ كَأَنَّمَا نَفَضَ الصَّائِغُ نَعُ مِنْهُ الْيَدَيْنِ بِالْأَمْسِ نَفْضًا
وَدَهَانٍ كَلَامِيعِ الزَّيْتِ ، مَرَّتْ أَغْصُرُ بِالسَّرَاجِ وَالزَّيْتُ وَضًا^(١)
وَحُطُوطٍ كُلُّهَا هَذْبُ رِيحٍ حَسُنَتْ صَنْعَةً ، وَطَوَلَا ، وَعَرَضَا
وَضَحَايَا تَكَادُ تَمُشِي وَتَرَعِي لَوْ أَصَابَتْ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ نَبْضًا
وَحَارِيبَ كَالْبُرُوجِ ، بَنَتْهَا عَزَمَتْ مِنْ عَزْمَةِ الْجَنِّ أَمْضَى
وَمَقَاصِيرَ أُنْدَاتٍ بَفَتَاتٍ أَلَمِيسْكَ تَرْبَا ، وَبِالْيَوَاقِيتِ قَضَا^(٢)
صَنْعَةً تُدْهَشُ الْعُقُولَ ، وَفَنٌ كَانَ إِتْقَانُهُ عَلَى الْقَوْمِ فِرْضَا
و

وقال يصف موتاً جميلاً في الآستانة ؛ يقال له بالتركية : (كوك صو) ومعناه :

ماء السماء :

غَشِيَتْكَ ، وَالْأَصِيلُ يَفِيضُ نَبْرًا وَيَنْسِجُ لِلرُّبَا حُمَلًا ، وَيَكْسُو
وَتَذْهَبُ فِي الْخَلِيجِ^(٣) لَهُ وَتَأْتِي أَنَامِلُ تَنْثُرُ الْعِيقِيَانِ ، سَحْسُ
وَفِي جِيدِ الْخَمِيلَةِ مِنْهُ عِقْدٌ وَفِي آذَانِهَا قُرْطٌ ، وَسَلْسُ^(٤)
وَلَأَلَاتِ الْجِبَالِ ؛ فُضَاءٌ صَفْحٌ بِسَرُّ النَّاظِرِينَ ، وَنَارَ رَأْسُ

(٢) حصى .

(١) وضاء : لامع براق .

(٣) خليج البفور الذي تعرف عليه الفلسطينية .

(٤) نوع من الأقراط .

وَمِنْ شَعْرِي نَدِيمٌ لِي ، وَجِلْسُ
زَوَارِقُ حَوْلَنَا ، تَجْرِي ، وَتَرَسُو
نُسْفُ^(١) عَلَيْهِ أحياناً ، وَتَحْسُو
وَإِنْ هُوَ لَمْ يُحْرَكْ فَهِيَ رَعْسُ^(٢)
فَكُلُّ طَرِيقِهِ وَتَرُّ وَقَوْسُ
وَلَوْ هُوَ جَدَّ فِي الْمَاءِ انْسِيَاباً

.....

وَقَالَ يَصِفُ لَيْلَةً وَهُوَ مُنْفًى فِي الْأَنْدَلُسِ ، وَيَذْكُرُ أَلَمَ الْفِرَاقِ وَالْغُرْبَةِ :
وَنَابِغِي^(٣) كَانَ الْحَشَرَ آخِرُهُ
نَطَوَى دُجَاهُ بِمُجْرَحٍ مِنْ فِرَاقِكُمُو
إِذَا رَسَا النِّجْمُ لَمْ تَرَفَأْ تَحَاجِرُنَا
بِتَقَاسِمِي الدَّوَاهِي مِنْ كَوَاكِبِهِ
يَبْدُو الْهَارُ . فَيُخَفِّفُهُ تَجَلُّدُنَا

.....

وَيَقُولُ فِي وَصْفِ الرَّبِيعِ :

مَلَكُ النَّبَاتِ ؛ فَكُلُّ أَرْضٍ دَارُهُ
مَنْشُورَةٌ أَعْلَامُهُ : مِنْ أَحْمَرِ
لَيْسَتْ لِمَقْدَمِهِ الْخَمَائِلُ وَشَبِهَا

(١) تَنْزَلُ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ . (٢) مُتَحَرِّكَةٌ فِي هُدُوءٍ وَبَطْءٍ .

(٣) لَيْلٌ طَوِيلٌ ، كَلِيلُ اللَّابِغَةِ الذِّيَابِي . وَبِهِ يَضْرِبُ الْمَثَلُ فِي الطُّولِ ؛ لِقَوْلِ النَّابِغَةِ :

كَلَيْتِي لِهَسَمٍ يَا أُمَيْمَةَ نَاصِبٍ وَلَيْلِ أَفَاسِيهِ بَطِيءِ الْكُوكَبِ
تَطَاوُلَ حَتَّى قَلْتُ لَيْسَ بِمَقْنُصٍ وَلَيْسَ الَّذِي يَرَعَى النُّجُومَ بِأَثْبِ

يَفْشَى الْمَنَازِلَ مِنْ لَوَاحِظِ نَرَجِسٍ أَنَا ، وَأَنَا مِنْ ثُغُورِ أَفَاحِ
ورءوسٍ (منشور) خَفَضْنَ لِعِزِّهِ تَيْجَانَهُنَّ ، عَوَاطِرَ الْأَرْوَاحِ
وَالْوَزْدَ فِي سُرْرِ الْفُضُونِ مُفَتِّحُ مُتَقَابِلُ الْيُدَيْنِ عَلَى الْفَتَّاحِ
ضَاحِي الْكُوكَبِ فِي الرِّيَاضِ ، مُبَيِّزُ دُونَ الزُّهُورِ - بِشَوْكَةٍ وَسِلَاحِ
مَرَّ الدَّيْسِ بِصَفْحَتَيْهِ مُقْبِلًا مَرَّ الشَّقَاهِ عَلَى خُدُودِ مِلَاحِ
و

وقال يصف بعض المفاخر في سِوَمِرَة :

.....

حيث الجبالُ صغارُها وكبارُها من كلِّ أبيضٍ في الفضاء ، وأخضرًا
تَحْذُ الغمامُ بها بيوتًا ، فَانْجَلَّتْ مَشْبُوبَةً^(١) الْأَجْرَامِ ، شَائِبَةُ الدُّرَا
وَالصَّخْرُ عَالٍ قَامٍ يَشْبَهُ قَاعًا وَأَنَافَ^(٢) مَكْشُوفِ الْجَوَانِبِ ، مُنْذِرًا^(٣)
بَيْنَ الْكُوكَبِ وَالسَّحَابِ تَرَى لَهُ أَذْنًا مِنَ الصَّخْرِ الْأَصَمِّ ، وَمِشْفَرًا
وَالسَّفْحُ مِنْ أَىِّ الْجِهَاتِ أَتَيْتَهُ أَلْفَيْتُهُ دَرَجًا يَمْوجُ ، مُدَوَّرًا
نَثَرَ الْفَضَاءَ عَلَيْهِ عِدَدَ نُجُومِهِ فَبَدَا زَبَرْجَدُهُ يَهِنٌ مُجَوَّهَرًا
وَتَنَظَّمَتْ بَعْضُ الْبُيُوتِ ، كَأَنَّهَا أَوْكَارُ طَيْرٍ ، أَوْخَيْسٌ عَشْكَرًا
وَالْمَاءُ مِنْ فَوْقِ الدِّيَارِ ، وَتَحْتَهَا وَخِلَالَهَا يَجْرَى ، وَمِنْ حَوْلِ الْقُرَى
مُتَصَوِّبًا^(٤) ، مُتَصَدِّدًا ، مُتَمَهِّلًا مُتَسَرِّعًا ، مُتَسَلِّلًا ، مُتَعَزِّيًا

(١) جيلة متوقدة (بسبب أضوائها ؛ فكأنها النجوم المتوهجة) (٢) ارتفع
وأشرف على ماحوله . (٣) مهددا بالسقوط (٤) هابطا من الأعلى إلى الأسفل .

والأَرْضُ جُسْرٌ حَيْثُ سَرَتْ ، وَمَمْبَرٌ يَصِلَانِ جُسْرًا فِي الْمِيَاهِ ، وَمَنْبَرًا
وَالْفَلَكَ فِي ظِلِّ الْبُيُوتِ مُوَخِرًا تَطْوِي الْجُدَاوِلَ نَحْوَهَا ، وَالْأَنْهَرَا

* * *

تلك لمحات من شعر شوقي ؛ لا نقصد من وراء عرضها وعرض نظائرها
من شعر المتنبي إلا أن نقودنا إلى ديوانهما ؛ لنرى المَعِينِ الأَوْفَى ، والنبع
الأصْفَى ؛ فيتسع البحث ، ويطول النظر ، ويصدق الحكم . وحاشا أن
نفهم في هذه اللامحات أكثر من أنها رموز وشارات ؛ توجهنا إلى المرجع
الأول ، وتفتح أبصارنا على موارد البحث الأكل . ومن الإساءة للشاعرين ،
وقصور أسباب الحكم وفساده - أن نقف عند تلك الإشارات قانعين .
وبعد ، فما أظن باحثاً نصفاً يقرأ هذا البيان ، فيتردد في الحكم لشوقي
في هذا الميدان .

—

(٢) الألفاظ، وما يتصل بها .

حظ الشاعرين منها

نستهل هذا الفصل ببيان صفات الألفاظ ، وما اشترطه البلاغيون فيها لتكون كاملة ، أو قريبة من الكمال . ويجدر بنا قبل الخوض في هذا أن نعرض - بإيجاز - لبحث مفيد في الموضوع ، وهو بحث قديم ، لكنه يتجدد على الأيام . ويدور حول أفضلية اللفظ على المعنى ، أو العكس . وبعبارة أخرى : أى الأمرين يقع به التأثير البالغ في نفس السامع والقارىء ؟ أاللفظ أم المعنى ؟ وبأيهما تتحرك المشاعر ، ويهتز الوجدان ؟ أبالألفاظ أم بالمعاني ؟

ذهب الأدباء مذهبين ، وأطالوا الجدل - كما دت لهم - فيما لا يحتاج إلى إطالة ؛ فقدّم بعضهم المعنى على اللفظ ، قائلًا : ماذا في اللفظ لولا المعنى ؟ وهل الكلام إلا بمعناه^(١) ؟ ودافع عن هذا رأى بعض كبار الباحثين ؛ كعبد القاهر الجرجاني^(٢) . واعتنقه كثير من الشعراء ، فأثروا المعنى « ولم يبالوا حيث وقع من هُجْنة اللفظ ، وقبحه ، وخشوته^(٣) » .

وقدم فريق آخر اللفظ على المعنى . وهذا الفريق أكثر عدداً ، وأعز شيعه . وحجته^(٤) :

(١) « أن اللفظ أغلى من المعنى ثمناً ، وأعظم قيمة ، وأعز مطالباً ، فإن

(١) دلائل الإيجاز ص ١٩٤ . (٢) سيجى الرد عليه في ص ٦١ .

(٣) العمدة ج ١ ص ٨٢ . (٤) العمدة ج ١ ص ٨٢ .

المعاني موجودة في طباع الناس ، يستوى الجاهل فيها والحاذق
واسكن العمل على جودة الألفاظ ، وحسن السبك . وصحة التأليف .
ألا ترى لو أن رجلاً أراد في المدح تشبيه رجل لما أخطأ أن يشبهه
في الجود بالغيث والبحر ، وفي الإقدام بالأسد ، وفي المضء بالسيف ،
وفي العزم بالسيل ، وفي الحسن بالشمس ، فإن لم يحسن تركيب هذه
المعاني في أحسن حلاها ؛ من اللفظ الجيد ، الجامع للركة ، والجزالة ،
والعذوبة ، والطلاوة ، والسهولة ، والحلاوة - لم يكن المعنى قدر « اه .

(ب) « فصناعة الكلام^(١) - نظماً ونثراً - إنما هي في الألفاظ لافي المعاني ،
وإنما المعاني تبع لها وهي أصل والمعاني موجودة عند كل
واحد ، وفي طوع كل ففكر منها ما يشاء ويرضى ، فلا تحتاج إلى
صناعة . وتأليف الكلام للعبارة^(٢) عنها هو المحتاج للصناعة . وهو
بمثابة القوالب للمعاني . فكما أن القوالب التي يُعترف بها الماء من
البحر منها آنية الذهب ، والفضة ، والصدف ، والزجاج ، والخزف ،
والماء واحد في نفسه ، وتختلف الجودة في الأواني المملوءة بالماء
باختلاف جنسها لا باختلاف الماء - كذلك جودة اللغة ، وبلاغتها
في الاستعمال ؛ تختلف باختلاف طبقات الكلام في تأليفه باعتبار
تطبيقه على المقاصد . والمعاني واحدة في نفسها ؛ وإنما الجاهل بتأليف
الكلام وأساليبه على مقتضى ملكة اللسان إذا حاول العبارة^(٣) عن

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٣٣٠ فصل في أن صناعة النظم والنثر إنما هي للألفاظ .

(٢) أى : للتعبير . (٣) أى : التعبير .

مقصوده ولم يحسن - بمثابة المُعَدِّ الذي يروم النهوض ولا يستطيعه ، فقدان القدرة عليه .

(ح) فليس^(١) الشأن في إيراد المعاني ؛ لأن المعاني يعرفها العربي ، والعجمي ، والقروي ، والبدوي . وإنما هو في جودة اللفظ ، وصفائه ، وحسنه ، وبهائه . ونزاهته ، ونقائه ، وكثرة طلاوته ، ومائه . مع صحة السبك والتركيب ، والخلو من أودِ النظم والتأليف . وليس يُطلب من المعنى إلا أن يكون صوابا ، ولا يقنع من اللفظ بذلك ولهذا تأنى الكاتب في الرسالة ، والخطيب في الخطبة ، والشاعر في القصيدة ، يبالغون في تجويدها ، ويُقلِّنون في ترتيبها ؛ ليدلوا على براعتهم ، وحذقهم بصناعتهم . ولو كان الأمر في المعاني لطحوا أكثر ذلك ؛ فربحوا كذا كثيرا ، وأسقطوا عن أنفسهم تعباً طويلاً^(٢) . . . اهـ

تلك صورة موجزة من كلام الفريقين وأدلتهم ، وإني أميل إلى الرأي الثاني ، وأؤمنُ به عن يقين واقتناع ؛ ذلك لأن المعاني شائعة لا يستأثر أحد بها ، ولأنها مستقرة في نفس صاحبها ، محتجبة في أعماق سريره . ولا سبيل إلى إظهارها وإبرازها من مكانها إلا بوسيلة من وسائل الإيابة والكشف ، ومن هذه الوسائل : الكلام المنطوق أو المكتوب ، والإشارة ، والتصوير ، وسائر الرموز والعلامات الموضحة . وأقوى هذه الوسائل : الكلام بنوعيه ، وبقدر تمكن صاحبه ، وبراعته في الأداء ، وتملكه زمام التعبير - يكون

(١) الصائغين الفصل الأول من الباب الثاني ص ٤٢ .

(٢) قد ورد مثل هذا منسوباً للجاحظ وغيره من أئمة الأدب (راجع ص ١٩٨ من دلائل الإعجاز) .

كشفه عن المعانى ، وإبرازها ناصعة جليلة ، تقع من نفس السامع موقعها من نفس المتكلم ، وتبدر لذلك فى الصورة التى تبدو بها لهذا . فليس التعبير إلا أداة لنقل الصور المعنوية من نفس صاحبها إلى نفس السامع أو القارىء ، وعلى قدر صلاح الأداة وقوتها يكون نجاحها فى أداء مهمتها . ومهمتها - كما أشرنا - إلا نقل المعانى كاملة من نفس إلى نفس ، والسفارة بين الأفكار : لتوصيل الصور المعنوية سليمة لا تشويه فيها ولا إفساد . والأمر على النقيض من ذلك إن كانت الأداة عاجزة أو ضعيفة .

ومن البديه القول بأن المعنى لا يتجسم ، ولا يبرز بنفسه ، ولا يستمد التأثير من ذاته ، وإنما يبرز فى قوالب من الألفاظ تظهره ، وتمده بالتأثير . فإلى اللفظ يرجع الفضل الأكبر فى ظهور المعنى وبروزه . وإلى جمال اللفظ ، وحسن اختياره ، والبراعة فى أدائه - يرجع الفضل الأول فى تأثير المعنى .

ذلك رأى فى قضية الألفاظ والمعانى وما يتصل بها . وزاد الطمأنانى لهذا رأى حين عرضت لمئات من النماذج التى وصفوها بأنها تهز النفس ، وتحرك المشاعر ، تجردتها من جميل صوغها ، وبديع تأليفها ؛ فرأيتها قد تجردت من باهر روعتها ، وبالع تأثيرها ، واستحالت معنى مألوفاً ، بل مبتذلاً مهيناً ، لا تقبل عليه النفس ، ولا ترى فيه حسناً .

وتعال نناقش بعض تلك الأمثلة التى وصفوها بالروعة ؛ انزى مصدر روعتها وجالها : أهو اللفظ أم المعنى ؟ فما تخبروه :

(١) إِنْ الْعَيُونَ الَّتِي فِي طَرْفِهَا حَوَرٌ قَتَلْنَنَا ، نَم لَمْ يُحْيَيْنَ قَتْلَانَا
يَصْرَعَنَّ ذَا اللَّبِّ حَتَّى لَا حَرَكَهَ . وهن أضعفُ خلقِ اللهِ أركاننا

- (٢) أيتها النفس أجملِ جَزَعًا إِنَّ الذي تَحْذَرِينَ قد وَقَعَا
- (٣) واحْتِمَالُ الأذى ورؤيةُ جَانِبِهِ غِذَاءٌ تَصُومِي به الأجسامُ
- (٤) لا يَسْلُمُ الشرفُ الرفيعُ من الأذى حتى يراقَ قَلَى جوانبه الدَّمُ
- (٥) وما استمعنى على قومٍ منالٍ إذا الأقدامُ كان لهم ركابا
- (٦) ولكمُ في القِصَاصِ حياةٌ
- (٧) أحبُّ حبيبك هُونًا ما ؛ عسى أن يكون بَغِيضُك يومًا ما ...
- (٨) مَنْ أَبْطَأَ به عمله لم يسرعْ به نسبه .
- (٩) خيرُ القولِ ما صدَّقه الفعلُ .
- (١٠) إن الله ليزعُ بالسلطان ما لا يزعُ القرآن .
- (١١) إذا عزَّ أخوك فهُنْ ...

أ يكون انشراحنا بتلك المعاني في ثيابها الحالية كانشراحنا بها لو ألبسناها
ثيابا لفضيلة أخرى ، وأدبنا كل معنى منها بكلام ليس له ذلك الصوغ
الحسن ، والتأليف الجميل ؟

من أين يأتى التأثير لو قلنا فى المثال الأول : إن العيون الجميلة قَتَلَتْنَا ،
وقَتَلَتِ العقلاء ، مع أن هذه العيون أضعف الأجزاء التى خلقها الله .
وفى الثانى : يانفس لا تحزنى بعد اليوم ؛ فإن الشيء الذى كنت تخافين
وقوعه قد وقع .

وفى الثالث : من أشق الأشياء على النفس أن تصبر على الأذى ، وعلى
رؤية المؤذى .

وفي الرابع : إن صيانة الشرف العالى لا تتحقق إلا ببذل الأرواح .
وفي الخامس : إن إدراك المطالب يتم بالجرأة والإقدام .

وما يقال فى النظم يقال فى النثر ، لاشك أن الفرق فى الروعة واضح بين الأمثلة فى صياغتها الأولى وصياغتها الثانية ، وشتان بين تأثير العبارة فى صورتها الأصلية وصورتها التى تُرِجَّتْ إليها . على أنى لم أنزل بترجمة العبارات إلى الدرك الأسفل من التعبير اللفظى ، ولم أُلْبِسْ المعانى أحقر الثياب ؛ وإنما نزلت بها إلى حال مقبولة تحتمل أحوال كثيرة ، وألبستها ثياباً ليست الغاية فى القبح ، وسوء المظهر . فإذا يكون الأمر لولم أعتدل ؟

ولستُ بدعاً فى هذه الطريقة التى أعرض بها الأمثلة الرائعة ، وأنرجمها إلى أخرى أقل شأنًا ، وأقبح شكلاً ، لأصل إلى أن التأثير كله للألفاظ ؛ فقد سبقنى إليها بعض أعلام الأدب والنقد فى القديم ؛ فهذا أبو هلال العسكري يقول^(١) فى صدد الاحتجاج لرأيه الذى ينسب فيه الفضل للألفاظ ، ويجعل الشأن لها لا للمعانى :

« إن الكلام إذا كان لفظه حلواً عذبا ، وسليسا سهلا ، ومعناه وسطاً - دخل فى جملة الجيد ، وجرى مع الرائع النادر ؛ كقول الشاعر :

ولما قَضَيْنَا مِنْ مَنَى كُلِّ حَاجَةٍ وَمَسَّحَ بِالْأَرْكَانِ مَنْ هُوَ مَاسِحٌ
وَشُدَّتْ عَلَى خُذْبِ الْمَهَارِى رِحَالُنَا وَلَمْ يَنْظُرِ الْغَادِى الَّذِى هُوَ رَائِحٌ
أَخَذْنَا بِأَطْرَافِ الْأَحَادِيثِ بَيْنَنَا وَسَالَتْ بِأَعْنَاقِ الْمَطِيِّ الْأَبَاطِحُ

(١) الصناعتين ص ٤٢ الباب الثانى فى تمييز الكلام .

وليس تحت هذه الألفاظ كبير معنى . وهي رائعة مُعْجِبة ؛ وإنما هي :
ولنا قضينا الحج ، ومسحنا الأركان ، وشُدَّتْ رحالنا على مهازيل الإبل ، ولم
ينتظر بعضنا بعضا - جعلنا نتحدث ، وتسير بنا الإبل في بطون الأودية » .

وهذا ابن قتيبة ؛ يتخذ الآيات السابقة نفسها مثالا للشعر الرائع الذي
يقع في النفس موقع الحسن والقبول ، ولو تأملت ماوراءه من معان لم تجد شيئا
ذا بال^(١) ، ومثلها الجرجاني في أسرار بلاغته^(٢) و... و... و...

على أن الجرجاني بكلامه هذا يؤيد معارضيه (أنصار المذهب اللفظي)
من حيث يدري أو لا يدري ؛ فكلامه هنا ككلامه في مواضع مختلفة من
كتابه : أسرار البلاغة^(٣) ، ودلائل الإعجاز^(٤) ؛ حيث دافع عن رأيه
في إثبات المعنى بالتفصيل ، وأطال الدفاع ، ولا سيما في دلائل الإعجاز . ولكن
دفاعه كان مشوبا بالخلط بين تأييد اللفظ والمعنى ، مُعَشَّى بالغموض والإبهام ؛
حتى استدع على القاصص أن يستخلص حقيقة رأيه ، أو يهتدى إلى صريح
مذهبه ، فما يسرقه لتأييد رأيه قد يصلح لتأييد خصمه ، وكل أدلته ذو وجهين .
وإليك ما يمكن استخلاصه من شذيت آرائه وأدلته :

(١) إن الكلام هو الذي يعطى العلوم^(٥) منازلها ، ويبين مراتبها ، ويكشف
عن صورها . ولولاه لتعطلت قوى الخواطر والأفكار من معانيها ،

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١٠ .

(٢) فصل في قصة التجنيس ص ١٥ .

(٣) ص ١ و ٥ و ٣٣ و ١١٨ الى ١٢٩ .

(٤) ص ٤٠ و ٤٤ و ١٩٢ و ١٩٩ وفصول أخرى توضحها عناوينها في فهرس

كتاب الدلائل . (٥) المعلومات .

ولبقيت القلوب مقفلة على ودائعها ، والمعاني مسجونة في مواضعها^(١) .

(ب) وإن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة ، ولا من حيث هي كلم مفرد ، وإنما تثبت الفضيلة وخلافها في ملائمة معنى اللفظة لمعنى التى تليها ، أو ما أشبه ذلك ، مما لا تعلق له بصريح اللفظ^(٢) .

(ج) وإن نظم الكلام وتأليفه إنما يحىء بعد نظم المعانى فى النفس ، وعلى حسب ترتيبها فى العقل أولاً ، فالنظم الكلامى صورة مترجمة للنظم العقلى ، وبقدر موافقة المسبوق للسابق يكون التأثير فى نفس السامع والقارى ، وعلى قدر مطابقة الترتيب اللفظى للترتيب العقلى الذى سبقه فى الوجود يكون القبول . فلا فضل للألفاظ نفسها : لأنها جاءت محاكية للمعانى ، منتظمة على منوالها . وإنما الفضل الأول للأصل المحكى ، فالألفاظ لا تنفرد حتى تؤلف ضرباً خاصاً من التأليف ، ويعمد بها إلى وجه دون وجه من التركيب والترتيب ، على طريقة معلومة ، وصورة مخصوصة ، تقع فى الألفاظ مرتبة على المعانى المرتبة فى النفس ، المنتظمة فيها على قضية العقل . ولن يتصور فى الألفاظ — من حيث هي ألفاظ — وجوب تقديم وتأخير وتخصيص فى ترتيب وتنزيل . وعلى ذلك وضعت المراتب والمنازل فى الجمل المركبة ، وأقسام الكلام المدونة ، فقبل من حق هذا أن يسبق ذاك ، ومن حق ما هنا أن

(١) ص ١ من الأسرار — بتلخيص —

(٢) ص ٣٨ إلى ٤٥ من الدلائل .

يقع هنالك ، كما قيل في المبتدأ والخبر والمفعول والفاعل ^(١) .

(د) وإن وضوح المعاني وخفاءها وزيادتها أو نقصها - لا يكون إلا باختيار اللفظ الذي هو أخص بها ، وأكشف عنها ، وأتم لها ، وأحرى بأن يكسبها نبلا ، ويظهر فيها مزية ^(٢) .

هذه خلاصة صادقة للمذهب الجرجاني ، ولأدلته المنشورة في كتابيه . وهي أدلة تؤيد معارضيه من أصحاب المذهب اللفظي - كما قلنا - وتنهض حجة لهم لا عليهم ؛ فليس فيهم من ينكر أن الفضل كله للألفاظ في إراز المعاني الكامنة في أعماق النفوس ، وليس فيهم من ينكر أن اتصال المعنى بشبيهه وبمتممه لا يكون إلا باتصال خاص بين اللفظ واللفظ ؛ فالصلة بين المعنيين المنشاكلين لا تنجى إلا من طريق ألفاظ بعينها . فإذا ضعفت الصلة بين هذه الألفاظ تبعها ضعف الصلة بين المعاني . وقد يُستعملون أن الترتيب المنطقي ، والصالحة بين الكلمات والجمال - يجيئان تبعاً لترتيب المعاني في العقل ، وأن هذا الترتيب العقلي هو الذي يتحكم في الترتيب اللفظي ^(٣) .

فأين الخلاف إذاً بين الرأيين ؟

إن اللفظيين يقولون : إن خال الألفاظ وفساد ترتيبها يتبعه خلل المعاني ، وإفساد ترتيبها في النفس ، فالأمر للألفاظ ، والأثر لها ، لأن المعاني محتبثة في طوايا النفس ، مرتبة في داخلها - على حسب قولهم - ترتيباً معيناً ، والألفاظ هي التي تخرجها من مكانها ، وتبرزها مرتبة على هيئة ترتيبها

(١) ص ٢ أرار البلاغة وما بعدها و ص ٣٨ وما بعدها من الدلائل - بتلخيص .

(٢) ص ٣٥ من الدلائل .

(٣) هذا التسليم موافقة ظاهرية لإبائها لا يزال موضع جدل عنيف .

الأول . فلولا الألفاظ ما ظهرت المعاني ، ولولا الترتيب اللفظي وما يصحبه ما سلم الترتيب المعنوي وما يتبعه .

وفي الحق أن الخلاف بين الرأيين هين ، بل هو لفظي — كما يعبر القدماء — يتلخص في أن فريقاً يقول :

إن المعاني أسبق وجوداً في النفس ، واستقراراً ، وترتيباً ، وارتباطاً فيها . وأن الألفاظ جاءت بعدها لتعبر عنها ، وتحكي ذلك الترتيب والارتباط السابقين ، وتسير على هداها من غير مخالفة ، فالفضل للسابق ، والأثر له .

وفريقاً آخر يقول : إن المعاني بنفسها ، وبترتيبها ، وبروابطها وبكل ما يتصل بها — خفية . والألفاظ هي التي تظهرها ، وتظهر خصائصها ، فالفضل للألفاظ وإن كانت متأخرة والأثر للمسبوق .

وإلى هذا الرأي أميل — بالرغم من سطحية الخلاف — لأنه أوضح في الدلالة ، وأقرب إلى الواقع ، وتحقيق الغاية . وفيه يقول بعض الباحثين ^(١) :

« ليس أدل على أن الشأن الأول في البلاغة إنما هو لرونق اللفظ ، وبراعة التركيب — من أن المعنى المبدول ، أو المردول ، أو التافه ، قد يَتَسَمَّ بالجمال ، ويظهر بالخلود إذا جاد سبكه ، وحسن معرضه . والصياغة وحدها هي التي سَمَتْ بالمعاني الخسيسة إلى أفق البلاغة ، فتداولتها الألسن ، وتناقلتها الكتب . وليس حال المعنى في ذلك حال اللفظ ، فان اللفظ في ذاته كالموسيقى ، يخلب الأذن ، ويلد الشعور وإن لم يترجم .

(١) صاحب كتاب دفاع عن البلاغة (الأستاذ أحمد حسن الزيات) ص ٢٦ و ٢٨ .

أما المعنى فكالكهرباء ؛ إذا لم يكن لفظه جيد التوصيل انقطع تياره ، فلا يُعْرَبُ ولا يُطْرَبُ .

وهذا صحيح ، أزيد عليه — ماسبقت الإشارة إليه — من أن المعنى الذى يصفونه بالروعة تزول عنه روعته إذا فقد حسن الصياغة ، وجميل التعبير . فلو كانت الروعة ذاتية فيه ، مستمدة منه نفسه — لم يفقدها بسبب تغيير الصياغة أو غيرها ، بل تظل ملازمة له فى جميع الصور والتراكيب . فما يسمونه معنى جيداً ، أو : رائماً أو ... ليس إلا معنى مألوفاً ؛ تناوله الخيال المبتكر بحسن التصرف البارع ، وألبسه صاحبه ثوباً من الصياغة الجميلة ، وحسن السبك ؛ فبداً جديداً ، وما هو بمجديد .

ذلك رأيى فى تلك الحقيقة التى يدور حولها الجدل قديماً وحديثاً . وقد يكون الباعث على الجدل وإنكار أفضلية الألفاظ أحد أمرين ، أو : هامعاً : أولهما : سوء فهم المراد من التأنق اللفظى ، والعناية بالتركيب ؛ فقد يزعم المجادل المنكر أن المراد منه هو تلك الزخارف والحلى التى تثقله ، بل ترهقه ، وتنفّر النفوس منه ؛ كالذى يفعله أصحاب المقامات ، وملتزمو المحسنات ، ومن لم يقف على أسرار البلاغة الحقة ، ومطالبها الصحيحة . وذلك زعم باطل ، لا يقول به أديب متمكن ، ولا بليغ حاذق . فنرى عن كلام « حمل صاحبه »^(١) فرط شغفه بأور ترجع إلى ماله اسم فى البديع^(٢) إلى أن ينسى أنه يتكلم ليفهم ، ويقول ليبين . ويخيل إليه أنه إذا جمع بين أقسام البديع فى بيت فلا يصير أن يقع

(١) ما يأتى كلام لعبد القاهر الجرجاني فى أسرار البلاغة ص ٦ و ص ٢٩٧ باختصار .

(٢) يكثر فى كلام المتقدمين استعمال « البديع » بمعنى : المحسنات البلاغية المختلفة ، المعروفة فى علوم البلاغة الثلاثة (أى : أنهم يريدون بالبديع : العلوم البلاغية الثلاثة) .

ماعناه في عياء ، وأن يوقع السامع من طلبه في خبط عشواء . وربما طمس — بكثرة ما يتكلفه — على المعنى ، وأفسده ، كمن ثَقَلَ على العروس بأصناف الحلى حتى ينالها من ذلك مكروه في نفسها . وهذا هو الكلام البغيض ، والزخرف الشائن « أما ^(١) الاحتفال والصنعة في التصويرات التي تروق السامعين وتروعهم ، والتخييلات التي تهز المدوحين وتحركهم ، فإنها تفعل فعلا شبيهاً بما يقع في نفس الناظر إلى التصاوير التي يُشكِّلها الحُذَّاق بالتخطيط والنقش ، أو بالنحت والنقر ؛ فكما أن تلك تعجب ، وتخلِّب ، وترُوق ، وتُوقِن ، وتدخلُ النفسَ من مشاهدتها حالةً غريبة لم تكن قبل رؤيتها ، ويفشاها ضَرْبٌ من الفتنة لا يَنكُرُ مكانه ، ولا ينجي شأنه . . . كذلك حكم الشعر فيما يصنعه من الصور ، ويُشكِّلُه من البِدْع ، ويوقعه في النفوس من المعاني التي يُتَوَهَّمُ بها الجامد الصامت في صورة الحى الناطق ، والمَوَات الأخرس في صورة الفصيح المعرب ، والمبين المميز ، والمعدوم المفقود في حكم الموجود المشاهد حتى يكسب الدنيء رفعة ، والفامض القدر نباهة .

وعلى العكس يغض من شرف الشريف ، ويظأ من قدر ذى العزة المنيف ، ويظلم الفضل وَيَهَضِّمُهُ ^(٢) ، ويخدش وجه الجلال وَيَتَخَوَّنُهُ ^(٣) ويصنع من المادة الخبيسة بدعاً يغلو في القيمة ويعالو ، ويفعل من قلب ^(٤) الجواهر وتبديل الطبائع — ما ترى به

(١) أسرار البلاغة ص ٢٩٧ باختصار .

(٣) ينقصه .

(٢) يظلمه .

(٤) تغيير .

الكيمياء وقد صحت ، ودعوى الإكسير وقد وَصَحَتْ . إلا أنها
رُوحانية تتلبس بالأوهام والأفهام ، دون الأجسام والأجرام .

ثانيهما : أن بعض الدخلاء في الأدب ، الواغلين على أهله - عاجزون عن
إجادة التعبير ، وحلاوة البيان ، ورشاقة التأليف ؛ فهم يدافعون عن
المعنى ، ويجأرون بأن الفضل كله له ، وليس للألفاظ منه نصيب .
وما يدافعون إلا عن أنفسهم ، وعجزهم البياني ، وما يشينهم من عى
لا سبيل إلى تداركه ، وتقصير عزَّ على الإصلاح .

ويجرتنا الكلام في المعاني إلى الكلام في أمر آخر يتصل بها ؛ فقد قالوا
إن من المعاني ماهو شريف ... ، وما هو خسيس ... ، وأن كلا منهما يستمد
تأثيره من حسن الصياغة ، وأناقة التأليف . وأن المعنى الشريف أبلغ تأثيراً ،
وأشد وقعاً في النفس بسبب شرفه . (كالذي أشار إليه الجرجاني ^(١) وغيره فيما
سبق) وهذا تقسيم — وإن اعترف بفضل اللفظ ومزيتة — غير مفهوم ،
ولا مقبول ، فالعهد بالمعاني أنها لا توصف لذاتها بشرف ولا خسة ؛ فكلُّ منها
في مكانه مطلوب ، حيث لا يغنى عنه غيره ؛ فالحاجة إليه ماسة في ذلك
المكان ، وهو فيه أصيل ؛ أصالة الآخر في مكانه ، فلا تفاوت بينهما من
هذه الجهة . ومن أين يجيء التفاوت بينهما في الشرف أو الخسة والأمر كما
وصفنا من تفرّد كل معنى بموضع ، واستثناء كل موضع بمعنى ؛ بحيث
لا يصلح أحدهما إلا لصاحبه ؟

والحق أن ما يسمونه : خسة المعاني ، أوحقارتها ، أوضالة شأنها — إنما
يجيء من وضعها في غير مواضعها ، وإحلالها محلاً لم يخصص لها ؛ فليس
العييب ذاتياً فيها ، وإنما العيب من المتكلم الذي يفسد الوضع ، ويسمى

(١) راجع : أسرار البلاغة ص ١٩ و ١٢٣ وما بعدها .

الاختيار، ولا يُحْكِمُ القول إحكاما يصيب به الهدف، ويُوَصِّلُ إلى وضع المعاني في نصابها المحتوم. ومن هنا صح قول القائل^(١): (لا تجد معنى يختل إلا من جهة اللفظ، وجريه فيه على غير الواجب).

* * *

إلى هنا وضحت قيمة الألفاظ في الأداء، وتجلّى فضلها على المعاني، وعظيم شأنها في التأثير. لكن ما الألفاظ التي لها المزايا السابقة؟ وما أوصافها التي تعرّف بها؟ ذلك مانعرض له الآن، ونعهد له بالأمثلة:

* * *

(١) الألفاظ وأوصافها، وما يتصل بها:

سمع أعرابي قول جرير:

إِنَّ الْعِيُونَ الَّتِي فِي طَرْفِهَا حَوْرٌ قَتَلْنَا، ثُمَّ لَمْ يَحْيَيْنِ قَتَلَانَا
يَصْرَعْنَ ذَا اللَّبِّ حَتَّى لَا حَرَكَ بِهِ وَهْنٌ أَضْفُ خَلَقِ اللَّهِ أَرْكَانَا

فقال: ما أحسن كلمة: (يصرعن)!! وما أفتح كلمة (أركاناً)!!

وسمع آخر قول الأعرج^(٢):

نَحْنُ بَنُو الْمَوْتِ إِذَا الْمَوْتُ نَزَلَ لَا عَارَ بِالْمَوْتِ إِذَا حُمَّ الْأَجَلُ
وَالْمَوْتُ أَحَلَّى عِنْدَنَا مِنَ الْعَسَلِ

وقول المتنبي:

إِذَا شِئْتُ حَفَّتْ بِي عَلَى كُلِّ سَابِجٍ رَجَالٌ، كَأَنَّ الْمَوْتَ فِي فَهْأَ شَهْدُ^(٣)

فقال: إن لفظة: (الشهد) في كلام المتنبي أحلى^(٤) من لفظة: العسل في كلام الأعرج. ومعنى الكلمتين واحد، وإن اختلفت حروفهما.

(١) صاحب العمد ج ١ ص ٨٠. (٢) من شعراء الحماسة.

(٣) معنى البيت: إذا دعوت قومي لكريمة أجاوني مسرعين على ظهور الخيل السريعة

مستعذبين الموت. (٤) المثل السائر، القالة الأولى.

وسمع ثالث قوله تعالى : (فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا ، وَلَا مُسْتَأْسِنَ
لِحَدِيثٍ ؛ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبَى فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ . وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي
مِنَ الْحَقِّ) .

وقول المتنبي :

تَلَذُّ لَهُ الرُّوءُ ؛ وَهِيَ تُؤْذَى وَمَنْ يَعْشَقُ يَلَذُّ لَهُ الْفَرَامُ

قال : إن هذا البيت من أبيات المعاني الشريفة ؛ إلا أن لفظة (تؤذى)
جاءت فيه وفي الآية ؛ فحسن موقعها في الآية ، وضعف تركيبها في البيت ،
فخطت من قدره ^(١) .

كما سبق نرى الكلمتين توصف إحداهما بالحسن ، أو الحلاوة ، والأخرى
بالقيح أو الضعف ، وقد يكون معناهما واحدا ، بل قد يتفقان مبنى ومعنى ،
ويختلفان حُكْمًا . (أى : من جهة الحسن والقيح) فما سبب الخلاف ؟
وما الحسن الذى يَلَحَقُ الكلمة فتمدح به ، والقيح الذى يلحق أخرى فتذم
من أجله ؟ وقد تمدح الكلمة الواحدة فى موضع وتذم فى آخر ، فما سبب ذلك
كله ؟ وهل هناك فرق بين الحسن والحلاوة ، وبين القبح والضعف
وأمثالهما ؟

نعم ننتقل من الكلمة إلى الجملة (الكلام) أيضاً ؛ فقد سمع أديب

الجزير :

إِنَّ الَّذِينَ غَدَوْا بِبَيْتِكَ غَادِرُوا وَشَلًّا ^(٢) بَعِينِكَ ؛ لَا يَزَالُ مَعِينًا ^(٣)

(١) المثل السائر للقاله الأولى .

(٢) ظاهره جاريا .

(٣) الوشل هنا : الدمع الغزير .

غِيْضُنَ مِنْ عِبْرَاتِهِنَّ ، وَقُلْنَ لِي : ماذا لقيتَ من الهوى وَلَقِينَا ؟
 قَال : هذا شعر لا أعلم معنى أجود ولا أحسن من معناه^(١) . فما معنى
 الجودة والحسن هنا ؟ وما المراد بالمعاني الشريفة كالتي في البيت الأسبق ؟
 وهل جودة المعنى وحسنه وشرفه سواء في مدلولاتها والمراد منها ؟

وسمع آخر قول الشاعر :

ولو أُرْسِلْتُ مِنْ حُبِّيْ لَكَ مَهْجُوتَا^(٢) مِنَ الصَّيْنِ

لَوْافِيْتِكَ قَبْلَ الصَّبْحِ أَوْ حِينَ تُصَلِّينَ

فنفر من دناءة اللفظ ، وخسته ، وابتذال المعرض ، وقبحه^(٣) . ودesh من
 استحسان الأصمعي لهذين البيتين . فما دناءة اللفظ وخسته ؟ وما ابتذال
 المعرض وقبحه ؟.

وسئل الفرزدق : مَنْ أشعر العرب ؟ فقال : بشر بن أبي خازم
 بقوله رائياً :

ثَوَى فِي مَلْحَدٍ لَا بَدَّ مِنْهُ كَفَى بِالْمَوْتِ نَأْيَا وَاغْتَرَابَا

ولما سئل جرير قال : بشر بن أبي خازم ، ولكن بقوله :

رَهِيْنُ بَلَى ، وَكُلُّ فَنَى سَيَبْلَى فَشَقَّى الْجَيْبَ وَانْتَجَبَى انْتَحَابَا

فاتفقا على بشر ، واختلفا في الاستشهاد . فما سبب اختلافهما ؟ وما حجة
 كل منهما ؟ ولم خالفهما غيرها ممن قال : إن أشعر العرب زهير إذا رغب ،
 والناظفة إذا رهب ، والأعشى إذا طرب . وامرؤ القيس إذا ركب ، وجرير
 إذا غضب ؟ أو ... أو ... وما أكثر أو ...

(١) مقدمة الصناعتين . (٢) ضالا على غير هدى .

(٣) مقدمة الصناعتين .

فنحن أمام كلام يوصف نوع منه بالجودة أو الشرف ، ونوع آخر بالدناءة والابتذال . ولا ندرى على وجه الدقة سبب الحكم ، ولا المراد منه . وقد يختلف الحكم على كلام مُعَيَّن مُحدَّد ؛ فيحمده قوم ، ويذمه آخرون ؛ وهو في الحالتين واحد . وقد يكون من الشعراء من يحكم له فريق بالسبق ، ويحكم عليه آخرون بالتخلف . فما مرَّذُ الأمر في ذلك ؟ وما الذى له الحكم القاطع ، والقول الفصل ؟

إنه الذوق الخاص ، والهوى الذاتى (الشخصى) . فلم يكن أمام الأدباء والناقدين قبل القرن الثانى والثالث الهجريين ما يُحكمونه سوى هذين ؛ وكلاهما لاضابط له ، ولا حدود . ومن ثمَّ اختلفت الآراء والأحكام باختلاف الأذواق والأهواء . وظل الأمر كذلك حتى زمن التدوين فى القرنين الثانى والثالث ؛ حيث انتشر التأليف ، واستقلت فروع العربية ، وقام كل فرع منها على مسأله الخاصة ، وصنفت أبوابه وفصوله ، وبرزت مصطلحاته واضحة محددة . فانضم الأدباء والناقدون للركب ، ووضعوا للنقد معالم توضح طرائقه ، وأساليبه ، وتضبط مسأله ، وتبين مناحى الحسن والقبح فى الكلام على قدر استطاعتهم إذ ذاك . وجاء مادونوه فى هذه الناحية مفيداً فى إبانة ، ومرشداً لمن جاء بعدهم .

وفى طليعة هؤلاء الناقدين والأدباء الجاحظ (المتوفى سنة ٢٥٥ هـ) فقد ضمن كتبه المختلفة (ولاسيما البيان والتبيين) ألواناً من ذلك . ثم المبرد (المتوفى سنة ٢٨٥ هـ) فى كتابه الكامل ، وأضرابهما ؛ وقد غلب على هؤلاء مزج النقد بالأدب ، وخط فروع العربية بعضها ببعض فى كثير من مسائلها ، وعدم استخلاص المصطلحات استخلاصاً مَوْحِداً بينهم . ثم جاء بعدهم أئمة

آخرون ساروا على الدرب ، ولكن في شئ من التباين والتفسير ؛
فقد مزجوا الأدب بالنقد كسابقهم ، وامتازوا بفصل فروع العربية ،
وبإبراز المصطلحات أكثر من قبل . ومن هؤلاء قُدّامة بن جعفر (المتوفى
سنة ٣٣٧هـ على الراجح) في كتابيه : نقد النثر ، ونقد الشعر . وعبد القاهر
المرجاني (المتوفى سنة ٤٧١هـ) وهو أظهرهم ، وأوضحهم نفعا في هذه الناحية
بكتابه : دلائل الإعجاز ، وأسرار البلاغة ، حتى عدّه بعض الباحثين
أول مؤسس لعلوم البلاغة^(١) .

وبالرغم من هذا كله بقيت أصول النقد وقواعده ومصطلحاته مشوبةً
بالغموض ، مصابة بالخلط والتشتت . حتى انبرى لها علماء البلاغة القاعدية ؛
فتجردوا لها ، وجمعوا أصولها ، ووجدوا مصطلحاتها ، وصنفوا مسائلها ، وألّفوا
لها كتباً خاصة مُحْكَمَةً ، متقنة ، تداركت ما فات السابقين . وفي مقدمة العلماء
« السَّكَّاكِي »^(٢) (المتوفى سنة ٦٢٦هـ) ومدرسته ؛ فقد خدموا البلاغة العربية
أجلّ خدمة . وحين نقول : البلاغة ، إنما نقول العلم الذي يتصدى لكشف
محاسن الأدب ، وضبط قواعد النقد ، مستنبطة من الأدب الأصيل ، والنصوص
العربية الصافية في أجمل صورها وأسمائها ، ويوضح معالمها (أى : الأدب
والنقد) ، وينفرد بكل ما يختص بتجليتهما ، وهذا هو موضوعه وغايته .
وأرى الفرصة سانحة لأشيد بفضل « السكاكي » ومن آفّ آفّه ؛ برغم
الناقين عليه ، أو المتسرعين في حكمهم على آثاره . فقد مهد السبيل للنقد ،
ويسره ، وحدد طرائقه ، ووجد أساليبه ، وهب النفوس لتذوق الأدب ،

(١) ومن هؤلاء يحيى بن حمزة الحسني صاحب كتاب الطراز المتوفى سنة ٧٢٩هـ فقد

سجل هذا الرأي في مقدمة كتابه ، وأثنى على عبد القاهر وكتابه ثناء جماً .

(٢) برغم تكلفه وتعقيد أحيانا .

والتمييز بين حسنه وقبيحه تمييزاً يقوم على دعائم من العلم والفن معاً ؛ لاعلى دعائم من الذوق المطلق ، والهوى المتحرر ، كما كان الحال قبل عصر التدوين والتأليف .

نعم إن البلاغة القاعدية لا تغنى عن الذوق ، وهى بما أعدته من الضوابط الدقيقة لن تستطيع أن تزيله من طريقها ، ولا أن تقهر الهوى وتخفى آثاره فى الحكم ؛ ولكنها — من غير شك — تستطيع أن تكسر حدة هذا ، وتخفف شدة ذلك ، وتصلح — إلى حد كبير — ما فسد من أمرها . وتلك مزايا لا يحددها إلا مكابر .

ولشد ما يؤلنى أن أرى بعض المثقفين والمتأدبين يتأفف حين يسمع اسم : البلاغة القاعدية ، ولا يتورع عن اتهامها بإفساد الذوق الأدبى ، وتعطيل المواهب الفنية ، وإصابة العقول بالجمود والضيق . وهو — لهذا — ينادى بنبذها ، وتحريم دراستها فى معاهد التعليم ؛ مدعياً أن الملكة الأدبية تنمو بقراءة الأدب نفسه ، وتترعرع عليه وحده ؛ فلا خير فى قواعد البلاغة ودراستها ، ولا غناء فى فهم أصولها ، وفروعها ، وقراءة كتبها ، وكل ما يتصل بها ، بل فيها الضرر كل الضرر .

وهذه دعوى جريئة ، تقوم على كثير من المغالطة أو التسرع ؛ فليست قواعد البلاغة إلا كفواعد النحو ؛ فقد ساعدنا النحو على فهم الكلام العربى من ضبط حركانه ، كما ساعدنا على محاكاة قولاً وكتابة بغير خطأ . وكان فى استطاعتنا أن نصل إلى هذه الغاية الجليلة من طريق القراءة المستمرة ، والاستماع الطويل للصحيح من كلام العرب ؛ فتنمو عندنا ملكة تقليدهم ، ومحاكاتهم فى النطق بلغة سليمة من غير أن نعرف النحو ، وقواعده ، ودروسه . لكن

أستطيع أحد أن ينصح بهذا الرأي الآن وهو يعلم مبلغ الجهد والوقت اللذين يتطلبهما الأخذ به ، حتى نصل إلى تلك الغاية ؟ أستطيع عاقل - وبخاصة في عصرنا عصر الكدح ، والعمل ، والحرص على الوقت - أن ينادى بترك النحو ودراسته لنصل إلى الغاية منه بطريق آخر ؛ هو قراءة الكلام العربى ، والاستماع له ؟ فأى الطريقين أسير جهدا ، وأقل زمناً ، وأضمن نجاحاً ؟ . إنه لا وجه للمفاضلة والتخيير بين الاثنين ؛ فالحق واضح . كذلك الشأن في علوم البلاغة القاعدية ؛ فن الميسور أن نتذوق الأدب بالقراءة المستديمة وحدها ، وأن ينضج بها ذوقنا ؛ فيدرك الحسّن والتبجح ، ويميز الخبيث من الطيّب . وهذه طريقة لاشك قويمة ، وعليها سار - ولا يزال يسيرُ - كثير من الأدباء والمتأدبين . لكن أيتسع وقت الراغبين اليوم لمثل هذه القراءة ؛ مع ما يحتمله أكثرهم من أعباء أخرى ترهقهم بها الحياة ؟ أليست علوم البلاغة مما يساعدهم على سرعة التذوق ، وكمال النضج ، والتسّير بهم قدما إلى الغاية التي يريدونها ، فتحفظ عليهم جهداً ، وتذخر لهم وقتاً ، ينفقونها في مطالب العصر المرهقة ؟

لم يقل أحد إن قواعد النحو وحدها كفيّلة بسلامة النطق ، وصحة الكلام ، بل لابد معها من الدربة والمِرانة وقراءة الصحيح ؛ كذلك البلاغة القاعدية لا تغنى عن الأدب الأصيل ونصوصه ، ولم يقل أحد إنها تخلق الأديب الموهوب . وإنما قالوا إنها تُعين على كشف نواحي الأدب ، وتبيان محاسنه ومساويه ؛ في يسر ، وسرعة ، وراحة . وتجمع الباحثين والناقدين حول أصول موحّدة ، وضوابط مُقرّبة ؛ وكفى بهذا فضلاً يقتضينا أن نذود عنه ، ونزعه ، ونزيد عليه ماتدعو الحاجة إليه .

البلاغة — إذًا — كالنحو . بل هي كباقي العلوم الأخرى ذوات القواعد والأصول العامة ؛ لا بد لتحقيق غاياتها الكاملة من الدربة ، وحسن المزاولة . ولا يكفي الاقتصار على ناحيتها النظرية ؛ إذ لا يصير الإنسان زارعا ناجحًا ، أو مهندسًا نافعاً ، أو جراحاً ماهراً ، أو غير ذلك بمجرد استظهار النظريات الزراعية ، أو الهندسية ، أو الطبية ، أو سواها ؛ بل لا بد معها من المزاولة العملية الواسعة ، والتطبيق الأوفى .

فليس من الحق ، ولا من صواب الرأي أن يرتفع صوت بالغاء القواعد البلاغية ، أو إهمالها ، أو إهمال مصطلحاتها ، من غير أن يحل محلها ما يغني غناها ، ويقوم مقامها ؛ بالوسائل العلمية الناجمة ، والطرق السليمة المأمونة . وإلا كان ذلك رجعة إلى البلبلة ، وردة إلى الفوضى التي كانت سائدة قبل عصور التدوين والتأليف ، وانتكاسا إلى حالة أجهل المتقدمون أنفسهم للخروج منها ، والتخلص من آثامها على الوجه الذي أوضحناه آنفاً^(١) .

وها نحن أولاء نشهد من بوادر الفوضى في عصرنا ما يدعونا لمقاومتها ؛ فقد أصبحنا نصدع بمن يذم البلاغة العربية ؛ لاشيء إلا لزرعة طائشة ، أو شهوة جامحة ، أو محاكاة حقاء . وصرنا نسمع من يصف هذه الكلمة بأنها : حلوة ، أو ناعمة ، أو جافة ، ومن يصف تلك بأنها : حسنة ، أو مرنة ، أو خشنة . ومن يصف غيرها بأنها : هادئة ، أو لينة ،

(١) وقد رأيت إماما من أئمة الأدب والنقد الأقدمين (هو ابن الأثير الجزري) ينهى على بعض نظرائه إهمالهم شئون البلاغة القاعدية عند الموازنة بين الشعراء . . . (راجع ص ٢٢١ ج ٢ الصبح المنبي هامش العكبرى) .

أو مُدَوِّية . من غير أن ندرى — على وجه الدقة — ما يريده كل منهم بوصفه ، بل من غير أن يدرى أحدهم ما يريده الآخر . بل ربما كان المتكلم بها لا يدرى أيضا ؛ وقد تنتقل الداء من الكلمة المفردة إلى الجملة المركبة (الكلام) ؛ فأصاب هذه ما أصاب تلك ، وصرنا نسمع في وصف الكلام في معرض نقده : أنه سائغ ، أو بغيفض ، طليّ ، أو مستهجن ، جديد أو تقليدى . . . إلى غير ذلك من الأحكام المبهمة ، والآراء الغامضة التي لا تعتمد على اصطلاح معروف .

ويزيد الألم حين نسمع صاحب هذا القول الفجّ يقول : هذا رأيي ؛ لا أبالي أكان موافقا للبلاغة القاعدية أم غير موافق ؟ وهذا منتهى الفوضى والعبث . ومماثل قائله إلا مثل من يتنكر للقواعد النحوية ؛ لا يبالي بأحكامها ، ولا يرجع إلى مصطلحاتها . وذلك هو الفساد الذى لا يشبهه فساد . فما أجدرنا بمحاربة هذه النزعة الطائشة ، والقضاء عليها قبل استفحالها ، وأن نقف إلى قول أمير الشعراء :

لَا تَحْذُ حَذْوَ عَصَابَةٍ مَفْتُونَةٍ يَجِدُونَ كُلَّ قَدِيمٍ شَيْءٍ مُنْكَرًا
لَوْ اسْتَطَاعُوا فِي الْجَامِعِ أَنْكَرُوا مِنْ مَاتَ مِنْ آبَائِهِمْ ، أَوْ عُثِرَا
مِنْ كُلِّ مَاضٍ فِي الْقَدِيمِ وَهَدِمِهِ وَإِذَا تَقَدَّمَ لِلْبَنَاءِ قَصْرًا
وَأَنَّى الْحَضَارَةُ بِالصَّنَاعَةِ رَتَّةً وَالْعِلْمُ نَزْرًا ، وَالْبَيَانُ مُتْرَبْرًا

ولعل الذى خلق العداء للبلاغة القاعدية ، ودعا للثورة عليها أحد امرين ، أو : هما معاً :

أولهما : جهل أعدائها بحقيقتها ، ومراريتها ، ووظيفتها على وجهها الحق الذى دَوَّنَه الأعلام من رجالها الأوائل .

وثانيهما : ما أصاب قواعدهما في عصورها المتأخرة من غمق وفساد ؛ أبقدها عن جوهر الأدب الخالص ، وحالاً بينها وبين نصوصه الأصلية النقيّة ، وقرباً بينها وبين الفلسفة الدقيقة ، والمنطق العنيف ، والجدل السخيف ، والمباحكات اللفظية ، والعقد والإشكالات التي هي أقرب إلى الأحاجي والألغاز ، منها إلى الوسائل اليسيرة النافعة ؛ فشوهت جمالها ، وأساءت إليها وإلى كتبها (ولا سيما المؤلفة في العصور المتأخرة) وذادت الناس عنها وعن قراءتها ودراستها ؛ إذ كانت حينئذ طويلة مفرطة الطول ، أو مختصرة سيئة الاختصار ، وآنا محتاجة لشرح أو شروح ، ومن وراء الشرح تنبيهات ، وتقريرات ، وتفصيلات ؛ واستدراكات . . . إلى غير ذلك مما لا شأن لصميم البلاغة القاعدية به ؛ فليس العيب أصيلاً فيها ، وإنما هو دخيل مُقَحَّم عليها .

وشأننا في إصلاحها كشأننا في تدارك كل عيب طارئ ؛ نُبْقَى على الأصل النافع ، ونُخَلِّصه من شوائبه وعيوبه ، ولا نستأصله لفساد طارئ عليه ، يمكن علاجه أو التخلص منه في يسر وسهولة . وواجب الأمانة للفتنا ، وأدبها ، والحرص على قوميتنا - يُهَيِّب بنا أن نحصر على تراثنا الغالي ، ونستصفيه من الأدران ، ونزيده من كل جديد مفيد تكشف عنه الأيام ، ونذود عنه ألسنة السوء وأقلامها^(١) .

تلك كلمة لم يكن منها بُدُّ في هذا المقام نعود بعدها إلى مانحن بصدده بما قرره البلاغيون عن أوصاف الكلمة والكلام ؛ ما يحمد منهما أو يذم .

* * *

(١) سأوضح الطريق لذلك في بحث مستقل .

« لن^(١) يستغنى الأديب في تأليف كلامه عن ثلاثة أشياء :

أولها : اختيار الألفاظ المفردة . وحكم ذلك حكم اللآلئ المبددة ؛ فإنها تُتَخَيَّرُ وتُنْتَقَى قبل النظم .

ثانيها : نظم كل كلمة مع أختها المشاكلة لها ؛ كي لا يجيء الكلام قلقاً نافرأً عن مواضعه . وحكم ذلك حكم العقد المنظوم في اقتران كل أولوة منه بأختها المشاكلة لها .

ثالثها : الغرض المقصود من الكلام على اختلاف أنواعه . وحكم ذلك حكم الموضع الذي يوضع فيه العقد المنظوم ؛ فتارة يُجْعَلُ إكليلاً على الرأس ، وتارة يجعل قِلادة في العنق ، وتارة يجعل قُرْطاً في الأذن . ولكل موضع من هذه المواضع هيئة من الحسن تخصه .

« فهذه ثلاثة أشياء لا بد من العناية بها وهي الأصل المعتمد عليه في تأليف الكلام نظماً ونثراً » .

فأما عن الكلمة فقد عرض كثير منهم^(٢) لأوصاف حسننها وقبحها ، وتكاد آراؤهم تلتقي في أن الكلمة الحسنة ، أو : الجيدة ، أو : الجميلة ، أو : ماشئت من أسماء المديح والاستحسان هي : (الفصيحة) . واستغنوا

(١) المثل السائر المقالة الأولى ص ٥٦ باختصار .

(٢) في مقدمة هؤلاء : ابن سنان الخفاجي (المتوفى سنة ٤٦٦ هـ) في كتابه سر الفصاحة ، ص ٥٥ وما بعدها . وضياء الدين الموصلي في كتابه : المثل السائر . وكذلك شروح السعد ، وغيره من كتب القواعد البلاغية التي لا يخلو كتاب منها من التعرض لهذا البحث عند الكلام على الفصاحة ، والبلاغة ، ومعناها .

(بالفصيحة) عن كل اسم أو وصف آخر محمود ، وارتضوها وصفا مَوْحِداً ،
واصطلاحاً عاماً لا توصف الكلمة الطيبة بغيره .

لكن ما الكلمة : (الفصيحة) التي ارتضوها ! وما مدلولها المُرَكَّرُ
الذي يغنى عن الأوصاف الحميدة كلها ، وعن الأحكام المختلفة التي كانت
تدل عليها الكلمات المتفرقات الأخرى ؟ وإن شئت فقل : ما معنى الفصاحة ؟
وما المقصود منها ؟

لقد حَدَّدوا هذا المعنى أو المدلول تحديداً دقيقاً في كتبهم ، وأوضحوه
بالأمثلة والشواهد . فرجعه الأوفى هناك . ولكن هذا لا يمنع أن نشير إشارة
عابرة موجزة إلى بعض ما قالوه مما يتصل بموضوعنا .

فالفصيحة عندهم^(١) : ما تحققت فيها أوصاف معينة ، إذا تكاملت
بلغت أسمى الغاية في الحسن . وعلى قدر الموجود أو المفقود من تلك
الأوصاف تأخذ الكلمة قسطها من الحسن أو القبح وتتلخص^(٢)
في أن تكون :

(سهلة النطق على اللسان^(٣)) (جميلة الجرس على الأذان^(٤)) (واضحة

(١) كتاب: سر الفصاحة ص ٦٠ وما بعدها - باختصار -

(٢) راجعها مشروحة في المرجع السابق ص ٦٠ . وما أكثرها في المراجع الأخرى .

(٣) أي: خالية مما يسمونه : تنافر الحروف ؛ بسبب تكرارها أو تقارب مخارجها .

(٤) أي: تكون موسيقية ؛ كما يقال الآن . وهذا يتطلب التأنيق والمبالغة في اختيارها ملائمة

لجاراتها ، وللموضوع الذي تعرض فيه ؛ فموضوع الغزل والعتاب يقتضي أن

تكون رفيقة ، وموضوع الحرب والتهديد يقتضي أن تكون جزلة ؛ فإن لم يتحقق هذه

فقدت موسيقيتها ، ووصفت بأنها : ركيكة نائية ...

المعنى للخاصة ، مألوفة عندهم^(١)) (موافقة لأصول اللغة وقواعدها الفرعية^(٢))
(معتدلة في عدد حروفها^(٣)) (ليس بين معانيها الشائعة ماتنفر منه النفس ،
وتشتمز عند سماعها وقراءتها) (مطبوعة بطابع الطرافة^(٤) والخصوصية^(٥)) .
هذا عن الكلمة ، وأما عن الجملة وأوصافها (أى : عن الكلام المركب)
فشبيه بما سبق ؛ فالكلام المحمود عندهم : ما كان فصيحاً . ولا يوصف
بالقصاحة إلا إذا (كان سليم التأليف ؛ أى : بعيداً من الخطأ اللغوي ،
ومخالفة الأصول والقواعد العربية المختلفة) (وكان فصيح المفردات ؛ واحدة
واحدة على الوجه الذى سبق) (مؤتلف الكلمات متجانسها ؛ فلا تفرق بينها
ولا عداً^(٦)) (سهلاً على اللسان والأذان ؛ أى : لا تكرر في حروفه أو كلماته

(١) فلا تكون متوعدة ، وحشية ، غريبة المعنى والاستعمال عندهم .

(٢) كالنحو ، والصرف ، والعروض

(٣) فلا تكون كثيرة الحروف ، يصعب النطق بها ، مثل : سويداواتها (جمع سوداء)

في بيت التنبى : إن الكرام بلا كرام منهم . مثل القلوب بلا سويداواتها

(٤) بأن تكون عربية ، مصونة ؛ ليست رائجة بين العامة والسوقة .

(٥) يريدون بخصوصيتها أمران :

« ١ » أن نستعمل ألفاظ المدح في المدح ، وألفاظ الرثاء في الرثاء ، ... وهكذا ،

من غير خلط ، ولا تجاوز في الاختصاص . إلا الألفاظ الخاصة بالمصطلحات العلمية
فاستعمالها معيب في الأدب .

« ٢ » وأن نستغنى بالكلمة الواحدة التي هي نص في المعنى وفي الموضوع عن التي

ليست نصافيه ، وعن الجملة المركبة ؛ تقول : امرأة صناع . بدل امرأة ماهرة ؛

لأن كلمة : « ماهرة » لا تؤدي ما تؤديه الصانع (أى : الماهرة في الأعمال اليدوية)

فالأولى مختصرة ، ونص في موضوعها دون الثانية . ومثلاً : أنجب فلان ؛ بدلاً من فلان

ولد له ولدٌ ذكى ، كريم السجايا ؛ فإن هذه الألفاظ الكثيرة تغني عنها الكلمة الأولى .

(٦) يريدون بذلك أن تكثر الكلمات الجزلة في المواطن التي تقتضى الجزالة والكلمات

الريقة في المواطن التي تتطلب الرقة . وأن تغلب ألفاظ المدح في موضعه ، والرثاء

في موضعه . وكذلك باقي الأغراض ، فلا توضع كلمة جزلة بجانب رقيقة في موضع

يتطلب أحدهما دون الأخرى ، ولا تجمع بين لفظة للرثاء وأخرى للتهنئة في موضع

يقتضى واحدة منهما ، ويتأبى غيرها .

يتقها) (واضح المعنى عند الخاصة) . ثم هو محتاج بعد هذا كله إلى مطابقتها لمقام القول ؛ من مدح ، وذم ، وثناء ، وابتداء ، وطلب ، وإنكار ، وجزالة ، ورقة ، وفصل ، ووصل ، وإيجاز ، وإطناب ، ومساواة . . .
وأما عن الغرض من الكلام وموضوعاته فله موضعه الخاص من هذا الكتاب .

ذلك ما قالوه ، وتلك ضوابطهم السليمة . ولهم فيها إبانة ، وإفاضة ، وشواهد ؛ فليرجع إليها من شاء استزادة ، أو استبانة .

فما مبلغ توفيق « المتنبي » و « شوقي » في هذه الناحية ؟

فأما المتنبي فلم يُوفَّقْ — إلا قليلاً — في اختيار كلماته المفردة ، وكلامه المركب . وسنعرض عليك من هذا وذاك ما يقنعك ، من غير أن نتعمد اختيار أمثلة بعينها ، أو تصيّد نماذج خاصة ؛ فالشواهد كثيرة ؛ لاتكاد تخلو قصيدة منها ، ولا يصعب على الباحث أن يجد منها في الديوان ما يتجاوز العشرات إلى المئات . وليس في هذا القول سرف ولا مبالغة ، بل هو الحق الضراح .

وهذه طائفة ^(١) منها ندع للقارئ الحكم عليها (مفردة أو مركبة) بما يراه ،

مسترشدا بما دَوَّنه الناقدون البلاغيون .

(١) وَأَنَّ الْبُيُوتَ ^(٢) لَا يُعْرِقُنِ ^(٣) إِلَّا

وَقَدْ أَنْضَى ^(٤) الْعُذْفِرَةَ ^(٥) اللَّسْكَاءَ ^(٦)

(١) من شاء أن يرجع إليها في الديوان لم يجد عمرا في ذلك ؛ لأن قصائد الديوان مرتبة

على حسب الحروف الأبجدية ، فإذا عرفنا آخر حرف في البيت هنا أمكننا أن نهتدى

منه إلى قصيدته . (٢) الإبل الحراسية . (٣) لا يدخل العراق .

(٤) أنعمها (أى : الأعراق) ؛ حتى صارت هزيلة . (٥) الناقة الشديدة .

(٦) الناقة المكتنزة اللحم .

(٢) سَلِي عَنْ سِيرَتِي فَرَسِي ، وَسَيْفِي
وَرُنْحِي ، وَالْمَمْلَعَةَ^(١) الدَّفَاقَا^(٢)
(٣) ويقول متغزلا ، يصف الشعر :

حَالِكٌ^(٣) كَالْفُدَافِ^(٤) ، جَنْلٌ^(٥) دَجُوجِي^(٦) (م)
أُنَيْثٌ^(٧) ، جَعْدٌ^(٨) بِلَا تَجْعِيدِ
ثم يقول مفتخرا :

لَأَمَةٍ^(٩) ، فَاصَّةٌ^(١٠) ، أَصَاةٌ^(١١) ، دِلَاصٌ^(١٢)
أُخْكَمَتْ نَسْجَهَا يَدَا دَاوُودِ
يَقْتُلُ الْعَاجِزُ الْجَبَانَ ، وَقَدْ
يَعْجِزُ عَنْ قَطْعِ بَخْنُقِ^(١٣) المولودِ
وَيُوقِي النَّعْيَ الْمِخْشُ^(١٤) وَقَدْ خَوَّ (م)
ضَ فِي مَاءِ لَبَّةٍ الصَّا——نَذِيدِ
(٤) وقال في مدح بدر بن عمار حين جاء الطبيب لِعَصْدِهِ :

لَمْ تُبْقِ إِلَّا قَلِيلَ عَافِيَةٍ قَدْ وَقَبَتَ تَجْتَدِيكُهَا^(١٥) الْعِلْلُ

-
- | | |
|-------------------------------|---|
| (١) الناقة الخفيفة القوية . | (٢) السريعة المتدفقة في المشي . |
| (٣) شديد السواد . | (٤) كالغراب . |
| (٦) أسود . | (٧) غزير . |
| (٨) فيه التواء وتقبض . | (٩) مُحْكَمَةٌ (يصف درعه) . |
| (١٠) ساذجة . | (١١) ضافية . |
| (١٣) غطاء الرأس . | (١٢) لينة براقية . |
| (١٥) تطلبها منك هبة . | (١٤) الجري الذي يقتحم الحروب وغيرها لايبالي . |

(قال الشراح معناه : أذهبت مالك بالعتاء ، فلم تبق إلا قليلا من العافية ؛
فقدمت عليك الملل تطلبه) .

(٥) وَلَا وَقَفْتُ بِجِسْمٍ مُسْنًى^(١) ثَالِثَةً ذِي أَرْسَمِ دُرُسٍ فِي الْأَرْسَمِ الدُّرُسِ
(٦) لَنَصَبَحَتْهُمْ رِعَالُهَا^(٢) شُرْبًا^(٣) بَيْنَ ثُبَاتٍ^(٤) إِلَى عِبَادِيدِ^(٥)
تَحْمِلُ أَعْمَادُهَا الْفِدَاءَ لَهُمْ فَانْتَقَدُوا الضَّرْبَ كَالْأَخَادِيدِ^(٦)
(٧) وَيَقُولُ فِي الْغَزْلِ أَيْضًا :

بَأَنَّا نَحْرُغُوبَةً^(٧) لَهَا كَفَلْ يَكَادُ عَنْدَ الْقِيَامِ يُقْعِدُهَا
رَبِّ نَحْلَةٍ^(٨) ، أَسْمَرِ مُقْبِلُهَا سِبْخَلَةٍ^(٩) ، أُنَيْضِ مُجَرَّدُهَا
(٨) وَيَقُولُ مَتَغَزَّلًا أَيْضًا :

دَرَّ دَرُّ الصَّبَا . أَيَّامَ تَجْرِيرِ ذِيُولِي بِدَارِ أَثَلَّةَ عُودِي
(٩) غَفَاةُ عَيْشِي أَنْ تَفَتْ كَرَامِي وَلَيْسَ بَفَتْ أَنْ تَفَتْ الْمَا كُلُّ
(١٠) مَاذَا الْوَدَاعُ وَدَاعُ الْوَامِقِ الْكَمْدِ هَذَا الْوَدَاعُ وَدَاعُ الرُّوحِ لِلْجَسَدِ
(١١) يَحُودُ بِهِ مِنْ يَفْضَحُ الْجُودَ جُودُهُ وَيَحْمَدُهُ مِنْ يَفْضَحُ الْحَدَّ حُدُّهُ
(١٢) مَبِيتِي مِنْ دِمَشْقَ عَلَى فِرَاشِ حَشَاةٍ لِي يَحْرُ حَشَاةٍ حَاشِ
(١٣) وَأَفْجَعُ مَنْ فَقَدْنَا مَنْ وَجَدْنَا قُبَيْلَ الْفَقْدِ مَفْقُودَ الْمَشَالِ

(٢) خيولها .

(١) مساء .

(٣) ضوامر . (المفرد : شازب) . (٤) جماعات (المفرد : ثُبَّة) .

(٥) جماعات متفرقة . (٦) ومعنى البيت : ضمن أعداؤك أن يأخذوا الفداء فضة

وذهبها ؛ فلم يحصلوا إلا على ضرب من السيوف عميق ، كالأخاديد (جمع : أخدود ،

وهو الجُعر) أخذوه نقدا . (٧) امرأة ناعمة ، شابة ، دقيقة العظام .

(٨) سمينة طويلة عظيمة . (٩) سمينة طويلة عظيمة .

(١٤) لَوْلَمْ تَكُنْ مِنْ ذَا الْوَرَى الَّذِي هُوَ عَقِمَتْ بِمَوْلِدِ نَسْلِهَا حَوَّاهُ

(١٥) وَنَهَبُ نَفُوسِ أَهْلِ النَّهْبِ أُولَى بِأَهْلِ الْمَجْدِ مِنْ نَهَبِ الْقُمَاشِ

(١٦) جَوَابُ مُسَائِلِي : أَلَهُ نَظِيرٌ ؟ وَلَآلِكَ فِي سُوءِ الْكَ . لَا ، أَلَا ، لَا^(١)

(١٧) عَظُمْتَ ، فَلَمَّا لَمْ تُكَلِّمْ مَهَابَةً

تَوَاضَعْتَ ؛ وَهُوَ الْعَظُمُ عُظْمًا عَنِ الْعُظْمِ .

(١٨) وَلَا الضَّعْفَ حَتَّى يَتَّبَعَ الضَّعْفَ ضَعْفُهُ

وَلَا ضِعْفَ ضِعْفِ الضَّعْفِ ، بَلْ مِثْلُهُ أَلْفُ

(١٩) سُمِّيتَ بِالدَّهْيِ الْيَوْمَ نَسَمِيَةً مُشْتَقَّةً مِنْ ذَهَابِ الْعَقْلِ لَا الدَّهَبِ

مُلَقَّبُ بِكَ مَا لَقِبْتَ وَيَكُ بِهِ بِأَيُّهَا اللَّقَبُ الْمُلقَى عَلَى اللَّقَبِ

(٢٠) أَبْقَى زَرْبُكَ لِلشُّعُورِ مُحَمَّدًا أَبْقَى نَفِيسٌ لِلنَّفِيسِ نَفِيسًا

وَبِهِ يُضَنُّ عَلَى الْبَرِيَّةِ ، لِأَيِّهَا وَعَلَيْهِ مِنْهَا لِأَعْلَاهَا يُوسَى^(٢)

(٢١) أَيَا خَدَدَ اللَّهُ وَرَدَّ الْخُدُودِ وَقَدَّ قُدُودَ الْحَسَنِ الْقُدُودِ

(٢٢) وَلَمْ أَرْمِثْ جِيرَانِي وَمِثْلِي لِمِثْلِي عِنْدَ مِثْلِهِمْ مَقَامُ

(٢٣) الْعَارِضُ الْهَيِّنُ ابْنُ الْعَارِضِ الْهَيِّنِ ابْنِ

نِ الْعَارِضِ الْهَيِّنِ ابْنِ الْعَارِضِ الْهَيِّنِ

(١) معنى البيت كما قالوا : إذا سألتني سائل : هل له نظير ؟ فالجواب : لا ، وليس لك

نظير في سؤالك ؛ لأن أحدا لا يجمل هذا غيرك . وفي البيت تقديم ؛ وأصله : لا ، ولا لك .

(٢) أُسِيتَ عَلَيْهِ أَسَى : إذا حزنت . وقد اختلف الشراح في معنى البيت ، وأوضح

ما قيل فيه ما نقله الكبير عن الواحدى : أن الناس لو سلموا دونه لم يساوا قدره ؛

لَنَا يُبْخَلُّ بِهِ عَلَيْهِمْ . ولو صاروا فداء له لَمْ يُبْخَلِّ بِهِمْ عَلَيْهِ ، لأنه أفضل منهم

بمجتبعين ؛ ففيه خلف عنهم ، وهم جميعا لا يخلفونه .

(٢٤) وَنَفْسِي لَهُ ، نَفْسِي الْفِدَاءَ لِنَفْسِهِ وَلَكِنْ بَعْضَ الْمَالِكِينَ عَنِيفُ

(٢٥) لَوْلَا الْعُلَا لَمْ تَجِبْ^(١) بِي مَا أَجُوبُ بِهَا

وَجَنَاهُ^(٢) حَرْفُ^(٣) ، وَلَا جَرْدَاهُ^(٤) قَيْدُودُ^(٥)

(٢٦) وَأَمَقَّ^(٦) ، لَوْ خَذَتِ^(٧) الشَّمَالُ بِرَأْسِ

فِي عَرْضِهِ لَأَنَاحَ وَهِيَ طَلِيحُ^(٨)

(٢٧) وَيَقُولُ مَتَغَزَلَا :

أَشَارُوا بِتَسْلِيمٍ فَجَدْنَا بِأَنْفُسٍ تَسِيلُ مِنَ الْأَمَاقِ ، وَالسَّمَّ أَدْمَعُ

يريد بالسَّم : الاسم (لغة فيه) فانظر المعنى الجميل كيف يُفسده اللفظ

القبيح ؟ وأين هذا من قول شوقي :

أَنَادَى الرَّهْمَ ؛ لَوْ مَلَكَ الْجَوَابَا ! وَأَجْزِيهِ بِدَمْعِي ؛ لَوْ أَنَا بَا !

وَقَوْلُ لِحَقْمَةِ الْعَبْرَاتُ تَجْرِي وَإِنْ كَانَتْ سَوَادَ الْقَلْبِ ذَابَا

وقوله يصف قلبه :

تَسَرَّبَ فِي الدَّمُوعِ ؛ فَعَلْتُ وَلَّى وَصَفَّقَ فِي الضَّلُوعِ فَنَاتَ : آبَا

(٢٨) وَيَمْنَعْنِي مِمَّنْ سِوَى ابْنِ مُحَمَّدٍ أَيَادٍ لَهُ عَنْدِي يَصِيقُ بِهَا عِنْدُ

(٢) ناقة عظيمة الوجنت .

(٤) فرس هزيلة .

(٦) مكان طويل .

(٧) أسرع . (الوخد : ضرب من السير ، فيه سرعة) .

(٨) يشكو التعب والإعياء . ومعنى البيت : لو حملت ريح الشمال إنسانا ، وسارت به

في هذا البلد الطويل - لأنناح الراكب ، وسقطت الشمال تعباً وإعياء من طوله .

فإذا كانت الريح ترمي فيه فكيف المسافر ؟

فانظر كلمة : عند .

(٢٩) إِنَّ الَّتِي سَفَكَتَ دَمِي بِجُفُونِهَا لَمْ تَذَرِ أَنَّ دَمِي الَّذِي تَقَعْدُ

يُتَسَاءَل الشراح : ماذا يريد ؟ أكانت تلبس قلادة حمراء ، لونها كلون دمه ؟ أم يريد : أن ذنب قتله لاصق بعنقها ، وأنها مسئولة عنه ؟ .

(٣٠) وَأَبْعَدَ بَعْدَنَا بُعِيدَ التَّدَانِي وَقَرَّبَ قُرْبَنَا قُرْبَ الْبِعَادِ
فما المعنى ؟ وما النسج ^(١) ؟

(٣١) أَلَوْمْ بِهِ مِنْ لَامَنِي فِي وَدَادِهِ وَحُقَّ لَخَيْرِ الْخَلْقِ مِنْ خَيْرِهِ الْوُدُّ
(٣٢) يُقَالُ إِذَا أَبْصَرْتُ جَيْشًا وَرَبَّهُ : أَمَامَكَ رَبٌّ ، رَبُّذَا الْجَيْشِ عَبْدُهُ ^(٢)

(٣٣) يَا أُخْتَ خَيْرِ أَخٍ ، يَا بِنْتَ خَيْرِ أَبٍ كَنَابَةٌ بِهِمَا عَنْ أَشْرَفِ النَّسَبِ
(٣٤) وَمَهْمَه ^(٣) جُبْتُهُ كُلِّي قَدَمِي تَعَجَّرُ عَنْهُ الْعَرَامِسُ ^(٤) الذُّلُّ ^(٥)

(٣٥) أَنَا السَّابِقُ الْهَادِي إِلَى مَا أَقُولُهُ إِذَا الْقَوْلُ قَبْلَ الْقَائِلِينَ مَقُولُ
(٣٦) وَيَقُولُ فِي مَدْحِ بَدْرِ بْنِ عَمَارٍ :

(١) المعنى كما قال الشراح : السَّيْرُ إِلَى الْمَدْحِ أَبْعَدُ عَنِ الْبَعْدِ الَّذِي كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ ، وَقَرَبُ الْقَرَبِ الَّذِي صَارَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ . أَيْ : أَنَّهُ قَرِيبِي إِلَيْهِ بِحَسَبِ مَا كَانَ بَيْنَنَا مِنَ الْبَعْدِ ، وَكَانَتْ عَلَى غَايَةِ الْبَعْدِ مِنْهُ ، فَصُرَتْ فِيمَا بَعْدَ عَلَى غَايَةِ الْقَرَبِ مِنْهُ ، فَقَدْ كَانَ الْعَسِيرُ الْفَضْلُ فِي أَنْ جَعَلَ بَعْدَهُ بَعِيدًا عَنِّي وَقَرِيبًا مِنِّي .

(٢) معنى البيت : إِذَا رَأَيْتَ مُلْكًا عَظِيمًا وَجَيْشَهُ ، وَجَبْتَ مِنْ عَظَمَتِهِمَا وَقُوَّتِهِمَا - قِيلَ لِي : هُنَاكَ مُلْكٌ آخَرٌ أَعْظَمُ (يَقْصِدُ الْمَدْحَ) وَهَذَا الْمُلْكُ الَّذِي تَرَاهُ الْآنَ عَبْدُهُ .

(٣) أَرْضٌ وَاسِعَةٌ بَعِيدَةُ الْأَطْرَافِ .

(٤) التَّوْقُ الصَّلَابُ الشَّدِيدَةُ (الْمَفْرَدُ : عِرْمَسٌ) .

(٥) الْمَرُوضَةُ الَّتِي تَعُودُتُ الْبَيْرَ - (الْمَفْرَدُ : ذَكُولٌ) .

رَأَيْنَا بِي——بَدْرٍ وَأَبَانَهُ لَبْدَرٍ وَلُودًا وَبَدْرًا وَلِيدًا^(١)

(٣٧) فَشَكَرِي لَهُمْ شُكْرَانٍ ؛ شَكَرْتُ عَلَى الْفَدَى

وَشَكَرْتُ عَلَى الشُّكْرِ الَّذِي وَهَبُوا بَعْدُ

(٣٨) وَانْظُرْ كَيْفَ وَصَفَ الشُّرَفَاءُ بِالْبَيْضِ ، وَالْعِلْمُ بِالتَّبْرِيحِ^(٢) حَيْثُ يَقُولُ :

إِذَا الشُّرَفَاءُ الْبَيْضُ مَتَّوْا^(٣) بِقَتَوِهِ^(٤)

أَتَى نَسَبُ أَعْلَى مِنَ الْأَبِ وَالْجَدِّ^(٥)

تَفَضَّلَتِ الْأَيَّامُ بِالْجَمْعِ بَيْنَنَا فَلَمَّا حَدَّثَنَا لَمْ تُدِمَّنَا عَلَى الْحَمْدِ

جَعَلَنَ وَدَاعِي وَاحِدًا لثَلَاثَةٍ جَمَالِكَ ، وَالْعِلْمُ الْأُبْرَحُ ، وَالْمَجْدِ^(٦)

(٣٩) وَيَمْدَحُ ابْنَ الْعَمِيدِ بِالْكَرَمِ :

فَتَى ، فَاتَتْ الْعَدَوَى مِنَ النَّاسِ عَيْنُهُ فَمَا أُرْمَدَتْ أَجْفَانُهُ كَثْرَةُ الرُّمْدِ

فَمَا مَعْنَى الْبَيْتِ ؟ وَإِنْ كَانَ مَعْنَاهُ كَمَا دَوَّنَهُ الشُّرَاحُ ، فَهَلْ أَحْسَنَ اخْتِيَارَ

الْكَلِمَاتِ فِي الْمَدْحِ ؟ وَهَلْ يَسُوغُ هَذَا ذِكْرُ الْعَدَوَى وَالرَّمْدِ حَيْثُ يُرِيدُ أَنْ يَقُولَ :

(إِنَّ النَّاسَ عُمَى ، وَهُوَ الْبَصِيرُ بَيْنَهُمْ ؛ فَعَيُّونَ النَّاسَ لَمْ تَصَلْ إِلَيْهِ . فَهُوَ بَصِيرٌ

بِالْمُسْكَارِ ، وَالنَّاسُ عُمَى عَنْهَا) ؟

(١) الْوُلُودُ : الْوَالِدُ . وَالْوَلِيدُ : الْمَوْلُودُ . وَالْبَدْرُ الْأَوَّلُ هُوَ : الْمَدْدُوحُ . وَالْبَدْرَانِ

الْآخِرَانِ : قِرَانُ . وَالْمَعْنَى : رَأَيْنَا بِرُؤْيَا بَدْرٍ وَأَبَانَهُ وَالِدَ الْقَمَرِ وَقَرَأَ مَوْلُودًا .

(٢) أَكْثَرُ مَا يَسْتَعْمَلُ التَّبْرِيحُ فِيمَا فِيهِ شِقَاءٌ وَتَعَذِّيبٌ . قَالَ الْعَكْبَرِيُّ : لَمْ يَصِفْ أَحَدُ الْعُلَمَاءِ

بِالتَّبْرِيحِ إِلَّا الْمُتَنَبِّيَ . (٣) تَقَرَّبُوا . (٤) الْفَتَوَى : الْخِدْمَةُ

(٥) مَعْنَى الْبَيْتِ : إِذَا تَقَرَّبَ الشُّرَفَاءُ إِلَى هَذَا الْمَدْدُوحِ بِخِدْمَتِهِ ، فَقَدْ اكْتَسَبُوا شُرَفًا

أَسْمَى وَأَطْلَهَ مِنْ شَرَفِهِمُ الْمَوْرُوثِ عَنْ آبَائِهِمْ وَأَجْدَادِهِمْ .

(٦) مَعْنَى الْبَيْتِ : لِأَنِّي حِينَ أَوْدَعْتُ هَذَا الْمَدْدُوحَ أَوْدَعْتُ ثَلَاثَةَ أَشْيَاءَ لَيْسَتْ لِأَحَدٍ سِوَاهُ .

(٤٠) وما شعورك عند ما سمع كلمة (عِرْض) في أبياته التي يمدح ، ويصف بها خلعة أرسلها إليه الأمير الحمداني سيف الدولة :

فَكَأَنَّ صَحَّةَ نَسَجِهَا مِنْ لَفْظِهِ وَكَأَنَّ حَسْنَ نَقَائِهَا مِنْ عِرْضِهِ

(٤١) ويقول مادحا :

وَمَنْ تَوَهَّمْتُ أَنْ الْبَحْرَ رَاحَتُهُ جُودًا ، وَأَنْ عَطَايَاهُ جَوَاهِرُهُ

فهل يحسن في المدح أن يقال : (توهمت) وهي كلمة لم تجر في الاستعمال الشائع إلا بجري الشك ، أو ما هو أضعف منه ؟

(٤٢) أُمِّي^(١) أَبَا الْفَضْلِ^(٢) الْمُبَرِّ^(٣) أَلَيْتِي^(٤)

لَا يَمُنُّ أَجَلَ بَحْرِ جَوْهَرًا^(٥)

(٤٣) ويقول مادحا داعيًا :

وَإِذَا ارْتَحَلْتَ فَشِيعَتُكَ سَلَامَةٌ حَيْثُ اتَّجِهْتَ ، وَدِيْمَةٌ مِذْرَارُ

وَأَرَاكَ دَهْرَكَ مَا تَحَاوُلُ فِي الْعَدَا حَتَّى كَأَنَّ صُرُوفَهُ أَنْصَارُ

وَبَدُونَ مَا أَنَا مِنْ وَدَادِكَ مُضْمِرٌ يُنْفِضِي الْمَطْيُ ، وَيَقْرُبُ الْمُسْتَارُ

فتأمل الكلمات الثلاث : (شيعتك) و (كأن) و (المستار) ؛ يعني السير أو مكانه). وقف عندها لترى كيف أساء الشاعر اختيارها ، فأضعف بها المعنى ؛ فالنشيع (وإن كان من معانيه : التوديع) لم يشتهر منذ أقدم

(١) أفصدى .

(٢) هو أبو الفضل بن العميد . . .

(٣) الذي يجعل معنى بارة ؛ لاحت فيها . (٤) يعنى وقسمى وهي التي في الشطر الثاني.

(٥) معنى البيت : لما حلفت (أن أفصد أجل بحر جوهرًا) برت يعنى بالذهاب إليه ؛

لأنه أجل من يقصد .

العصور إلا في الجنائز والأمور البغيضة . والتشبيه غير حميد في مكانه ، حيث لا يحسن إلا التحقيق والتأكيد . والمستار غريبة ، نائية .

(٤٤) وأنت أبو الهيجا، ابنُ حمدان، يابنُهُ تشابه مولودُ كريمٍ ووالدُهُ^(١)

وحمدانُ حمدونٌ، وحمدونُ حارثٌ وحارثُ لقمان، ولقمانُ راشدُ^(٢)

(٤٥) أسألها عن المتذيرِ بها^(٣) فلا تدرى ، ولا تدرى دموعا

(٤٦) إن كان مثلكَ كانَ أوهو كأنَّ فبرئت حينئذٍ من الإسلامِ-

(٤٧) فراق ؛ ومن فارقتُ غيرُ مذممٍ - وأُم ؛ ومن يَمُتُ خيرُ مُيمَمٍ-

(٤٨) أحادٌ ، أم سُدَّاسٌ في أحادٍ لِيَمِلْتَنَا المنوطةُ بالتنادٍ ؟

لقد علم المتنبي أن التصغير قد يكسب الكلمة خفة ورشاقة ، إذا عبر بها عن شئ لطيف ، أو خفي^(٤) ، أو قليل ، أو نحو ذلك . فأتى بكلمة (ليميلتنا) مصغرة ؛ ناسيا شرط الحسن في التصغير ، وما جلبه هنا من ثقل ، فوق ما في البيت من غموض معنوي شديد . ومثله كلمة « الْأَصْيِيَّة »^(٥) في بيته .

(١) سيف الدولة بن أبي الهيجا عبد الله بن حمدان ، بن حمدون ، بن الحارث ، ابن لقمان بن راشد . فعنى البيت أبوك أبو الهيجا ، وأنت ابنه ، وأبو الهيجا أيضاً ، فأنت صحيح الشبه به ، حتى كأنك هو ، فقد تشابه المولود والوالد .

(٢) معنى البيت : أنت تشبه أبائك حمدان ؛ فكأنك هو ، وحمدان هو أبوه حمدون ، وحمدون هو أبوه حارث وهكذا فكل ابن هو الأب ؛ لأنه يشبهه تماما ، وفيه كل أخلاقه وصفاته الكريمة .

(٣) الذين اتخذوها داراً . (٤) سر الفصاحة ص ٨٢ .

(٥) قال العكبري : إنها تصغير الصبية والصبيان . . .

فَأَرْهَقَتِ الْعَذَارَى مُرْدَقَاتٍ وَأَوْطَيْتِ الْأَصْصِيْبِيَّةُ الصَّغَارَ^(١)

(٤٩) ومن رثائه لأخت سيف الدولة ، واسمها خَوْلَة :

كَأَنَّ فَمَلَّةَ لَمْ تَمَلَأْ مَوَاكِبَهَا دِيَارَ بَكْرِ ، وَلَمْ تَخْلَعْ وَلَمْ تَهَبْ

وَعَمَّهَا فِي الْعُلَا وَالْمُلَا نَاشِئَةً وَهَمُّ أَتْرَابِهَا فِي اللُّهُو وَاللَّعِبْ

يَعْلَمَنَّ حِينَ تُحْيَا حُسْنَ مَبْسِمِهَا وَلَيْسَ يَعْلَمُ إِلَّا اللَّهُ بِالشَّفَبِ^(٢)

قف عند كلمة : « فَمَلَّة » التي كنى بها عن خَوْلَة (لأنها على وزنها)

وتأمل قبجها ، وسوء اختياره للألفاظ ؛ بذكر مبسم الأميرة ، وشبهها .

وهذا مما لا يصح ذكره في الرثاء عامة ؛ فكيف برثاء الأميرات

العرييات المصونات ؟

(٥٠) ومثله في رثاء والدة الأمير :

سَلَامُ اللَّهِ خَالِفْنَا حَنُوطَ عَلَى الْوَجْهِ الْمُبْرَزِ بِالْجَمَالِ

ولقد عُوتِبَ في هذا ، وقيل له^(٣) : أما استحييت من الأمير ؟

(٥١) بِيَاضِ وَجْهِ يُرِيكَ الشَّمْسَ حَالِكَةً وَدُرُّ لَفْظِ يُرِيكَ الدَّرَّ تَحْشَلِبَا^(٤)

(٥٢) أَقْلٌ ، أَنْبَلٌ ، أَقْطَعُ ، أَحْمِلُ ، عَلٌّ ، سَلٌّ ، أَعِدُّ

زِدْ ، هَشْ ، بَشْ ، تَفْضُلْ ، أَدْنِ ، سُرْ ، صِلْ

(١) البيت من قصيدة في مدح سيف الدولة وتهنئته بالانتصار على الخارجين عليه .

ومعناه : أن الأعداء هربوا فزعين ، يدوسون بالخيول صبيانهم الذين لم يقدروا على

حملهم ؛ لشدة هربهم . وأردفوا وراءهم العذارى ، طلباً لنجاتهن ، وحرصاً

عليهن ؛ فأرهقوهن بهذا الإرداف .

(٢) عذوبة فيها ، وسلامة أسنانها . (٣) الصبح المنبج ج ١ ص ١٥٢ .

(٤) خرزاً .

فهل رأيت ثِقَلًا وقبحا كهذا ؟ وهل رأيت هَذَرًا كقوله :

عِشْ ، ابقِ ، اسْمُ ، سُذْ ، قُدْ ، جُدْ ، مُزْ ، اِهْ ، رِفْ ، اسِرْ ، نُلْ
غِظْ ، اِرْمِ ، صِبْ ، أَحْمِ ، أَغْزْ ، أُسْبِ ، رُغْ ، زَعْ ، دِلْ ، أَثْنِ ، نُلْ
(٥٣) أُسْدُ فَرَأْسِهَا الْأَسْوَدُ ، يَقُودُهَا أُسْدٌ تَصِيرُ لَهُ الْأَسْوَدُ ثَعَالِبًا

(٥٤) وقال مادحا بحسن التدبير والجرأة في الإقدام :

تَذِيرُ ذِي حُنْكَ^(١) يُفَكِّرُ فِي غَدٍ وَهُجُومٌ غِرٌّ^(٢) لَا يَخَافُ عَوَاقِبَا
فماذا ترى في كلمة غِر ؟ ألم يكن في استطاعته أن يختار مالا يُشْتَمُّ منه
السوء في موقف المديح ؟

(٥٥) أَرَاكَ تَبَّ الْأَحْبَابِ ، إِنَّ الْأُدْمَعَا

تَطِيسُ^(٣) الْخُدُودَ كَمَا تَطِيسُنَ الْيَرَمَعَا^(٤)

قد كان يمنعني الحياء من البكاء فاليوم يمنعه البكاء أن يَمْنَعَا^(٥)

(٥٦) يَرَى أَنَّ مَا مَا بَانَ مِنْكَ لَضَارِبٍ بِأَقْتَلَ مَا بَانَ مِنْكَ لَعَائِبٍ^(٦)

(٥٧) فَلَا مُبَادَّ ، وَلَا مُشِيدُ حِمَى وَلَا مُشِيدُ أَغْنَى وَلَا شَائِدُ

(٥٨) نَنَامُ وَبَرَقَ الْبَيْضُ فِي الْبَيْضِ صَادِقٌ عَلَيْهِمْ وَبَرَقَ الْبَيْضُ فِي الْبَيْضِ خُلْبٌ^(٧)

(١) جمع : حُنْكَ ، ومى : التجربة . (٢) غير مجرب ولا خبير .

(٣) تدق . (٤) الحجارة الصغيرة اللينة .

(٥) يريد أن يقول : كان حيائي يتغلب على البكاء فيمنعه ، أما اليوم فالبكاء قد تغلب عليه

(٦) الموضع الذى يبين منك للسيف ، ويعرضك للقتل - ليس أقمى ولا أقتل من الذى

يبين لعائبك . أى : أن مقاتلك ليست أفتك ولا أكثر خطراً عليك من معايك .

(وكلمة « ما » الأولى زائدة ، أو بمعنى ليس) .

(٧) البَيْضُ : السيوف . (المفرد : أبيض) . وَالْبَيْضُ : الخوذات . (المفرد : بَيْضَة)

(٥٩) إِنَّ الْكَرِيمَ بِلا كَرَامٍ مِنْهُمْ مُثَل الْقُلُوبِ بِلا سُوءِ إِذْوَائِهَا

فتأمل ثقل الحروف في البيت كله ، وطول الكلمة الأخيرة منه ^(١) :

(٦٠) أَقُولُ لَهَا اكِشْفِي ضُرِّي وَقُولِي بِأَكْثَرٍ مِنْ تَدَلُّهَا - خُضُوعًا ^(٢)

(٦١) وقوله يتشعب :

خَفِ اللَّهُ، وَاسْتَرْذَا الْجَمَالَ يَبْزُقُ فَإِنْ لَحْتَ حَاضَتْ فِي الْخُدُورِ الْعَوَاتِقُ ^(٣)

فأى ذوق يرتضى هنا كلمة : حاضت ؟

(٦٢) الْخَائِضُ الْغَمْرَاتِ ^(٤) غَيْرَ مُدْأَفَعٍ وَالشَّمْعِيُّ ^(٥) الْمِطْعَنُ ^(٦) الدَّعِيسَا ^(٧)

(٦٣) وهل يرضى الأدباء عن استعمال المصطلحات النحوية وأشباهها حيث

يقول مادحا :

إِذَا كَانَ مَا تَنْوِيهِ فَعَلًا مُضَارِعًا مَضَى قَبْلَ أَنْ تُلْقَى عَلَيْهِ الْجَوَازِمُ

وقوله :

أَمْضَى إِرَادَتِهِ ، (فسوف) له (قَدْ) وَاسْتَقَرَّبَ الْأَفْصَى ، (فتم) له (هُنَا)

وقوله :

وَكَانَ ابْنًا عَدُوًّا كَأَثَرَاهُ لَهُ يَأْنِي حُرُوفٍ أُنَيْسِيَانِ ^(٨)

* * *

(١) سر الفصاحة ص ٨١ . (٢) أى : بأكثر خضوعا من تدللها .

(٣) الفتيات اللاتي قاربن البلوغ (المفردة : عاتق) .

(٤) الشدائد . (٥) الشمر لاقحام الأمور والمصاعب .

(٦) الجيد الطعن . (٧) كثير الطعن .

(٨) هذا البيت متمم في معناه لما قبله . يريد : عدوك الذي له ولدان يكثر بهما ، هما

كيامين زائدين في لفظ « أنيسان » لأنه وهو مكبر خمسة أحرف ؛ فاذا صغر زيد

فيه ياءان فنقص في معناه وفخره ؛ فهما زائدتان في نقصه .

وبعد ؛ فذلك تماذج من عيوب المتنبي اللفظية . وإنها لقائلة إلى جانب ما في ديوانه من عيوب لا تقتصر على أبيات فرّادى منشورة في قليل من القصائد والمقطوعات ؛ بل إنك لترى العيوب تتخلل منظومات كاملة ، ولا تقتصر فيها على بيت ، بل تموج خلال المقطوعة أو القصيدة . ولا بأس أن أسوق صوراً من هذه وتلك .

فن المقطوعات واحدة تقوم على خمسة أبيات في وصف باز انقضّ على حَجَلَةٍ^(١) فصادها ، فقال :

وطائرةٍ تَتَّبِعُهَا الْمَنَابِيا على آثارها زَجِلٌ^(٢) الجَنَاحِ

كَأَنَّ الرِّيشَ مِنْهُ فِي سِهَامٍ على جَسَدٍ نَجَمٌ من رِيّاحٍ

كَأَنَّ رَهْوسَ أَقْلَامٍ غِلَاطٍ مَسْحَنَ بَرِيشٍ جُوجِيهِ^(٣) الصَّحَاحِ

فَأَقْمَصَهَا^(٤) بِحُجْنٍ^(٥) تَحْتَ صُقْرٍ^(٦) هَذَا فِعْلُ الْأَسْنَةِ وَالرَّماحِ

فَقَاتُ الْبُكْلِ سَيِّ يَوْمُ مَوْتٍ وَإِنْ حَرَّصَ النُّفُوسُ عَلَى الْفَلَاحِ

ومن القصائد قصيدته الشينية في مدح علي بن حمدان ، وتبلغ نحو ستة وثلاثين بيتاً ، مظهرها :

مَبِيتِي مِنْ دِمَشْقَ عَلَى فِرَاشٍ حَشَاءُ لِي بِحَرِّ حَشَائِي حَاشِ

(١) نوع من الطيور ؛ كالكروان . (٢) مصوت . (٣) صدره .

(٤) دق عنقها ، كناية عن الموت السريع .

(٥) أى : بمخالب حجن (جمع : أحجن ، بمعنى : معوج) .

(٦) أى : أصابع صُقْر (جمع : صُقْر ؛ بمعنى : إصبع قوية) .

ومن أياتها بغير ترتيب :

لَقِيَ^(١) لَيْلٍ ؛ كَمَئِنَّ الظُّبْيِ لَوْنًا
وَهَمَّ ، كَالْحُمَيَّا^(٢) فِي الْمَشَاشِ^(٣)
فَإِنَّ الْفَارِسَ الْمَنْعُوتَ خَفَّتْ
لِمُنْصُلِهِ الْفَوَارِسُ كَالرَّيَاشِ^(٤)
فَوَلَّوْا بَيْنَ ذِي رُوحٍ مُفَاتٍ
وَذَى رَمَقٍ وَذَى عَقْلٍ مُطَاشٍ
وَمُنْعَقِرٍ لِنَصْلِ السَّيْفِ فِيهِ
تَوَارِي الضُّبِّ خَافَ مِنْ احْتِرَاشِ^(٥)
يُدْمَى بَعْضُ أَيْدِي الْخَيْلِ بَعْضًا
وَمَا بِعِجَابَةٍ^(٦) أَثَرُ ارْتِهَاشِ^(٧)
وَرَائِهَا وَحِيدٌ ، لَمْ يَرْعُهُ
تَبَاعُدُ جَيْشِهِ وَالْمُسْتَجَاشِ^(٨)
كَأَنَّ تَلَوَّى النَّشَابِ فِيهِ
تَلَوَّى الْخُوصِ فِي سَعَفِ الْعِشَاشِ^(٩)
يُشَارِكُ فِي النَّدَامِ^(١٠) إِذَا نَزَلْنَا
بِطَانٍ^(١١) لَا تُشَارِكُ فِي الْجِحَاشِ^(١٢)
وَمِنْ قَبْلِ النَّطَاحِ وَقَبْلَ يَأْتِي
تَبِينُ لَكَ النَّمَاجُ مِنَ الْكِبَاشِ
وَكَيْفَ ؟ وَأَنْتَ فِي الرُّسَاءِ عِنْدِي
عَمِيقٌ^(١٣) الطَّيْرِ مَا بَيْنَ الْخُشَاشِ^(١٤)
فَمَا خَاشِيكَ لِلتَّكْذِيبِ رَاجٍ
وَلَا رَاجِيكَ لِلتَّخْيِيبِ خَاضِي
تُطَاعِنُ كُلَّ خَيْلٍ^(١٥) سِرَّتَ فِيهَا
وَلَوْ كَانَ النَّبِيطُ^(١٦) عَلَى الْجِحَاشِ^(١٧)

- (١) لقي : حال ، أى : أبيت لقي ليل . (٢) الحمر . (٣) رؤوس العظام اللينة .
(٤) الريش المتطاير (والرياش جمع : ريش) . (٥) صيد الضب .
(٦) عصب فوق اليد . (٧) صك اليدن حتى تمرق عروقها .
(٨) الذى يُطَلَّب الجيش منه . (٩) النخل قليل السعف (المفرد : عشة) .
(١٠) النادمة . (١١) كبار البطون (المفرد : بطين) .
(١٢) للدافعة فى القتال . (١٣) أصيل . (١٤) صفار الطير .
(١٥) أى : كل جماعة راكبة الخيل . (١٦) جماعة فى سواد العراق فلاحون .
(١٧) جمع جحش . ومعنى البيت : من سار معك من راكبي الخيل فإنه يتشجع ويقاقل ،
ولو كان من النبيت الذين يركبون الجموح .

إِذَا ذُكِرَتْ مَوَاقِفُهُ لِحَافٍ وَشِيكَ^(١) فَمَا يُنْكَسُّ لِانْتِقَاشِ^(٢)
تُرْبِلُ مَخَافَةَ الْمَصْبُورِ^(٣) عَنْهُ وَتُلْهِى ذَا الْفِيَّاشِ^(٤) عَنِ الْفِيَّاشِ
وغير هاتين - من المقطوعات والقصائد - كثير تشيع فيه العيوب
اللفظية . وحسبنا ما تقدم مُقْنَعًا أوحافزاً للرجوع إلى الديوان ؛ فما أكثر
النظائر فيه ، وما أكثر مصادقتها هناك .

ومن عجب أن تكون ألفاظ المتنبي على هذه الشاكلة ، وأن تفقد
تجانسها واثنتلافها في مواطن كثيرة - مع ما نال من شهرة ، وما عُرف عنه
من تجويد ، وحرص على استصفاء شعره ، وتنقيته من الشوائب ، ودفعه
للعالم اللغوي النحوي الأديب (ابن جني) ؛ ليقراء عليه ، ويراجعه^(٥) فيه .
فكيف به لو لم يفعل ؟

نعم عجيب أن تكون ألفاظ المتنبي على ما وصفنا حتى وَجَدَ فيها كثير
من قدامى اللغويين والأدباء والنحاة بُغْيَتَهُم من الأمثلة والشواهد المعبية ،
وَدَوَّنُوا عنها وعن صاحبها أحكاماً لائرضاهم لاشاعر كالمتنبي . فهذا ابن جني -
راويته ، وأمينه على ديوانه - يلاحظ أنه يكرر ألفاظاً مُعَيَّنَةً ، ويقول له :
(إنك تكرر في شعرك كلمة : « ذا » ، و« ذى » ، كثيراً) . فيفكر المتنبي ، ثم
يجيبه : « إن هذا الشعر لم يعمل كله في وقت واحد » . فيرد عليه ابن جني :
« صدقت » ، إلا أن المادة واحدة « فيسكت المتنبي^(٦) » . ويقول بعض

(١) دخل في رجله الشوك . (٢) لإخراج الشوك .

(٣) المحبوس . (٤) الفاخرة الكاذبة .

(٥) العكبري ج ٢ ص ٣٤٠ في شرح القصيدة المبيية التي أولها :

لا افتخار إلا لمن لا ينام . . . عند البيت : وهوار لوامع دينها

(٦) سر الفصاحة ص ٩٩ .

الباحثين^(١) : « إنه أكثر استعمالاً لكلمة « ذا » التي للإشارة ، وهي ضعيفة في صنعة الشعر ، دالة على التكلف . وربما وافقت موضعاً يليق بها ؛ فاكنتت قبولاً . فأما في مثل أبيات المتنبي (وساق منها ستة عشر بيتاً) فسخيفة ضعيفة . ولو تصفحت شعره لوجدت فيه أضعاف تلك الأبيات . وأنت لا تجد واحدة من كلمة : « ذا » في عدة دواوين جاهلية . والمحدثون أكثر استعانة بها في الفرط والندرة ، أو على سبيل الفاظ ، والفلة ... » وهذا الجرجاني — الذي نصب نفسه قاضياً عدلاً للحكم على شعر المتنبي ، بل مدافعاً عنه أمام خصومه — يقول في كتابه : (الوساطة) مخاطباً أحد أولئك الخصوم^(٢) :

« ما أنكر أن يكون كثير مما عدته من الأبيات ساقطاً عن الاختيار ، غير لاحق بالإحسان ، وأن منها ما غلب عليه الضعف ، ومنها ما أثر فيه التعسف ، ومنها ما خانه السبك ؛ فسأ ترتيبه . وأخل نظمه ، ومنها ما حمل على التعمق ؛ فخرج به إلى الفثانة والبرد ، وإن كان أكثرها لم يأت من قبل المعنى وشرفه ... » .

وهذا صاحب^(٣) العمدة يقول :

« من الشعراء من يُؤثر المعنى على اللفظ ؛ فيطالب محتته ، ولا يبالي حيث وقع من بُحنة اللفظ ، وقبحه ، وخشونته ؛ كابن الرومي والمتنبي ومن شاكلهما . وإذا كانت اللفظة خشنة مستغربة ، لا يملها العالم المبرز :

(١) الوساطة ص ٨٥ وما بعدها . (٢) الوساطة ص ٨٩ .

(٣) ص ٨٢ ج ١ و ٢٠٥ ج ٢ .

والأعرابي الفُح — فتلك وحشية . وكذلك إن وقعت غير موقعها ، وأتت بها مع ما ينافرها ، ولا يلائم شكلها . وكان أبو تمام يأتي بالوحشى كثيراً ، ويتكلف . وكذلك أبو الطيب ؛ كان يأتي بالمستغرب ؛ ليدل على معرفته ، نحو قوله :

كل أخاؤه^(١) كرامُ بني الدُّنْ يَأْ وَلَكِنَّهُ كَرِيمٌ كَرَامِ

وهذا — مع غرابته ، وتكلفه — غير محمول على ضرورة يكون فيها عذر ؛ لأن قوله : « كل إخوانه » — يقوم مقامه بلا بغاضة . . . »

وهذا الصاحب بن عباد يسمع قول المتنبي :

وَحَدَّانُ حَمْدُونُ ، وَحَدُّونُ حَارِثُ وَحَارِثُ لَقْمَانُ ، وَلَقْمَانُ رَاشِدُ^(٢)

فبهذا البيت ، ويقول :

إنه من الحكمة التي ذخرها أفلاطون وأرسططاليس لهذا الخلف الصالح^(٣) .

ويقول عن المتنبي في موضع آخر :

« إنه بعيد المرعى في شعره ، كثير الإصابة في نظمه ؛ إلا أنه ربما

يأتى بالفقرة الغراء ، مشفوعة بالكلمة العوراء^(٤) . . . »

وهذا صاحب كتاب سر الفصاحة^(٥) يقول :

(١) جمع أخ . (٢) سبق شرح هذا البيت ص ٨٩ .

(٣) العكبرى عند شرح البيت السابق . نعم إن الصاحب كان يكره المتنبي ، وإن بعض الباحثين دافع عن البيت السابق — ولكن هذا لا ينهض عن ذم المتنبي .

(٤) الكشف عن مساوى المتنبي . تأليف الصاحب : طبعة القدس ص ٣

(٥) ص ٩٥ وما بعدها .

« وأما بيت المتنبي :

العارضُ الهَتَنِ، ابنُ العارضِ الهَتَنِ، ابْنُ العارضِ الهَتَنِ ابنِ العارضِ الهَتَنِ
فمن أقبح ما يكون من التكرار ، وأشنعه . وإذا كان يقبح تكرار
الحروف المتقاربة الخارج فتكرار الكلمة بعينها أقبح وأشنع . وأما قوله :
لك الخيرُ ؛ غيري رام من غيرك الغنى وغيري بغير اللاذقية لاحق
فلا خفاء بقبحه ؛ للتكرار . وكذلك قوله :

وَمِنْ جَاهِلِيٍّ ، وَهُوَ يَجْهَلُ جَهْلَهُ وَيَجْهَلُ عِلْمِي أَنَّهُ بِي جَاهِلُ
لأنه ذكر الجهل خمس مرات ، وكرّرَ (بي) . فلم يبق من ألفاظ البيت
ما لم يُعدّه ، إلا اليسير .

وأما قوله أيضاً :

فَقَلَقْتُ بِالْهَمِّ الَّذِي قَلَقَ الْحَشَا قَلَقَ عَيْسٍ ^(١) كَلَهْنٌ قَلَقِلٌ ^(٢)

عَشَاةٌ عَيْشِي أَنْ تَفِثَ كَرَامَتِي وَأَيْسَ تَفِثَ أَنْ تَفِثَ الْمَاءَ كُلَّ

فقد اتفق له أن كرّر في البيت الأول لفظة مكررة الحروف ؛ فجمع القبح
بأسره في صيغة اللفظة نفسها ، ثم في إعادتها وتكرارها ، وأنبع ذلك :
« بعشاة » في البيت الثاني ، وتكرار (تَفِثَ) ؛ فلوست تجد ما تزيد على
هذين البيتين في القبح . . . وأما قوله :

قَبِيلُ أَنْتَ ، أَنْتَ . وَأَنْتَ مِنْهُمْ وَجَدَّكَ بِشَرِّ الْمَلِكِ الْهُمَامُ
فقبیح للتكرار . وقد زاده قبحاً وقوعه بغير فصل . والحروف التي

(١) قلقل عيس : جمع : قلقل ، وهي : الناقة الخفيفة ، وناقة قلقل : سريعة الحركة .

(٢) جمع : قلقلّة ، وهي : الحركة .

تربط بعض الكلام ببعض ، وتدل على معنى في غيرها — كما يقول النحويون — يقبح تكرارها في الكلام ، وإن اختلفت ألفاظها ؛ وذلك لأنها جنس واحد ، ومشاركة في المعنى ؛ وإن تميزت فائدة بعضها من بعض . ومما يُسهّل الأمر فيها قليلا وقوع الفصل بينها بكلمة من غيرها . فأما أن ترد على نحو ما قال أبو الطيب :

وَتَسُدُّنِي ^(١) فِي غَمْرَةٍ ^(٢) بَعْدَ غَمْرَةٍ سَبُوحٌ ^(٣) لَهَا مِنْهَا عَلَيَّهَا شَوَاهِدُ
فذلك العيب الذي لا يتوجه عذر فيه وما أعرف شيئا يقدح في الفصاحة ، ويغض من طلاوتها — أظهر من التكرار لمن يؤثر تجنبيه ، وصيانة نسجه عنه ؛ إذ كان لا يحتاج إلى كبير تأمل ، ولا دقيق نظر »

وبهذه المناسبة الخاصة بِقَبْحِ التكرار في حروف الربط ، أشير إلى أن المتنبي أكبر الشعراء وقوعا في هذا القبح الذي يفسد جمال أسلوبه ، وروعة معانيه ؛ كالبيت السابق (سبح . . .)

وكقوله مادحا سيف الدولة (حين لبي قائدا أسيرا استغاث به ؛ فاستخلصه من الأسر) :

دَعَا فَسَمِعْتِ ، وَكَمْ سَاكِتٍ عَلَى الْبُعْدِ عِنْدَكَ كَالْقَائِلِ !!
فَلَبِيتُهُ بِكَ فِي جَحْفَلٍ لَهُ ضَامِنٌ ، وَبِهِ كَافِلٌ
خَرَجْنَا مِنَ النَّمْعِ فِي عَارِضٍ وَمِنْ عَرَقِ الرِّكْضِ فِي وَابِلٍ

(١) تساعدني . (٢) كرب وعدة .

(٣) فرس سريعة الجرى .

وقوله :

وشوقٍ كالتَّوَدِّدِ ، في فؤادٍ كَجَمْرِ في جِوَانِحِ كَالْمَحَاشِ^(١)

وقوله :

بَنَّا مِنْكَ فَوْقَ الرَّمْلِ مَابِكَ فِي الرَّمْلِ وَهَذَا الَّذِي يُضْنِي كَذَاكَ الَّذِي يُبْنِي

وقوله :

عَلَى أَنِّي طَوَّقْتُ مِنْكَ بِنِعْمَةٍ شَهِيدٌ بِهَا بِمَضَى الْغَيْرِ عَلَى بَعْضِي

وقوله :

أَسْنَى عَلَى أَسْنَى الَّذِي دَلَّهْتَنِي^(٢) عَنْ عِلْمِهِ ؛ فِيهِ عَلَى خَفَاهِ^(٣)

وقوله :

إِذَا عَرَّضْتُ حَاجُّهُ إِلَيْهِ فَنَفْسُهُ إِلَى نَفْسِهِ فِيهَا شَفِيعٌ ، مُنْفَعٌ

وقوله :

وَكُنْفِي مِنْ فَضْهِ الْجَدَايَةِ^(٤) فَأَخِضْنَا لِحَبِيبِهِ ، وَبِمَضَرَعِي ذَا مَضَرَعَا

وقوله :

وَعَلَى التَّرَابِ مِنَ الدِّمَاءِ مَجَاسِدُ^(٥) وَعَلَى السَّمَاءِ مِنَ الْعَجَاجِ مُسُوحُ

وقوله :

وَمَامُوتُ بِأَبْغَضَ مِنْ حَيَاةٍ أَرَى لَهُمْ مَعِيَ فِيهَا نَصِيبًا

و ... و ... و ...

(١) ما أحرقته النار وسودت لونه . (٢) أذهبت عقل .

(٣) معنى البيت . لاني حزين لضياح عقل بسبب حبك ، حتى صرت - جنون - أجهل

أني حزين . (٤) ولد الظبي .

(٥) جمع : مَجَسَّد ، وهو المصبوغ بلون أحمر شديد الحرارة .

والحق أن الباحث لا يهتدى إلى ما يدافع به عن عيوب المتنبي اللفظية .
ولعلها من أقوى الأسباب التي جعلته يصف نفسه بأنه حكيم ، وليس بشاعر^(١) .
وهل في سكناه البادية نحو سنتين وأشهر ما ينهض للاعتذار عنه ، وهو ليس
بأول شاعر حضري قصد البادية ، وأقام فيها فترة ما ؟

لقد سبقه إليها من شعراء دولته العباسية : بشار ، والبحتري ،
وأبو نواس . . . وغيرهم ، ممن قصدوها لمثل غايته ؛ فلم تطعمهم بطابعها ،
ولم تؤثر في صفاء أفعالهم ، وجودة عباراتهم . بل إن الأدباء والناقدين
ليعدّونهم في الصف الأول ؛ نقاء أفعالهم ، وحلاوة عبارات ، ولا سيما البحتري .
وكيف يتأثر المتنبي تأثره البالغ بحياة البادية — وقد سكنها فترة قصيرة —
ولا يتأثر بحياة الأمصار ، وبجلاسة الملوك ، ومعاشرة الأمراء ، وقد دامت له
سنوات طويلا ؟

وكيف تتغلب عليه الحياة البدوية في جميع مظاهره الشعرية وغير
الشعرية ولا تتغلب عليه حياة الرفاهة ، والنعمة ، وخصب العيش الحضري ؟
لم انفرد المتنبي بما لم يشاركه فيه أحد من شعراء العباسيين الذين سبقوه
أو عاصروه ؟

لعل مراد الأمر إلى طبيعته المتمردة ، العنيفة ، الصخابة التي زادت بها
الأحداث عنفا وصخباً ، وإلى ما فطّر عليه من غلظة ، وقسوة ، لا يمنحان
إلى رقة ، وعدوبة ، وملاينة في شعر أو غير شعر . وضح هذا في حياته

(١) سئل المتنبي عن نفسه ، وعن أبي تمام ، والبحتري . فقال : « أنا وأبو تمام
حكيمان ، والشاعر البحتري » (راجع الصبح المنبئ على هامش الكبير ج ١
ص ٢٤٨) .

الخاصة والعامة ، وفي علاقته بأتباعه وسوام . كما وضع في شعره ؛ فجاء في أغلب نواحيه خَشِنًا ، ضَلْبًا ، تشيع فيه الجزالة وإن اقتضى الأمر الفرار منها ، محروم الرقة وإن فرضها المقام . فإلى طبيعته الصلبة الثائرة يرجع السبب فيما نحن بصدده ؛ فقد وَجَدَتْ بينهما وبين الصحراء تلاؤمًا وتشابهًا فمالت إليها ، وانعقدت بينهما أواصر التآلف والتحالف ؛ وصح لهذا أن يوصف المتنبي بأنه : بَدَوِيٌّ فِي خُلُقِهِ وَأَدَبِهِ . وإن شئنا زخرفة القول وتجويده قلنا ما قاله السابقون : « إنه ^(١) كالملاك الجبار ؛ يأخذ ماحوله قهراً وعنفوة . أو : كالشجاع الجريء ؛ يهجم على ما يريده لا يبالي مالتى ولا حيث وقع » . وتلك أخص صفات البدو ، وسكان الصحارى .

وإذا كنا قد عرضنا لألفاظ المتنبي بما سبق فإن الحق والإنصاف يفرضان أن نعترف له بالمقدرة والبراعة في اختيارها ، وحسن انتقائها أحياناً ، حتى ليكاد يسبق فيها جمهرة الشعراء .. وكذا نرجو لو يلازمه التوفيق في كل الأحيان ، أوفى أكثرها ؛ كي يكون تفرده بالسبق خالصاً ، والحكم له بالأولية لاتعقيب فيه . لكن لم يتحقق الرجاء . وبالرغم من عدم تحققه لانجحد ما قد يصادفه من توفيق عجيب . فأى منصف خبير لا يهتز إعجاباً بمربياته ؟ وأى أديب لا يطرب للأبيات الآتية ، وما فى ألفاظها — مفردة ومركبة — من جمال بلاغى فتان ^(٢) تماثلت فيه السلاسة مع الجزالة ، واثلفت فيه الرقة مع القوة ؛ فكان لهذا التوافق إيقاع عذب ، وتلحين موسيقى حلو النغم ؟

(١) العمدة ج ١ ص ٨٧ .

(٢) وإن التزم فى أكثرها — كمادته — جانب الجزالة بداع وبغير داع .

- (١) بَأبَى مِنْ وَدِدَتُهُ فَأَقْتَرَقْنَا وَقَضَى اللَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ اجْتِمَاعًا
وافترقنا حَوْلًا ؛ فلما التَقَيْنَا كَانَ تَسْلِيمُهُ عَلَيَّ وَدَاعًا
- (٢) حُشَاشَةُ نَفْسٍ وَدَّعَتْ يَوْمَ وَدَّعُوا فَلَمْ أَذِرْ أَيْ الطَّاعِنِينَ أَشِيعُ
- (٣) يَمْشِي السَّكْرَامُ عَلَى آثَارِ غَيْرِهِمْ وَأَنْتَ تَخْلُقُ مَا تَأْتِي ، وَتَبْتَدِعُ
- (٤) حَسَمَ الصَّلْحُ مَا شَتَّتَهُ الْأَعَادِي وَأَذَاعَتْهُ أُنْسُ الْحُسَّادِ
وأرادتهُ أَنْفُسُ حَالِ تَدْبِيرِكَ مَا بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْمُرَادِ
صار ما أَوْضَعَ الْمُخْبِثُونَ فِيهِ مِنْ عِقَابٍ زِيَادَةً فِي الْوِدَادِ
وَكَلَامُ الْوُشَاةِ لَيْسَ عَلَى الْأَحْبَابِ سُلْطَانُهُ ، عَلَى الْأَضْدَادِ
إِنَّمَا تَنْجَحُ الْمَقَالَةُ فِي الْمَرْءِ إِذَا صَادَفَتْ هَوًى فِي الْفَوَادِ
- (٥) أَمَّا الْفِرَاقُ فَإِنَّهُ مَا أَهْمَدُ هُوَ تَوَّعِي ؛ لَوْ أَنَّ بَيْنَنَا يُوَلَّدُ
مِنْ خَصٍّ بِالذَّمِّ الْفِرَاقُ فَإِنِّي مِنْ لَا يَرَى فِي الدَّهْرِ شَيْئًا يُحَمَّدُ
- (٦) وَقَيِّدْتُ نَفْسِي فِي ذَرَاكِ مَحَبَّةٍ وَمِنْ وَجَدِ الْإِحْسَانِ قَيْدًا نَقِيدًا
إِذَا سَأَلَ الْإِنْسَانُ أَيَّامَهُ الْغَنَى وَكَنْتُ عَلَى بُعْدٍ جَعَلْتُكَ مَوْعِدًا
- (٧) وَمَنْ تَكُنِ الْأَشَدُّ الضَّوَارِي جُدُودَهُ
- يَكُنْ لِيْلَهُ صَبْحًا وَمَطْعُمُهُ غَضَبًا
- (٨) أَلَا كُلُّنَا يَبْفِي الْحَيَاةَ لِسَعْيِهِ حَرِيصًا عَلَيْهَا ، مُسْتَهَامًا بِهَا ، صَبًا
غِبُّ الْجَبَانَ نَفْسَ أَوْرَدَهُ التَّقَى
- وَحِبُّ الشَّجَاعِ نَفْسَ أَوْرَدَهُ الْحَرَبَا
- (٩) وَإِنَّمَا النَّاسُ بِالْمُلُوكِ ؛ وَمَا تُفْلِحُ عُرْبٌ مُلُوكُهَا عَجَمٌ

وتأمل الأبيات الآتية ، وما فيها من قوة الأَصْرِّة ، وجميل الجَرَس ، وإحكام التأليف ، وحسن الجزالة^(١) :

(١٠) لِعَيْنِيكَ مَا يَلْقَى الْفَوَادُ ، وَمَا لَقِيَ وَلِلْحُبِّ مَا لَمْ يَبْقَ مِنِّي ، وَمَا بَقِيَ
وَمَا كُنْتُ مِمَّنْ يَدْخُلُ الْعِشْقُ قُلُوبَهُ ؛ وَلَسَكُنَّ مَنْ يُبْصِرُ جُفُونَكَ يَعْشَقُ
وبين الرضا والسخط والقرب والتّوى مَجَالٌ لِدَمْعِ الْمُقَلَّةِ الْمُتَفَرِّقِ
وَأَحْلَى الْهَوَى مَا شَكَّ فِي الْوَصْلِ رَبُّهُ وَفِي الْمَجَرِّ ؛ فَهُوَ - الدَّهْرُ - يَرْجُو ، وَيَتَّقَى
سَقَى اللَّهُ أَيَّامَ الصَّبَا مَا يَسْمُرُهَا وَيَفْعَلُ فَعْلَ الْبَائِلِ الْمُعْتَقِ
وَلَمْ أَرَ كَالْأَلْحَاطِ يَوْمَ رَحِيلِهِمْ بَعَثَنَ بِكُلِّ الْقَتْلِ مِنْ كُلِّ مُشْفِقِ
أَدْرَنَ عَمِيونًا حَائِرَاتٍ ؛ كَأَنَّهَا مُرْكَبَةٌ أَحْدَاقُهَا فَوْقَ زُنْبُقِ
عِشْيَةٍ يَعْذُونَا عَنِ النَّظَرِ الْبُكَاءِ وَعَنْ آتَةِ التَّوَدِّيعِ خَوْفُ التَّفَرُّقِ
وفي هذا القدر ما يكفي في موضوعنا ، وإن كان لا يفي عن الرجوع إلى
الديوان — كما قلنا — ففيه الغناء الأوفى .

وأما شوقي فكللماته مُنتَقاة ، وألفاظه مختارة ، يضع الكلمة اللائقة
في الموضع اللائق ؛

فلم تك تصلح إلا له ولم يك يصلح إلا لها
تتوسط أخوات مؤنفات ؛ فلا نفور ، ولا قلق ، ولا إكراه . وما مثله
إلا كالصيرفي النقادة ؛ يختار الدراهم الجياد ، ويرفض زائفها . أو : الجوهري

(١) بالرغم من أن الجزالة لا تحسن في مواقف الغزل والتشبيب .

الحاذق ؛ ينتقى أضفى الجواهر مادة ، وأحسنها صقلا ، وأنسبها لمكانه ، ويطرح ما عداه ؛ فهو بَحْتَرِيٌّ زمانه . وإن شئت فقل : إنه يجري مع البَحْتَرِيِّ والثَّوَّاسِيَّ في ميدان لفظي واحد ، ويسابقهما إلى هدف عزيز المنال ، لم يستأثر به أحد الثلاثة دون أخيه ، ولم ينل منه أكثر مما نال قريعه . فإن ساغ للقُدَّامِي أن يباهوا بألفاظ البَحْتَرِيِّ وأبي نواس ، ويعدونها المثل الأسمى للجمال اللفظي — فما أجدرنا أن نضم إليهما شوقي ، ونسلكه معهما في سبط واحد ، مؤمنين أن القُدَّامِي لو تأخر بهم الزمان ، وعرفوا ما عرفناه من ألفاظ شوقي ، أو تقدم الزمان بشوقي فعرض عليهم ألفاظه — ما وسعهم إلا أن يَحْكُمُوا حُكْمَنَا ، ويرتضوا رأينا .

والحق أن — شوقي — من هذه الناحية بارع خبير . وتزداد براعته وضوحاً ، وخبرته جلاء — في قصائده التي صاغها بعد عودته من المنفى ؛ تلك العودة التي كانت فاتحة حياة أدبية جديدة ، تتسم بالنضج ، والكمال ، والخصب ، والسمو إلى آفاق أدبية عالية ، بعيدة المدى . ومن الخير أن نعرض صوراً من ألفاظه في مرحلتها : الأولى والأخيرة . فاستمع إليها ، وقف عند كل كلمة من كلماتها .

يقول في حادثة الانقلاب^(١) العثماني ، وسقوط السلطان الطاغية المستبد (وقد سبق بعض أبياتها في مناسبة أخرى)^(٢) .

(١) كان هذا سنة ١٩٠٨ م وكان السلطان عبد الحميد قد اقترف من الجرائم ، وأنواع القتل ، ومظاهر الاستبداد مالا مثيل له ؛ فدبرت مؤامرة لإسقاطه ، وإقامة حكم يقوم على أساس دستوري .

(٢) في ص ٤٩ .

سَلَّ « بِلْدَزَا » ذَاتَ الْقُصُورِ هَلْ جَاءَهَا نَبَأُ الْبَدُورِ
 لَوْ تَسْتَطِيعُ إِجَابَةً لِبِكْتِكَ بِالْدمْعِ الْغَزِيرِ
 أَخْنَى عَلَيْهَا مَا أَنَا خ عَلَى الْخُورَنَقِ ، وَالسَّدِيرِ
 وَدَهَا الْجَزِيرَةِ ^(١) بَعْدَ إِسْمَاعِيلَ وَالْمَلِكِ الْكَبِيرِ
 ذَهَبَ الْجَمِيعُ ؛ فَلَا الْقُصُورَ رُتِرَى ، وَلَا أَهْلَ الْقُصُورِ
 فَلَاكَ يَدُورُ سَمُودُهُ وَنَحْوُهُ بِيَدِ الْمَدِيرِ
 أَيْنَ الْأَوَانِسُ فِي ذَرَا هَا ؛ مِنْ مَلَانِكُهُ ، وَحُورِ ؟
 الْمُتَرَعَاتُ مِنْ النِّعِيمِ ، الرَّاوِيَاتُ مِنَ السَّرُورِ
 الْعَاثِرَاتُ مِنَ الدَّلَالِ ، النَّاهِضَاتُ مِنَ الْغُرُورِ
 الْأَمْرَاتُ عَلَى الْوَلَاةِ ، النَّاهِيَاتُ عَلَى الصَّدُورِ ^(٢)
 النَّاعِمَاتُ ، الطَّيِّبَاتُ الْعَرَفُ : أَمْثَالُ الزُّهُورِ
 الدَّاهِلَاتُ عَنْ الزَّمَانِ بِنَشْوَةِ الْعَيْشِ النَّضِيرِ
 الْمُشْرِفَاتُ — وَمَا انْتَقَلْنَ — عَلَى الْمَمَالِكِ وَالْبُحُورِ
 مِنْ كُلِّ بَلْقَيْسٍ عَلَى كُرْسَى عِزَّتِهَا الْوَثِيرِ
 أَمْضَى نَفُودًا مِنْ زُبَيْدَةٍ فِي الْإِمَارَةِ ، وَالْأَمِيرِ
 بَيْنَ الرَّفَارِفِ ، وَالْمَشَارِفِ ، وَالزُّخَارِفِ ، وَالْحَرِيرِ
 وَالرُّوْضِ فِي حُجْمِ الدُّنَا وَالْبَحْرِ فِي حُجْمِ الْفَدِيرِ

(١) يقصد : جزيرة الروضة بالقاهرة غربي النيل ، وكان بها أعظم قصور إسماعيل
 « بِلْدَزَا » كلمة تركية ، معناها : النجم ، وبها سمي قصر السلطنة والجهة التي
 به في السلطانية — كما سبق —
 (٢) كان الترك يطلقون على رئيس الوزارة لقب : الصدر الأعظم .

والدَّرُّ مُؤْتَمِقُ السَّنَا والمسكِ فيَّاحِ العَمِيرِ
 في مسكنٍ فوق السَّما كِ ، وفوق غارات المُنِيرِ
 بين المعاقِلِ ، والقَنَا والخيلِ والجَمِّ الخَفِيرِ
 سَمَوُهُ : « يَلْدَز » ؛ والأفُو لُ زِهائَةُ النجمِ المَغِيرِ

ويقول من قصيدة في انتحار الطلبة :

فيمَ تَجْنُونُ على آبائكم أَلَمْ الشُّكْلُ شَدِيدًا في السِّكْبَرِ ؟
 وَتَعْمُقُونَ بلادًا ؛ لم تَزَلْ بين إشفاقٍ عليكم ، وَحَدَرَ ؟
 فصابُ المُلْكِ في شُبَّانِهِ كَمَصَابِ الأرضِ في الزَّرْعِ النَّصِيرِ
 ليس يدرى أحدٌ منكم بما كان يُعْطَى ، لو تَأَنَّى وَانْتَظَرَ
 رَبُّ طِفْلِ بَرَّاحِ البُؤْسِ به مُطَرَّ الخَلِّيرِ فَتِيًّا وَمَطَرُ
 وَصَبَّجِي أُرْزَتِ الدنيا به شَبَّ بين العِرِّ فيها ، والخَلَلِ
 ورفيعٍ لم يُسَوِّدْهُ أَبٌ مَنْ أَبُو الشمسِ ومن جَدُّ القَمَرِ ؟
 فَلَكَ جَارٌ ، ودنياً لم يَدُمُ عِنْدَهَا السَّعْدُ ، ولا النَحْسُ اسْتَمَرَّ

وقف عند ألفاظه — واحدة واحدة — في قصيدة أبي الهول التي منها :

أبا الهول . ماأنتَ في المَعْصَلَاتِ ؟ لقد ضَلَّتِ الشُّبْلُ فَيَكُ الفِكْرُ
 تَحْيَرَّتِ البَدْوُ ؛ ماذا تكونُ ؟ وضَلَّتْ - بوادي الظنون - الحَضَرُ
 فكنتَ لهم صُورَةُ العُفُوفَانِ ، وكنتَ مثالَ الحِجَا والبَصَرِ
 وسرُّك في حُجْبِهِ ؛ كَلَمَّا أَطَلَّتْ عليه الظنونُ اسْتَمَرَّ

وماراعهم غيرُ رأسِ الرجالِ على هيكلي من ذواتِ الظفرِ
ولوصوروا من نواحي الطُّباعِ تَوَاوَا عَلَيْكَ سِبَاعَ الصَّوَرِ
فيارُبَّ وجهٍ كصافي النَّميرِ ؛ تَشَابَهَ حَامِلُهُ وَالنَّمِيرُ
أبا الهول . ويحك !! لا يُسْتَقَلُّ مَعَ الدَّهْرِ شَيْءٌ ، وَلَا يُحْتَقَرُ
تَهَزَّتْ دَهْرًا بِدِيكَ الصَّبَاحِ فَتَقَرَّ عَيْنَيْكَ فِيمَا نَقَرُ
أَسَالَ الْبَيَاضَ ، وَسَلَّ السَّوَادَ ، وَأَوَّغَلَ مِنْقَارَهُ فِي الْحَفْرِ
فَعُدَّتْ ؛ كَأَنَّكَ ذُو الْحَبْسَيْنِ ؛ قَطِيعَ الْقِيَامِ ، سَلِيبَ الْبَصْرِ
كَأَنَّ الرَّمَالَ عَلَى جَانِبَيْكَ وَبَيْنَ يَدَيْكَ ذُنُوبُ الْبَشْرِ
كَأَنَّكَ فِيهَا لَوَاءَ الْقَضَاءِ عَلَى الْأَرْضِ ، أَوْ دَيْدَبَانُ الْقَدَرِ
كَأَنَّكَ صَاحِبُ رَمْلٍ ؛ يَرَى حَنَائِيَا الْغُيُوبِ خِلَالَ السَّطْرِ^(١)
أبا الهول . أَنْتَ نَدِيمُ الزَّمَانِ نَجِيُّ الْأَوَانِ ، سَمِيرُ الْعُصْرِ
بَسَطْتَ ذِرَاعَيْكَ مِنْ آدَمٍ وَوَلَّيْتَ وَجْهَكَ شَطْرَ الزُّمَرِ
تُطَلُّ عَلَى عَالَمٍ يُسْتَهْلُ وَتُوفِي عَلَى عَالَمٍ يُحْتَضَرُ ؛
فَعَيْنٌ إِلَى مَنْ بَدَأَ لِلْوُجُودِ ، وَأُخْرَى مُشِيعَةٌ مِنْ عَابِرِ
فَخَدَّتْ ؛ فَقَدْ يُهْتَدَى بِالْحَدِيثِ وَحَبْرٌ ؛ فَقَدْ يُؤْتَمَى بِالْخَبَرِ

.....

وفي قصيدة : (فَرُوق) (أَى : القسطنطينية ، وقد كانت حاضرة البلاد
التركية ، وبها أجمل المناظر الفاتنة الساحرة) :

(١) أَى : السَّطْر .

مِنِي لِعَهْدِكَ يَا (فِرْعَوْنُ) نَحِيَّةٌ ؛
 أَوْ : كَالنَّسِيمِ ؛ غَدَا عَلَيْكَ ، وَرَاحَ مِنْ
 أَوْ : كَالْأَصِيلِ جَرَى عَلَيْكَ عَقِيقُهُ
 تِلْكَ الْخَمَائِلُ وَالْعِيُونُ اخْتَارَهَا
 قَدْ أَفْرَغْتُ فِيكَ الطَّبِيعَةُ سِحْرَهَا
 خَلَعْتُ عَلَيْكَ جَاهِلَهَا ، وَتَأَمَّلْتُ ؛
 تَاللَّهِ مَا فَتَنَ الْعِيُونَ وَلَذَّاهَا
 عَنْ جِيدِكَ الْحَالِي تَلَفَّتْ الرُّبَا
 كَمِئُونِ مَائِكَ ، أَوْ رُبَا وَادِيكَ
 فَوْفِ^(١) الْإِيَّاسِ ، وَوَشَّيْهَا الْحَبُوكِ
 أَوْ : سَالَ مِنْ عَقْمَانِهِ شَاطِئِكَ
 لَكَ مِنْ رُبَا جَنَاتِهِ — بَارِيكَ
 مِنْ ذَا الَّذِي مِنْ سَحَرِهَا يَرْقِيكَ ؟
 فَإِذَا جَمَالُكَ فَوْقَ مَا تَكْسُوكِ
 كَقَلَانِدِ الْخُلُجَانِ فِي هَادِيكَ
 وَاسْتَضْحَكَتْ حُورُ الْجِنَانِ بِفِيكَ

وَفِي قَصِيدَةٍ يُخَاطَبُ فِيهَا الْمَعْلَمِينَ :

رَبُّوْا عَلَى الْإِنْصَافِ فِتْيَانُ الْحَمَى
 فَهُوَ^(٢) الَّذِي يَبْنِي الطُّبَاغَ قَوِيْمَةً
 وَيُقِيمُ مَنْطِقَ كُلِّ أَعْوَجَ مَنْطِقٍ
 وَإِذَا الْعِلْمُ لَمْ يَكُنْ عَدْلًا مَشَى
 وَإِذَا الْعِلْمُ سَاءَ لِحَظَ بَصِيرَةٍ
 وَإِذَا أَنَّى الْإِرْشَادُ مِنْ سَبَبِ الْمَوَى
 وَإِذَا أَصِيبَ الْقَوْمُ فِي أَخْلَاقِهِمْ
 تَجِدُوهُمُوهُ كَهْفَ الْحَقُوقِ كَهُولًا
 وَهُوَ الَّذِي يَبْنِي النُّفُوسَ عُدُولًا
 وَيُزِيلُ رَأْيَا فِي الْأُمُورِ أَصِيلًا
 رُوحُ الْعَدَالَةِ فِي الشَّبَابِ ضَمِيلًا
 جَاءَتْ عَلَى يَدِهِ الْبَصَائِرُ حُولاَ
 وَمِنْ الْفُرُورِ فَسَمَّهِ التَّضْلِيلًا
 فَأَقِمْ عَلَيْهِمْ مَأْتَمًا وَعَوِيلًا

وَقَوْلُهُ فِي قَصِيدَةٍ نَابِلِيُونُ :

أَرَأَيْتَ الْخُـبْرَ وَافِي أُمَةٍ لَمْ يَنَالُوا حَظَّهُمْ فِي النَّابِغِينَ ؟

(١) الفوف : ثياب يمنية رقيقة منقوشة ، يشبه بها الزهر (المفرد : فوفة) .

(٢) أى : الإنصاف .

يَصْلُحُ الْمَلِكُ عَلَى طَائِفَةٍ هُمْ جَمَالُ الْأَرْضِ حِينًا بَعْدَ حِينٍ
مَلَأُوا الدُّنْيَا عَلَى قَاتِلِهِمْ وَقَدِيمًا مُمَاتٌ بِالْمُرْسَلِينَ
يَحْسُنُ الدَّهْرُ بِهِمْ مَا طَلَعُوا وَبِهِمْ يَزْدَادُ حُسْنًا آلَافِينَ
قَدْ أَقَامُوا قَدَوَةً صَالِحَةً وَمَضَوْا أُمُثْلَةً لِلْمُحْتَدِينَ
إِنَّمَا الْأَنْوَةُ - وَالْدُنْيَا أَسَى - سَبَبُ الْعِمْرَانِ ، نَظْمُ الْعَالَمِينَ

.....

تلك صُور من ألفاظ شوق ؛ لم أنخيرها ، ولم أقصد إلى انتقائها ؛
فما لها فضل على سواها . وبحسبك أن تقلب صفحات ديوانه فتصادف
نظائرها ، بل خيراً منها .

على أن شوقي شاعر كسائر فرسان الشعر ؛ له كَبَوَات وسقطات .
فليس المتنبي ولا غيره يَدْعَا في زَلَاتِهِ ، وهَفَوَاتِهِ . وفضل الشاعر على
الشاعر في هذه الناحية إنما يكون بقلّة الزلل ، وخِفَةِ السَّقَط . أما الشاعر
المُبْرَأ فلم تره الدنيا ، ولم يعرفه الأدب . ومن ثَمَّ وجب قصر الموازنة اللفظية
بين المتنبي وشوقي على هذه الناحية ؛ ناحية كثرة العيوب ، واستفاضة الزلل
وهذه وحدها لا تكفي ؛ فقد تكون كثرة العيوب محتملة ؛ لأنها لم تبلغ
من القبح والشناعة مبلغاً كبيراً . وقد تكون استفاضة الزلل هيئته لا تبلغ
في ثقلها ما يبلغه نوع واحد آخر ؛ فلا بد للحكم الصحيح من الموازنة بين
كثرة العيوب اللفظية ونوعها معاً . أو كما يقولون : لا بد في الموازنة اللفظية
من ملاحظة الكم والكيف معاً .

وإذا أخذنا أنفسنا بهذا الدستور رأينا من ألفاظ شوقي ما هو معيب .

ولكن عيوبه — بالنسبة لألفاظ المتنبي — أقل ، ووزنها أخف . وإليك الأمثلة التي عثرنا بها بعد استقصاء جاهد ، نزيه ؛ نعرضها بأمانة على الوجه الذي عرضنا به ألفاظ المتنبي . ولسنا بحاجة إلى التذكير بصنوف العيوب اللفظية وما ينبذه الأدباء والبلاغيون منها ؛ فقد سبق إيضاحها . وسنكتفي بسوق الأمثلة ؛ لتستبين منها تلك العيوب .

يقول في قصيدته : كبار الحوادث ؛ وهي أول قصيدة في ديوانه :

(١) هَمَّتِ الْفَلَائِكُ ، وَاحْتَوَاهَا الْمَاءُ وَحَدَّاهَا بَيْنَ تَقِيلُ الرَّجَاءُ
ضَرَبَ الْبَحْرُ ذَوِ الْعُبابِ حَوَالِيهَا سَمَاءُ ؛ قَدْ أَكْبَرَتْهَا السَّمَاءُ
وَرَأَى الْمَارِقُونَ مِنْ شَرِّكَ الْأَرْضِ ضِيقًا شَبَابًا كَأَنَّهَا الدُّمَاءُ^(١)
وَجِبَالًا مُوَاتِجًا فِي جِبَالٍ تَتَدَجَّى ، كَأَنَّهَا الظُّلُمَاءُ
وَدُورًا ، كَمَا تَأْهَبُ الْخَيْلُ ، وَهَاجَتْ مُخَاتِمَتُهَا الْهَيْجَاءُ
لُجَّةً عِنْدَ لُجَّةٍ أُخْرَى كَهَضَابٍ مَاجَتْ بِهَا الْبِيدَاءُ
(١) أبيات من قصيدته الثانية (صدى الحرب) :

(ب) وَتَسْحَبُ ذَيْلَ الْكِبْرِيَاءِ ، وَهَكَذَا يَدْيُهُ ، وَيَخْتَالُ الْقَوِيُّ الْمَغْلَبُ
(ج) وَتَبْدُو عَلَيْهِ^(٢) الْفَلَائِكُ شَتَّى ، كَأَنَّهَا بُيُوتٌ^(٣) ، تُرَاعِيهَا عَلَى الْبُعْدِ أَعْقَبُ^(٤)
(د) فَهَازِلَتِ بِالْأَهْوَالِ حَتَّى اقْتَحَمَتْهَا وَقَدْ تُرَكِبُ الْحَاجَاتُ مَا لَيْسَ يُرَكَّبُ
(هـ) تَذَبْذَبَ أُسْطُولَاهُمُ ، فَدَعَتْهُمَا إِلَى الرُّشْدِ نَارٌ ثُمَّ لَا تَتَذَبْذَبُ

(١) البحر . (٢) أى : على البحر (يصف البحر وفوقه السفن الحربية) .

(٣) جمع باز : وهو من الطيور الكاسرة .

(٤) جمع عقاب : ومى من الطيور الكاسرة .

- (و) فلما دَجَى دَاجِيُ الْعَوَانِ، وَأَطْبَقْتُ
(ز) كَأَنَّ خِيَامَ الْجَيْشِ فِي السَّهْلِ أَيْنُقُ
(٢) لَمْ يَطْعَمِ الْغُمُضُ جَنُنُ الْمُسْلِمِينَ لَهَا
(٣) نَحِيَةً أَيُّهَا الْغَازِي ، وَتَهْنِئَةً
(٤) وَازْبَدَتْ أُمَهَاتُ الشَّرْقِ، وَاسْتَبَقَتْ
(٥) فَيضًا عَلَى الْأَوْطَانِ مِنْ حُرْبَةٍ ؛
(٦) اللَّهُ صَاغَكَ جَنَّتَيْنِ لَخَلْقِهِ
(٧) غَالٍ فِي قِيَمَةِ ابْنِ (بَطْرَسَ غَالِي)
(٨) فَرَحَبًا بِكَمَا مِنْ طَالِعَيْنِ بِهِ^(٢)
(٩) عَادَ الزَّمَانُ فَأَعْطَى بَعْدَ مَا حَرَمَنَا
(١٠) جَشْمَهَا مِنْ الْأَهْوَالِ أَرْبَعَةً
- تَبَلَّجَ وَالْعَصَرَ — الْمَلَالُ الْحَجَبُ
نَوَاشِزُ، فَوْضَى، فِي دَجَى اللَّيْلِ مُثْرَبُ
حَتَّى انْجَلَى لَيْلُهَا عَنْ صَبْحِهِ الشَّنْبِ
بَابَةِ الْفَتْحِ تَبْقَى آيَةُ الْخَقَبِ
مَهَارِجُ^(١) الْفَتْحِ فِي الْمَوْشِيَّةِ الْقَشْبِ
فِكْلًا كَمَا الْمُفْتَكُّ مِنْ أَغْلَالِهِ
تَخْفُوفَتَيْنِ بِأَنْعَمٍ لِعِيَالِهِ
عَلِمَ اللَّهُ لَيْسَ فِي الْحَقِّ غَالٌ
عَلَى سَوَى الطَّائِرِ الْمَيْمُونِ مَا قَدِمَا^(٣)
وَنَابَ فِي أُذُنِ الْحَزُونِ ، فَابْتَدَأَ
الرَّعْدَ، وَالْبَرْقَ، وَالْإِعْصَارَ، وَالظُّلُمَا

فكلمة : « أربعة » من ألفاظ الحسَّابِينَ التي لا تحسُن في الشعر . ومع
أنها حسَّابية مردولة — قد فهمت هنا . ولم يفهم مدلولها في قصيدة نابليون
حيث يخاطبه قائلاً :

وَأَعْدَهَا كَلِمَاتٍ أَرْبَعًا قد أحاطت بالقرون الأربعين^(٤)
(١١) كَيْفَ نُحْصِي عَلَى غُلَاكَ ثَنَاءً ؟ لك منه الثناء والإكرام

(١) جمع : مهرجان ، بمعنى : عيد . (٢) أى : بمركب الطيران (الطيارة) .

(٣) أى : ما قدما على سوى الطائر الميمون .

(٤) لما قدم نابليون على رأس الحملة الفرنسية، ووصل بمجنوده إلى الجزيرة، وأطل عليهم

الأهرام — خطب فيهم عنده قائلاً : إن أربعين قرناً تنظر إليكم من قبة الأهرام .

(١٢) في وصف القمر :

بِرَأْيٍ ؛ كَمَا الْحُلُمُ ضَاحٍ ، سَمِعِيدُ ؟
ظُلُمَاتٍ ؛ كَدُحَى اللَّيْلِ حِجَابَا
حَتَّى أَنَافَ ، فَلَاحَ طَارًا أَكْبَرَا

لِعَيْنِ غُرَّةٍ تَنْجَلِي مِنْ بَمِيدُ
(١٣) الْمَالِيــــــــــــكُ تَمْشِي ظُلْمُهُمْ
(١٤) فَسَمَتْ ؛ فَكَانَتْ نِصْفَ طَارٍ ، مَا بَدَا

يُصِفُ الشَّمْسُ ، فَمَا الطَّارُ ؟

وَرَوْضٍ ، فَوْقَ رَوْضٍ ، فَوْقَ رَوْضٍ
مِنْ وَقَارِ اللَّيْلِ أَلَا يُخْتَفَرُ
كَنْظِي فِي كَوَاعِبِهَا الشَّبَابَا (٢)
وَبِالْأَيْتَامِ حُبًّا ، وَارْتِبَابَا (٣)
وَيَشْنِي مِنْ تَلَعُلُمِهَا (٤) الْكَلَابَا
بِشَاثَةِ الْبَوَادِي ، وَالْقَصَا (٥)
فَخِنْ مَدَحَتِكَ أَقْتَدْتُ السَّحَابَا
يَدَا تَوَلَّفَهَا دُرًّا وَنَحْشَلَبَا (٦)

(١٥) وَكَمْ أَرْضٍ هُنَاكَ ، فَوْقَ أَرْضٍ
(١٦) مِيتَةً لَمْ تَلْقَ مِنْهَا عِلَازًا (١)
(١٧) ثَرَتْ الدَّمْعُ فِي الدَّمَنِ الْبَوَالِي
(١٨) أَرَادَ اللَّهُ بِالْفُقَرَاءِ بَرًّا
(١٩) وَإِنَّ الْمَاءَ تَرَوَى الْأُسْدُ مِنْهُ
(٢٠) تَجَلَّى مَوْلِدُ الْهَادِي ، وَعَمَّتْ
(٢١) مَدَحْتُ الْمَالِكِينَ ؛ فَزِدْتُ قُدْرًا
(٢٢) خَلُّوا الْأَكَالِيلَ لِلتَّارِيخِ ؛ إِنَّ لَهُ

قُمْصَ (٨) الْبَعُوضِ ، وَمُسْتَحَسَّ إِهَابِهِ ؟
أَوْهَامَ مَغْلُوبٍ عَلَى أَعْصَابِهِ

(٢٣) هَلْ كَانَ «تَوْتَنِيخُ» تَقْمَصُ (٧) رُوحُهُ
(٢٤) غَلِبُوا عَلَى أَعْصَابِهِمْ ؛ فَتَوَقَّهُوا

(١) فزعاً وشدة خوف . (٢) الشعر . (٣) عناية وترية .

(٤) تحريك لسانها من شدة العاطش .

(٥) جمع : قَصَبَة ، وهي : المدينة الكبيرة .

(٦) حصى ، أو : زجاج . (٧) أى : تقمص . (٨) جمع : قميص .

(٨)

(٢٥) ويخاطب الله فلا يحسن الاحتراس :

وإني — ولا من عليك بطاعة — أَجِلُّ ، وَأُغْلِي فِي الْمَرُوضِ رَ كَاتِي

(٢٦) ويخاطب الخليفة العثماني (وكانت مصر تابعة له) فلا يحسن الخطاب :

ومن كان مثلي — أحمدا الوقت — لم تجزُ عليه (ولو من مثلك) الصدقاتُ

(٢٧) هتَكُوا بأيديهم مُلَاءَةً نَغْرِمُ مَوْشِيَّةً بمواهب الفتح

(٢٨) ويمدح رئيس الجمهورية التركية فيقول :

هوركنُ مملكةٍ ، وحائطُ دولة . وقريعُ^(١) شهباءُ^(٢) ، وكبشُ نطاح .

(٢٩) ويخاطب الهرم فيقول :

تلك الرمالُ بجنانبيك بقيةٌ من نعمةٍ ، وسمّاحةٍ ، ورَمَادٍ .

يقصد بالرماد : الكَرَم .

(٣٠) خطبُ الأمام على النّظِيمِ^(٣) يعزُّ شَرَحًا ، والشَّيرُ^(٤)

(٣١) مَلَّ^(٥) يومَ المُرْس منها نفسه رَحِمَ اللهُ العروسَ الْمُخْتَضِرَ^(٦)

(٣٢) ويقول في النحلة :

ذائدةٌ عن حوضها طاردةٌ من كدَره

حتى إذا جاءت به جاست خلالَ الأدوَرِ^(٧)

(٣٣) ويقول في مدح الأزهر :

وسمًا بأروقَةِ الهدى ؛ فأحلّها فرعَ الثَّرَيَا ، وفي أصلِ التَّرَى

(٣٤) واجعلْ مكانَ الدُرِّ إن فصلتُهُ في مدحِهِ خرَزَ السَّمَاءِ النَّيِّرَا

(١) القريع : الذي يغلب عند المقاتلة . (٢) الكتبة المسلحة . (٣) النظم .

(٤) النثر . (٥) أطلق وفك . (٦) البيت في روعة الشباب .

(٧) جمع : دار .

(٣٥) ويقول في السابقين من الصحفيين :

أولئكَ مرؤوا كدودِ الحريرِ شَجَّاهَا النَّفَّاعُ^(١) ، وفيهِ التَّلَفُ
(٣٦) فَكُنْتَ لِبَيْتِهِ الْحَجُوجِ رُكْنًا وَكُنْتَ لِبَيْتِهِ الْأَقْصَى سِطَاعًا^(٢)
(٣٧) كَهَرُونَ الرَّشِيدِ ، نَدَى ، وَبَاسًا وَكَلَامُونَ فِي جَلٍّ زَمَاعًا^(٣)

(٣٨) يقول في السفينة :

وَهَلَّلَ فِي الْجَوْ قَيْدُومَهَا^(٤) وَكَبَّرَ فِي الْمَاءِ سُكَّانُهَا^(٥)

(٣٩) ويتنزل في ظبي لبناني فيقول :

لُبْنَانُ دَارَتُهُ ، وفيهِ كِنَاسُهُ بَيْنَ الْقَنَا الْخَطَّارِ خُطَّ نَحِيَّتُهُ

فما النحيت ؟ إن من معانيه السجبة ، والطبيعة ، والمشي البطيء . من التعب ، والأنين . فأياها أراد ؟

أليست هذه هي الكامة العوراء التي تشوه الكلام الحسن ، والمعنى الجميل ؟

(٤٠) ويخاطب توت عنخ آمون :

فَقُلْتُ : يَا مَاجِدَهَا وَجَعَدَهَا^(٦) لَوْلَمْ تَكُ ابْنُ الشَّمْسِ كُنْتَ رِثْدَهَا^(٧)

(٤١) ويمدح الطيارين والشجعان ، فيقول :

مِنْ كُلِّ أَمْوَجٍ فِي الْمَوَاءِ : عِنَانُهُ هُوجُ الرِّيحِ ، وَسَرَّجُهُ الْإِعْصَارُ

- | | | |
|--------------|---------------------------|--------------------|
| (١) النفع . | (٢) السطاع : عمود البيت . | (٣) عزما وإقداما . |
| (٤) مقدمها . | (٥) دقتها . | (٦) كرمها . |
| (٧) ظليها . | | |

وأكثر ما يستعمل : « المَوْج » في الحمق والتسرع بغير تفكير ؛ وإن كان معناه هنا : الجرأة والشجاعة ، وعدم المبالاة في الحرب ، وغيرها .
(٤٢) بذت^(١) البقاع ، وأمَّ بردون^(٢) نبيها طيبي كجلق^(٣) ، واسكبي بردك^(٤) .
فكلمة : « بردونها » ثقيلة ، ومعناها غير معروف لى ، ولعلها اسم نهر .

(٤٣) ياناثات محمد نختنة غص الإهاب

(٤٤) وقال يصف ثروت باشا في مفاوضة الإنجليز نائباً عن مصر :

لولا سفارتك المهدية اختصما وملَّ طول النضال الذئب والنقد^(٥)
(٤٥) فيالك قبراً أكنَّ الكنوز وساجَّ الحقوق ، وحاطَّ اليهود

(٤٦) وقال (في رثاء والدته) يصف الأندلس :

أريج^(٥) أريج^(٦) السك في عرصات^(٦) وإن لم أرح (مروان) فيها ولا (لخم)
(٤٧) هنيئاً للعدو بكل أرض إذا هو حل في بلد تعادى

يريد . إذا هو حل في بلد قد تعادى أهله ، وتباغضوا

* * *

ومما يؤخذ على شوقي في ألفاظه استخدامه بعض القديم الذي لا يلائم العصر ، أو لا يناسب الموضوع ؛ كاستعماله كلمات : الهودج ، والحداء ، والإناخة ، واللجم ، والنجائب ، والشرج ، والأعنة ، وأشباهها في قصائد مختلفة لا تحسن فيها هذه الكلمات .

(١) يشير : إلى مدينة « زحلة » اللبنانية القريبة من سهل البقاع .

(٢) كدمشق . (٣) بردى : نهر دمشق . يريد اسكبي نهرك الذى كبرى .

(٤) النقد : نوع قبيح ، هزبل من الفم . شبه به مصر ، وشبهه إنجلترا بالذئب .

(٥) أشم . (٦) رائحة .

(١) كقولها في مطلع قصيدة يستقبل بها أم المحسنين (والدة الخديوى عباس) حين عودتها من تركية^(١) :

إِرْفَعِي السُّتْرَ ، وَحَيِّى بِالْجَمِينِ وَأَرِينَا فَلَقَ الصُّبْحِ الْمُبِينِ
وَفِيهِ الْهُودَجُ فِينَا سَاعَةً نَقْتَدِسُ مِنْ نُورِ أُمِّ الْمُحْسِنِينَ
فأى هودج كانت تركبه أم المحسنين ؛ ربيعة النعمة الغامرة ، والترف
البالغ ؟ وأين الهودج من أنخم السيارات التى استقبلتها يوم عودتها ،
وحملتها فى الإسكندرية والقاهرة ؟

(٢) وقوله بعد أبيات :

خَطَرَ السُّتْرُ ؛ فَكَبَّرْنَا ، كَمَا خَطَرَ الْمُصَحَفُ بَيْنَ التَّابِعِينَ
وَحَدَوْنَاهُ^(٢) إِلَى مَحْرَابِهِ وَأُنْخَنَاهُ لَدَى الْخِذْرِ السَّكِينِ^(٣)
فما معنى الحداء والإناخة فى موكب ليس فيه إبل ، ولا دواب
للمركوب ؛ وإنما فيه سيارات من أنخم السيارات الحديثة ؟
(٣) وقوله فى استقبال طيارين تركيين زارا مصر على طيارتهما التى تسمى :
« أَدْرَمِيد » :

يَا صَاحِبِي (أَدْرَمِيد) حَسْبُهَا شَرَفًا أَنَّ الرِّيحَ إِلَيْهَا أَلْقَتْ الْأَجْمَا
فأى لُجْم تلقىها الرياح للطيارة ؟ وهل نستطيع أن نعتذر عن الشاعر
فى هذا إلا متجاوزين متكفين فى مقام لا يحسن فيه المجاز والتكلف ؟
(٤) وقوله فى وصف مركب الطيران (الطيارة) :

مُسْرَجٌ فِي كُلِّ حِينٍ مُلْجَمٌ كَامِلُ الْعُدَّةِ ، مَرْمُوقُ الرُّوَاءِ

(١) كانت تلك العودة بعد سنة ١٩٣٠م أى : بعد شيوع السيارات فى جميع أرجاء مصر .

(٢) غَنَيْنَاهُ ؛ كما يحذو السائق إبله ، وينى لها . (٣) أى : المكنون المصون .

(هـ) وقوله في الطيارين :

حِينَ ضَاقَ الْبَرُّ وَالْبَحْرُ بِهِمْ أَمَرَ جُورِ الرِّيحِ ، وَسَامُوهاَ الْجَمَامَا

.....

وللألفاظ القديمة نصيب من غزلياته جاری فيه الشعراء السابقين الذين رددوها في شعرهم جيلا بعد جيل ؛ كالرثم ، والبان ، والعلم ، وظبي جاسم ... وأمثال هذا مما سنعرض له ، ونوفيه حقه في مكانه من موضوع الغزل وغيره . وفي ألفاظه عيب آخر يضرب في نواحي شعره ، ويكاد يتخللها جميعا ؛ ذلك أنه يؤثر الرقة في أغلب لفظه وإن أباحا المقام ، ويتوقى الجزالة وإن تَطَلَّبَهَا الغرض . وهذا عيب لا فُسحة فيه لعذر . شأنه شأن المتنبي الذي يتناقضه ؛ فيلتزم الجزالة في أغلب مواقفه ؛ لا يبالى أصاحتها أم لم تصلح . فمن يرضى عن ألفاظ شوقي وهو يتحدث بأسان بطل يخوض غمار معركة حربية ؛ فيقول عن نفسه وحصانه :

فَقِيلَ : أُنِلْ أَقْدَامَكَ الْأَرْضَ ؛ إِنَّهَا	أَبْرُ جَوَادًا إِنْ فَعَلْتَ ، وَأُنْجِبُ
فَقَالَ : أَرْضَى وَاهِبَ النِّصْرِ أَنْتَا	نَمُوتُ كَمَوْتِ الْفَانِيَاتِ ، وَنَعْطِبُ ؟
ذُرُونِي وَشَأْنِي ، وَالْوَعَى ؛ لَا مَبَالِيَا	إِلَى الْمَوْتِ أَمْشِي أَمْ إِلَى الْمَوْتِ أَرْكُبُ ؟
أُبَحْمَلُنِي عُمَرًا وَيَحْمِي شَبِيبَتِي	وَأَخْذُهُ فِي وَهْنِهِ ، وَأُخَيِّبُ ؟
إِذَا نَحْنُ مَقْتَنَا فَادْفَنُونَا بِقَعَةٍ	يُظَلُّ بِذِكْرَانَا ثَرَاهَا يُطَيَّبُ
وَلَا تَعْجَبُوا أَنْ تَبْسُلَ الْخَلِيلُ ؛ إِنَّهَا	لَهَا - مِثْلُ مَا لِلنَّاسِ - فِي الْمَوْتِ مَشْرَبُ
فَنَاتَا أَمَامَ اللَّهِ مَوْتَ بَسَالَةٍ	كَأَنَّهُمَا فِيهِ مِثَالُ مُنْصَبُ

وما شهداء الحربِ إلا عمادُها وإن شَيدَ الأحياءَ فيها ، وطَنَبُوا
... ..

وهل قبلهم من عاتقَ النارَ راغبًا ؟ ولو أنه عِبَادُها المترَهَّبُ
وهل نال ما نالوا من الفخرِ حاضرٌ ؟ وهل حَيَّ الخالون منه الذى حُبُّوا ؟
فما أجل المعنى ، وأوْهى اللفظ !!

... ..

وكذلك قصيدته فى الحرب والسياسة التركية ؛ ومطلعها^(١) :

الله أكبرُ ، كم فى الفتح من عجب !! ياخالِدَ التركِ جَدُّ خالِدِ العربِ
وفى أعدائهم يقول :

ياحسَنَ ما انسَحَبُوا فى مَنطِقِ عَجَبٍ تَدْعَى المَزيمةُ فيه حُسْنَ مُنْسَحَبٍ
لم يَدِرْ قَائِدُهُمْ لَمَّا أَحْطَتْ بِهِ هَبَطَتْ مِنْ صَعْدِ^(٢) أُمِّ جِنْتٍ مِنْ صَبَبِ^(٣) ؟

... ..

تلك الفراسخُ من سهلٍ ومن جبلٍ قَرَبَتْ ما كانَ منها غَيْرَ مُقْتَرَبٍ
خيلُ الرِسلِ من الفولاذِ .. مَدْنُهَا وَسائِرُ الخيلِ من لحمٍ ومن عَصَبِ

... ..

والصَّبْرُ فيها وفى فُرْسَانِها خُلُقٌ تَوَارَثُوهُ أَبَا فى الرُّوعِ بَعْدَ أَبِ
فأين الجزالة فى هذا الكلام ؟ وإن لم تُحَمَّدَ هنا فى أى موضع آخر
تُحَمَّدَ ؟ وأين هذا من حربيّات المتنبي التى تسمعها فتسمع صايِلِ السيوف ،

(١) لنا فى هذا المطلع كلام يحىء فى موضعه من المطالع .

(٢) بقعة مرهقة . (٣) بقعة منحدره .

ورنين الحديد ، ومقارعة الأبطال ، وصهيل الخيول ، وتشهد المعركة
فرسانا ، وأفراسا ، وحديدا ، ونارا ، وغباراً يملأ الآفاق ، ودويّاً
يُصمّ الآذان :

كجبل من الرخام انشَقَّ أو كالنحاس بالنحاس دُقَا

وإذا كان لطبيعة المتنبي المتمردة ، العنيفة ، الثائرة — أكبر الأثر
فيما نرى ، فأغلب الظن أن لطبيعة شوقي المادئة ، الوديمة — كما وصفها
خلصاؤه — أكبر الأثر فيما نرى أيضاً . فقد استجابت للحياة الناعمة
المرتفة ، ولمظاهر المدنية الحديثة التي انعكس فيها صاحبها ، وتلازماً واتقفا ؛
فكان من ذلك الرقة التي لا تنكاد تفارقه ، ولو رام التخفف منها أحيانا .
فألفاظ شوقي الصافية المذبة الرقيقة صورة لنفسه وحياته .

هذا وله بعض كلمات طويلات النفس ، كثيرات الحروف ؛ لا يرضاهما
النقدة البلاغيون (إذا لم نتحفظ في قبول رأيهم) فما عسى أن يكون
رأيهم في كلمات طويلة ليس من بعضها بُدٌّ ؟ كقوله في قصيدة (غاندى)
الزعيم الهندى العظيم ، حين مر^(١) بالسواحل المصرية على باخرة تدعى :
(رجبوتان) قاصداً بلاد الإنجليز لمفاوضتهم في أمر استقلال بلاده ؛ فقد شبهه
شاعرنا بكشفشيوس^(٢) قائلاً :

بَنَى مِصْرَ أَرْفَعُوا الْعَارَا وَحَيُّوا بَطَلَ الْهِنْدِ

... ..

(١) كان ذلك سنة ١٩٣١ .

(٢) نبى عند الصين ، وإله عند بعض تلك الأجناس الصغرى .

عَلَى إِفْرِيزٍ (رَجَبُوتَا نَ) تَمَثَّلُ مِنَ الْمَجْدِ
نَبِيٍّ مِثْلَ (كَنْفُشِيُو سَ) أَوْ مِنْ ذَلِكَ الْعَهْدِ

هذه الكلمات وأشباهاها قد نَمَضُ عنها ؛ لاضطرارنا إليها . ولكن الإغضاء —
وإن مَنَحَهَا رخصةً ليست لنظرها — لا يُخْرِجُهَا مِنْ مِنتَقَةِ الثَّقَلِ الْبَغِيضِ ،
وَلَوْ خَفَّفَ نَصِيبُهَا مِنْهُ .

ولشوقي كلمات قَلِقةٌ في مواطها ؛ تَتَأَنَّى الاستقرارَ وَأَكْثَرُ مَا تَكُونُ
في قصائده التي يعارض بها شاعراً آخر ؛ فترى الكلمات نافرة ، والقوافي مفتضبة
مقهورة . وأوضح مثال لذلك : سينيته ^(١) ، ونونيته ^(٢) (مع أنهما من أبداع
روائمه) فمن الأولى قوله :

رُبَّ لَيْلٍ سَرَيْتُ ، وَالْبَرْقُ طُرْفِي ^(٣) وَبِسَاطِ طَوْنِي ، وَالرَّيْحُ عَنِّي ^(٤)
أَنْظِمُ الشَّرْقَ فِي (الْجَزِيرَةِ) ^(٥) بِالْفَرِّ ، وَأَطْوَى الْبِلَادَ حَزَنًا لِدَهْسِ ^(٦)
فِي دِيَارٍ مِنَ الْخِلَافِ دَرَسِ وَمِنْ أَرَاكِ مِنْ الطَّوَائِفِ طَمَسِ
وَرُبَّ كَالْجَنَانِ فِي كَنْفِ الزَّيْتُونِ ، وَفِي ذِرَا الْكَرْمِ طُمَسِ ^(٧)
حِصْنِ غِرْنَاتِهِ ، وَدَارِ بَنِي الْأَحْمَرِ ؛ مِنْ غَافِلٍ ، وَيَقْظَانِ نَدَسِ ^(٨)

(١) التي أولها :

اختلاف النهار والليل عني اذكر لي الصبا وأيام أنسى
معارضاً بها سينية البحرى التي أولها :
صنت نفسي عما يدنس نفسي . . .

(٢) التي أولها : يا نافع الطلع أشباه عوادينا . . .

معارضاً بها نونية ابن زيدون وأولها : أضحى التناهي بديلاً من تدانينا . . .

(٣) حصاني . (٤) نافتي . (٥) المراد: الجزيرة الأندلسية ؛ إذ كان منفياً بها .

(٦) لمكان سهل . (٧) جمع أطلس ؛ وهو لون فيه غبرة .

(٨) ذكرى يفهم .

يادياراً نزلتُ ؛ كالخالدِ ضِلَّالاً ، وجنَّتْ دانيا ، وسلسالَ أنسٍ
محسّناتِ الفصول ؛ لا ناجر^(١) فيها بقيّظٍ ، ولا جُمادى بقرسٍ^(٢)
لا تحسنَ العيونُ فوقَ رباها غيرَ حورٍ ، حوَّ المرَّاشِفِ ، لُعنسٍ^(٣)
... ..

ومن الثانية قوله يخاطب سارى البرق .
بالله إن جُبِثَ ظلماءُ العُبابِ على نِجائبِ النورِ محدوداً بجبرينا^(٤)
وأُحرزَتِكَ شُفُوفُ اللَّازَوَرْدِ على وشي الزبرجد من أنوافِ وادينا
فقف إلى النيل

* * *

إلى هنا انتهى الحديث عن ألفاظ شوقي . وما أظنّ المنصف الذى
يساير الشاعرين فى الأمثلة السابقة وفى ديوانهما — يتردد فى الحكم لشوقي ،
وتفضيله فى هذه الناحية الهامة .

على أن لموازنة النظمية لا تكون كاملة سائمة إلا إذا أردفناها بتفصيل
ناحييتين أخريين لهما أتم الصلة بها ؛ وأعنى :

(أ) طرافة الألفاظ ، وخصوصيتها .

(ب) أخطاء الشاعر ، وضروراته ، ومبلغ قدرته على استخدام الأصول
اللفوية ، والمحسنات البلاغية المختلفة فى حدودها الموسومة ،
ولاسيما : السرقات والمطالع .

وإليك البيان فيما :

* * *

(١) اسم لكل شهر من أشهر الصيف (٢) بشديد البرودة .

(٣) جمع : لساء ، ومى : المرأة التى فى شفتها سمرة خفيفة مستلعة .

(٤) أى : جبريل .

(١) طرافة الألفاظ وخصوصيتها

حظ الشاعرين منها .

قد سبقت^(١) الإشارة التي توضح المراد من هذين الوصفين . ونريد أن نخصهما بمزيد من الإيانة والإيضاح ؛ لأهميتهما ، فنقول : لا يكفي في حسن الألفاظ أن تكون عربية فصيحة على الوجه الذي أسلفنا ؛ بل لابد فوق ذلك أن تكون طريفة جديدة ، وأن تكون خاصة ، كما يقول البلاغيون الأدباء .

(١) ويمنون بطرافتها ألا تكون سوقية مبتذلة ؛ تشيع على ألسنة العامة وأشباههم ، ككلمة : « العائلة » ؛ فإنها عربية صحيحة ، ولكنها بغيضة ؛ إذ لا يكاد العامة ينطقون بفسيرها للدلالة على : « الأسرة والعشيرة » ومثلها : « الخطاب » بمعنى : الرسالة . « والفسحة » بمعنى : التثنية . « وتفرعن » بمعنى : طغى وتجبر . وكذلك : « النسيم العليل » ... و... و...

فقد بلغ من ذبوع هذه الكلمات وانتشارها في عصرنا أن صارت تجري على كل لسان ؛ حتى فقدت جمالها الأول ، وذهب الاستعمال بما لها من نضرة وبهاء ؛ ولهذا يتوقاها الأدباء . فان القصد من الكلام - كما عرفنا - إنما هو الإبلاغ^(٢) والتأثير معاً . وتأثر النفس بالطريف الجديد ، وإقبالها عليه - أشد وأقوى من الشائع المبذول ؛ فإنه ملمول (يضع من قدر

(١) ص ٨٠ (٢) نقل الصور الذهنية من المتكلم إلى السامع ، وإيصالها إلى نفسه .

الكلام ولو كان المعنى شريفاً^(١) وهو « وإن لم يؤثر في الفصاحة كبير تأثير — عَيْبٌ يحسن صيانتها عنه ؛ لأن الفصاحة تُنبئ عن اختيار الألفاظ وحسنها ، وطلاوتها . أما هو فوصف من أوصاف النقص التي يجب إطراحها ، والبعد عنها^(٢) » ولعل الأمر لا يختلط علينا بين الكلام المهيّن البذول ، والسهل المحبوب ؛ فالأول هو ما تستعمله العامة في محاوراتها ، ودارج كلامها ، وتدرّك معناه . والثاني تفهم الكثير منه إذا سمعته ، ولكن لا تردده إذا تكلمت^(٣) .

وصفة الابتذال متغيرة ؛ ليست كغيرها من صفات القبح التي تلازم الكلمة ؛ فقد تكون الكلمة طريفة في عصر مبتذلة في آخر ، والعكس صحيح . بل قد تكون مبتذلة عند قوم طريفة عند آخرين ؛ يعيشون معهم في عصر واحد ، أو إقليم واحد . ومن هنا كان الحكم على ألفاظ السابقين بالطراوة أو الابتذال مُرضية للقدح ؛ لأننا لم نعلمهم ، فنعرف مبلغ ذبوع الكلمة أو عدم ذبوعها عندهم قبل الحكم عليها . اللهم إلا بعض أساليب مرددة ، يشترك فيها طبقات متعاقبة ؛ كأن يقولوا في المديح : إنه جرى كالأسد ، جميل الوجه كالبدْر ، أحمر الخد كالورد . . .

(٢) وَيَعْنُونَ بِخُصُوصِيَّتِهَا أَمْرَيْنِ :

أولهما : أن تكون من الكلمات المستعملة في الغرض الذي سيق الكلام لأجله ؛ فللمدح ألفاظ ، وللهجاء أخرى . وكذلك للفرز ، والتهنئة ،

(١) المثل السائر ص ٧٠ المقالة الأولى في الصناعة اللفظية .

(٢) سر الفصاحة ص ٧٧ بتلخيص . (٣) الصناعتين ج ١ ص ٧٧ بتصرف .

والرثاء ، والجد ، والهزل ، وغيرها من باقى الأغراض ؛ فلا يصح أن نضع فى المدح ألفاظاً تشمر بالذم . ولا يليق أن نضع فى الرثاء ما يرمى إلى الفرح ، ولا فى التهنية ما يدفع إلى التشاؤم . وهكذا (١)

وثانيهما : أن تكون الكلمة الواحدة نصّاً فى المعنى ، تؤدى ما يؤديه كلتان أو أكثر ، وتغنى فى مكانها عن كل زيادة فى الألفاظ . كلمة : الهلع ؛ فإن معناها : الحزن الشديد ، وقلة الصبر . وكلمة : المرجفين ، فإن معناها : الذين يذشرون الإشاعات الكاذبة فى المدينة ؛ بقصد الإزعاج ، ونشر الفوضى فليس من الفصاحة أن ندع الكلمة الخاصة ، الصريحة فى موضوعها ، ودلاليتها — لنستعمل مكانها كلمتين أو كلمات ، ونترجم معناها بألفاظ كثيرة ، نستطيع أن نستغنى عنها بالقليل بل باللفظة المنفردة . وليس من هذا المصطلحات العلمية وأشباهاها فإن ألفاظها تشبه الأساليب الأدبية .

ذلك ما قالوه . فما حظ الشعراء من تحقيقه ؟

فأما ألفاظ المتنبي فليس لنا أن نحكم عليها بالطرافة والابتذال لما قدمنا . فهى بآمن فى هذه الناحية . لكنها مجرّحة فى ناحية الأساليب المرددة المشتركة بين الشعراء كما أشرنا قريباً . مجرّحة كذلك فى إحدى ناحيتي خصوصيتها ؛ فما أكثر ما يقع المتنبي فى عيب الكلمات التى لاتناسب الغرض . دون أن يقع فى العيب الثانى الذى صانه منه تمكنه من اللغة ، وأدبها ، ومعاشرته العرب الخالص ؛ وهم بطبيعتهم ميالون إلى التركيز والإجمال والتقصيص . ومن أمثلة الأولى :

(١) راجع صفحة ١٥٤ من سر الفصاحة .

(١) قوله يعزى سيف الدولة فى عبده « يَمَاك » التركى :

لَأَبْقَى « يَمَاكُ » فى حَشَائِ صَبَابَةٍ إِلَى كُلِّ تَرْكِيٍّ النَّجَارِ^(١) جَلِيلِ
وما كُلُّ وَجْهِ أبيضٍ بِمَبَارَكِ وَلَا كُلُّ جَفْنٍ ضَمِيقٍ بِنَجِيبِ

فكلمة : (جليب) أنسدت الرثاء ؛ لأن معناها : الغريب المجلوب من بلد إلى بلد . وليس يحسن فى الرثاء أن يقال فى إظهار الحزن على الميت : إنه غريب ، وإنه ضيق العين .

(٢) وفيها يقول عن سيف الدولة :

وإنَّ الذى أُمِيتَ نِزَارٌ عبيدُهُ غنىٌ عن استعبادِهِ لِغَرِيبِ
إذا استقبلتُ نفسُ الكَرِيمِ مُصَابِهَا بِخُبْتٍ نَتَتْ ؛ فاستدبرتهُ بِطِيبِ^(٢)

فقد عرّض بالميت مرة أخرى ، ووصفه بأنه دخیل . كما وصف سيف الدولة بأنه غنى عن استعباد الغرباء . وكلمة : « الاستعباد » هنا رديئة ؛ لأنها تشيّر بالظلم والظلميان وأردأ منها كلمة : « الخُبْت » بمعنى : الجزع .

(٣) وقوله فى الغزل (يخاطب الحبيب) :

تفرّدَ بالأحكامِ فى أهلِهِ الهوى فأنْتَ جميلُ الخُلْفِ ، مُستَحْسَنُ الكِذْبِ
فاستحسان الكذب معيب لا يصح التصريح به ، وإن تأول لذلك المتأولون .

(٤) وقوله من قصيدة يمدح فيها سيف الدولة حين بنى حصن « مرّعش » :

كُنَى عَجَبًا أَنْ يَعْجَبَ النَّاسُ أَنَّهُ بَنَى « مرّعشًا » . تَبًّا لآرَائِهِمْ ، تَبًّا

(١) الأصل . (٢) بصير .

« فالعجب » هنا من قبيح الألفاظ في المدح : لأنه يشعر السامع أن قدرة الممدوح موضع الشك .

(٥) قوله يعانِب سيف الدولة ، ويُذَكِّرُه بمدائحِه ، والثناء عليه .

أهذا جزاء الصدق إن كنت صادقاً ؟ أهذا جزاء الكذب إن كنت كاذباً ؟
فكلمة « جزاء الصدق والكذب » في مقام العتاب من أقبح الكلمات اختياراً ؛ لانطوائها على إساءة للمادح والممدوح معاً ؛ فان كان صادقاً فقد اجترأ على الأمير ، وعرض به ، ولذعه بكلامه . وإن كان كاذباً فقد وسَّم نفسه سمةً دنيئة ، وصرَّح أن الأمير لا يستحق شيئاً مما مدحه به .

(٦) قوله في رثاء أخت سيف الدولة :

يَقْلَنَ - حِينَ تَحْيَا - حُسْنَ مَبْسِمِهَا وَلَيْسَ يَعْلَمُ إِلَّا اللَّهُ بِالشَّذَبِ^(١)

مَمَرَةٌ فِي قُلُوبِ الطَّيِّبِ مَفْرِقُهَا حَسْرَةٌ فِي قُلُوبِ الْبَيْضِ وَالْيَلْبِ^(٢)

فكيف يسوغ في مواقف الرثاء أن يعرض لحسن القم ، والأسنان ، والمفرق — كما أشرنا من قبل — ولو ساغ أن يقوله في رثاء رجل أفسوغ في رثاء أميرة مُنَمَّعةٌ مُتَدَوِّنةٌ ؟ وهل تمدح النساء — ولا سيما الأميرات — بلبس البَيْضِ وَالْيَلْبِ .

(٧) وقوله فيها :

فَإِنْ تَكُنْ خُلِقْتَ أَثَى لَقَدْ خُلِقْتُ كَرِيمَةً ، غَيْرَ أَثَى الْعَقْلِ وَالْحَسَبِ

فقد غمزها بكلمة (أثى) من حيث أراد مدحها

(١) حسن وغذوبة في الأسنان .

(٢) الدروع .

(٨) وقوله (يردّ على سيف الدولة حين استدعاه للرجوع إليه بعد الغضب فلم يرجع) :

وما عاقني غيرُ خوفِ الوُشاةِ وإنَّ الوِشَاياتِ طريقُ الكَذِبِ
وتكثيرُ قومٍ ، وتقليلُهُم وتقرُّبُهُم مِنِّنا ، والحَبَبُ
وقد كان ينصرُّهم سمعُهُ وينصرُّني قلبُهُ ، والحَسَبُ

... ..

وما لاقني ^(١) بلدٌ بعدَكمْ ولا اعتَضْتُ مِنْ رَبٍّ نِعْمَايَ رَبِّ
وَمَنْ رَكِبَ الثَّورَ بعدَ الجِوَا دَانَكَرَ أَظْلَافُهُ ، والغَيْبُ ^(٢)

فكلمة : « ينصر » في البيت الثالث أسبغت على الأمير صفة النفاق .
وكلمة : « الثور » و « الأظلاف » و « الغيب » أسامت إلى المراد
أيما إساءة .

(٩) وقوله في الغزل :

لولا ظبا ^(٣) عديّ ماشقيتُ بِهِمْ ولا بربرٍ بِهِمْ ^(٤) ، لولا جاذرة

فليس بسائع في وصف الحبيب أن يقال إنه حاب الويل والشقاء
لمن يحبه .

(١٠) وقوله في الغزل بحبه (وهو مثال للكلمة السيئة ؛ لانبغسها ، ولكن
بما ترمز إليه) .

(١) ضئى وأمسكنى . (٢) اللحم المتدلى تحت فم البقر .

(٣) يريد : النساء الجميلات من قبيلة عدى ، اللاتى يشبهن الظباء .

(٤) الربرب : القطيع من بقر الوحش ، ويشبه به النساء في جمال العيون .

أَعَارَنِي سُقَمَ عَيْنِيهِ ، وَحَمَلَنِي مِنَ الْهَوَى ثِقْلَ مَا حَوَى مَازِرُهُ
فقد ختم البيت بكفاية لا يَصِحُّ عَرْضُهَا في معرض الغزل . ومثلها : —

إِنِّي عَلَى شَفَعِي بِمَا فِي مُخَرِّهَا لَا عِفْثَ عَمَّا فِي سَرَائِلَاتِهَا

قال أحد الناقدين^(١) : (لاشئ أقبح من ذكر السراويلات . وما أعرف
كنية ؛ أشهد الله ، أن التصريح أجلُّ منها ، ووصف عفة سلوك الرِّيب
والتهم أحسن من التلفظ منها — إلا كناية المتنبي هذه ، ونعمته عَمَّافَه
هذا النعت) .

(١١) وقوله في الغزل : —

وشادن ، روحٌ مِنْ يَهْوَاهُ فِي يَدِهِ سَيْفُ الصَّدُودِ عَلَى أَعْلَى مُقْلَدِهِ
ما اهتزَّ مِنْهُ عَلَى عَضْوٍ لِيَبْتَرُهُ إِلَّا اتَّقَاهُ بَتْرَسٍ مِنْ تَجَاهِهِ
إِنْ يَقْبَحُ الْحَسَنُ إِلَّا عِنْدَ طَلْعَتِهِ فَالْعَبْدُ يَقْبَحُ إِلَّا عِنْدَ سَيِّدِهِ^(٢)

فوقاية الحب نفسه بالترس من صدود الحبيب أمر معيب ؛ فما كان له
أن يستخدم الوقاية والترس في موقفه هذا . وما كان له أن يعبر عن الحسن :
« بالعبد » ويصفه بأنه مستقبح إلا عند مالهكه ، وهو : الحبيب ؛ فالعبد
لا يشرف سيده ، ولا يرفع قدره . والعظيم لا يمدح بأنه يملك عبدا قبيحا
عند الناس أو غير قبيح . فقد أساءت الكلمة إلى المعنى ، وكادت تذهب
بالغاية الجميلة منه .

تلك بعض الأمثلة المعيبة من هذا النوع . وما أكثرها عند المتنبي كما قلنا !

(١) كتاب سر الفصاحة ص ٦٩ . (٢) معنى البيت : كلُّ مُحسن فهو قبيح ،

إلا في طرفة هذا الحبيب ؛ كالعبد لا يحسن عند أحد إلا عند مولاه . فكأن
الحبيب مولى الحُسن الأكل الذي يُقبح كل حسن آخر بالنسبة إلى حُسنه .

ولا شك أن لخشونته ، وجفاء طبعه ، وأسلوب حياته — دَخَلَ في هذا .

* * *

أما شوقي فوفور النصيب من طريف الألفاظ ، وخاصَّها . مَكَّنْهُ من ذلك ثقافة واسعة ؛ شرقية وغربية ، وصِلَةً بالملوك والأمراء وطيدة ، وحظ من المدنية وافٍ ، تَنَمَّعُ به نفس مطمئنة . وحسبنا أن نشير إلى قصيدته الأندلسية ، ومطلعها : —

اختلافُ النهار والليل يُنْسِي	اذ كُرا لى الصِّبا ، وأيامُ أنيس
وصِفْنا لى مُلاوَةٌ ^(١) من شبابٍ	صوَّرت من تصوراتٍ ومَسَّ
عَصَفَتْ كالصِّبا اللعوب ، ومرت	سِنَّةٌ حُلوة ، ولذَّةٌ خَلَسِ
وسلامصر ؛ هل سَلَا القلبُ عنها ؟	أو أَسَا جرحَه الزمانُ المُؤسِّ ؟
كلما مرت الليالى عليه	رق . والعهدُ فى الليالى تُقَسِّ

وقصيدته فى توت عنخ آمون ، ومنها : —

خليلى ، اهبطِ الوادى ^(٢) ، وميلاً	إلى غُرَفِ الشَّموسِ الفارينا
وسيراً فى محاجرهم ^(٣) رُوَيْدًا	وطوفًا بالمضاجع خاشعينا
وخصًا بالعمَّار ^(٤) وبالتحايا	رفات المجد من « توتنخمينا »
وقبرًا كاد من حُسْنٍ وطيبٍ	يُضَىءُ حجارةً ويَضُوعُ ^(٥) طيفًا

(١) فترة قصيرة . (٢) يريد : وادى الملوك بالأقصر ، وفيه كشفت آثار

« توت عنخ آمون » وغيرها من بدائع الآثار .

(٣) أما كنهم المقدسة التى يحمونها . (٤) نوع من الريحان يقدم تحية للملوك .

(٥) نفوح رائحته الطيبة .

يَخَالُ لِرُوعَةِ التَّارِيخِ قَدَّتْ جَنَادِلُهُ الْعَلَامِ مِنْ (طُورِ سِينَا)

.....

وقصيدته في الغزل : —

رَوَّعُوهُ ؛ فَتَوَلَّى مَفْضَبًا أَعْلَمْتُ كَيْفَ تَرْتَنَعُ الظُّبَا ؟
خَلَقْتُ لَاهِيَةً ، نَاعِمَةً رُبَّمَا رَوَّعَهَا مَرَّةً الصَّبَا
لِي حَيِّبٌ ؛ كَلَّمَا قِيلَ لَهُ صَدَّقَ الْقَوْلَ ، وَزَكَّى الرَّيْبَا
كَذَّبَ الْعَذَّالُ فِيمَا زَعَمُوا ؛ أَمَلَى فِي فَاتِنَى مَا كَذَّبَا
لَوْ رَأَوْنَا !! وَالْهَوَى ثَالِثُنَا وَالذَّجَى يُرْخِي عَلَيْنَا الْحُجْبَا
فِي جَوَارِ اللَّيْلِ ، فِي ذِمَّتِهِ نَذْكُرُ الصَّبْحَ بِالْأَلَّ يَقْرُبَا
مِلءُ بُرْدَيْنَا عَفَافٌ وَهَوَى حَفِظَ الْحَسَنَ ، وَصَنَتُ الْأَدْبَا
يَا غَزَالًا أَهْلَ الْقَلْبُ بِهِ قَلْبِي السَّفْحُ ، وَأُخْنَى مَلْعَبَا
لَكَ مَا أَحْبَبْتَ مِنْ حَبَّتِهِ ؛ مِنْهَلًا عَذْبًا ، وَمِرْعَى طَيِّبَا
هُوَ عِنْدَ الْمَالِكِ الْأَوَّلَى بِهِ كَيْفَ أَشْكُو أَنَّهُ قَدْ سُلِبَا ؟
إِنْ رَأَى أَبْقَى عَلَى مَمْلُوكِهِ أَوْ رَأَى أَتْلَفَهُ ، وَاحْتَسَبَا

.....

إلى غير هذا مما يزدان به الديوان (ولاسيما شعره بعد المنفى) .

على أن كلماته — وقد فاز أوفرها بالطرافة والتخصيص — أصيب

قليل منها بالتبذل والامتهان ، أو بوضعه وضماً غير حميد لا يلائم فيه المقام ،

فمن أمثلة الأول :

- (١) كَذَّبَ النَّاسُ بِالْأَخْلَاقِ يَبْقَى صِلَاحُهُمْ وَيَذْهَبُ عَنْهُمْ أَمْرُهُمْ حِينَ تَذْهَبُ
- (٢) وَتَسْحَبُ ذَيْلَ الْكِبَرِيَاءِ وَهَكَذَا يَتْبَعُهُ وَيَخْتَالُ الْقَوَى الْمُغْلَبُ
- (٣) وَطَارَ الْأَهَالِي نَافِرِينَ إِلَى الْفَلَاحِ مِثْلَ مِثْنٍ وَآلَافًا تَهَيَّمُ وَتَمْرُبُ
- (٤) أَمِنْ حَرْبِ الْبَسُوسِ إِلَى غَلَاءِ يَكَادُ يُعِيدُهَا سَبْعًا صِعَابًا
- (٥) وَلَوْ خَلَقْتَ قُلُوبَ مِنْ حَدِيدٍ لَمَّا حَمَلَتْ كَمَا حَمَلَ الْعَذَابُ
- (٦) وَلَيْسَ بِالْفَاضِلِ فِي نَفْسِهِ مَنْ يُنْكِرُ الْفَضْلَ عَلَى رَبِّهِ
- (٧) يَنَالُ بِاللَّيْنِ الْفَتَى بَعْضُ مَا يَعْجَزُ بِالشَّدَةِ عَنْ غَضَبِهِ
- (٨) مُضْمُوا الْجُودَ وَخَلُّوْهَا مُنْكَرَةً لَا تَمْلِكُوا الشَّدَقَ مِنْ تَعْرِيفِهَا عَجَبًا
- (٩) أُمُّ الْتَكَانِفِ^(١) حَوْلَ الْحَقِّ فِي بَلَدٍ مِنْ أَرْبَعِينَ يُنَادِي الْوَيْلَ وَالْحَرْبَا .
- (١٠) إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ اللَّهِ وَالنَّاسِ ثَوَابًا
- (١١) وَاسْتَقِيمُوا يَفْتَحِ اللَّهُ لَكُمْ بَابًا

.....

ومن أمثلة الثاني : —

- (١) قَصِيدَتُهُ فِي تَهْنِئَةِ خَلِيفَةِ الْمُسْلِمِينَ^(٢) بِالنَّجَاحِ مِنْ قَذِيفَةِ أَلْقَيْتَ عَلَيْهِ .

وفيه يقول :

زَهْدْتُ الَّذِي فِي رَاحَتَيْكَ^(٣) ، وَشَاقَنِي جَوَازُ عِنْدَ اللَّهِ مَبْتَغِيَاتُ

فقد خانه التوفيق في هذا ؛ إذ لا يصح أن يقول للخليفة : (وبخاصة عند المدح والتهنئة) زهدت ما في يديك .

(١) لم أهتم إلى تصويب كلمة : « التكانف » كما سيجيء . (٢) السلطان عبد الحميد .
وكانت الحادثة سنة ١٩٠٥ . (٣) يريد : لأنني غير راغب فيما يبيدك من العطايا والمنح .

(٢) وفيها يقول أيضاً :

ومن كان مثلي «أحمد»^(١) الوقت لم تجزْ عليه — ولو من مثلك — الصدقاتُ
فما أقبح مواجهة الخليفة بقوله : « ولو من مثلك » !! وما أقسى ما تحمله
الصلوة من معان تتوارد على الخواطر !! . وعجيب أن يغيب هذا عن شوقي ؛
نديم الخلفاء والملوك ، وصاحب الحس المرهف ، والذوق المصقول .
(٣) وقوله في مدح محمد على الكبير :

وتصونُ النوالَ عن حسنِ صنعٍ لك يُنمى ، ونعمةٌ لك تُجحدُ
فهذا مدح هو بالذم أشبه ، وإليه أقرب ؛ فإن الملوك لا تمتدح
بجنس الصنيع عن جاحده ، ومنع النعمة عن منكرها . (هذا وفي البيت
من ضعف الصياغة وحشو اللفظ ما لا يخفى) .
(٤) وقوله يهني محامياً ببراءته من تهمة عُزيت إليه ، ومنع بسببها من
مزاولة عمله حتى حُكم القضاء ببراءته : —

هذا القضاء رماك بالـيُمْنَى ، وباليُسْرَى نَزَعُ

فقد سوى بين حالتي القضاء في الرمي والنزع ، أو في الاتهام والبراءة ؛
فلم يكن القضاء مخطئاً في الأولى ولا في الثانية . وليس في هذا دفاع عن
الحامي ، ولا ترجيح لنزاهته ، ولا إشارة إلى ظلم اتهمه ؛ بل ربما كان
الكلام إلى التجريح أقرب .

(٥) وقوله في قصيدة يخاطب بها الخديوي حين عزم على الحج : —
نقلُ لرسول الله : ياخيرَ مرسلٍ أبشك ما تدرى من الحسراتِ

(١) يرمز إلى أنه في العصر الحاضر كأحمد التنبى في العصر السالف .

شعوبك في شرق البلاد، وغربها كأصحاب كهف؛ في عميق سُبَاتِ
فليس بسائع في مقام الرسول الأسمى، وما ينبغي له من أدب
في الخطاب — أن يُواجه هذه المواجهة الصريحة بأن شعوبه نائمة، بل
ميتة. ولقد كان في الاستطاعة الحديث عن تلك الشعوب من غير إضافتها
إلى الرسول، ونسبتها إليه؛ تلك النسبة التي قد تترك العقل يفهم منها
مالا يريد شوق، ولا يرضاه أدبه العالى، وخلقه الكريم.
(٦) ويهينُ السلطان حسين كامل بعرض مصر؛ فيعترف بأن الفضل
في ذلك للإنجليز فيقول فيهم:

حلفاؤنا الأحرارُ، إلا أنهم أرقى الشعوب عواطفًا، وميولًا
لما خلا وجه البلاد لِسَيْفِهِمْ ساروا سِمَاحًا في البلادِ، غَدُولًا
وَأَتَوَابِكَا بِرِهَا، وشيخ ملوكها مَلِكًا عليها، صَالِحًا، مَأْمُولًا
وتلك زلة كبيرة لا أدرى كيف وقع فيها شوق، وبخاصة حين
يهينُ سلطانا مصر يا بعرض بلاده، وهل يحسن ذكرُ السيف هنا مع
السماحة والعدل؟

(٧) وفيها يقول:

يا أهل مصر كلوا الأمور لربكم فالله خير موثلا ووكيلا
أيقال هذا في صدد التهنئة بالسلطنة وكل حرف من حروفه يدعو إلى
اليأس، ويدفع إلى الانصراف عن السلطان الجديد؟
(٨) ويقول فيها:

جَرَتِ الْأُمُورُ مَعَ الْقَضَاءِ لَعَايَةٍ وَأَقْرَاهَا مِنْ يَمَلِكُ التَّحْوِيلَا

فإذا أراد بمالك التحويل الإنجليز فما عمل السلطان إذا ؟ وبأى شئ يهنئه ؟ وإن أراد به الله فاليبت سقط مبدول .

(٩) ويقول مخاطباً الملك فؤادا فى قصيدة شهيد الحق :

ويابن الغيث ، بالوادي غليلً إلى الإصلاح ؛ فامنحه الغماما

أرى وطناً نَحْمِيَّ نَاشِئاً فما يجدون من عملٍ قَوَّاماً^(١)

فكيف يقول للملك : إن البلاد متعطشة إلى الإصلاح ، وإن الناشئة لا تجد عملاً ملائماً ؟ لقد كان الوصول إلى ما يريد من طريق آخر أليق بخطاب الملوك ، وأكرم لأدبه .

والحق أن أشباه هذا قليل إذا قيس بنصيب المتنبي منه . كما أن نصيب المتنبي من النوع الثانى^(٢) أقل من نصيب قريهه ؛ فهما فى خصوصية اللفظ متعادلان ؛ لأفضل لأحدهما على الآخر .

* * *

(ب) الأخطاء والضرورات . ومبلغ القدرة على استخدام الأصول اللغوية ، والمحسنات البلاغية :

نعني بالخطأ هنا : ما لا يسوغ ارتكابه فى شعر أوثر ، سواء أكان الخطأ فى النحو ، أم الصرف ، أم العروض ، أم غيرها من فروع اللغة ، وعلومها ؛ كرفع ما يجب نصبه ، وجر ما يجب رفعه ، وحذف ما لا يصح حذفه ، وفك المدغم ، والإخلال بوزن البيت

(١) ما يقم الإنسان ، ويصون حياته .

(٢) وهو العيب الحاس بأأن الكلمة ليست نصا فى المعنى

ونعني بالضرورة : ارتكاب الشاعر بعض المخالفات النحوية ، أو غير النحوية التي تباح في الشعر دون النثر ؛ كتنوين مالا ينصرف ، ومد المقصور ... ، وغيرها مما هو معدود في الضرورات التي حصرها العلماء . وما تقدم ندرك الفرق بين الخطأ والضرورة الشعرية ؛ فالخطأ لارُخْصة فيه في شعر ، أو نثر . والضرورة مباحة في الشعر وحده . وما يجدر التنبيه له أن الضرورة — وإن كانت مباحة — لا تخرج عن كونها عيباً يَحْسُنُ تنزيه الكلام عنه ، وعدم الاتجاء إليه جهد الطاقة . والشاعر الفحل يَتَأَبَّى أن يرتكبه ما وجد لنفسه مندوحة وكثرة الضرورات في شعر دليل على قصور صاحبه ، وعجزه ، بالرغم من إباحتها له ؛ فليس كل مباح مرغوباً فيه . وشتان بين شعر مُبرَّأ من العيوب ، وآخر معيب . ولو كان العيب مباحا . وفي هذا يقول ابن خلدون^(١) :

« على الشاعر ألا يَسْتَعْمَلَ من الكلام إلا الأوضح من التراكيب ، الخالص من الضرورات اللسانية . فليحجرها ؛ فإنها تَنْزِلُ بالكلام عن طبقة البلاغة . وقد حَظَرَ أئمة اللسان على المولّد ارتكاب الضرورة^(٢) ؛ إذ هو في سعة منها ؛ بالعدل عنها إلى الطريقة المثلى من الملكة .

ويقول صاحب كتاب نقد النثر^(٣) : « إن البلاغة والإيجاز إذا وقعا في الشعر والقول (أي : النثر) فُضِيَ للشاعر بالفَلَج^(٤) . والى والإسهاب إذا وقعا

(١) مقدمة ابن خلدون فصل الكلام على فني النظم والنثر ص ٣٢٩ .

(٢) وهذا أخذ بالرأى المتشدد ، وترك للرأى التسميح الأغلب .

(٣) قدامة بن جعفر ص ١٠٢ . (٤) بالسبق والفوز .

في الشعر والقول كان الشاعر أعذر^(١) ، وكان العذرُ عن المتكلم (النائر) أضيق ؛ وذلك لأن الشعر محصور بالوزن ، محصور بالقافية ؛ فالكلام يضيق على صاحبه . والنثر مطلق غير محصور ؛ فهو يتسع لقائله . . . فأما عذرهم للشاعر في التقصير ، واغتفارهم له العيوب — فقد جاوزوا من قصر الممدود ، وحذف الحركة ، وتخفيف الهزمة ، وصرف ما لا ينصرف — ما لم يميزوه للمتكلم . وأجازوا له في الوزن أشياء . . . وكل ذلك عيوب . وهي على من استعمل البدئية ، وقال الشعر على الهاجس^(٢) والسجية — أقل عيباً منها على من استعمل الروية ، والتفكير ، وكرر النظر ، والتدبر .

ونعود بعد هذا إلى أخطاء المتنبي ؛ لنبين أن النقدة السابقين تعقبوا شعره ، وأخذوا عليه أنواعاً من الخطأ اللغوي ، والعروضي ، والنحوي ، وغيرها . وقد تدبرت مآقوله في النوعين الأولين ؛ فوجدتهم مُبطلين ، ورأيت جَنَفَ الهوى بادياً فيما قالوا ، وحدثُ « للجرجاني » كثيراً مما أورده في كتابه (الوساطة^(٣)) ؛ تنفيذاً لرأيهم ، ودفاعاً عن المتنبي . ورأيت كثيراً مما اعتدوه خطأ نحويًا ليس بالخطأ الصَّراح ؛ فقد صَوَّبَ ثقات العلم أمثاله ، أوعدَّوه من الضرورات الشعرية المباحة للشاعر ، أو : هو رأى كُوفٍ جرى فيه المتنبي على عِرْقٍ من أصله الكوفي ، ونشأته فيها ، وإقامته سنوات بين العرب الفصحاء الضاربين حولها . وفي كل مثال من هذا النوع الأخير نرى المكبري شارح الديوان يدفع الخطأ ويقول : « هذا رأى

(١) أقوى عذراً . (٢) الخاطر ، من غير تمهل وإعداد .

(٣) ص ٣٣٠ وما بعدها . بحث : ما أنكره العلماء من شعر أبي الطيب .

الكوفيين» أو : «رأى أصحابنا . . .» وليس بمستساغ ، بل ليس من جد القول — أن نزع الرأي الكوفي خطأ ؛ وهو عربي فصيح ، وأن نقول للكوفي : أخطأت ؛ لنطفاك بلسان قومك ، وعدم اتباعك لغة البصريين . وكلتاها عربية صحيحة .

إذا جاوزنا الأنواع الثلاثة السالفة وقمنا على نوع رابع يسير الخطر ؛ ولكن لا نستطيع الدفاع عنه ، إذ لم نهتد إلى تصويبه ، ولم نعرف له سندا من لغة فصيحة ، أو مذهب قوي ، أو ضرورة مباحة . فإن صح أنه خطأ ، وأنه يسير في عدده وفي درجته — كما أزعم — فإن صدوره من المتنبي يجعله خطيرا . ويزيد في شناعته ما يسايره من أخذ ببعض اللهجات الضعيفة ، وإهمال لأصول بلاغية قديمة ستمحدث عنها قريبا .

نعم هو من المتنبي كبير ؛ لعل منزلته بين شعراء العربية ، ولذشاته في مهاد الفصحى أعواما ، وإقامته بين أهلها البدو سنوات ، وحفظه الكثير الأجود من كلامهم ، وحرصه على مراجعة شعره ، وإعادة النظر فيه بعد إتمامه ، ودفعه إياه لعالم اللغة والذجو : الإمام ابن جني — كما أسلفنا — فهل له عذر لا نعرفه ، أو حجة لم نطلع عليها ؟ قد يكون . ولكن الثابت أن العذر والحجة لم ينكشفا بعد ؛ فلسنا بالمتسرعين إن حكمنا بتخطئته ، وتقصيره . وإليك مثالا للأنواع الثلاثة الأولى^(١) ، ثم للرابع .

فَتَى بِكَ كَذَّبٌ مُدْعٍ لَكَ فَوْقَ ذَا وَاللَّهُ يُشْهَدُ أَنَّ حَقًّا مَا ادَّعَى

عابوا عليه : وقوع اسم إن نكرة ؛ قائلين : إن الوجه كونه معرفة . وليس

(١) وهي التي وصفوها بالخطأ وليست كذلك ؛ لأن العلماء صوبوا أمثالها ، أو : لأنها رأى كوفي ، أو : لأنها ضرورة مباحة .

قولهم بصحيح إذا أخذنا برأى النحاة في باب المبتدأ والخبر ؛ حيث نصوا على جواز وقوع المبتدأ نكرة إن سبقها ناسخ^(١) . ولا أعرف خلافاً في ذلك ، ولا تفرقة بين الشعر والنثر . ومن أمثلة الثاني :

مَضَى وَبَنُوهُ ، وانفردت بفضلهم وَأَلْفٌ إِذَا مَا جُمِعَتْ وَاحِدٌ فَرَدُ

فقد أخذوا عليه أنه عَطَفَ من غير فاصل كلمة : (بنوه) على الفاعل المستتر في كلمة (مضى) وقالوا : هذا خطأ . فرد المكبرى الشارح قائلاً : ليس بخطأ ؛ لأنه مذهب أصحابنا أهل الكوفة . وحببتنا : محبته في الكتاب العزيز ، وفي أشعار العرب . وساق أدلة تأييده ، كما ساق أدلة المعارضين البصريين ومن أمثلة الثالث :

وَأَنْ يُكْذِبَ الْإِرْجَافَ عَنْهُ بِضِدِّهِ وَيُمِيسِي بِمَا تَنْوِي أَعَادِيهِ أَسْعَدَا
فقد أخذوا عليه تسكين الياء في آخر الفعل المنصوب : (يمسي) . وليس في الأمر ما يستحق مؤاخذه ؛ لأنها من الضرورات التي سوغها العلماء للشاعر . ومن أمثلة الرابع :

(١) وَلَوْ مُحَلَّتْ صُمُّ الْجِبَالِ الَّذِي بَنَا غَدَاةَ افْتَرَقْنَا أَوْ شَكَتْ تَصَدَّعُ
بِمَا بَيْنَ جَنْبِي الَّتِي خَاضَ طَيْفُهَا إِلَى الدَّيَّاجِي وَالْخَلِيُونِ هُجُعُ
يريد : أفدى بما بين جنبي . فحذف المتعلق بغير دليل . وهذا غير جائز في لغة قوية ، على ما أعرف .

(٢) وَمِنْ قَبْلِ النَّطَاحِ وَقَبْلَ يَاتِي تَبِينُ لَكَ النَّعَاجُ مِنَ الْكِبَاشِ
أى : وقبل أن يأتى . فحذف « أن » في هذا غير جائز أيضاً في اللغة القوية .

(١) الصبان وغيره .

ومثلها في قوله :

وما جاست حتى انثت توسع الخطا كفاطمة عن درها قبل ترضع
أى : قبل أن ترضع .

ومثله :

يا حادي عيرها ، وأحسبني أوجد ميتا قبيل أقدما
أى : قبل أن أقدما .

(٣) فلاكل مفجوع سواكم مشبه ولإكل مفقود سواء نظير
أيام قائم سيفه في كفه اليمنى ، وباع الموت عنه قصير
فكلمة : الأيام ، معمول المحذوف تقديره : لم يكن له نظير أيام قائم
سيفه في كفه . وهذا حذف غير مقبول .

(٤) فأقبلها المروج^(١) مسومات ضواير لاهزال^(٢) ولاشيار^(٣)
فأرجع الضمير في : (أقبلها) على الخيل ، وليس لها ذكر في الكلام
(كما قال العكبري) .

وكقوله :

خليلي ، ما هذا منأخا لمثلنا فشدأ عليها ، وارحلا بنهار
أى : فشدأ على الإبل . فكيف نعرف أنها الإبل ، أو الخيل ،
أو غيرها ؟ ولا دليل على المحذوف هنا ؟

(٥) قالت - وقد رأت اصفرارى - : من به ؟ وتنهدت ، فأجبتها المتنهدة

(١) موضع بين الفرات وحلب . (٢) جمع : هزيل .

(٣) الشيار : جيلات النظر ، سميات .

أى : من فعل هذا به ؟

وهناك أمثلة أخرى تشبه هذه أو تخالفها . ومن الإنصاف أن نعيد ما قلناه من أنها قليلة في مجموعها . إلا إن زدنا عليها ما يسميه النحويون : (الشاذ) وهو يقع كثيرا في شعره . ولكننا لانعده عليه ، لأسباب ليس موضعها هنا^(١) .

* * *

وإليك رأى في أخطاء شوقي وضروراته :

فأما أخطاؤه فإني تَقَصَّيت شعره في أجزاء ديوانه الأربعة ؛ فلم أقم على خطأ لغوى ، أو نحوى ، أو غيرها^(٢) ؛ برغم ما بذلت من تتبع واستقصاء ، خرجت بعدما مؤمناً أن شوقي فصيح اللغة ، سليم اللسان . «ومن التسرع تخطئته في شئ قبل البحث الأكمل ، والرجوع إلى المظان المختلفة الوافية . وطالما وقفت أمام مفردات بعينها ظننت في مادتها ، أوفى وزنها ، أو ضبط حروفها — خطأ ؛ فإذا الخطأ بعيد منها . وطالما توقفت أمام تراكيب توهمت خروجها على النسق الصحيح ، والتأليف العربي الأقوم — فإذا هي النسق العالى ، والتأليف الاشمى . وَرَدَّتْنِي إِلَى الصواب المراجع اللغوية حيناً ، والنحوية أو البلاغية ، أو الأدبية ، أو غيرها من المصادر الوثيقة — حيناً آخر . فليس من سداد الرأى أن يقصر الباحث هم — عند دراسة الصواب والخطأ — على مراجع بعينها ؛ فقد

(١) ذلك لأنه يقتضى بحثاً في معنى الشاذ ، وأحواله ، وأحكامه ، وما يترتب على كل حالة . وليس هنا مجال تحقيقه وتمحيصه .

(٢) إلا في بعض الزحافات والعلل العروضية ؛ وما أيسرها .

يكون الرأي في سواها . ومن هنا تسرب الخطأ إلى أحكام كثير من الناقدين ؛ إذ تسممهم يقولون : هذا جمع تكسير لا يصح استعماله ؛ لأننا لم نغتر عليه في معاجم اللغة ؛ فهو غير مسموع من العرب ؛ وإذا لا يصح — عندهم — استعماله . وقد يكون بحثهم مقصوداً على بعض المعاجم دون بعض ، أو : غير مقصور ولكن فاتهم أسر الحقيقة والمجاز عند البلاغيين ، أو أسر المطرد والقياسي وفهم المراد منهما عند علماء النحو واللغة ؛ وأن هؤلاء إذا نصّوا على أن وزناً من الجموع مطرد أو قياسي^(١) — ساغ لنا أن نستعمل نظائره التي على زنته ، ولو لم ترد في المعاجم ، ولم نسمع عن العرب . وإغفال هذا الأصل السليم أوقع كثيرين من المتقنين في أحكام خاطئة .

تسممهم يقولون : (استلم محمد الكتاب) خطأ ؛ لأن كلمة : « استلم » لم ترد في المعاجم المعروفة ، ولا في استعمال العرب إلا مقصورة على استلام الحجر الأسود بالكعبة . فإن صح هذا فقد فاتهم أصل آخر سليم ، هو : المجاز المرسل الذي يبيح نقل المعنى المقصور على شيء وجعله عاماً يشمل غيره متى وجدت العلاقة والقرينة . وهما موجودتان هنا .

وتسممهم يقولون : (أضاءت الثريات المكان ...) خطأ ؛ لأن « الثريات » جمع : « ثريا » . والقاعدة الصرفية في الألف الرابعة فأكثر أن تقلب ياء في جمع التأنيث ؛ فنقول : « الثريات » ... وفاتهم أن القاعدة الصرفية تفرض حذف ياء عند تلاقى ثلاث ياءات

(١) أو : غالب ، أو : أغلب ، أو : أعم ، أو ما أشبه هذا ما يدل على الكثرة .

في كلمة واحدة ؛ كما هو الشأن في « ثريات » . ومن هنا يتضح أن الحكم على كلمة أو جملة بالخطأ لابد أن يسبقه دراسة وافية شاملة من النواحي المختلفة اللغوية والنحوية والصرفية والبلاغية . . . وهذا مالا ينتبه له كثير ممن يتصدون للنقد .

على أن الكلمة قد تُبَحِّثُ مادتها في المعاجم كلها فلا نجد لها وجوداً فيها ، ثم نجد ما بعد ذلك في كلام عربي يحتاج به ، فليست المعاجم بالمراجع الوافية التي حَصَرَت المادة اللغوية ، ولم يندَ عنها شيء ؛ فإما أكثر ما تَرَكَتْ ، وما أكثر ما غاب عن جامعها ؛ برغم دأبهم ، وكدهم ، وبذلهم من الجهد مالا يبذله إلا العلماء الأوفياء لعلمهم ، القانون في مهمتهم .
تلك حقائق يجب ألا تغيب عن الأنظار . وإها لها هو الذي دفع بعض الناقدين إلى التجنى على « شوقي » ، والحكم عليه بالخطأ فيما ليس فيه خطأ ؛ فقد أخذوا عليه ما يأتي :

(١) قال في وصف قطار يحمل بعض الزعماء :

لولا استلامُ الخلقِ أُرْسَانَهُ شَبَّ ؛ فَنَالَ الشَّمْسَ مِنْ مُجِبِّهِ

فقالوا : إن مادة (استلم واستلام) خاصة بالحجر الأسود في الكعبة . وقد وضعنا مافي هذا .

(٢) النَّسَامَاتُ ، العَائِيَا تُ العَرَفِ ؛ أُمَثَالُ الزُّهُورِ

(٣) سلام (أبا ناصر) في الترابِ يُعِيرُ التُّرَابَ رَفِيفَ الوردِ

(٤) بُشْرِى إِلَى الْوَادِي تَهْزُ نَبَانَهُ هَزَّ الرَّبِيعِ مَنَّا كَبَّ الْأَدْوَا حِ

قالوا : إن كلمة « الزهور » ، و « الورد » ، و « الأدواح » من المجموع

التي لم ترد في الكتب اللغوية وفاتهم أن القياس الصحيح لا يمنعها^(١) . ومثلها : كلمة « البؤساء » التي أخذوها عليه أيضاً .

(٥) أنامن بَدَلَ بالكتبِ الصحابا لم أجْدَلِي وافيًا إلا الكتابا قالوا : الصواب (أنا من بدل بالصحاب الكتب) ؛ لأن الباء تدخل على الشيء المتروك وحده . وليس صحيحا ما يقولون ، ولا عيب فيما استعمله « شوقي » كما نص على هذا أئمة اللغة^(٢) (وإن كان الكثير إدخالها على المتروك) .

(٧) وقال عن الحماية الإنجليزية التي كانت مضروبة على مصر وهب المصريون جميعاً للتخلص منها ، فنجحوا ، وصاعدهم (ألنبي) المندوب السامي الإنجليزي في مصر .

لوتسألون (ألنبي) يوم جَنَدَلْهَا بأي سيفٍ على يافوخها ضَرَبَا قالوا : إن الفعل : « جندل » ومشتقاته غير موجود في المراجع اللغوية فوق أن الأوزان الصرفية المملومة تأباه . وفاتهم أنه مسموع في كلام عربي^(٣) يحتاج به ؛ فلا مجال بعد النص المسموع لجِدَال .

(١) راجع المطولات النحوية ؛ كالأشمونى ، باب : جمع التكسير ، الكلام على فحول وأقمار ، وفعلاء ، وما يطرد فيها .

(٢) راجع تاج الدروس ، مادة : بدل .

(٣) قال البراق الجاهلى من شعراء ربيعة : وجندلت عمارا بضربة صارم . . . وقال المهلهل :

من مبلغ البنزين أن أباهما أمسى قتيلًا في الفلاة مجندلا

(راجع الجزء الثانى من شعراء النصرانية ص ١٤٧ و ١٧١) وكذلك في شعر

زيد الخيل ج ٢ ص ٢٤٢ من روايات الثالث والثانى :

(وبشر بن عمرو قد تركنا مجندلا) . . .

(٧) وقال عن اللغة العربية :

فَعَلَّمَهَا صَغِيرَكَ قَبْلَ كُلِّ وَدَعَ دَعْوَى (تَمَذِّنُهُمْ) وَخَلَّ
زَعَمُوا أَنْ كَلِمَةً : (التمدن) خطأ ؛ وما هي بخطأ^(١) . والحق أنى قرأت شعر
شوقى ، وأطلت الوقوف أمام كثير منه ؛ إعجابا ، واستمتاعا ، أو دراسة
وتشككا — فلم أرَ فيه ما يحتاج إلى تصويب ؛ إلا :

(١) بعض كلمات قليلة لا أعرف لها مكاناً من اللغة الصحيحة . وبعض
مخالفات للشائع من المذاهب النحوية ؛ كقوله :

(١) أَلْأَطَقُ ، وَالْأَنْبَاءُ تَتَرَى بِطَيِّبٍ وَأُسْكُتُ ، وَالْأَنْبَاءُ تَتَرَى بِمُؤَلِّمٍ .
وقوله :

وَالْأَنَّى تَتَرَى ، وَالْخَوَارِقُ جَمَّةٌ جَبْرِيلُ رَوَّاحٌ بِهَا ، عَدَاءُ .
فظهر الكلام يدل على أنه استعمل (تترى) فعلا مضارعا . وهي
لا تكون إلا اسماً . (إلا إن جملها حالا مقدمة ، أو غير مقدمة ؛
فيكون في تصحيحها تعسف ظاهر وخلاف نحوى غريب) .

(٢) وَتَهْدِيكَ الثَّنَاءُ الْحُرَّ تَاجًا عَلَى تَاجِكَ مُؤْتَلَقًا مُعْجَابًا
فقد عدى الفعل (أهدى) لمفعولين . والمعجم اللغوية تعديه لمفعول
واحد ؛ إلا على تمحل بعيد .

(٣) يَصِفُ جَيْشًا بَاطِلًا :

وَيَحْتَهُ بِاسْمِ الْكِتَابِ أَقْسَةً نَشِطُوا لِمَا هُوَ فِي الْكِتَابِ حَرَامٌ
ولم أرَ في المعجم الشائعة ، ولا أعرف في القواعد العامة — ما يدل على أن
« أقسة » جمع : قس ، أو قسيس .

(١) لأن مطاوع فعّل (مشدد العين) هو : الفعل ، قياسا مطردا كما نص على ذلك الأئمة .

(٤) يخاطب القمر من سفينة :

وكانَّها والموجُ منتظِمٌ ، وقد أُوفِيتْ ، ثم دَنَوْتَ ؛ كالمُحْتَارِ^(١)
فليس « للمحتار » ما يؤيد تصحيحها فيما أعرف .

(٥) يصف قصر المنزَرة :

مُنَزَّرُهُ الْعَبَّاسُ لِلْمُجْتَلَى آمَنْتُ بِاللَّهِ وَجَنَّاتِهِ

فكلمة : (المنزرة) لا يؤيدها مرجع معروف ، وإن كانت قد ترددت
في كلام العباسيين بعد القرن الثالث .

(٦) فصفحا في التراب إذا التقينا ولوشيتِ العداوة والترأتِ

فكلمة : (لوشيت : بمعنى : بادتْ وهلكتْ) من الكلمات التي لا أعرف
لها تأييداً .

(٧) ... أم بالتسكانف حول الحق في بلد من أربعين يُنادي الويل والحرباً
فلمست أعرف تصحيحاً لكلمة « التسكانف » .

(٨) فإن أساءك قولي كذب أباك بوعد

ومثله : وإذا صليت خف من تعبد كم مصلي ضج منه المسجد

« : إن جل ذنبي عن الغفران لي أمل في الله يجعلني في خير مُتَقَصِّمٍ »

فراعاة الأكثر تقتضي أن يقول : (فكذب ، نخف ، فلي أمل ؛

بإدخال الفاء على الجواب) .

(١) لم أجد للفعل اختار ومشتقاته مرجعاً صحيحاً مع أن للحنفية كتاباً اسمه : رد المحتار
شرح الدر المختار .

(ب) كلمات عامية ، أو : أجنبية ، اشتهرت ، ولا يُعرَف في الاستعمال غيرها ؛
فينطق بها نظرفا ، أو عجزاً عن كلمة عربية تحمل محلها . كالأبيات
التالية (وفيها من الكلمات : « يانصيب » . « النمرة » بمعنى : الرقم .
« التّرلى » . « جز بند » لنوع من الموسيقى . « السردار » لرئيس الجيش .
« البوغاز » للمضيق المائى . « الأرخبيل » لمجموعة الجزائر . « اليوبيل »
لمعيد يُحتفل فيه بمناسبة انقضاء فترة زمنية على شئٍ نافع . « تنك » لسيارة
حربية من نوع خاص) .

ويكثر هذا النوع في قصائده « المحجوبيات ^(١) » يقول :

(١) . في قصيدة عنوانها : « يانصيب » :

وقالوا عنك لى أمنس : رَبحْتَ « النمرة » الكبرى

(٢) . صار شوقى أبا على فى الزمان « التّرلى »

(٣) مصرُ فتانى لم تُوقِرْ جَدَّها دَقَّت وراء مَضْجَعِي « جز بُندَها »

(٤) أَخَذَتْ بذَنبهم البلادُ ، وأمةٌ بالريف ما يدُرُون ما « السّرْدَارُ »

... ..

(٥ و٦) لَتَلَقَى مَنفَعْدًا لِلقَيْنِ حَيْنًا وَلَمَّا يَمْسَسِ « البوغاز » ضُرُّ

وَبَعْدَ « الأَرْخَبِيلِ » وما يَلِيهِ وَتِيهِ فى العَيَالِ ^(٢) أَى تِيهِ

(٧) و « يوبيل » الملوِكِ يَلْبَثُ يَوْمًا و « يوبيلى » يدومُ فى الناسِ عامًا

(١) عدد من القصائد فى الجزء الرابع يداعب بها صديقه الدكتور محبوب ثابت بك

رحمهما الله . (٢) جمع : عيلم ، وهو : البحر .

(٨) بَطَلَ البداوةَ لم يكنْ يَفْزُو على «تَمَكِّ» ولم يكْ يَرْكَبُ الأَجْواءَ^(١)

تلك أخطاء شوقي ؛ وهى محدودة ، محصورة . ونحن — مع قلتها ويُسرّها — لانفعيه من تبعتها ، ومن الحكم بأنه أساء إلى لغته ، وشعره بها . وقد نجا من أمثالها المتنبي وبرى .

أما ضروراته النحوية قليلة ؛ إذ كان مقتصدًا فى استعمالها ، عزّوفا عنها ؛ ما وجد له مندوحة . وهى — على قلتها — داخله فى حدود ما أباحه العلماء للشعراء . (ومن هنا اتسعت مسافة الخلاف بينه وبين المتنبي) وأكثر ضروراته صرف الممنوع ، وتسكين المنصوب . ومن الأمثلة :

- | | |
|--|---|
| (١) يَخْطُرُنَ بَيْنَ أَرَائِكِ ، ومنابرٍ | فى هيكلي من سُندسٍ فيّاحٍ |
| (٢) فى كلِّ صحراءٍ ، وكلِّ تَنْوُفَةٍ | أرضٌ عليك من السماء تَفَارُ |
| (٣) لو أنصَمُوكَ جَنَادِلًا وصفاحًا | جعلوك بالذِّكرِ الحكيمِ مُسَوَّرًا |
| (٤) إذا مال صفٌّ فاخْلُتُوهُ بآخرٍ | وَصُولِ مَسَاعٍ لَامَلُولٍ وَلَا آلٍ ^(٢) |
| (٥) عسى الشعرُ أن يجزى جَرِيئًا لِفَقْدِهِ | بكى الترك واليونان بالدمع والدمِ |
| (٦) لَانْحَنُ «جِرْمانٌ» لَنَا حِصَّةً | وَلَا بَرُومانَ فَنُعْطَى فَتِيلَ |

وإلى هنا ينتهى القول فى ناحية الأخطاء والضرورات ؛ فننتقل إلى الناحية الأخرى ؛ ناحية المحسنات البلاغية .

* * *

(١) جمع: جو، وهذه الكلمة مما زعموا أن شوقي استعملها من غير وجود لها فى المراجع اللغوية، مع أنها فى تاج العروس ، والمجيب مانشاهده فى هذه الأيام من الحكم على بعض الكلمات بأنها ليست بالمعاجم مع وجودها . وسبب ذلك الاقتصار على بعض المعاجم . (٢) لَا آلَ : أى : غير مقصر .

نريد بهذه المحسنات ما ارتضاه أئمة البلاغة من فروعها الثلاثة :
 (المعاني ، والبيان ، والبديع) وامتدحوه ، ونصحوا باتباعه ، والبعد عما
 يخالفه . وقد دونوا آراءهم في كتبهم الخاصة ، وضمنوها ماشاءوا من تفصيل
 وإيضاح . ولسنا بحاجة إلى إعادة ما أسلفنا ؛ من جلال القواعد البلاغية ،
 وعظيم شأنها ، وأنها مستخلصة من صميم الأدب الأجود ، ونصوصه المنتقاة ؛
 فهي الضوابط الصحيحة التي توضح نواحي الحسن والقبح فيه ، وترشد
 إلى عيوبه ومحاسنه من أقرب طريق ، وأنجع وسيلة . وهي - لذلك - خير
 معين على النقد ، وأقوى سلاح في يد الناقد ، وأحكامها الفيصل الحاسم ؛
 فمن شهدت له فهي حسبه . ومن خاصمته باء بالخسران .

وليس في استطاعتنا أن نعرض لكل النواحي البلاغية في شعر المتنبي
 وشوقي ؛ فذلك ما لا يتسع له البحث . وقد سبق الكلام على ناحية ألفاظهما .
 المفردة والمركبة ، وما يتصل بها . وسنعرض الآن من النماذج المختلفة ما يكفي
 لبيان بعض النواحي الأخرى ، والحكم عليها ؛ حسنا ، أو قبحا . من غير
 أن نتصدى لمكان الشاهد ومناقشته ؛ اعتماداً على فهم الأديب ، وحسن
 إدراكه .

فن أبيات المتنبي ما يرضى البلاغة ، ويطرب الأدباء ؛ بإحكام تشبيهه ،
 وأحسن مجازه ، أو واضح كنياته ، أو بارع توريته ، أو لطيف جناسه ،
 أو جميل إطنابه ، أو حلاوة ضله ، أو بديع تقسيمه ... أو ... أو ... إلى
 غير ذلك من الفنون البلاغية التي تقع من أطايبها على زاد وافر في شعره .
 وأمثلتها كثيرة لانجدها عناء في الوصول إليها .

فمنها قوله في حيرة الأحباب ساعة الرحيل :

(١) أَدْرَنْ غُيُونًا حَائِرَاتٍ ؛ كَانَهَا
وفي خيل الأبطال :

(٢) فَكَانَهَا نَتَجَتْ قِيَامًا تَحْتَهُمْ
وكانهم خُلقوا عَلَى صَهَوَاتِهَا
وقوله في الحمى :

(٣) وَمَنَازِلُ الْحُمَى الْجُسُومُ ؛ فَقُلْ لَنَا

أَعْجَبَتَهَا شَرَفًا ؛ فَطَالَ وَقُوفُهَا

(٤) قَدَكُنْتَ أَشْفِقُ مَنْ دَمَعِي عَلَى بَصَرِي

(٥) وَبِوَمًا كَانَ الْحُسْنُ فِيهِ عَلَامَةٌ

(٦) لَا يُعْجِبُنِي مَضِيًّا^(١) حُسْنُ بَرْنِهِ

(٧) مَا بَالُهُ ؟ لَاحَظْتُهُ ؛ فَتَضَرَّجَتْ

وقوله في الرثاء :

(٨) كَفَلَ الثَّنَاءَ لَهُ بِرَدِّ حَيَاتِهِ

(٩) وَالْفَنَى فِي يَدِ اللَّيْمِ قَبِيحٌ

(١٠) وَحِيدٌ مِنَ الْخُلَآنِ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ

(١١) لِلْهُوَ آوِنَةٌ تَعُرُّ ؛ كَانَهَا

(١٢) تَعَلُّ الْحُصُونُ الشَّمُّ طَوَّلَ نَزَالِنَا

(١٣) لِمَنْ تَطْلُبُ الدُّنْيَا إِذَا لَمْ تَرُدِّ بِهَا

(١٤) يَهْوُونَ عَلَيْنَا أَنْ تُصَابَ جُسُومُنَا

(١٥) وقال يصف أعداء سيف الدولة حين انهزموا (وقد أحسن فيما يسميه « البلاغيون » الجمع والتقسيم) .

لِلسَّبِي مَا نَكَحُوا ، وَالْقَتْلِ مَا وَلَدُوا ، وَالنَّهْبِ مَا جَمَعُوا ، وَالنَّارِ مَا زَرَعُوا
(١٦) كَمْ مِنْ حُشَاةٍ بِطَرِيقٍ تَضُمْنَهَا لِلْبَاتِرَاتِ أُمَيْنُ مَالَهُ وَرَعُ
وبخاطبهم وقد فرحوا بأخذ بعض الأمرى من جيش سيف الدولة :

(١٧) لَا تَحْسَبُوا مِنْ أَمْرَتُمْ كَانَ ذَارِمِي فليس يأكلُ إِلَّا الْمَيْتَ الضَّعِيفُ
(١٨) وبخاطبهم :

أَغْرَ كَمْ طُولُ الْجِيُوشِ وَعَرْضُهَا عَلَى شَرُوبٍ لِلْجِيُوشِ ، أَ كُولُ
(١٩) حَشَايَ عَلَى جَمْرٍ ذِكِّي مِنَ الْهَوَى وَعَيْنَايَ فِي رَوْضٍ مِنَ الْحُسْنِ تَرْتَعُ
وفي وصف الأسد :

(٢٠) مُتَحَضِّبٌ بَدَمِ الْفَوَارِسِ ، لَا يَسُ فِي غِيْلِهِ مِنْ لِدَتَيْهِ غِيْلًا
مَا قُوِيَتْ عَيْنَاهُ إِلَّا ظَنَنْتَا تَحْتَ الدُّجَى نَارَ الْفَرِيقِ حُلُولًا
فِي وَحْدَةِ الرُّهْبَانِ ؛ إِلَّا أَنَّهُ لَا يَعْرِفُ التَّحْرِيمَ وَالتَّحْلِيلَ

(٢١) وَوَفَا نَبَتْ فِيهِ ، وَلَكِنْ لَمْ يَزَلْ لِلْوَفَاءِ أَهْلَكَ أَهْلًا

(٢٢) وَلَعَمْرِي لَقَدْ شَغَلَتِ الْمَنَابِيَا بِالْأَعَادِي . فَكَيْفَ يَطْلُبُنْ شُغْلًا ؟

واستمع للأبيات الآتية في وصف الدنيا ، ومدح سيف الدولة . وتأمل ماحوته من فنون بلاغية مُحْكَمَةٌ :

(٢٣) وَلِذِيذِ الْحَيَاةِ أَنْفَسُ فِي النَّفْسِ وَأَشْهَى مِنْ أَنْ يُبْمَلَ ، وَأُخْلَى
وَإِذَا الشَّيْخُ قَالَ : أَفَى ؛ فَمَا مَلَّ حَيَاةً ، وَإِنَّمَا الضَّعْفَ مَلًّا

آلَةُ الْعَيْشِ حِجَّةٌ ، وَشَبَابٌ فَإِذَا وَلِيَا عَنِ الْمَرْءِ وَلَى
أَبَدًا تَسْتَرِدُّ مَا تَهَبُ الدُّنْيَا . فَيَا لَيْتَ جُودَهَا كَانَ بُخْلًا
فَكَفَتُ كَوْنُ^(١) فَرَحَةٍ تُورِثُ النِّمَّ وَخِلٍ يُغَادِرُ الْوَجْدَ خِلًا
وَهِيَ مَعْشُوقَةٌ عَلَى الْغَدْرِ ؛ لَا تَحْفَظُ عَهْدًا ، وَلَا تَتَمَّمُ وَصْلًا
كُلُّ دَمْعٍ يَنْسِيلُ مِنْهَا عَلَيْهَا وَبِفِكَ الْيَدَيْنِ عَنْهَا تُخَلَّى
شَيْمُ الْغَانِيَاتِ فِيهَا ؛ فَلَا أَدْرِي لِمَا أَنْتَ اسْمُهُمَا النَّاسُ أَمْ لَا

* * *

يَا مَلِيكَ الْوَرَى الْمُرَقَّ حَيًّا ، وَمَمَاتًا فِيهِمْ ، وَعِزًّا ، وَذُلًّا
قَلَدَ اللَّهُ دَوْلَةً سَيْفُهَا أَنْتَ حُسَامًا ، بِالْمَكْرُمَاتِ مُحَلَّى
فَبِهِ أُغْنَتِ الْمَوَالِي بَذْلًا وَبِهِ أَفْنَتِ الْأَعَادِي قِتْلًا
وَإِذَا اهْتَزَّ لِلنَّدَى كَانَ بِحَزًّا وَإِذَا اهْتَزَّ لِلْوَغَى كَانَ نَصْلًا
وَإِذَا الْأَرْضُ أَظْلَمَتْ كَانَ شَمْسًا وَإِذَا الْأَرْضُ أَمَحَلَتْ كَانَ وَبْلًا
وَهُوَ الصَّارِبُ الْكِتَبِيَّةُ ، وَالطَّعْنَةُ تَقْلُو ، وَالضَّرْبُ أُغْلَى وَأُغْلَى
أَيْهَا الْبَاهِرُ الْعُقُولُ ؛ فَمَا يَدُ رَكٍّ وَصَفَا ، أَنْعَبْتَ فِكْرِي ؛ فَمَهْلًا
مَنْ تَعَاطَى تَشَبُّهُ بِكَ أَعْيَا هُ ، وَمَنْ دَلَّ فِي طَرِيقِكَ ضَلَا
فَإِذَا مَا اشْتَهَى خُلُودَكَ دَاعٍ قَالَ : لَا زِلَّاتَ أَوْ تَرَى لَكَ مِثْلًا
وفى هذه الأبيات وسابقتها ما يوضح جانباً فنياً رائعاً فى شعر المتنبي
ويظهر براعته . ولولا عثرات أخرى لكان المجلى فى هذه الناحية .

ومن أكبر عثراته : خشونة اللفظ ، وجود الطريقة . وأعنى بالأول اختياره اللفظ الضخم ، الجزل في المواطن كلها ؛ سواء أكان مناسباً في مكانه أم غير مناسب ، لافرق عنده بين تهديد ، وإغراء ، وعقب ، وحرب ، ونسيب ، وحزب — كما سبق — .

وأعنى بالثاني التزامه تلك الخشونة — في أغلب موضوعاته — وإيثاره البحور الشعرية المجلجلة ، ذات النغم الفخم ، والجرس القوى ؛ سواء أكانت ملائمة لموضوعها أم غير ملائمة . مع أنَّ اللفظ الجزل إذا وضع في غير موضعه اللائق به استحال خشناً ، جافاً ، مردولاً . واستحالت الجزالة المستحسنة عيباً بغيضاً . والوزن الشعري إن لم يكن ملائماً لموضوعه فقد موهبته المؤثرة ، المترجمة عن الشعور العميق ، وانقلب صوتاً أصمّ مُفْكَراً . وكذلك الرقيق في غير موضعه ؛ متخادلاً ، واهن ، ركيك ، وموسيقاه فائرة . فظهر الخشونة في شعر المتنبي إنما هو في إحلال الجزل محل الرقيق . ومظهر الجود إنما هو في التزام الخالفة في اللفظ وفي البحر ، أو ما يشبه الالتزام . وفي ذلك ما يعيب الشعر عند البلاغيين ، ويدخله عندهم في منطقة : (الخالف المقام) .

وهم على حق في هذا ؛ فالكلام أصوات تُبرِّز ما في نفس المتكلم ، وتصور شعوره على الوجه الأكمل قدر الاستطاعة ؛ فإذا كانت النفس نائرة هائجة وجب اختيار الألفاظ قوية عنيفة . وإن شئت فقل : نغمة جزلة ؛ كي تستطيع أن تُترجم عن أعماق المشاعر ، وتصورها أقرب ما تكون إلى الحقيقة . يسايرها الوزن الشعري الأقوى ، ويؤيدها البحر المجلجل . وإن كانت النفس وادعة حاملة وجب تخير الألفاظ الرقيقة السمحة ، والوزن الشعري الهادي ؛ كي لا تُزعجها ، ونقطع صفوها وهدهوها ، وجميل أحلامها .

وبَدِيَّةُ: أنما لانفى بالجزالة فى الكلام : (أن يكون ^(١) وحشياً فى غاية الغرابة فى معانيه ، والوعورة فى ألفاظه . ولا نريد بالركة أن يكون : ركيكا ، نازل القدر ، سفسافا ؛ ولكن المقصود من الجزالة أن يكون مستعملا فى قوارع الوعيد ، ومهولات الزجر ، وأنواع التهديد . وأما الرقة : فإنما يراد بها ما كان مستعملا فى الملاحظات ، واستجلاب المودات ، والبشارة بالوعد . . .) فالأديب المقتدر من « يُقَمِّم ^(٢) الألفاظ على رُتب المعانى ؛ فلا يجعل الغزل كالتفخر ، ولا المديح كالوعيد ، ولا الهجاء كالاستبطاء ، ولا الهزل بمنزلة الجد ، ولا التعريض مثل التصريح ؛ بل يرتب كُلا مرتبته ، ويوفيه حقه ؛ فيتلطف إذا تغزل ، ويفخم إذا افتخر ، ويتصرف المديح تَصَرُّفَ مواقفه ؛ فإن المدح بالشجاعة والبأس يتميز عن المدح باللباقة والظرف . ووصف الحرب والسلاح ليس كوصف محافل الفناء ؛ فلكل واحد من الأمرين تَهْنِجٌ ؛ هو أَمَلَكُ به ، وطريق لا يشاركه الآخر فيه . وليس الأمر بتقصير على الشعر دون الكتابة ، ولا بمختص بالنظم دون النثر ، بل يجب أن يكون الكتاب فى الفتح ، أو الوعيد خلاف الكتاب فى التشوق والتهنئة واقتضاء المواصله ، وخطابُ التحذير والزجر أنخم من خطاب الوعد والتمنى ^(٣) » .

وصانغ الكلام كصانغ الجواهر والحلى ، لا بد له قبل إعداد الحلية أن يتعرف مقام صاحبها ، والمكان الذى تلبس فيه : (أهو العنق ، أم الأذن ،

(١) ما يأتى منقول عن الطراز ج ١ ص ١١٥ البحث الثالث .

(٢) (٣ و ٢) الوساطة ص ٢٩ ، فصل : « لكل مقام مقال » . باختصار وبعض تصرف فى اللفظ .

أم المعصم . . . ؟) ليجملها قلادة ، أو قرطا ، أو سواراً . . . وكذلك صائغ الكلام لا بد أن يعرف الموضوع الذى يطرقه قبل الشروع فيه : أمدح هو ، أم هجأ ، أم وعد ، أم وعيد ، أم حرب ، أم تشييب . . . الخ ويختار لكل موضوع ما يناسبه « فيأتى »^(١) مرة بالجزل ، وأخرى بالسهل ، ويلين إذا شاء ، ويشدد إذا أراد . ومن هذا الوجه فضلوا جريراً على الفرزدق ، وأبا نواس على مسلم . . . ؛ لأن الفرزدق يجرى على طريقة واحدة ، والتصرف فى الوجوه أبلغ . ولأن أبا نواس يتصرف بين الشدة واللين ، ويضع كلاً منهما فى موضعه ، ويستعمله فى حينه . . . »

وليس المراد بالسهل الذى أوردناه الضعيف الركيك ؛ وإنما (هو : النمط الأوسط الذى ارتفع عن الساقط السوقي ، وانحط عن البدوى الوحشى^(٢)) .

ونصيب المتنبي من خشونة اللفظ كبير واضح ؛ أشرنا إليه فيما سبق ، وضر بنا له الأمثال . وحسبك من خشونته أن ألتقط أبياته الآتية من قصيدة واحدة فى الأنين والشكوى من الزمان ، مُصدّرة بالفرز^(٣) .

كَمْ قَتِيلٍ كَمَا قَتِلْتُ شَهِيدِ بِيَّاضِ الطَّلَا ، وَوَرْدِ الْخُدُودِ ؟
دَرَّ دَرَّ الصَّبَا أَيَّامَ تَجَرِيرِ ذُبُولِي ، بَدَارِ أَثْلَةِ غُودِي
عَمَّرَكَ اللَّهُ ، هَلْ رَأَيْتَ بُدُورًا طَلَعَتْ فى بَرَاقِعِ ، وَعُقُودِ
كُلِّ خُمْلَانَةٍ أَرَقَّتْ مِنَ الْخَمْرِ ، بِقَلْبِ أَقْمَى مِنَ الْجُمُودِ

(١) الصناعتين ص ١٧ الفصل الثالث من الباب الأول .

(٢) الموضع السابق ص ١٩ .

(٣) . . . سبق شرح المفردات الصعبة فى الأبيات التالية فى مناسبات سابقة .

ذاتِ فَرْعٍ ؛ كَأَنَّمَا ضَرَبَ الْعَنْبَرُ فِيهِ بَمَاءٍ وَرَدٍ ، وَعُودٍ
حَالِكٍ كَالْعُدُافِ ، جَثَلٍ ، دَجْوٍ جَيٍّ ، أَثِيثٍ ، جَعْدٍ بِلَا تَجْمِيدِ
أَهْلٍ مَابِيٍّ مِنَ الضَّنَا ، بَطَلٌ صَيٍّ دَ بَقْصَنِيْفٍ طُرَّةٍ ، وَبَجِيدِ

.....

مَفْرُشِيٍّ صَهْوَةٍ الْحِصَانِ وَلَكِنَّ قَمِيصِي مَسْرُودَةٌ مِنْ حَدِيدِ
لَأَمَّةٍ ، فَاضَةٌ ، أَضَاةٌ ، دِلَاصٌ ، أَخْكَتْ نَسْجَهَا يَدَا دَاوُودِ^(١)
ضَاقَ صَدْرِي ، وَطَالَ فِي طَلَبِ الرُّزِّ فِي قِيَامِي ، وَقَلَّ عَنْهُ قُعُودِي

.....

والأبيات الغزلية الآتية :

حَاشَى الرَقِيبَ ؛ نَخَاتُهُ ضَمَارُهُ وَغِيَضَ الدَّمْعِ ؛ فَانْهَلَتْ بِوَادِرُهُ
لَوْلَا ظِلَابُهُ عَدِيٍّ مَاشَقِيَّتِ بِهِمْ وَلَا يَرَبَّرِيهِمْ ، لَوْلَا جَادِرُهُ
مِنْ كُلِّ أَحْوَرَ فِي أَنْيَابِهِ شَنْبٌ خَمَرٌ نَحَامِرُهَا ، مِسْكٌ نَحَامِرُهُ
نَمُجٌ مَحَاجِرُهُ ، دُعُجٌ نَوَاطِرُهُ خُمُرٌ غَفَائِرُهُ ، سُودٌ غَدَائِرُهُ

وأمثال هذا غالب على قصائده المختلفة . وقد مرت صُورٌ منها كثيرة :

أما جمود طريقتة في البحور فحسبك أن ديوانه يحوى من القصائد
والمقطوعات قرابة ثمانين ومائتين ؛ هي كل ما جادت بها قريحته ؛ منها : نحو
سبع وخمسين من البحر الطويل ، وست وأربعين من الوافر ، وثلاث وأربعين
من الكامل ؛ فجمع هذه الثلاث : ستة وأربعون ومائة ؛ تضرب

(١) سبق شرح مفردات هذا البيت أيضا ص ٨٢ .

في نواح شتى من الأغراض المختلفة ، بين غزل ، وحنين ، وأنين ،
وخريات ، ومدائح ... ومعنى هذا أن أكثر من نصف قصائده منظوم
من البحور القوية الجرس ، المدودة النغم ، التي تصلح لمواقف الشدة
والعنف ، ولا تسكاد تصلح لغيرها . فقد آثرها من بين ستة عشر بحراً ،
وكان في هذا من القاسطين ؛ إذ لم يعط البحور الأخرى نصيبها من
الإيثار في المواضع التي هي أليق بها ، وأنسب ؛ ففي البحور الشعرية
ما هو قويٌّ شديد ؛ كالثلاثة التي آثرها . ومنها ما هو هادئ الجرس ،
عذب النغم ، خفيف الوقع ؛ كالهزج ، والمتدارك . ومنها ما يتوسط الاثنين ؛
كالمتقارب ، والرمل . فلكل بحر مكانه ومزيته ، وإغفال هذا معابة
لا يغفرها النقدة البلاغيون . وقد وقع فيها المتنبي — عامداً أو غير عامد —
بدافع من طبيعته الثائرة ، العنيفة ، التي تجنح إلى كل ما فيه قوة ، وضخامة
وشدة — كما أسلفنا —

(ب) ومن عثرات ^(١) المتنبي كثرة الحشو ، والتضمين ، وقبح
الاستعارة ، وخفاء الكناية ، والإيجاز المخل ... و... و... وأوضح من
كل هذا وأكثر : سرقاته ، وسوء مطاله .

وإليك صوراً من عثراته ، ثم تفصيلاً عن سرقاته ومطاله :

(١) شرف ينطجُ النجومَ بقرنَيْه — وعِزُّه يقلِّقُ الأَجْبَالا

فقد جعل للشرف قرناً . وهذه استعارة قال عنها القدماء : إنها

استعارة خبيثة ^(٢) .

(١) - بعض ما يأتي لفظي صريح وبعضه مختلف فيه ؛ ألفظي هو أم معنوي ؟ ولا قيمة

لهذا الخلاف في بحثنا (٢) الصبح المتنبي على هامش العكبري ص ١٦٣ ج ١ .

(٢) مَسْرَّةٌ فِي قُلُوبِ الطَّيِّبِ مَفْرُفَهَا وَحَسْرَةٌ فِي قُلُوبِ الْبَيْضِ وَالْيَلْبِ
فَجعل للبييضِ واليَلْبِ قلوبا تشعر وتتجسر ؛ وهذا قبيح . ولا عذر
يتوجه له في هذه الاستعارة ؛ كما يقول صاحب سر الفصاحة ^(١) . وما أكثر
ما يلجأ هذا الأديب البلاغي إلى الاستشهاد بشعر المتنبي في العيوب ؛
كاستشاده بالبيت السابق ، وبقوله في مدح كافور :

تَرَعَرَعَ الْمَلِكُ الْأَسْتَاذُ مُكْتَهَلًا قَبْلَ اكْتِهَالِ ، أَدِيبًا قَبْلَ تَأْدِيبِ
فقال ^(٢) : إن كلمة : « الأستاذ » من الحشو الذي يُوَزَّرُ في المعنى نقصاً ،
وفي الغرض فساداً . وإن كلمة : « الأستاذ » بعد كلمة « الملك » نقص
كبير . وبين تسميته بالملك ووصفه بالأستاذ فرق واضح .

(٣) وقوله متغزلاً في مطلع قصيدة يمدح بها :
مَلَامُ النُّوَى فِي ظُلْمِهَا غَايَةُ الظُّلْمِ لَعَلَّ بِهَا مِثْلَ الَّذِي بِي مِنَ الشُّقْمِ
يدافع بهذا البيت عن النُّوَى ، وأنها مظلومة في الاستئثار بالحبيب ،
فربما كانت تحبه ، وتعشقه ، وتختاره لنفسها ، وتحول بينه وبين غيرها ؛
فهي معذورة في احتفاظها به ، وعدم تركه لغيرها . فصَوَّرَ النُّوَى في صورة
شخصٍ يحب ، ويعشق ، ويفار ، ويستأثر . والفساد في هذا واضح .
(٤) وقوله في المدح :

أَسَدٌ ^(٣) ؛ دَمُ الْأَسَدِ الْهَزَبُ رِخْصَابُهُ مَوْتُ ^(٤) ؛ فَرِيصُ ^(٥) الْمَوْتِ مِنْهُ تَرَعَدُ

(١) سر الفصاحة للخفاجي ج ١ ص ١١٨ (٢) سر الفصاحة ص ١٤١ ج ١ .
(٣) أي : هو أسد . (٤) أي : هو موت .
(٥) جمع : فريصة ، وهي قطع من اللحم عند الكنف ، تضطرب حين الخوف .

فقد جعل الموت فريصاً يهتز من الخوف كفريص الإنسان . وهذا من أفبح الاستعارات .

(٥) وماذا ترى فى الأبيات الخمسة التالية وقد أرسلها لابن العميد ردا على رسالة تشوق :

بِكُتِبِ الْأَنَامُ كِتَابٌ وَرَدَّ فَدَتْ يَدَ كَاتِبِهِ كُلُّ يَدٍ
يُخَبِّرُ عَنْ حَالِهِ عِنْدَنَا وَيَذْكُرُ مِنْ شَوْقِهِ مَا نَجِدُ
وَأُخْرِقَ رَأْيُهُ مَا رَأَى وَأَبْرَقَ نَاقِدُهُ مَا انْتَقَدُ
إِذَا سَمِعَ النَّاسُ أَلْفَاظَهُ خَلَقْنَ لَهُ فِي الْقُلُوبِ الْحَسَدُ
فَقُلْتُ : - وَقَدْ فَرَسَ النَّاطِقِينَ كَذَا يَفْعَلُ الْأَسَدُ ابْنُ الْأَسَدِ

ففى البيت الأول حذف لانتهدى فيه إلى المحذوف إلا بتقصيد وتخمين ؛ فالجار والمجرور (بكتب) متعلقان بمحذوف ؛ هو : يُفَدَى . . . وما فائدة كلمة : (الأنام) ؟ أليست حشوا لاداعى له ؟ - وفى البيت الثالث كلمتان هما : (أخرق) و (أبرق) . ومعنى الإخراق : التحير من هم ومصيبة . ومعنى الإبراق : فتح العين من فزع ودهشة . والمراد من البيت (كما يقول شارحه العكبرى) : أن من رأى الكتاب خيَّره ما رآه من حسن الخط . وأن من نقد لفظه أبرقه ما انتقده من حسن ألفاظه ، ومما يهتز ، وبلاغته . فأى ذوق يستسيغ الكلمتين ، أو إحداها فى هذا الموضع ، ويرضى عن استمارة الإخراق للحسن الغلاب ، والإبراق للجَمال القاهر ؟ وفى البيت الرابع يقول : إن ألفاظ الكتاب - لحسنها - تخلق الحسد فى القلوب لكاتبه ، وتجمل القارى يحسده . يريد : أن الكتاب عظيم ،

وأنه من النعم الجليلة التي يحسد الناس أصحابها . وهذه كناية أساء الشاعر التعبير عنها ، واختار لها لفظة طوحت بهاؤها وهي : (الحسد) . وكان جديراً به أن يختار تعبيراً آخر يدل على أنها تخلق له الإكبار والتمجيد .

وفي البيت الخامس يقول : إن الكاتب فرس الناطقين بفصاحته . (أى : صرّعهم ، وقضى عليهم ؛ كما يصرع الأسد فريسته) ولا عجب في هذا ؛ فهو أسد من أسد . فما أقبح الفصاحة التي تفرس الناطقين ، وما أقبح التعبير عنها باستعارة مرذولة ؛ هي : القتل ، والفرس . وما أصدق من قال ^(١) : (لو خرس المتنبي ، ولم يصف كتاب ابن العميد بما وصف - لكان خيراً له ؛ فكأنه قط لم يسمع وصف كلام . وأى موضع للإخراق والإبراق والفرس في وصف الألفاظ والكتب ؟)

(٦) سَرَى السَّيْفُ بِمَا نَطْبَعُ الْهِنْدُ صَاحِي إِلَى السَّيْفِ بِمَا يَطْبَعُ اللَّهُ لَا الْهِنْدُ

يقول : سرى معي السيف صاحبي ، وهو مطبوع بالهند . وأنا سيف طبعه الله ؛ لا الهند . فما قيمة خاتمة البيت « لا الهند » ؟ أليست حشواً بغيضاً ؟

ومثله قوله :

فَلَوْ كَانَ يُنَجِّي مِنْ عَلَيَّ تَرَهَّبُ تَرَهَّبَتِ الْأَمْلاَكُ مَثْنَى وَمَوْحَدًا

فما قيمة : (مثنى) و (موحد) بعد الأملاك ؟

ومثله قوله في وصف الدنيا :

وَلَا فُضِّلَ فِيهَا لِلشَّجَاعَةِ وَالْفَدَى وَصَبْرِ الْفَتَى لَوْلَا لِقَاءُ شُعُوبِ

(١) هو : الواحدى أحد شراح المتنبي . وقد نقله العكبرى عند شرح البيت المذكور .

قال صاحب سر الفصاحة^(١) :

(إن « النَّدَى » هنا : حشو ؛ يفسد المعنى . وذلك أن مقصوده أن
بالدنيا لا فضل فيها للشجاعة والصبر لولا الموت ؛ لأن الشجاع إذا علم أنه
يُخْلَدُ فأى فضل لشجاعته ، وكذلك الصابر . فأما النَّدَى فمخالف لذلك ؛
لأن الإنسان إذا علم أنه يموت هان عليه بذلُ ماله . وكذلك يقول إذا
عُوتِبَ في بذله : كيف لا أبذل مالا أبقى له ؟ ومن أين أثق بالتمتع
بهذا المال ؟)

(٧) وقوله في الغزل :

أَعَارَبَنِي سُقَمَ عَيْنَيْهِ وَحَلَنِي
مِنْ الْهَوَى ثِقْلَ مَا تَحْوِي مَازِرُهُ
قال كناية آخر البيت بغیضة ؛ ليست مما يليق ذكره ، كما أشار لهذا شارح
الديوان . ومثلها بل أبغض منها قوله في الغزل أيضاً :

خَفِ اللَّهُ ، وَاسْتَرْ ذَا الْجَمَالِ بِبُرْقُعٍ
فَإِنْ لَحْتَ حَاضَتْ فِي الْخُدُورِ الْعَوَاتِقُ
ومثله : إني على شغفي بما في حُرِّها
لَأَعِفُّ عَمَّا فِي سِرَاوِيلِهَا

(٨) وانظر إلى التشبيه الضمني التافه ، بل السيئ في الشطر الثاني :

يَفْدَى بَنِيكَ - عُيَيْدَ اللَّهِ - حَاسِدُهُمْ
بِجَبْهَةِ الْعَبْرِ يُفْدَى حَافِرُ الْفَرَسِ

(٩) وإلى إفساد المدح بالتوجيه^(٢) حين يخاطب كافورا بقوله :

فَإِنْ نَلْتُمْ مَا أَمَلْتُ مِنْكُمْ فَرُبَّمَا
شَرِبْتُ بِمَاءٍ يُعْجِزُ الطَّيْرَ وَرِزْدُهُ
أريد : إن أدركت مطلوبي فلا عَجَب ؛ فكم أدركت بك الصعب

(١) ص ١٤٣ . (٢) أن يكون الكلام محتملا للمدح والذم معا .

الممتنع — فيكون الكلام مدحاً عالياً ، أم يريد أن يقول : إن أخذت منك شيئاً — على بخلك وامتناعك من العطاء — فكم وصلتُ إلى الصعب ، واستخرجتُ العسير ، كما يقول شارح الديوان ؛ فيكون الكلام ذمّاً قاتلاً ؟

(١٠) وإلى سوء المطابقة بين مكسورة وصحيح في قوله :

يفشى الطعانَ فلا يَرُدُّ قَنَاتَهُ مكسورةً وَمِنْ الكُماةِ صحيحُ

فإن كلمة : « مكسورة » حشو — كما قال الشارح — أراد به مجرد المطابقة ؛ إذ لاخر في رجوع القناة مكسورة .

(١١) ومن التورية المعيبة ، ومراعاة النظير المستهجنة ؛ لاشتغالها على مصطلحات نحوية — قوله مادحاً :

إذا كان ما تنوِّبه فِعْلاً مضارعاً مَضَى قَبْلَ أَنْ تُلقَى عليه الجَوَازِمُ

... ..

إلى غير هذا من الصور المعيبة التي تتكرر في النوع الواحد والأواع المختلفة .

* * *

أما سرقاته : فقد طال الكلام فيها بين خصومه وأنصاره ؛ فأولئك يبالغون في تعدادها ، ويسرفون في تصييدها . وهؤلاء يدفعونها ، ويسرفون في تبرئة صاحبهم . وبين الفريقين تختبئ الحقيقة بسحب الهوى والتشكيك .

إن السرقة الأدبية — فيما قال العلماء — أنواع كثيرة ؛ تُرْبِي على خمسة عشر نوعاً . وكلها يرجع إلى انفاق الكلامين في اللفظ والمعنى معا ؛ أو في المعنى فقط . وقد يزيد المسروق أو ينقص ، أو يتناوله بعض التصرف .. والنصف حين يتردد على ديوان المتنبي يرى كثيراً مما عدّه النافدون سرقات ليس منها في شيء ؛

إما لأن معناه معروف للناس ، ذائع بينهم ؛ فلا فضل لأحد فيه (فهو — كما يسمونه — قَدَرٌ مشترك بينهم جميعا ؛ لا ينسب لواحد منهم دون الآخر ؛ كتشبيه الخلد بالورد ؛ والقوام الأهيف بالغصن اللدن ...) وإما لأنه قد يخطر على بال أحد الخاصة كما خطر على بال الآخر دون علم ولا قصد ؛ فهو من النوع الذى يسمونه : « توارد الخواطر » . وقد أحسن الجرجاني ^(١) الكلام فى هذا وأطال إيضاحه . وكذلك صاحب الصبح ^(٢) المتنبي .

وشئ آخر ؛ فقد كان المتنبي راوية من رواة الشعر ، ومن أكبر حفاظ الدواوين ^(٣) . ومثل هذا قد ينطق فى شعره بكلام غيره دون تديير ، ولا ترتيب سابق . وقد يجرى على لسانه ما ليس له دون أن يشعر . ومكانة المتنبي الأدبية ، ووقتته بنفسه ، بل غروره وكبرياؤه ، وكثرة حساده وأعدائه الذين يتر بصون به الدوائر — كل أولئك يمنعه أن يسرق كلام غيره ، وأن ينتهب ما ليس له .

على أنى — بالرغم من ذلك كله — وقعت على أبيات كثيرات لا أستطيع الدفاع عنها ، ولا إخراجها من السرقات . ولا سيما بعد أن روى بعض الثقات : (أن المتنبي حين قُتِل كان معه ديوان أبى تمام والبحتري بخطه ، وعلى حواشى الأوراق علامة كل بيت أخذ معناه وسلَّخه ^(٤)) .

فإن كانت هذه الرواية صحيحة — والقرائن تدل على صحتها — فالمتنبي مختلس ، زائف العظمة ؛ لاصلة بين حقيقة نفسه وظاهر غروره وادعائه . ومن استباح أن

(١) كتاب الوساطة ص ١٥٥ وما بعدها ، سرقة الشعر .

(٢) ص ٢٦٩ وما بعدها على هامش المكبرى ج ١ .

(٣) ج ١ ص ١٧٥ من الصبح على هامش المكبرى .

(٤) الصبح المتنبي ج ١ ص ٢٧٣ هامش المكبرى . و ص ١١ من كتاب الكشف

عن مساوى المتنبي للصاحب .

يسرق أبا تمام والبحترى استباح أن يسرق غيرهما ، وأن يعْرِضَ تلك النفائس
المسروقة مُمَوَّهَةً مصقولة ، على أنها ملك يمينه ؛ وهى تبرأ من فعلته وجرائته .
وندع البيان للأمثلة^(١) .

(١) قال ضمضم الكِنَانِي :

إِذَا لَمْ يَكُنْ عَنْ قَبْضَةِ الْمَوْتِ مَخْلَصٌ فَعَجَزٌ وَجُبْنٌ أَنْ تَخَافَ الْمَالِكَا
فقال المتنبي :

وَإِذَا لَمْ يَكُنْ مِنَ الْمَوْتِ بُدٌّ فَمِنْ الْعَجَزِ أَنْ تَكُونَ جَبَّانَا
(٢) قال أحد الأقدمين :

تَرَى خَيْلَهُمْ مَرْبُوطَةً بِقَبَائِهِمْ وَفِي كُلِّ قَلْبٍ مِنْ سَنَابِكِهَا وَقْعٌ
فقال المتنبي :

صِيَامٌ^(٣) بِأَبْوَابِ الْقَبَابِ جِيَادُهُمْ وَأَشْخَاصُهُمَا فِي قَلْبِ خَائِفِهِمْ تَعْدُو
(٣) وقال الرُّقِّي يَخَاطِبُ الطُّلُولَ :

يَا مَحَلَّ الْأَرَامِ وَالْعَيْنِ أَهْلًا لَكَ فِي الْقَابِ مَنَزِلٌ ، وَتَحَلُّ
فقال المتنبي :

لَكَ يَا مَنَازِلُ فِي الْقُلُوبِ مَنَازِلُ أَقْفَرْتَ أَنْتِ وَهَنٌْ مِنْكَ أَوَاهِلُ
(٤) قال أبو العتاهية :

وَإِذَا الْجَبَانُ رَأَى الْأَسِنَّةَ شُرْعَاءَ عَافَ الثِّبَاتَ فَإِنْ تَفَرَّدَ أَقْدَمَا

(١) كثير من الأمثلة التالية منقول من العكبري ، والصبح المنبي من أما كن متفرقة .

(٢) أى : قيام .

وقال المتنبي :

وإذا ما خـلاً الجبانُ بأرضٍ طلبَ الطَّعْنَ وحدهُ ، والتزَّالاً

(٥) وقال أبو القوافي :

رَدَّتْ صنائهُمُ عليهُ حِيَانَهُ فكأنه منْ نَشْرِهَا مَنْشُورُ

فقال المتنبي :

كَفَلَ الثَّنَاءُ لَهُ بِرَدِّ حَيَاتِهِ لَمَّا انطوى ؛ فكأنه مَنْشُورُ

(٦) وقال زُرَيْقُ البصري :

رَأَيْتُ الْغَنَى عِنْدَ الْأَرَاذِلِ مُحَنَّةً عَلَى النَّاسِ مِثْلَ الْفَقْرِ عِنْدَ الْأَفَاضِلِ

فقال المتنبي :

وَالْغَنَى فِي يَدِ اللَّئِيمِ قَبِيحٌ قَدَرَقَبْجِ الْكَرِيمِ فِي الْإِمْلَاقِ

(٧) وقال الرقي :

كَأَنَّ بَنَاتَ نَعَشٍ حِينَ لَاحَتْ نَوَائِحُ وَاقِعَاتٍ فِي حِدَادِ

فقال المتنبي :

كَأَنَّ بَنَاتَ نَعَشٍ فِي دُجَاهَا خَرَائِدُ سَافِرَاتٍ فِي حِدَادِ

(٨) وقال بشار :

وَطَنٌ وَهُوَ مُجِدٌّ فِي هَزِيمَتِهِ مَا لَاحَ قُدَّامَهُ شَخْصًا يُسَابِقُهُ

فقال المتنبي :

وَضَاقَتِ الْأَرْضُ ؛ حَتَّى كَادَ هَارِبُهُمْ إِذَا رَأَى غَيْرَ شَيْءٍ ظَنَّهُ رَجُلًا

(٩) وقال أبو راسب :

وَلَوْ كُنْتُ تَحْوِي عَمْرَ مَنْ قَدْ نَهَبْتَهُ بَسَيْفِكَ فِي الدُّنْيَا لَكُنْتُ مُحَمَّدًا

وقال المتنبي :

نَهَبْتَ مِنَ الْأَعْمَارِ مَا لَوْ حَوَّيْتَهُ
لَهَنَّدْتَ الدُّنْيَا بِأَنَّا خَالِدُ
(١٠) وقال ابن هَفَّان :

وَأَنْتَ لِأَرْبَابِ الْمَكَارِمِ كُلِّهِمْ
إِمَامٌ . وَإِنْ غَابُوا فَإِنَّكَ حَاضِرُ
فقال المتنبي :

وَكُلُّ أُنَاسٍ يَتَّبِعُونَ إِمَامَهُمْ
وَأَنْتَ لِأَهْلِ الْمَكْرُمَاتِ إِمَامُ
(١١) قال المستهل بن الكميث :

وَمَا أَرَى فِي الْعُمُشِ لَوْلَا مَحَبَّتِي
لِنَفْعٍ مُحِبٍّ ، أَوْ مَضَرَّةٍ كَاشِحِ
فقال المتنبي :

لِمَنْ تَطْلُبُ الدُّنْيَا إِذَا لَمْ تَرُدَّ بِهَا
سُرُورَ مُحِبٍّ أَوْ إِسَاءَةَ مُجْرِمِ
(١٢) وقال أبو تمام :

وَكَاثٌ ، وَلَيْسَ الصَّبِيحُ فِيهَا بِأَبْيَضٍ
وَأَضْحَتْ ، وَلَيْسَ اللَّيْلُ فِيهَا بِأَسْوَدٍ
وقال هرون المنجم :

أَرَى الصَّبِيحَ فِيهَا مِنْذُ فَارَقْتُ مُظْلِمًا
فَإِنْ أَتَتْ صَارَ اللَّيْلُ أَبْيَضَ نَاصِعًا
فقال المتنبي :

فَاللَّيْلُ حِينَ قَدِمْتَ فِيهَا أَبْيَضٌ
وَالصَّبِيحُ مِنْذُ رَحَلْتَ عَنْهَا أَسْوَدُ
(١٣) وقال أبو نواس :

وَإِنْ جَرَتْ الْأَلْفَاظُ يَوْمًا عِدْحَةً
لِعَيْرِكَ إِنْسَانًا فَأَنْتَ الَّذِي نَعْنِي
فقال المتنبي :

وَطَنُونِي مَدَحُهُمْ قَدِيمًا
وَأَنْتَ - بِمَا مَدَحَهُمْ - مُرَادِي

(١٤) وقال البحتري :

وَهَلْ كُنْتُ إِلَّا مُذْنِبًا يَوْمَ أَنْتَحَى سِرَاكَ بَأْمَالِي ؛ فَنَجْتُكَ تَائِبًا

فقال المتنبي :

وَتَعَذَّلْنِي فِيكَ الْقَوَافِي ، وَهَمَّيْتُ كَأَنِّي بِمَدْحٍ قَبْلَ مَدْحِكَ مُذْنِبُ

(١٥) وقال أبو نواس :

لَا أَذُودُ الطَّيْرَ عَنْ شَجَرٍ قَدْ جَنَيْتُ الْمَرْءَ مِنْ ثَمَرِهِ

فقال المتنبي في وصف الإبل المرتحلة :

فكَأَنَّهَا شَجَرٌ بَدَتْ لَكُنْهَا شَجَرٌ جَنَيْتُ الْمَرْءَ مِنْ ثَمَرَاتِهَا

(١٦) وقال كثير :

رَمَتْني بِسَهْمٍ رِيْشُهُ الْمَذْبُ ، لَمْ يَضُرْ ظَوَاهِرَ جِلْدِي ، وَهُوَ فِي الْقَلْبِ جَارِحِي

فقال المتنبي :

رَامِيَاتٍ بِأَسْهَمٍ رِيْشُهَا الْهَذْبُ ب ؛ تَشُقُّ الْقُلُوبَ قَبْلَ الْجُلُودِ

(١٧) وقال أبو تمام :

طَامَتْ عَلَى الْأَمْوَالِ أَنْحَسَ مَطْلَعُ وَغَدَتْ عَلَى الْأَمَالِ وَهِيَ سُمُودُ

فقال المتنبي :

فَأَنْجَمُ أَمْوَالِهِ فِي النَّحْوِ وَأَنْجَمُ سُؤَالِهِ فِي السُّعُودِ

(١٨) وقال البحتري :

مَضَبًا وَكَأَنَّ الْمَكْرُمَاتِ لَدَيْهِمْ لَكثْرَةِ مَا وَصَّوْا بِهِنَّ شَرَائِعُ

فقال المتنبي :

كَأَنَّ سَخَاءَكَ الْإِسْلَامُ ؛ تَخْشَى إِذَا مَا حُلَّتْ عَاقِبَةُ ارْتِدَادِ

(١٩) وقال البحتري :

جَلَّ عَنْ مَذْهَبِ الْمَدِيحِ ؛ فَقَدْ كَا دَ يَكُونُ الْمَدِيحُ فَيْكَ هِجَاءُ
فقال المتنبي :

وَعُظْمُ قَدْرِكَ فِي الْأَفَاقِ أَوْ هَمِّي أُنِّي لِقَلَّةِ مَا أُثْنَيْتُ أَهْجُوكَا
(٢٠) وقال تميم بن خزيمة :

فَلَا تَسْتَحْقِرُونِي لِانْفِرَادِي فَإِنَّ التَّبَرَ مَعْدِنُهُ التُّرَابُ
فقال المتنبي :

وَمَا أَنَا مِنْهُمْ مُوَالِعِيشٍ فِيهِمْ وَلَكِنْ مَعْدِنُ الذَّهَبِ الرَّغَامُ
... و ... و ...

وفي الأمثلة السابقة وأشباهاها ما يكفي للفصل في سرقات المتنبي ،
والحكم عليها .

* * *

مطالعه واستهلاله^(١) :

حُسْنُ الْمُطْلَع ، أَوْ : بَرَاةُ الِاسْتِهْلَالِ ، وَصَفٌ جَمِيلٌ يَرِيدُ مِنْهُ
الْبَلَاغِيُونَ : أَنْ يَكُونَ بَدْءُ الْكَلَامِ قَوِيًّا يَسْتَرْعِي الْأَسْمَاعَ ، بِالْغِ جُودَةِ
وَالِإِتْقَانِ ؛ بِحَيْثُ يَسْتَهْوِي الْأَلْبَابَ لِمَتَابَعَةِ مَوْضُوعِهِ ، وَيَجْتَذِبُ النُّفُوسَ
لِلْإِقْبَالِ عَلَيْهِ .

وَقَدْ جَعَلُوا مِنْ شَرَائِطِهِ الْمُبَالَغَةَ فِي انْتِقَاءِ كَلِمَاتِهِ وَجَمَلِهِ ، وَبُعْدُهَا عَمَّا يَشِينُهَا

(١) وَيَشْبِهُهَا فِي أَمِّيَّتِهَا حَسَنُ التَّخْلُصِ وَالْحَتَامِ . وَلَكِنِّي سَأُكْتِفِي بِالْمُطْلَعِ .

من الوجهة البلاغية ، وسلامتها مما تنفر منه النفس ، أو تنطير به ؛ (كالقتل والموت ، والدم ، والعاثات ...) وإشارتها إلى موضوع الكلام في خِفَّةٍ ونحى ، وبراعة إيماء . وظهور الفائدة المعنوية كاملة مستقلة في كل جملة من جُمَل البدء إن كان الكلام نثرا ، أو في كل شطر من البيت الأول ، إن كان الكلام شعرا ، مع قوة الربط ، وإحكام المناسبة بين السابق واللاحق .

تلك شرائطه . وهى شرائط لكل كلام بليغ ؛ ولكن حرصهم عليها في المطالع أشدُّ ، وتمسكهم بها أقوى . حتى لقد قالوا^(١) : « إن أول ما يحتاج إليه في الشعر حسنُ المطالع والمقاطع » « لأنَّ حسن الافتتاح داعية الانشراح ، ومطية النجاح ... والشعر قُلٌّ ؛ أوله مفتاح ؛ فينبغى للشاعر أن يُجَوِّد ابتداء شعره ؛ لأنه أول ما يقرع السمع ، وبه يستدل على ما عنده من أول وهلة . ولْيَجْعَلْه حلوا ، سهلا ، ونحما ، جزلا^(٢) » . « والشاعر الحاذق يجتهد في تحسين الاستهلال والتخلص ، وبعدهما الخاتمة ؛ إذ هى المواقف التى تستعطف أسماع الحضور ، وتستميلهم إلى الإصغاء^(٣) » . « فن حق المطالع الحسنُ والمذوبة لفظا ، والبراعة والجودة معنى ؛ لأنها أول ما يقرع الأذن . ويصافح الذهن ؛ فإن كانت على الضدَّ بحجَّةُ السمع ، وزَجَّةُ^(٤) القلب ، ونَبَتٌ عنه النفس ، وجرى أمره على ما تقول العامة : « أول الدَّنِّ^(٥) دُرْدَى^(٦) »^(٧) .

(١) ص ١٠٠ من رسالة الكشف عن مساوى المنبى للصاحب بن عباد .

(٢) العمدة ص ١٤٥ ج ١ باب البدأ .

(٣) الوساطة للجرجاني التفسير ص ٤٩ . (٤) رماه .

(٥) وعاء كبير كالبرميل ؛ يخزن فيه الحمر ، والزيت . . .

(٦) الرواسب الرديئة التى تتجمع أسفل الدن . (٧) الصبح النبى ج ٢ ص ١٤ .

وهذا صحيح ؛ فكم مطالع اختلبت أفئدة السامعين والقارئین ، وحملتهم على متابعة صاحبها قدرا ، وأشاعت الثقة بكلامه ، والاطمئنان إليه . وكم مطالع أخرى فقرتهم منه ، وصرقتهم عنه ؛ فعز عليه أن يردم إليه ، وأن يستميلهم إلى ما يقول . هذا إلى أنها تكون بدء الكلام والشاعر متحفز ، متهيئ ؛ لم ينزه نفسه بعد ، ولم يستنفذ الكثير من الجهد ؛ فإذا جاءت ضميعة أساء السامع الظن بالشاعر ، واتهمه في قدرته ، وانصرف عنه وعن بقية كلامه .

عرفنا هذا في أنفسنا ، وشاهدناه في غيرنا ، ونقلناه عن السابقين . بل رأينا كثيرا من الشعراء والخطباء من أهل زماننا يتخذونه في الجامع ، والمحفل ، وميادين الكلام الحاشدة — وسيلة ناجحة في جذب الحاضرين ، ومفاجاتهم بما يستهويهم ، ويقسرهم على الصمت ، والإقبال ، وجميل الإصغاء . وبفضله تم لهم ما أرادوا . ولعل هذا هو السبب فيما ابتكره القدماء من استهلال شعرهم بالغزل المحبب ، وبكاء الديار ، وذكر الأحباب ، ومواقف الوداع ، وأشباها مما يسترعى الانتباه ، ويقتاد حرائر النفوس . وإذا كان الأمر على ما وصفنا فما مبلغ عناية المتنبي وشوقي به ؟

فأما المتنبي فله مطالع تُرضى أدباء البلاغة ، وتشرح صدورهم . وله أخرى تسوهم ، وتوغر نفوسهم . وهذا وذاك كثير في شعره . وقد تجدد في المطالع الواحد عدة عيوب . وهو يسلك في مطالعه من حيث موضوعاتها مسلك السابقين ، يحملها غزلا ، ونسبيا ، أو وقفا على الديار والأطلال ، أو حديثا مباشرا عن الموضوع الذي أنشأ القصيدة من أجله .

وأما شوقي فطالعها منها الجيد ، ومنها الرديء ؛ والأول هو الأوفر .
والثاني — على قلته — لم يبلغ من الوهن والقبح ما بلغه عند المتنبي ،
ولا يكاد يداخل المطلع الواحد أكثر من عيب . وتلك مزايا ثلاث ^(١) أتاحت
لشوقي دون قريعه . ثم هو يبدأ قصائده بالغزل حيناً ، وبالوقوف على الديار
والأطلال حيناً آخر . وقد يطرق الموضوع من غير تمهيد . وطرائقه هذه
هي طرائق المتنبي والسابقين . ولكنه ينفرد بنوع آخر لا يمتُّ بصلّة إلى تلك
الأنواع ؛ تراه يستهل قصيدته استهلالاً بارعاً قوياً يشير فيه إلى حادث هام
يشغله ويشغل خواطر الناس وقت إنشاء القصيدة ؛ فلا يترك الحادث الهامَّ
يُمرُّ من غير أن ينتهزه ، ويستغله في مطالعه ؛ ليشرك الناس معه في حسّه ،
ويشاركتهم فيما يملأ خواطرهم . وما دام الغرض من جودة المطلع هو : استهواء
السامع والقارئ ، واستمالتهما — فكل ما يوصل لذلك محبوب ، بل مطلوب
سواء أكان بالغزل ، أم بغيره من الطرائق المعروفة أو المبتكرة التي هي
أنسب للمقام من غيرها ؛ فلا مناصَّ للأديب أن يدرك الموقف على حقيقته ،
ويتخير له ما يلائمه ؛ وهو بعد ذلك حُرٌّ فيما يدعُ أو يختار .

وشيء آخر نلاحظه في كثير من مطالع شوقي ؛ هي : أنها على جودتها ،
وبراعة رمزها ، وإشارتها إلى الغرض من القصيدة — لا تقتصر على الرمز
والإشارة ، بل تحوى في ثناياها كثيراً من المعاني الضمنية المناسبة لذلك الغرض ؛
وكأن ما تفرق من تلك المعاني في القصيدة قد تجمّع في المطلع ، وتركز فيه

(١) وهي : كثرة الحسن بالنسبة للرديء . وعدم تعدد الميوب في المطلع الواحد ،
وتفضيل رديئه على رديء المتنبي .

إجمالاً وإيجاء ؛ حتى لتستطيع أن تقنع به إن شئت . وإليك من الأمثلة ما يوضح الرأي . فمن مطالع المتنبي الجيدة :

(١) قوله في مدح سيف الدولة :

لكلِّ امرئٍ من دهره ما تعوداً وعاداتُ سيفِ الدولة الطعنُ في العدا

(٢) وقوله يصف انتصاره على الخارجين عليه :

طِوالُ قَنَا تَطَاعِيهَا قِصارُ وَقَطْرُكَ في نَدَى وَوَعَى بِحَارُ

(٣) وقوله في الرثاء :

إني لأعلمُ والليبُ خبيرُ أنَّ الحياةَ - وإنْ حرَّصتْ - غرورُ

(٤) وقوله :

الحزنُ يُقلقُ ، والتجملُ يردِّعُ والدَّمعُ بينهما عَصَى طَيِّعُ

يتنازعانِ دموعَ عينٍ مُسَهَّدٍ هذا يحيى بها ، وهذا يبرِّجُ

(٥) وقال في التشوق :

شوقِي إليك نَفَى لذيذِ هُجُوعِي فارقتَنِي ؛ فأقامَ بَيْنَ ضَلُوعِي

أَوْما وجدْتُم في الصَّراةِ ^(١) ملوحةٌ مِمَّا أَرْقِرُقُ في الفُرَاتِ دُمُوعِي ؟

(٦) وفي الصلح بين كافور وسيده ابن الإخشيد :

حَسَمَ الصِّلْحُ ما اشتهتَهُ الأَعادي وأذاعتهُ ألسنُ الحَسادِ

(٧) وفي الغزل قبل المدح :

حُشاشَةُ نَفْسٍ ودَّعَتْ يومَ ودَّعُوا فلمْ أذَرِ أَيْ الظَّاعِنَيْنِ أَشِيْعُ

أشاروا بقسليمٍ ؛ فُجدنا بأنفسٍ تسيلُ منَ الأماقِ والسَّمِ أدْمَعُ

(١) نهر يتفرع من الفرات .

وقد أفسدت كلمة : « السم » بمعنى : الاسم — جمال المطلع — كما
أشرنا من قبل :

(٨) ومثله :

أُتْرَاهَا لِكَثْرَةِ الْعُشَّاقِ تَحَسَّبُ الدَّمْعَ خِلَاقَةً فِي الْمَآقِي
(٩) في عدو له انتسب إلى من يحبه الشاعر^(١) :

وَمُنْتَسِبٍ عِنْدِي إِلَى مَنْ أُحِبُّهُ وَلِلنَّبْلِ حَوْلِي مِنْ يَدَيْهِ خَفِيفُ
فَهَيَّجَ مِنْ شَوْقِي، وَمَا مِنْ مَذَلَّةٍ خَفَنْتُ ؛ وَلَكِنَّ الْكَرِيمَ أَلُوفُ
(١٠) وفي الغزل :

فَدَيْنَاكَ أَهْدَى النَّاسِ سَهْمًا إِلَى قَلْبِي وَأَقْتَلَهُمُ لِلدَّارِعِينَ بِلَا حَرْبٍ
(١١) وفي صدر قصيدة للمدح :

أَوْدُ مِنْ الْأَيَّامِ مَا لَا تَوَدُّهُ وَأَشْكُو إِلَيْهَا بَيْنَنَا^(٢) ؛ وَهِيَ جُنْدُهُ
تلك أمثلة جيدة من مطالع المتنبي ؛ نعدّها له ، ونغض النظر عما قد يلي بعضها
— مباشرة — من أبيات فيها مقابح تشوّه جمالها ، وتذهب بروعتها^(٣) .
وإليك طائفة أخرى من ردىء مطالعه ، وهي قاطعة الدلالة على جفاء
طبعه ، وفساد ذوقه . (ولسنا بحاجة إلى بيان مكان العيب فيها بعد
أن مرّ بنا — منذ قريب — شرائط الحسن وطرائقه) .

(١) أراد هذا العدو قتل المتنبي ، وهمّ به ولم ينجح . فلما سأله المتنبي عن اسمه قال :
لأنه يتصل بأبي العشائر وإلى أنطاكية ، وابن عم سيف الدولة .
(٢) فراقنا .
(٣) كالمثال السادس السابق ، حيث وردت كلمة : « السم » في بيته الثاني . وكفبره
من الأمثلة . فلو رجعت إلى الديوان لرأيت المطلع الجميل يعقبه البيت المعيب

(١) قال يتغزل : (من قصيدة يمدح بها بدر بن عمار)

بقائى شاء ليس همُّ ارتِحَالَا وَحُسْنِ الصَّبْرِ زَمُوا لَا الْجِمَالَ

وقد سمع هذا البيت شاعر معاصر المتنبى ؛ فعجب وقال للحاضرين :
(هل رأيتم أشدَّ تعقيداً ، وأظهر تكلفاً ، وأسوأ ترتيباً — من هذا الكلام ؟ فقل له : هَب الأمر على ما أَدْعَيْتَهُ ، وأنا سلنا لك مازعته — أين أنت من قوله في البيت الذى يليه :

كَأَنَّ الْعَيْسَ كَانَتْ فَوْقَ جَفْنِي مُنَاحَاتٍ ، فَلَمَّا تُرِنَ سَالَا ؟

فاستشاط غيظاً ، وقال : هذا البيت يسقط دواوين عدة شعراء ^(١))

(٢) وَفَاوُ كَمَا- كَالرَّبْعِ أَشْجَاهُ طَاسِمُهُ- بِأَنْ تُسْعِدَا . وَالِدَمْعُ أَشْفَاهُ سَاجِمُهُ

وفي هذا البيت قال صاحب العمدة : إنه يحتاج إلى الأصمعي ليفسر معناه . وساقه شاهداً على أن المتنبى قد يُعَقِّدُ أوائل الأشعار ؛ ثقة بنفسه ، وإغراباً على الناس ^(٢) .

(٣) وفي النسيب قبل المدح :

مُلِثَ الْقَطَرِ ، أَعْطِشَهَا رُبُوعَا وَإِلَّا فَاسْقِهَا الشَّمَّ النَّقِيعَا

(٤) ومثله :

كُنِّي أَرَانِي وَبِكَ لَوْ مَكَ أَلُومَا هَمَّ أَقَامَ عَلَى فُؤَادِ أَنْجُمَا

وقد ذهب الشراح في فهم هذا البيت مذاهب شتى

(١) الوساطة ، قسم الاعتذار عن أبي الطيب ص ٣١٤ .

(٢) العمدة ج ١ ص ١٦٠ .

(٥) ومثله :

أَنَا لَا نَمِي إِنْ كُنْتُ وَتَ اللَّوَأْتُمْ عَلِمْتُ بِمَا بِي بَيْنَ تِلْكَ الْمَعَالِمِ

(٦) وفي مدح سيف الدولة :

أَرَاعَ كَذَا كُلَّ الْمُلُوكِ هَامُ وَسَحَّ لَهُ رُسُلَ الْمُلُوكِ نَعَامُ

ولقد قيل في هذا المطلع : (إنه يفتح طرق الكرب ، ويفلق أبواب القلب ^(١)) .

(٧) وفي النسيب قبل المدح :

اليومَ عهدُكمُ ؛ فأين الموعدُ ؟ هيهات ؛ ليس ليومٍ عهدِكمُ غدُ

الموتُ أقربُ محلباً من بينكمُ والعيشُ أقربُ منكمُ ؛ لا تبعدوا

(٨) وفي النسيب قبل الاستعطاف :

أَيَا خَدَّ اللَّهِ وَرَدَّ الْخُدُودِ وَقَدْ قُدُودَ الْحِسَانِ الْقُدُودِ

(٩) ومثله في النسيب قبل مدح عضد الدولة :

أَوْمِ بَدِيلٍ مِنْ قَوْلَتِي وَاهَا لِمَنْ نَأَتْ وَالْبَدِيلُ ذِكْرَاهَا

فتظير منه ، وأهانه . وقد أراد صاحب كتاب : سر الفصاحة أن يذكر مثلاً لمطالع المستقبحة فاختار هذا البيت ^(٢) .

(١٠) وفي المدح :

جَلَلًا كَمَا بِي فَلَيْكَ التَّزْيِجُ أَغْذَاهُ ذَا الرَّشَاءِ الْأَغْنِ الشَّيْخُ ؟

لَمَعِبَتْ بِمِشْيَتِهِ الشَّمُولُ، وَجَرَدَتْ صَمًا مِنَ الْأَصْنَامِ لَوْلَا الرُّوحُ

(١) الكشف عن مساوى المتنبي ص ١٨ .

(٢) كتاب سر الفصاحة ص ١٧٥ .

- (١١) هَذِي بَرَزْتُ لِنَا؛ فَوَجَتْ رَسِيْسَا نَمَّ انْتَذَيْتِ ، وَمَا شَفَيْتِ نَسِيْسَا
(١٢) ذِي الْمَعَالِي؛ فَلْيَمْلُؤَنَّ مَنْ تَعَالَى هَكَذَا ، هَكَذَا ؛ وَإِلَّا فَلَا ، لَا
(١٣) وَفِي الْغَزْلِ قَبْلَ مَدْحِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ :

- نَزُورُ دِيَارًا مَا نُحِبُّ لَهَا مَعْنَى وَنَسْأَلُ فِيهَا غَيْرَ سُكَّانِهَا الْإِذْنَآ
(١٤) أَهْلًا بَدَارَ سَبَاكَ أَغْيَدُهَا أَبْعَدَ مَا بَانَ عَنْكَ خُرْدُهَا
(١٥) مَبِيتِي مِنْ دِمِشْقَ كُلِّ فِرَاشِ حَشَاهُ لِي بِحَرٍّ حَشَاىَ حَاشِ
(١٦) ضُرُوبُ النَّاسِ عَشَّاقٌ ضُرُوبًا فَأَعْذَرُكُمْ أَشْفَهُمْ^(١) حَبِيْبَا
وَمَا سَكَنِي سِوَى قَتْلِ الْأَعَادِي فَهَلْ مِنْ زَوْرَةٍ تَشْفِي الْقُلُوبَا^(٢)
(١٧) مُنَى كُنَّ لِي أَنْ التَّبَآصَ خِضَابُ فَيَخْفَى بِتَبَيُّضِ الْقُرُونِ شَبَابُ
(١٨) أَيْذِرِي الرَّبْعُ أَى دَمٍ أَرَاقَا؟ وَأَى قُلُوبٍ هَذَا الرِّكْبُ شَاقَا؟
(١٩) لَقَدْ حَازَنِي وَجْدٌ بَيْنَ حَازَةٍ بَعْدُ فَيَا لَيْتَنِي بَعْدُ ، وَيَا لَيْتَهُ وَجْدُ
(٢٠) كَفَرِنْدَى فِرِنْدُ سَيْفِي الْجُرَازِ لَدَّةُ الْعَيْنِ عُدَّةُ الْبِرَازِ

(وَفِي هَذِهِ الْقَصِيْدَةِ كَثِيرٌ مِنَ الْعُيُوبِ الْمُخْتَلِفَةِ ، وَفِيهَا يَمْدَحُ الْمُتَنَبِّي نَفْسَهُ قَبْلَ مَدْحِهِ) :

- (١) أَفْضَلُهُمْ . (٢) مَعْنَى الْبَيْتِ الثَّانِي: لِأَرَاخَةِ لِي إِلَّا فِي قَتْلِ الْأَعَادِي؟ فَأَشَدُّ اشْتِيَاقِي لِرُؤْيَتِهِمْ؟ كَيْ أَتَمَّتْ بِقَتْلِهِمْ كَمَا يَتَمَتَّعُ الْحَبِيبُ بِزِيَارَةِ حَبِيبِهِ . وَبَعْدَ هَذَا الْبَيْتِ أَيْبَاتٌ أُخْرَى يَمْدَحُ الْمُتَنَبِّي فِيهَا نَفْسَهُ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَى مَدْحِ مَدْمُوحِهِ . وَهَذَا مِنَ عُيُوبِ الْمُتَنَبِّي الَّتِي أَخَذَهَا عَلَيْهَا الْعُكْبَرِيُّ شَارِحَ دِيَوَانِهِ؟ فَقَدْ قَالَ بَعْدَ الْبَيْتِ الـ ١٩ مِنْ هَذِهِ الْقَصِيْدَةِ :

وَلَمَّا قَلْتُ الْإِبِلَ امْتَطَيْتُنَا إِلَى ابْنِ أَبِي سُلَيْمَانَ الْخَطُوبَا
لِأَنَّهُ يَمْدَحُ نَفْسَهُ أَوَّلًا ثُمَّ رَجَعَ إِلَى مَدْحِ الْمَدْمُوحِ آخِرًا .

(٢١) أَرَكَاثِبَ الْأَحْبَابِ . إِنْ الْأَذْمَعَا تَطَسَّ^(١) الْخُدُودَ كَأَتَطَسَّنَ الْيَرَمَعَا^(٢)

(٢٢) واستمع إلى غروره في استهلاله وهو يهني كافورا بدار جديدة :

إِنَّمَا التَّهْنِشَاتُ إِلَّا كُفَاءٌ وَلِمَنْ يَدَّ^(٣) مِنْ الْبُعَا دَاءٌ

وَأَنَا مِنْكَ ؛ لَا يَهَيَّ غُضُونُ بِالْمَسَرَّاتِ سَائِرَ الْأَعْضَاءِ

(٢٣) أَلَا كُلُّ مَاشِيَةِ الْخَيْزَلَى^(٤) فِدَا كُلِّ مَاشِيَةِ الْهَيْدَبَى^(٥)

وَكُلُّ نَجَاجَةٍ^(٦) بُجَاوِيَّةٍ^(٧) خَنُوفٍ^(٨) وَمَا يَحْسُنُ الْمَشَى^(٩)

(٢٤) دَمَعٌ جَرَى ؛ فَقَضَى فِي الرَّبْعِ مَا وَجَبَا لِأَهْلِهِ ، وَشَفَى ، أَنَّى^(١٠) وَلَا كَرَبَا^(١١)

(٢٥) وقال يمدح كافورا :

كَفَى بِكَ دَاءٌ أَنْ تَرَى الْمَوْتَ شَافِيَا وَحَسْبُ الْمَنَابَا أَنْ يَكُنَّ أَمَانِيَا

(٢٦) وذمه قوم فخطب واحدا منهم :

أَنَا عَيْنُ الْمَسُودِ^(١٢) الْجُحْجَاحِ^(١٣) هَيَّجَتْنِي كِلَابُكُمْ بِالْثُبَاحِ

وَأَكْتَفَى بِهَذَا الْقَدْرِ ؛ وَفِي الدِّيَّوَانِ غَنِيَّةُ الْمَسْتَزِيدِ .

* * *

أما نصيب شوقي من إرضاء البلاغة الأدبية والبلاغيين فأوفى من نصيب

قرينه ، وبخاصة شعره بعد المنفى . استمع للأبيات التالية من

قصيدة الغلاء :

(١) تَدَقُّ . (٢) حَجَارَةٌ بِيضٌ صَفَارٌ رَخْوَةٌ . (٣) يَتَقَرَّبُ .

(٤) مَشِيَةٌ نَسَائِيَّةٌ فِيهَا اسْتِرْخَاءٌ . (٥) مَشِيَةٌ سَرِيعَةٌ لِلَّابِلِ . (٦) نَاقَةٌ سَرِيعَةٌ .

(٧) مَسْجُودَةٌ لِقَبِيلَةٍ : بُجَاوَةٌ ، الْبَرْبَرِيَّةُ ، الشَّهْمِيرَةُ بِهَذَا النُّوعِ مِنَ التُّوْقِ .

(٨) تَمِيلُ حَيْثُ يَرِيدُ رَاكِبُهَا . (٩) جَمْعٌ مَشْيَةٍ . (١٠) كَيْفٌ .

(١١) اقْتَرَبَ . (١٢) السَّيِّدُ . (١٣) السَّيِّدُ الْعَظِيمُ فِي قَوْمِهِ .

(١٤)

(١) أَنَادَى الرَّسَمَ ؛ لَوْمَلِكَ الْجَوَابَا ! وَأَجْزِيهِ يَدْمَعِي ؛ لَوْ أَنَابَا !
وَقَلَّ لِحَقِّهِ الْعَبْرَاتُ تَجْرِي وَإِنْ كَانَتْ سَوَادَ الْقَلْبِ ذَابَا
سَبَقَنْ مُعْبَلَاتِ التُّرْبِ عَنِّي وَأَذِنَ النَّحِيَّةَ ، وَالْخَطَابَا

.....

وَبَيْنَ جَوَانِحِي وَافٍ أُلُوفُ إِذَا لَمَعَ الدِّيَارَ مَضَى وَثَابَا
رَأَى مِثْلَ الزَّمَانِ بِهَا ؛ فَكَانَتْ عَلَى الْأَيَّامِ صُحْبَتُهُ عَتَابَا

تأمل في البيت الثاني جمال الإطناب (الاحتراس والتذيل) . وفي الثالث
والرابع حسن الكناية والاستعارة

(٢) وحسن الكناية والاستعارة والتشبيه في قوله :

وَلِي بَيْنَ الضُّلُوعِ دَمٌ ، وَلَحْمٌ هُمَا الْوَاهِي ^(١) الَّذِي تَكِلُ الشَّبَابَا
تَسْرَبَ فِي الدُّمُوعِ ، قُلْتُ : وَلِي وَصَفَّقَ فِي الضُّلُوعِ ؛ قُلْتُ : ثَابَا
وَلَوْ خُلِقَتْ قُلُوبٌ مِنْ حَدِيدٍ لَمَا حَمَلَتْ كَمَا حَمَلَ الْعَذَابَا
وَأَحْبَابٍ سَقِمَتْ بِهِمْ سُلَافَا وَكَانَ الْوَصْلُ مِنْ قِصَرِ حَبَابَا

.....

وأتمز فرصة الكلام على « التشبيه » لأنَّوه ببراعة شوقي فيه ،
ومقدرته عليه في سهولة ويُسر بغير تكلف ولا غناء . هذا إلى مزية أخرى
يجاريه فيها المتنبي حيناً ، ويقصر أحياناً كثيرة ؛ هي : مزية التشبيهات
المتوالية ، المُخَضَّكة القوية ، التي تعرض على الأنظار صُورًا ؛ كأنها الصور
الشمسية المتقنة ؛ تنطق بأصلها ، وتجلوه في صِدْق وأمانة . أو كأنها الصُور

الزيتية الباهرة ؛ أشرف عليها فنان ماهر ، وتناولها بريشته وألوانه ؛ فأخرجها
فتنة للناظرين . وأى صورة شمسية أو زيتية تَبْهَرُ عشاق الفن الجميل كما ينهر
عشاق الأدب بصورة النخلة التي رسمها شوقي حين يقول :

وباسقةٍ من نبات الرَّمال نمتُ ، وربَّت في ظلالِ الكُثْبِ
كساريةِ الفُلكِ ، أو كالسِّلْكَةِ ، أو كالمنارِ وراءِ العُبابِ
تُحَالُ إِذَا انْقَدَّتْ في الضُّحَا وجَرَ الأصيلُ عليها اللَّهَبُ
وطافَ عليها شعاعُ النهارِ من الصَّخْرِ ، أو من حواشي السُّحُبِ :
وصيفةَ فرعونَ في ساحَةِ مِنَ القصرِ ، واقفةً ترتقبُ
قد اغتصبتْ بِفُصُوصِ العقيقِ مُفَصَّلةً بِشُدُورِ الذهبِ
وناطتْ قلائدَ مَرَجَانِها على الصَّدرِ ، واتَّشَحَتْ بالقَصَبِ
وَشَدَّتْ عَلَى ساقِها مِزْرًا تَعْقَدُ من راسِها الذَّنَبِ
أهذا هو النخلُ ؟ مَلَكُ الرِّياضِ أميرُ الحَقولِ ، عروسُ العِزِّ
طعامُ الفقيرِ ، وحُلوى الغني ، وزادُ المسافرِ ، والمُغْتَرِبِ

.....

وحين يقول بلسان الأتراك في وصف الحرب بينهم وبين اليونان :

كَأَنَّ أَسودَ رابضاتٌ ، كَأَنَّهُمْ قَطِيعُ بَاقِصِ السَّهْلِ حيرانُ ، مُذْئِبٌ^(١)
كَأَنَّ الدَّجَى بَحْرُهُ إِلَى النَجْمِ صَاعِدٌ كَأَنَّ السَّرَايَا مَوْجُهُ الْمُتَضَرِّبُ

(١) فَرَزَعٌ ، مرتجف من الذئب .

كَانَ الْمَنَايَا فِي ضَمِيرِ ظَلَامِهِ هُمُومٌ بِهَا فَاضَ الضَّمِيرُ الْحَجَبُ
كَأَنَّ صَهِيلَ الْخَلِيلِ نَاعٍ مَبَشِّرٍ تَرَاهُنَّ فِيهَا ضَحْكَكَ ، وَهِيَ نُحْبُ
كَأَنَّ وَجْهَ الْخَلِيلِ غُرًّا وَسِيمَةً دَرَارِي لَيْلٍ طَلَعُ فِيهِ ، ثِقَبُ
كَأَنَّ أَنْوْفَ الْخَلِيلِ حَرًّا مِنَ الْوَعَى بِجَاسِرٍ فِي الظُّلُمَاءِ تَهْدَا وَتَلْهَبُ
كَأَنَّ الْوَعَى نَارٌ ، كَأَنَّ جَنُودَنَا مَجُوسٌ ؛ إِذَا مَا يَمْمُوا النَّارَ قَرَبُوا
كَأَنَّ الْوَعَى نَارٌ ، كَأَنَّ الرَّدَى قَرَى كَأَنَّ وَرَاءَ النَّارِ حَاتِمٌ بِأَدَبُ
كَأَنَّ الْوَعَى نَارٌ ، كَأَنَّ بَنَى الْوَعَى فَرَّاشٌ لَهُ فِي مَلَمَسِ النَّارِ مَأْرَبُ

.....

وحين يقول في وصف المنار :

سَمَا يُنَاغِي الشُّهُبَا هَلْ مَسَّهَا فَالْتَهَبَا ؟
كَالذَّبْدَبَانِ أَلْزَمُوا هُ فِي الْبَحَارِ مَرْقَبَا
شَمِعَ مِنْهُ مَرْكَبَا وَقَامَ يَبْقَى مَرْكَبَا
بَشَّرَ بِالْدارِ وَبِالْ أَهْلِ السَّرَاةِ الْغُيْبَا
وَحَطَّ بِالنُّورِ عَلَى لَوْحِ الظَّلَامِ : مَرْحَبَا
كَالْبَارِقِ الْمُلْحِ لَمْ يُؤَلِّ إِلَّا عَقَبَنَا
يَرْمِي إِلَى الظَّلَامِ طَرَفَا حَاتِرًا ، مُذْبَذَبَا
كَكَنْعِيرٍ أَدَارَ عَيْنَنَا فِي الدُّجَى ، وَقَلْبَا كَنْعِيرٍ أَدَارَ عَيْنَنَا فِي الدُّجَى ، وَقَلْبَا
وَكَالسَّرَاجِ فِي يَدِ الرَّ بِحِ أَضَاءَ ، وَخَبَا
وَلَحْمَةٍ مِنْ خَاطِرِ مَا جَاءَ حَتَّى ذَهَبَا

... ..

على أن هذه القصائد وأشباهاها قد كشفت عن موهبة أخرى في شوقي ؛
هي براعته في الجمع بين الوصف وسرد مزايي الموصوف سردا شائقا يأنف مع الفن
ويساوقه ، ولا يخافيه . وهو بهذا يضم مزية جليلة إلى أخرى ؛ وقل من
يُوفِّق لتأليفهما ، والجمع بينهما على هذه الصورة المتقنة الطريفة ...

وقف عند المحسنات المُنْبَثَّة في الأبيات الآتية : —

(٣) قُمْ فِي قَمِّ الدُّنْيَا ، وَحَيِّ الْأَزْهَرَا وَانْثُرْ عَلَى سَمْعِ الزَّمَانِ الْجَوْهَرَا

(٤) فِي رِثَاءِ الْوَطْنِيِّ الْعَظِيمِ مُحَمَّدٍ فَرِيدٍ بَكَ :

فَرِيدُ ، ضَحَائِنَا كَثِيرٌ ، وَإِنَّمَا كَبَّالُ الضَّحَايَا أَنْتَ فِيهِ فَرِيدُ

(٥) فِي غَوَاصَةِ غُرْتٍ بِقَذِيفَةِ أَصَابَتِهَا :

لَمَسَتْهَا لِمَقَادِيرِ يَدٍ تَلَمَسُ الْمَاءَ ؛ فَيَرْمِي بِالشَّرَرِ

ضَرَبَتْهَا وَهِيَ رَسْرٌ فِي الدَّجَى لَيْسَ دُونَ اللَّهِ تَحْتَ اللَّيْلِ رَسْرٌ

وَجِفَّتْ قَلْبًا ، وَخَارَتْ جُؤْجُؤًا وَزَتْ جَنْبًا ، وَنَاءَتْ مِنْ أُخْرٍ

طُعِنَتْ ، فَأَنْبَجَسَتْ ، فَاسْتَسْرَحَتْ فَأَتَاهَا حَيِّهَا ، فَهِيَ خَبِرٌ

(٦) فِي رِثَاءِ إِسْمَاعِيلِ صَبْرِي بَاشَا :

حَمَلُوا عَلَى الْأَكْتافِ نُورَ جَلَالَةٍ يَذَرُ الْعَمِيقَ وَاسِدَ الْأَكْتافِ

(٧) بِصَفِّ خَيْلِ التُّرْكِ :

وَالصَّبْرُ فِيهَا ، وَفِي فُرْسَانِهَا خُلُقٌ تَوَارَنُوهُ أَبًا فِي الرَّوْعِ ، بَعْدَ أَبِ

كَمَا وَلَدْتُمْ عَلَى أَعْرَافِهَا وَلَدَتْ فِي سَاحَةِ الْحَرْبِ ؛ لَا فِي بَاحَةِ الرَّحَبِ

(٨) وفي القمر ولياليه :

وَيُصَانُ مِنْ سِرِّ الصَّبَابَةِ عِنْدَهُ مَابَاتٍ عِنْدَ الْأَكْثَرِينَ مُذَالًا^(١)

(٩) ويخاطب رئيس الوزراء : « رياض باشا » حين تملق المعتمد البريطاني بخطبة يمتدحه فيها ويذم المصريين^(٢) .

خَطَبْتَ؛ فَكُنْتَ خَطْبًا، لَا خَطِيئًا أَضِيفَ إِلَى مَصَائِنِ الْعِظَامِ
لَهَجْتَ بِالْإِحْتِلَالِ ، وَمَا أَتَاهُ وَجُرْحُكَ مِنْهُ - لَوْ أَحْسَسْتَ - دَامَ

(١٠) وفي مدح أحد الزعماء : (عدلى يكن باشا من رؤساء الوزارات المصرية) .

حُلُو السَّجِيَّةِ ، فِي فَنَاءِ مُرَّةٍ نَمِلُ الشَّمَائِلِ ، فِي وَقَارٍ صَاحِرٍ

(١١) وقف عند الأبيات الآتية في وصف شعر شكسبير :

شَعْرٌ مِنَ النَّسَقِ الْأَعْلَى ، يُؤَيِّدُهُ مِنْ جَانِبِ اللَّهِ إلهَامٌ ، وَإِيحَاةٌ
مِنْ كُلِّ بَيْتٍ كَأَيِّ اللَّهِ ، تَسْكُنُهُ حَقِيقَةٌ مِنْ خِيَالِ الشَّعْرِ ، غَرَاهُ
وَكُلٌّ مَعْنَى كَيْدِي فِي حِمَايِنِهِ جَاءَتْ بِهِ مِنْ بَنَاتِ الشَّعْرِ عَذَرَاهُ
أَوْ قِصَّةِ كِتَابِ الدَّهْرِ جَامِعَةٍ كَلَامَاهَا فِيهِ إِخْحَاكٌ ، وَإِيكَاةٌ
مَهْمَا تُمَثِّلُ تَرَى الدُّنْيَا مُمَثَّلَةً أَوْ تُمَثِّلُ فَهِيَ مِنَ الْإِنْجِيلِ أَجْزَاهُ

(١٢) وعند وصف الربيع (من قصيدة سَلَفَ بعض أبياتها) :

مَلِكُ النَّبَاتِ ؛ فَكُلُّ أَرْضٍ دَارُهُ تَلْقَاهُ بِالْأَعْرَاسِ ، وَالْأَفْرَاحِ
مَنْشُورَةٌ أَعْلَامُهُ ؛ مِنْ أَحْمَرٍ قَانٍ ، وَأَبْيَضَ فِي الرُّبَا لَمَّاحِ

(١) شائعا غير مكتوم . (٢) قبلت هذه الخطبة عند افتتاح مدرسة محمد علي

الصناعية بالإسكندرية في يونيه سنة ١٩٠٤ ، وكان « كرومر » حاضرا .

لَبِسَتْ لِمَقْدَمِهِ الْخِثَالُ وَشَبَّهَا وَمَرَحْنُ فِي كَفَفٍ لَهُ ، وَجَنَاحِ
يَفْشَى الْمَنَازِلَ مِنْ لَوَاحِظٍ (رَجَسِ) أَنَا ، وَأَنَا مِنْ تُغُورٍ (أَفَاحِ)
وَرَوْسٍ (مَنْشُورٍ) حَفَظْنَ لِمِزَّة تَبْجَانَهُنَّ ، عَوَاطِرَ الْأَرْوَاحِ
(الْوَرْدُ) فِي سُرُرِ الْفُصُونِ مُفْتَحَ مُتَقَابِلٌ ، يُثْنِي عَلَى الْفَتَّاحِ
ضَاحِي الْمَوَاكِبِ فِي الرِّيَاضِ ، مُمَيِّزٌ دُونَ الزُّهُورِ بِشُوكَةٍ ، وَسِلَاحِ
مَرَّةِ النَّسِيمِ بِصَفْحَتَيْهِ مُقَبَّلًا مَرَّةَ الشَّفَاهِ عَلَى خُدُودِ مِلَاحِ

.....

فَمَا أَقْدَرُهُ عَلَى إِرْضَاءِ الْبَلَاغَةِ وَالْبَلَاغِيْنَ ، وَأَصْحَابِ الذَّوْقِ الْأَدَبِيِّ
الْمُصَنِّفِ !! وَأَيْنَ مِنْهُ الْمُنْبَيُّ فِي هَذَا ؟

قد يكون المتنبي ما يشبه العذر المقبول ؛ ثقافته ، ووسائل عيشه ،
وحضارة عصره — لا تفسح له في هذا الميدان بمثل ما فسحت لشوقي
الذي أدرك من واسع الثقافة ، وناصر العيش ، وزاهي الحضارة — ما لا
يقاس إليه نصيب المتنبي بل إن النصيب الأوفى الذي ناله شوقي قد طغى ؛
فأفسد عليه الأمر من بعض نواحيه ؛ إذ غلبت الرقة على شعره في المواطن
كلها ؛ حتى التي تُستَفْهِجُ فيها . واختفت الجزالة أو كادت ؛ حتى في المواقف
التي تُسْتَحْسَنُ فيها . وتلك نقيصة بلاغية كبيرة كما أوضحنا من قبل . فإذا
كان المتنبي قد لَازَمَ الجزالة في أغراضه عامة ؛ حتى النسيب ، والعتاب ،
والجَلْطُف ... فشوقي لَازَمَ الرقة في المواطن كلها ، حتى الحرب ، والتهديد ...
وقد مرت الأمثلة الكاشفة .

* * *

وقد أخذنا على المتنبي جمود طريقته ، وبَيِّنًا المراد من الجمود وتأخذ على شوقي التزامه الرقة ، ونحمد له عدم إثارة مجورا معينة . ففي أجزاء ديوانه الأربعة من القصائد والمقطوعات والتشطيرات ما يناهز الستين بعد الثلاثمائة ؛ ليس ثلثها من بحرٍ شعريٍّ واحد كما فعل المتنبي . بل ليس ثلثها ، ولا ربعها ، ولا خمسها - من بحرٍ شعريٍّ بعينه . وإنما قَسَمَهَا بين البحور المختلفة قسمة تكاد تكون عادلة . بل قَسَمَهَا بين البحور والقوافي قسمة ليست عددية ؛ وإنما هي فنية موسيقية ؛ رَبطَ فيها بين الموضوع والرنَّات ؛ فجَمَعَ بين قوة الموضوع أولينه ، وقوة الوزن أوهودنه . وعقد الصلة بين هذه وتلك ، فأعانت إحداها الأخرى ، واثقلت معها ، واشتركا في تصوير المعنى ، وترجمة الشعور . واقد برع شوقي في ذلك (ولا سيما أغانيه) حتى ذهب حاسدوه إلى القول بأن شعره ليس إلا الموسيقى المُحَكَّمَة الساحرة . واست في حاجة إلى أن أسوق الأمثلة ؛ فجميع ما مرَّ وما لم يَمُرَّ مما نراه في الديوان عَرَضًا أو قَصْدًا — خيرٌ مؤيد لما أقول .

* * *

وشوقي — مع هذا كله — قد وقع في عيوب بلاغية . لكنها في عددها ونوعها ليست شيئًا إذا قيست إلى شعره الخالي منها ، وإلى شعر المتنبي الذي ماج بالكثير من أشباهها . وإليك الأمثلة :

(١) قوله في خيل الترك بعد انتصارها :

خيلُ الرسولِ من الفولاذِ معدنها وسائرُ الخيلِ من لحمٍ ، ومن عَصَبِ

نَشَوَى مِنَ الظَّفَرِ الْعَالِي ، مُرَّحَمَةً
مِنْ سَكْرَةِ النَّصْرِ ؛ لَا مِنْ سَكْرَةِ النَّصَبِ
فَمَا أَقْبَحَ الْحَشْوِ فِي آخِرِ كُلِّ بَيْتٍ :

- (٢) وَيَخَاطِبُ الْقَمَرَ مِنْ سَفِينَةٍ تَقْتَحِمُ الْبَحْرَ ، وَنُورُ الْقَمَرِ يَغْمُرُهُ :
- وَكَأَنَّهَا وَالْمَوْجُ مُنْتَظِمٌ ، وَقَدْ أُوفِيَتْ ، ثُمَّ دَنَوْتَ كَالْمُخْتَارِ^(١)
غَيْدَاهُ لَا هَيْمَةَ ، تَخُطُّ لِأَغْبَدٍ شِعْرًا لِيَقْرَأَهُ ، وَأَنْتَ الْفَارِي
فَلَيْسَ فِي التَّشْبِيهِ حُسْنٌ ، فَوْقَ مَا فِي الْكَلَامِ مِنْ تَضْمِينٍ .
- (٣) وَالطَّيْرُ أَمْعَدَهَا الْكَرَى وَالنَّاسُ نَامَتْ ، وَالْوُجُودُ
- (٤) يَخَاطِبُ الْبَدْرَ :

- وَالْبَدْرُ مِنْكَ عَلَى الْعَوَالِمِ يَجْنَلِي بِشَرِّ الْوُجُوهِ ، وَزَحْمَةُ الْأَبْصَارِ
يَا دُرَّةَ الْفَوَاصِ أَخْرَجَ ظَافِرًا يَمْنَاهُ يَجْلُوهَا عَلَى النِّظَارِ
(٥) لَقَدْ اخْتَلَفْنَا وَالْمَعَا شِرٌّ قَدْ يَخَالِفُهُ الْعَشِيرُ
فِي الرَّأْيِ ، ثُمَّ أَهَابَ بِي وَبِكَ الْمُنَادِمُ ، وَالسَّمِيرُ
- (٦) وَفِي ذِكْرِي كَارِزْفُونِ (كَاشَفَ قَبْرِ تَوْتِ عَفْنَجِ آمُونِ) :
- « وَادِي الْمُلُوكِ » بَكَتْ عَلَيْكَ عَيُونُهُ بِمُرْقَرٍ ؛ كَالْمُرْنِ فِي تَسْكَابِهِ
أَتَى بِيَاضَ الْغَسِيمِ عَنْ أَعْطَافِهِ حُزْنًا ، وَأَقْبَلَ فِي سَوَادِ سَحَابِهِ
(٧) إِنْ الْجَمَالَ كَسَاكَ مِنْ وَرَقِ الْحَامِسِ مَا كَسَاكَ
- (٨) سَلُّوا غَزَالًا غَزَا قَلْبِي بِحَاجِبِهِ : أَمَا كَفَى السِّيفِ حَتَّى جَرَّدَ الْقَلَمَ ؟

(١) قُلْنَا لَنْ كَلِمَةً (الْمُخْتَارِ) لِأَسْنَدِ لَصَحَّتْهَا مِنَ السُّكُوتِ الَّتِي أَبْأَيْدِنَا .

(٩) كَأَنَّ الْمَنَافِيَ فِي ضَمِيرِ ظَلَامِهِ هُمُومٌ بِهَا فَاضَ الضَّمِيرُ الْحَجَبُ

(١٠) فِي الْفَزْلِ :

وَأَرْهَفْتُ أُعَيْنًا ضَعْفَى حَمَائِلُهَا نَشَوَى مَنَاصِلُهَا ، كَحَلَّى مَوَاضِيهَا

* * *

وننتقل بعد هذا إلى سرقاته ومطالعه :

فأما سرقاته فأقول فيها ما قلته في سركات المتنبي ، من أني لا أرتاح إلى اتهام شاعر كبير بالسرقة إلا عند قيام الحجة القاطعة أو ما يشبهها ؛ لأسباب أوضحها هناك ^(١) ، وقد قامت الحجة على المتنبي دون شوقي . إلا أبياتاً يصح اتهامه فيها ؛ كقوله :

(١) يَمْشِينَ أَسْرَابًا عَلَى هَيْئَةٍ مَشَى الْقَطَا الْأَمْنُ فِي سِرِّهِ

مأخوذ من قول المنفل البشكري في فتاة :

وَدَقَمَتْهَا ؛ فَتَدَافَعَتْ مَشَى الْقَطَا إِلَى الْغَدِيرِ

(٢) شَابَ وَفِي أَضْلَعِهِ صَاحِبٌ خَلَوْا مِنَ الشَّيْبِ ، وَمِنْ خَطْبِهِ

مأخوذ من قول المتنبي السابق :

(٣) وَاهٍ بِجَنبِي ، خَافِقٌ . كَلَّمَا قُلْتُ : تَنَاهَى ؛ لَجَّ فِي وَثْبِهِ

من قول السابق :

هَبَيْتُ أَلُومَ الْقَلْبِ فِي طَاعَةِ الْهَوَى فَلَجَّ ؛ كَأَنِّي كُنْتُ بِاللُّومِ مُغْرِبًا

(٤) إِذَا سَارَ فِيهِ سَارَتِ النَّاسُ خَلْفَهُ وَشَدَّتْ مَغَاوِيرُ الْمُلُوكِ رَكَابَهُ

مأخوذ من قول الفرزدق :

تَرَى النَّاسَ مَاسِرُنَا يَسِيرُونَ خَلْفَنَا وَإِنْ نَحْنُ أَوْ مَأْنَا إِلَى النَّاسِ وَقَفُوا
(٥) حَيَاتِكَ كَانَتْ عِظَاتٍ لَهُمْ وَمَوْتِكَ بِالْأَمْسِ إِحْدَى الْمَبَرِّ
مَأْخُودٌ مِنْ قَوْلِ أَبِي الْعَتَاهِيَةِ :
وَكَانَتْ فِي حَيَاتِكَ لِي عِظَاتٌ وَأَنْتَ الْيَوْمَ أَوْعِظُ مِنْكَ حَيًّا
(٦) يَصِفُ فَرَسَانِ التُّرْكِ :

كَأُودِلْتُمْ عَلَى أَعْرَافِهَا وَلِدَبَتْ فِي سَاحَةِ الْحَرْبِ لَا فِي بَاحَةِ الرَّحَبِ
مِنْ قَوْلِ الْمُتَنَبِّىِّ فِي خَيْلِ الْأَبْطَالِ :
فَكَأَنَّهَا نَتَجَبَتْ قِيَامًا تَحْتَهُمْ وَكَأَنَّهُمْ وَلِدُوا عَلَى صَهَوَانِهَا
(٧) وَقَوْلُهُ فِي الرَّبِيعِ :

صَفَوْهُ أُتِيحَ ؛ فَخِذْ لِنَفْسِكَ قِسْطَهَا فَالْصَفْوُ لَيْسَ عَلَى الْمَدَى بِمُتَّحِرٍ
مِنْ قَوْلِ عُمَرَ الْخَلِيَامِ :
اغْنَمْ مِنَ الْحَاضِرِ لَذَاتِهِ فَلَيْسَ فِي طَعْرِ الْإِلْيَالِ الْأَمَانُ
وَفِي هَذَا الْقَدْرِ مَا يَكْفِي^(١)

* * *

(١) اكتفيت بهذا القدر من السرفات إذ لم أجد السبيل إلى الكثرة ميسراً ؛
لما تقتضي من تذكر شعره كله ، والإلزام بدواوين الشعراء جميعاً ،
أنفحص شعرهم واحداً واحداً ، وأتلبت أمام كل قصيدة - بل كل بيت -
لأبني أشباهه في شعر شوقي ، ونظائره إن وجدت . وليس هذا في استطاعة
أحد اليوم ، ولو تجرد له ، وعكف عليه . إلا أن ينبري للشعراء جماعة
من الحذاق ؛ تذوق الشعر ، وتصنفه أبواباً وأغراضاً . يفعلون ذلك في القصيدة
الواحدة ، والقصائد المختلفة ؛ كما فعل أبو تمام ، والبحتري ، في حماسهما .
وكما فعل غيرهما قريباً من ذلك . ثم اختفى هؤلاء المصنفون النافعون من الميدان
حتى اليوم ؛ فلم أجد بداً من الاختصار في هذه الناحية أسفاً ، مضطراً .

أما مطالع شوقي الجيدة التي تتمثلُ فيها الطرائق المختلفة التي أشرنا إليها -
فحسبنا منها الأمثلة الآتية (وقد مرَّ بعضها لمناسبات أخرى) :
(١) قال يخاطب الفُلك^(١) (السفينة) حين أوصله إلى البسفور ، ومفاتيح الطبيعة
الساحرة فيه :

على أىِّ الجَنانِ بنا تَمَرُّ ؟ وفي أىِّ الحداثيِّ تستَقِرُّ ؟
رُويَدًا أيها الفُلكُ الأبرُّ بلغت بنا الربوعَ ؛ فأنت حرُّ

(٢) وقال حين نجا الزعيم الأكبر : سعد زغلول باشا من رصاصه استقرت
في صدره ، ولكنها لم تحقق ما أرادته المعتدى الأنيم :
نَجَا ، وتماثلَ رُبَّانُها^(٢) ودقَّ البشائرَ ركبَانُها

(٣) وقال في رثائه :

شَيِّعُوا الشمسَ ، ومالُوا بضحاها وانحَى الشرقُ عليها ؛ فَبَكَها
فتأمل : الشمس ، وضحاها ، وجميل التورية في كلمة : الشرق ... أَلست
تستطيع أن تقنع بهذا البيت وحده في الرثاء إذا أدركت قيم تلك
الكلمات ، والحكمة في اختيارها ؟

(٤) وقوله في رثاء أبر أصدقائه إسماعيل صبرى باشا :

أَجَلٌ - وإن طالَ الزمانُ - مُوافي أخلى يدِيكَ من الخليلِ الوافي

(٥) وقوله في تكريم أول رحالة مصريَّ جاب الصحراء الغربية (أحمد محمد
حسنين باشا) .

(١) الفلك (تذكر ونؤث) السفينة .

(٢) أى : ربان السفينة المصرية ؛ فصر سفينة في يَمِّ الحوادث ، وسعد ربانها .

أَقْدَمُ ، فليس على الإقدام مُتَمَنِّعٌ واضنَّعَ به المجد ؛ فهو البارِع الصَّنْعُ ^(١) للناسِ في كلِّ يومٍ من عجائبهِ ما لم يكنْ لامرئٍ في خاطِرٍ يَقَعُ (٦) وقال حين انتصر الترك أعظم انتصار تاريخي سنة ١٩٢٣ م على اليونان ومن شايَعَهَا من الدول الأوربية ، التي ائتمرت على إزالة الدولة العثمانية ، والقضاء على استقلالها ؛ نجيب « مصطفى كمال » وأنصاره تديرهم ، وأعاد لبلاده سيطرتها ، ونفوذها ، وأشاع في العالم كله هيبتها ، واهتز المسلمون في بقاع الأرض طربا وفرحا بهذا النصر ، وفاضت جوانحهم سرورا به ، وأقاموا الأعياد في كل مكان . وقد تولى بعده مصطفى كمال رئاسة البلاد التركية ، وجعل الحكم فيها جمهوريا ؛ فزاد طرب المسلمين ، وفرحهم . وبنماهم في أفراحهم إذ عاد فألقى منصب الخلافة الإسلامية ؛ لدواعٍ رآها ؛ فحزن لذلك فريق كبير من المسلمين ، ومنهم شوقي . فقال يخاطب الخلافة في استهلال عجيب ، ورمز بارع ، ومعنى ساين حزين :

عَادَتْ أَغَانِي العُرْسِ رَجْعُ نَوَاحٍ وَنُعْمِيَّتِ بَيْنَ مَعَالِمِ الأَفْرَاحِ
كَفُنْتُ فِي لَيْلِ الزَّفَافِ بِشَوْبِهِ وَدُفِنْتُ عِنْدَ تَبَلُّجِ الإِصْبَاحِ

(٧) وقال في رثاء عمر المختار (أ كبر زعيم طرابلسي دَوَّخ الإيطاليين المحتلين ببلاده . فحين تمكنوا منه أصعدوه في طيارة ، ثم رموه من أعلى طبقات الجو ؛ فَهَوَى مُحْطَا . ولم يكتفوا بذلك بل صلبوه ، وتركوه معلقاً أيا ما) .

(١) الحاذق الدقيق .

رَكَزُوا رُفَاتَكَ فِي الرَّمَالِ لَوَاءَ يَسْتَنْهِيضُ الْوَادِي صَبَاحَ مَسَاءَ

يَا وَيْحَهُمْ !! نَصَبُوا مَنَارًا مِنْ دَمٍ يُوحِي إِلَى جَيْلِ الْغَدِ الْبَغْضَاءَ

ألا يصلح هذا المطلع أن يكون رثاء موجزاً ، فيه للقانع غناء ؟

(٨) وقال في الاحتفال السابع عشر لوفاة الزعيم الوطني : « مصطفى كامل باشا »

وكانت البلاد إذ ذاك سنة ١٩٢٤ تضيح من تنازع قاداتها ، واختلاف

زعمائها وأحزابها ، واشتغالهم بأنفسهم عن عدوهم ، الجائثم باحتلاله على

صدر البلاد . (ومطلع هذه القصيدة يمثل المطالع الشوقية التي يحيى

بها مناسبة لأمر هام يشغل الأذهان وقت إنشائها) :

إِلَامَ الْخَلْفُ بَيْنَكُمْ إِلَامًا وَهَذِي الضَّجَّةُ الْكُبْرَى عَلَامًا ؟

وَفِيمَ يَكِيدُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ ؟ وَتَبْدُونَ الْعَدَاوَةَ وَالْخِصَامَا ؟

(٩) أَنَادِي الرِّسْمَ ؛ لَوْ مَلَكَ الْجَوَابَا !! وَأَجْزِيهِ بِدُمْعَى ؛ لَوْ أَنَابَا !!

وَقَلَّ لِحَقَّةِ الْعَمَلَاتِ تَجْرَى وَإِنْ كَانَتْ سَوَادِ الْقَلْبِ ذَابَا

(١٠) وَفِي انْتِصَارِ التُّرْكِ فِي حَرْبِهَا الَّتِي أَثْمَرْنَا إِلَيْهَا مَخَاطِبًا مُصْطَفَى كَمَالِ :

اللَّهُ أَكْبَرُ !! كَمْ فِي الْفَتْحِ مِنْ عَجَبٍ !! يَا خَالِدَ التُّرْكِ جَدَّدْ خَالِدَ الْعَرَبِ .

(١١) وَفِي تَحِيَّةِ الْأَزْهَرِ بَعْدَ إِصْلَاحِهِ الْحَدِيثِ :

قَمِ فِي فَمِ الدُّنْيَا ، وَحَى الْأَزْهَرَا وَانْتَرِ عَلَى سَمْعِ الزَّمَانِ الْجَوْهَرَا

.....

وَأُرِيدُ أَنْ أَقِفَ عِنْدَ الْبَيْتَيْنِ الْأَخِيرَيْنِ لِنَقْدِ أَثَرِ حَوْلِهَا ؛ فَتَشَى عَلَى

الْجَمَالِ وَالْحُسْنِ فِيهِمَا . وَسَأُطِيلُ الْوُقُوفَ نَوْعًا مَا - كَمَا أَطَالَ النَّاقِدُونَ -

لَأُظْهِرَ الْحَقَّ ، وَأُسْتَعِينُ بِهِ فِي كَشْفِ الشُّبْهَةِ عَنْهُمَا ، وَعَمَّا يَشْبَهُهُمَا

مِمَّا تَفْرُقُ فِي مَطَالَعِ وَمَوَاضِعِ أُخْرَى كَثِيرَةٍ .

(١) يرى بعض الناقدين أن البيت الأول منهما : (الله أكبر) بيت فائر ، ركيك ، هو بضوئي مُتَبَتِّلٌ أليق منه بشاعر يهدف انتصاراً باهراً ، هز أركان الدنيا ، وكان من الأحداث العالمية الخطيرة ، التي قلَّ أن شهدت الأرض لها مثيلاً . ويقول : ابن خالد العرب : (خالد ابن الوليد) في بداوته ، وأولية وسائله ، ونقص معارفه — من خالد الترك : مصطفى كمال ؛ في براعته ، وجدة وسائله ، وعظيم فنه ، وجليل آثاره الحربية ؟ إن في الموازنة بينهما استهانة بالفن ، وإهانة لخالد الترك . ذلك مجمل ما يقولون .

فأما أن الانتصار باهر فصحيح . وأما أن البيت ركيك ، وأن الموازنة بين البطلين غير سائغة — فلا ، أو على الأقل : « فيها نظر » . كما يقول المتحفظون . لما نعرض له الآن . فقد غاب عن الناقدين أن شوقي يكثر من الإشارات التاريخية في المطالع وغيرها ، ويستعيد الماضي ؛ ليستعين به في تصوير الحاضر ؛ فيخفي على الشادين في الأدب ، غير الضالمين في أشتات الثقافة — كثير من المعاني السامية ، وألوان الجمال في شعره . أما من لهم حظ من التاريخ ، وألوان الثقافة . فإنهم يجدون في شعره ، وإشاراته ، ورموزه — متعة ولذة لا يجدونها في شعر آخر .

لقد استهل قصيدة الفتح التركي ببيته : الله أكبر . . . وقَبِلَ اسمها لها استعداد أمامه حادث الفتح بما صحبه من الحرب المروعة التي مهد لها الإنجليز وحلفاؤهم باحتلال (القسطنطينية) حاضرة البلاد التركية ، وانحاذم من الخليفة المسلم الجالس على عرشه العوبة بحركونها بأيديهم كما يشاءون ،

واستفتائهم مفتى الأتراك الشرعى فى أمر « مصطفى كمال » وشيعته ، الخارجين على الخلافة المناوئين للحكام ؛ فأفتى بجواز قتلهم ، وإهدار دهم . ثم دفعوا اليونان للسواحل التركية القريبة منهم ليستولوا عليها ، ويضموها إلى بلادهم . وزوّدوهم بالمال ، والعتاد ، وسائر معدات القتال ؛ فاندفع اليونانيون إلى تحقيق المؤامرة آمنين . فالإنجليز وحلفاؤهم يقدمون لهم العون ، والخليفة معهم ، والجيش التركى خائر ، ضعيف ، مستسلم ، وهو إلى ذلك خاضع للخليفة ، وطوع أمره . والبلاد التركية — كالجيش — منهوكة القوى من أثر الحروب المتوالية ، والمصائب المتتابعة . وآخرها الحرب العالمية الأولى التى انتهت بتلك المأساة ؛ مأساة هزيمة الترك ، واحتلال حاضرتها ، وتحكم الأعداء فيها .

اندفع اليونان كما قلنا ، والترك جميعا — بل المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها — فزعون ، جزعون ، مكبوتون ؛ يتلفتون يئمة ويسرة ؛ عسى أن يجدوا بابا للأمل ، أو منفذا للرجاء ؛ فلا يجدوا إلا ما يسمونه عن شرذمة مشرّدة ، وفلول من الجيش قد تراصّت أمام الوطن ، وبيعوه على أن ينقذوه أو يموتوا . تلك شرذمة « مصطفى كمال » وشيعته الطريدة من رضا الخليفة ، وإيمان المفتى . سمع الناس به وبأعماله ؛ فلم يخفّوا — بادية الأمر — من همهم ، ولم يفتتح فى حائط اليأس منفذ أمام عيونهم ، ولستهم زودوه بدعواتهم ، وسايروه بأفئدتهم وقلوبهم ، وتنسموا أخباره تنسم العليل ساعات البرء ، أو الغريق لحظات النجاة . وأين العليل والغريق مما هم فيه ؟

ولإنهم لـكذلك فى خطبهم وقلقهم وكرهم ؛ بين يأس قتال ، وأمل واه ، وإذا البشير ينادى : قد انتصرت الشرذمة المشرّدة ، وقذفت بأعدائها

المحصنة المدججة إلى بحر بعيد الأعماق ، قد استضافهم أبد الدهر ، وضمهم في قراره إلى يوم الدين . ونجت البلاد التركية من أكبر كارثة صادتها ، وأقصى محنة مرت بها . وكان يوم النصر حداً فاصلاً بين عهدين متباينين ؛ عهد الخوف ، والضعف ، واليأس القتال ، وعهد الأمن ، والقوة ، والأمل البسام . وشق الترك سبيلهم في الحياة قدماً بين كبريات الدول ، وعظيماها .

لقد كانت البشرى مفاجأة سارة ، ولكنها عنيفة ، شديدة الوقع ؛ تلقاها المسلمون مشدوهين ، قد عقد الفرح ألسنتهم ، وغطى السرور على ألباسهم وأبصارهم ، وتركهم من وقع المفاجأة بغير حراك . ومن استخلص نفسه من تلك المباغطة العنيفة لم يجد ما يقوله إلا أن يرفع صوته بالتحميد ، والتكبير ، وشكر الله .

وتلك عادة المسلمين قديماً وحديثاً ؛ إذا غرهم فيض السرور والإعجاب ، وملك عليهم حواسهم — لم يملك ألسنتهم : بل تنطلق هاتقة بما يترجم عن شعورهم . وما هتافهم إلا التهليل ، والدعاء ، والتكبير . فعله المسلمون اليوم ، وفعلوه أمس ، ومن قبل فعله رسولهم صلى الله عليه وسلم وجنوده وقواده حين أتم لهم فتح مكة ، فدخلوها والرسول يقرأ قوله تعالى : (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً) ولم يلق الجنود مقاومة إلا فرقة خالد بن الوليد التي تصدى لها المشركون ؛ ففضى عليهم ، ولم يمض من رجاله غير اثنين . وكان موقفه في هذا الفتح باهراً كواقفه كلها (ولا سيما في غزوة « مؤتة » حيث كان عدد المسلمين زهاء ثلاثة آلاف مقاتل أمام مائتي ألف أو يزيدون من الروم . ومات قائد المسلمين ، فالذى يليه ، فالثالث ؛ فتقدم خالد للقيادة ، ونجح

في تخليص الجيش من الخطر ، ورجع به إلى المدينة ؛ فسماه الرسول : « سيف الله المسلول » . ولما استولوا على الكعبة المقدسة أمر الرسول بالأذان ؛ فانطلقت الأصوات بالتكبير فيها ، وفي سائر أنحاء البلد الأمين . ولم يجد المسلمون ما يعبرون به عن فيض سرورهم ، ويترججون به عن شعورهم — إلا هذا الأذان الذي يشتمل على التكبير مضاعفا مكررا ؛ وكأنه نشيد الانتصار . وسميت هذه الغزوة : « غزوة الفتح » . وكان النصر فيها حاسما للمسلمين ، فاصلا بين عهدين كذلك ؛ عهد ضعفهم ، وقِلَّتْهم ، وخوفهم من أعدائهم المؤثرين بهم ، المتألبين عليهم ، الخرجين لهم من ديارهم وأموالهم — وعهد القوة ، والعزة ، والأمنة ، والرجوع إلى الأهل والوطن ، وذبوع الدين ، واستقرار دعائمه ، وكثرة أنصاره ، والداخلين فيه . فما أقوى المشابهة بين الحالتين حالة المسلمين الأولين ، وحالة الكمالين .

هذه قصة الإشارة التاريخية التي رمز إليها شوقي في مطلعه — كعادته — واستعداد فيها الوقائع ، والأسماء ، والمناسبات . ففي كلتا الحادثتين استيلاء على أكبر بلد تتجه إليه الأنظار ، (مكة ، والقسطنطينية) واسترداده من مخالب الأعداء . وفي كلتا الحادثتين فتح عظيم ، وقهر لأعداء متآمرين متألبين . ولو لم يتم الفتح لكان الفناء الأبدى . وفي كلتا قلعة قليلة ؛ إلا من إيمانها وإخلاصها — تحارب كثرة كثرة ، مزهوة بما لها ، وعديدها ، ويقود المنتصرين من هؤلاء وهؤلاء جماعة سجل التاريخ أسماءهم في الخالدين ، وسمى واحدا من أظهرهم بطولة ، وأشهرهم إقداما — باسم : « خالد بن الوليد » .

فهل تمثل الناقدون تلك الحوادث ، وعقدوا المشابهة بينها ، وأدركوها ؟ وهل استلهموا التاريخ قبل أن يُطلقوا ألسنتهم بالنقد ؟ إنهم لو فعلوا ما وجدوا في بيت شوقي عيباً ، ولا رأوا غضاضة في تشبيهه : « مصطفى كمال » خالد الترك بخالد العرب ؛ فكلاهما البطل الفذ في عصره ، وفي ميدانه . وكلاهما المنافع المدافع عن دينه وبلاده ، والمغاصر الأول بحياته من أجلهما . وهل أراد شوقي بالتشبيه غير هذا ؟ وهل أراد به أن يكون بطل اليوم كبطل الأمس في دقائق الشئون الحربية ؟ ألم يكن يعلم أن أساليبها وفنونها تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة ؟ فالיום مدافع ، وطيارات ، وقذائف ، وغواصات ، وأداة حرب مبيدة ، لم يعرفها أحد من القدامى وأهل العصور السالفة ؛ حيث القوس ، والسهم ، والرمح ، والعصا ، وأشباهها مما لا قيمة له الآن ؟ . ما أظن أحداً يقول إن شاعرنا يجهل هذا .

إننا حتى اليوم نشبه الجواد السباح بحاتم الجاهلي ؛ على بعد المدى بين عصرنا وعصره ، وتباين وسائل الكرم وضروبه في أيامنا وأيامه . وليس في هذا التشبيه ما يعيبه إلا تبذله وامتهانه . أما غايته ، والغرض منه — فجليلة جميلة . وسيظل اسم حاتم رمزاً للجود إلى أن ينتزع منه الشهرة كريم آخر ، أو نعدل عن الأسماء في التشبيه . ولم يغب عن بالنا — حين نقد هذا التشبيه — أن حاتماً الذي سجل التاريخ اسمه في أول مُحْصَف الأجياد لم يكن يعرف من الجود إلا السماح بما يصادفه ، أو يملكه من غنم ، أو إبل ، أو نحوها مما نعدّه زهيدا في عصرنا ، ولكنه نفيس في عصره . ولم يكن يبالى — حين يجود به — أن يكون هو وأهله في أشد الحاجة إليه ،

لا يجدون عنه بديلا ؛ فيقيموا على الطَّوى ، ويطول بهم الجوع . وهذا أقصى غاية الجود للمالى الذى يضرب به المثل بحق . ولو أنك قومت ما جاد به وقدرت له ثمنًا — لم تجده يقوم بغير عشراتٍ أو مئات من الدنانير . فأين هذه العشرات أو المئات القليلة من الآلاف الكثيرة وأضعافها التى يجود بها كرماء اليوم ممن نشبههم بحاتم ؟ وكيف ساغ لنا أن نشبه الذى يَهَبُ الآلاف بالذى يجود بالعشرات والمئات ؟ إن ظاهر الأمر يقتضينا العكس . لكن الأمر ليس على ظاهره — كما يقولون — فَمَرَّ الحُكم على شخص بأنه أكرم من آخر إنما يرجع إلى مقدار ما يجود به كل منهما ، منسوباً إلى ثروته ، ومقدرته المالية ؛ لا إلى مجرد ما يتبرع به ، من غير موازنته بما يملك ؛ فقد يجود شخص بدينار واحد ، لا يملك غيره ، وهو فى أشد الحاجة إليه . ويجود آخر بألف من بين آلاف يمتلكها ؛ فيكون الأول أجودَ وأسخى . وكذلك الشأن فى هذا النوع من التشبيه ؛ ينظر فيه إلى وجه الشبه ، وقوته ، وتمكنه فى أحد طرفيه ، دون الاعتماد على التجزئة ، والأعداد المجردة وحدها . وهذا هو ما قصد إليه شوقى فى تشبيهه ، وهو الذى ينبغى أن نفهمه منه . وشئ آخر أراد شاعرنا على عادته الكريمة ، هو إحياء مجدنا السالف ، وتذكيرنا به ، وبأبطالنا السابقين . وليس من شك أن « خالد بن الوليد » من أعظمهم ، وأشهرهم ، وصيته ذائع فى التاريخ الإسلامى ، وبين جَمهرة المسلمين . فحين يُشبه به « مصطفى كمال » إنما يُشَبَّه ببطلا عظيما ببطل عظيم ، معروف المكانة ، مرموق المنزلة لدى الكثرة العربية الإسلامية . وفى هذا زيادة تعريف بل تشريف لمصطفى كمال ، فوق ما فيه من إحياء لمجدنا وأبطالنا ، وحفز لِهَمَمِنَا ، وتجديد تاريخنا الذى نفخر بصحائفه ، ونستمد

القوة من مثله العليا . وتلك مزايا جليلة لانتهايا باختيار بطل من أبطال اليوم ؛ فليس في صنيع شوق مأخذ ؛ بل فيه حسن وتوفيق ، يوجبان له المديح والإطراء ، ويوجبان علينا أن نتمهل قبل ملامته ، ونتيقظ لما برِدَ في مطالعه ، وسائر شعره — من الرموز ، والإشارات التاريخية التي يرمى بها إلى أغراض بعيدة المدى ، عظيمة الدلالة . وهو لا يلام على أنه أخفى في ثنايا البيت ما لا يدركه إلا القليل من الخواص ؛ فالحق أن شوق ينظم للخاصة والعامة معاً ، فالخاصة يدركون مراميهِ العميقة ، ويهتدون إلى إشارته ، أو لا كثير منها . والعامة يدركون ظواهر كلامه ، ويكتفون بها ، ولا يعنهم ما وراءها . وتلك إحدى خصائص شوق العظيمة — كما قلنا — يُرضي الطائفتين جميعاً ، وينتزع إعجابهم . فأما من يضع نفسه في منزلة بين هؤلاء وهؤلاء فحسبه ما ارتضى ، وليس له أن يتصدى للنقد الأدنى النزيه .

(ب) وأما البيت الثانى منهما : « قم في قم الدنيا . . . » .

فقد أخذوا على ناظمه استعماله بكلمة : « قم » التي يرددها هي وكلمة : « قف » ، ويكثر منهما في مطالعه ، وغير مطالعه ؛ حتى نزل بهما إلى حد التبذل والامتهان . هذا إلى ما فيهما من إجماع جاف ؛ يُظهر المتكلم بمظهر المسيطر العنيف في موقف يتطلب الرقة والعدوبة ، وفي عصر ذهبت فيه تلك الأواصر بمظاهرها البغيضة المتعينة . فعيبُ الكلمتين عند هؤلاء الناقدين : التبدُّلُ والجفوة . هكذا يقولون . فأما التبدل فقد صحَّ فيه بعض ما يدَّعون ؛ فإني رجعتُ إلى الديوان ؛ فوجدت المطالع الآنية مبدوءة بإحدى الكلمتين :

- (١) قف بهذا البحر، وانظر ما عَمَرَ مظهرَ الشمسِ ، وإقبالَ القمرِ
 (٢) قف، ناجِ أهرامَ الجلالِ، ونادِ : هل من بُنَاتِكَ مجلسٌ أو نادٍ ؟
 (٣) قف «بطوكيو»، وطُف على «يوكهامه» وسل القريتين : كيف القيامة ؟
 (٤) قم للمعلم : وفه التبجيلا كادَ المعلمُ أن يكون رسولا .
 (٥) قم نادِ جِلْقَ، واشْدُرْ سَمَ مَنْ بَانُوا مشَتَ على الرسمِ أحداثٌ، وأزمانُ
 (٦) قم في فم الدنيا، وحيّ الأزهرِ وانثر على سمع الزمانِ الجوهرا
 (٧) قم : نادِ أنقرة، وقل : يَهْنِيكَ مُلْكٌ بَنَيْتَ على سيوفِ بَنِيكَ
 (٨) قُمْ : صفِ الخلدَ لَمَّا في مُلكِهِ مِنْ جلالِ الخلقِ والصُّنْعِ العَجَبِ
 (٩) قُمْ : تأملْ هذه الداروفى لك مِنْ طلابِها الجمعُ الأرب
 (١٠) قف بروما، وشاهد الأمر، واشهدْ أن الملُك مالكا ، سبحانه !
 (١١) قِفْ عَلَى كنزِ بياريسِ دَرَفِينِ من فَرِيدِ في العالِي ، وثمانِ
 ووجدتُ الأبيات الآتية تتخلل قصائد مختلفة ، كلُّ بيتٍ مُصَدَّرٌ
 بإحدى الكلمتين :

- (١) عثمانُ قُمْ : ترَ آيةَ الله أحيًا المؤمنين
 (٢) قُمْ : فحدثْ عن السنينِ الخوالى وفُتُوحِ المُمَلِّكينِ الصَّيْدِ
 (٣) قُمْ انظرْ - وأنتَ للمالِ الأرضِ حَكَمَةً - أَأَجْدَى نَظِيمُ أم أَفَادَ نَشِيرُ ؟
 (٤) قِفُوا بالقبورِ : نساثلُ عُمَرُ : متى كانت الأرضُ مَبْنُوى القَمَرِ ؟
 (٥) قُمْ : ترَ القومَ كُتْلَةً مِثْلَ مَلْعُومَةِ الصَّخَرِ
 (٦) قُمْ : ابنِ الأمّهاتِ عَلَى أساسِ ولا تَبْنِ الحُصُونِ ولا القِلاعَا

- (٧) قُمْ لِلْهَلَالِ قِيَامَ مُحْتَمِلٍ بِهِ أَثْنَى وَبَالَغَ فِي الثَّمَاءِ وَغَالَى
 (٨) خَلِيلِي، قَوْمًا فِي رُبَا الْعَرَبِ، وَاسْقِيَا رِيَادِينَ هَامٍ فِي التُّرَابِ وَأَوْصَالَ
 (٩) قُمْ إِلَى الْأَهْرَامِ، وَاخْشَعْ، وَاطْرَحْ خِيَلَةَ الصَّيْدِ، وَزَهْوَ الْفَاتِحِينَ
 (١٠) قُمْ ؛ تَرِ الدُّنْيَا كَمَا غَادَرْتَهَا ؛ مَنْزِلَ الْغَدْرِ ، وَمَاءَ الْخَادِعِينَ
 (١١) قُمْ ؛ فَشَاهِدْ - لَوْ اسْتَطَعْتَ قِيَامًا - حَمْرَةَ الشَّعْرِ ، وَالتِّيَاعَ خِيَالَهُ
 (١٢) قُمْ تَحَدَّثْ (أَبَا عَلِيٍّ) إِلَيْنَا : كَيْفَ غَامَرْتَ فِي جَوَارِ الْأَرَاقِمِ ؟
 (١٣) وَقِفُوا سَاعَةً بِهِ فِي ثَرَى الْأَقْسَامِ مِنْ قَوْمِهِ ، وَتُرْبِ الْعَمَائِمِ
 (١٤) وَقِفِي الْهُودَجَ فِينَا سَاعَةً نَقْتَبِسُ مِنْ نَوْرِ أُمَّ الْحُسَيْنِ

• تلك هي الأبيات التي عثرتُ عليها مُصَدَّرَةً بِإحدى الكلمتين في مطالع القصائد ، وغير المطالع . وهي — ولا شك — كثيرة . فإذا ساغ « لابن جني » أن يأخذ على شاعره : « المتنبي » تكراره لكلمتي : « ذا » و « ذى » في شعره ولم يقبل دفاعه عنهما ^(١) ساغ لنا ، بل وجب علينا أن نؤاخذ شوقي بتكراره : « قف » و « قم » ولا نقبل دفاعا فيهما . هذا من ناحية تبذرها وامتهانها بالكثرة . وأما من ناحية جفوتها ، وعدم ملائمتها — فلا أرى هذا الرأي ؛ فإن شوقي لا يجيئ بواحدة منهما إلا حين يتكلم عن أمر له حظُّه من القداسة والإكبار ؛ كالأهرام ، والأزهر ، والعلم ، وأنقرة . أو : حين يطلب الوقوف ، ولا يمكن بمعنى التمثل ، والتأمل في شيء ؛ لتبصر أمره ، وتعتمد منه الخبرة ، والمعرفة . أو حين يرثي الموتى . وهو في الحالة الأولى يطالبنا بالوقوف الحقيقي ؛ على عادتنا (معشر الشرقيين) من الوقوف أمام

الجليل العظيم ؛ إكبارا له ، وتكريماً . وقد أشار إلى هذا في بيته السابق
في قصيدة الهلال ؛ حيث يقول : —

قُمْ لِلْهلالِ قِيَامَ مُحْتَفِلٍ بِهِ أَثْنَى ، وَبِالْعَفَى الثَّنَاءِ ، وَغَالَى
وبيته في قصيدة نابليون : —

قُمْ إِلَى الْأَهْرَامِ ، وَاخْشَعْ ، وَاطَّرِحْ خِيْلَةَ الصَّيْدِ ، وَزَهْوَ الْفَاتِحِينَ
وهو في الحالة الثانية لا يطلب الوقوف الحقيقي ؛ لما قلناه . وكذلك
في الثالثة ؛ لاستحالاته ؛ وإنما يطلبه تمضيّاً ؛ ليكون أثرُ الشعر أقوى ،
وأبلغ ، ووقعُ الكلام أشدَّ . وهذا نهجٌ شعريٌّ سبقه إليه نظراؤه
من الشعراء ، كالوأواء الدمشقي ؛ فقد وقعتُ في ديوانه على الأبيات
الآتية : —

- (١) قُمْ يَا غِلامُ إِلَى السُّمُولِ : فَهَاتِهَا
- (٢) قُمْ ، فَاسْقِنِي بِالكَأْسِ لَا بِالْفَنَقَلِ ^(١)
- (٣) قُمْ يَا غِلامُ إِلَى المُدَامِ
- (٤) قُمْ ، فَاسْقِنِي بِرَقِ المَغُورِ
- (٥) قُمْ يَا غِلامُ ؛ اسْقِنِي مُشْعَشَعَةً
- (٦) قُمْ ؛ فَاجْلُ هَمِّي — يَا غِلامُ —
- (٧) قِفُوا مَا عَلَيْكُمْ مِنْ وَقُوفِ الرِّكَاثِ

... ..

(١) لم أهدت في المراجع للمراد من هذه الكلمة ، وأعلمها من آنية الشراب .

. وبالرغم من هذا كله لا أعنى شوقى من تبعمة التكرار فى الكلمتين ؛
وإنما أخفف عنه وقع المؤاخذة

* * *

. ولشوقى مطالع واهية متخاذلة ، وهى أنواع مختلفة . ولكنهما لم تبلغ
فى كثرتها ، ولا فى درجة قبحها — مابلغته نظائرها عند المتنبى . فإأقلها
عند شوقى !! وما أوفرها عند المتنبى !!

(١) فن تلك الأنواع ما يقتحم فيه الموضوع اقتحاماً ببيت سبى اللفظ ،
فاتر الروعة . قد اشترك شطراه معاً فى أداء معنى واحد مبتذل ؛
كقوله يخاطب كاتباً إنجليزياً مشهوراً :

أيها الكاتب المصورُ صَوِّرْ مِصرَ بالمنظرِ الأنيقِ الخليقِ
وقوله فى البحر الأبيض المتوسط :

أى الممالكِ أيها فى الدهر مارَفتَ شِراعَكَ
وقوله يخاطب الخليفة العثمانى (وقد أنزله ضيفاً عنده حين زار
القسطنطينية) : —

رَضَى المسلمونَ والإسلامُ فَرَعَ عُثمانَ دُمَ ، فِذاك الدَّوامُ
وقوله فى اجتماع مصرى لإعانة المقاتلين فى طرابلس من الجيش العثمانى :
يا قومَ عُثمانَ — والدُّنيا مُداوِلَةٌ — تَعَاوَنُوا بَيْنَكُم ، يا قومَ عُثمانَ
وقوله فى رثاء وزير :

مَنْ ظَنَّ بَعْدَكَ أَنْ يَقُولَ رِثاءَ فَلْيَرِثْ مِنْ هَذَا الْوَرَى مَنْ شَاءَ

(ب) ومنها ما يبتدى فيه القصيدة بكلام مُفتقٍ ، واضح المعنى ، لكنه غير مفهوم الغرض ، كاستهلاله قصيدة المؤتمِر^(١) :

صَرَحٌ عَلَى الْوَادِي الْمُبَارِكِ ضَاحِي مَتَظَاهِرُ الْأَعْلَامِ وَالْأَوْضَاحِ
ضَافِي الْجَلَالَةِ ؛ كَالْعَمِيقِ مُفَصَّلٌ سَاحَاتِ فَضْلِ فِي رِحَابِ سَمَاحِ

... ..

فما الصرح الذي يشير إليه في البيت الأول وما بعده من أبيات ؟ إنك لتحاول الوصول إلى مراده فلا تقع عليه إلا وهماً وتخميناً . وإذا جاز أن يدركه من عاصروا تلك الحوادث فهل يدركه من لم يشهدها ؟ ومن تأخر بهم الزمان ؟ تلك شئشنة أعرفها من شوقي ؛ تهزؤه حادثة عامة أواخصة ، وتثير وجدانه مناسبة طارئة ؛ فيندفع في الحديث عما يحسه ، ويشعر به ؛ لا يبالي : أفهيم الناس كل مرامييه أم فهموا بعضها ؟ ولا يبالي : أخفى غرضه على الأجيال المتعاقبة أم وضح لهم ؟ وليس بغدير أن يكون لديه من الدواعي السياسية أو غير السياسية ما يحمله على هذا الغموض ، وهذا الإيهام . ومثال آخر قصيدته العصاء في رحلة : شيمت أحلامي بقلب باكٍ ولممت من طرق الملاح شباكي
ورجعت أدراج الشباب ووزدته أمشي مكاتهما على الأشواك

... ..

فإنك لاتدرى حقيقة ما يريد ؛ أغزل ، أم أسف ، أم ماذا ؟ لأن

(١) اشتد الخلاف بين الأحزاب المصرية ؛ حتى كاد يعصف بالبلاد ، وينزل بها أفدح الكوارث السياسية وغير السياسية ، ثم انتهى الأمر إلى التوفيق بينها وإعلان ذلك في مؤتمر سنة ١٩٢٦ بمنزل محمود سليمان باشا .

الأبيات توقمك في هذه الحيرة ، ولا تستطيع تفسير ما فيها من الإيهام إلا باستجابة شوق لدافع نفسى ، وخفقة وجدانية استولت عليه وقت نظم الشعر ، فلجأها ، واستراح . ولا عليه بعد ذلك أن يدرك الناس حقيقة الدافع أو لا يدركوه ، ومثال آخر :

برأ القضاء أحد المحامين من تهمة نسبت إليه ؛ فقال شوقى في حفل تكريمه بالبراءة : —

الناسُ للدينِا تبَعُ ولَمَنْ تُخَالِفُهُ شِيعُ
لَا تَهْجَعَنَّ إِلَى الزِمَا نِ فَقَدْ يُنْبِئُهُ مِنْ هَجَعُ

فن أى نوع هذا المطلع ؟ وما مناسبته ؟ أو ما ذا يريد به ، إلا ما وصفناه من أن خفقة خاصة لا نعرف دوافعها واتجاهها حلتْ بصدرة ؛ فترجمها وخفف عن نفسه ، ولم يوضح أمرها ؛ لحكمة سياسية أو غير سياسية لا يود الكشف عنها ؟ « فشوقى » حريصٌ على تسجيل ما يحسه إزاء المناسبات الطارئة ، والحوادث العامة أو الخاصة المفاجئة ، ولو لم يدركها الناس ، ولم تكن وثيقة الصلة بالموضوع الذى يطرقة . وحرصه على هذا كحرصه على الإشارات والرموز التاريخية التى أشرنا إليها من قبل . بيد أن الإشارات والرموز تجد كثيرا من المثقفين يفهمها ، ويدرك مراميها . أما هذه فلا يعرفها إلا « شوقى » ، وخاصةً مجلسه . وسيجىء اليوم الذى لا يعرفها فيه أحد .

ولقد سأل أديب عراقى كبير : ما بال « شوقى » يستهِّل قصيدته فى مؤتمر تكريمه ومبايعته بإمارة الشعر بقوله : —

مرحباً بالربيعِ في ربيعانِه ، وبأنوارِه ، وطيب زمانِه
زُفَّت الأرضُ في مواكبِ «آذا»^(١) ، وشبَّ الزمانُ في مهرجَانِه

فقال ما صلة الربيع بالتكريم ؟ وما علاقة آذار بالإمارة والوفود ؟
ف قيل له : إن التكريم كان في آذار ؛ مستهل الربيع . فقال : ما كان
أجدرَ شوقٍ في حياته أن يشرح ديوانه ؛ ويوضح ما فيه من إشارات ،
ورموز تاريخية ، وخفقات نفسية غامضة ، قبل أن يطول عليها الأمد ،
وتصير لغزا . ولا سيما إذا طوت الأيام من عاصروا حوادثها ، وعلموا
حقائقها . وقد صح ما توقَّعه ذلك الأديب ، فها نحن أولاء نرى
ظلمات الشكِّ ، وسُحَبَ الغموض — تزحفُ سرَّاعا إلى نَوَاحٍ كثيرة
من الديوان ؛ فإن لم يبددها أصدقاء «شوقى» ، وأنصار الأدب ، بشرح
ديوانه ، وتَجْلِيَةِ غوامضه — فسوف تتراكم وتتكايف حتى تُغشَّى ذلك
الأدب الرائع ، وتذهب بروعته وهبائه .

(ح) ونوع كالسابق ، لاصلة بين مطالعه وموضوعه ، ولكنه مبدوء بالنصيحة

والموعظة ، فلا تجد فيه النفس ما يستهويها ؛ لنفورها من النصيح في
المطالع الشعرية ، كطلمه في ذكرى استقلال سورية وعشرة أبيات بعده:

حياةٌ ما زِيدُ لها زِيالاً ودُنيا ، لا نَوْدُ لها انْتِقَالاً

وعيشٌ في أصول الموت ، سُمُّ غُصَّارته ، وإن بَسَطَ الظَّالَمُ

(ويلاحظ أنه أساء الاختيار بكلمة : « السم » في البيت الثاني ،

كما أساء المتنبي بوضعها في البيت الثاني حيناً ، والأول حيناً آخر) .

(١) شهر مارس وفيه يبدأ الربيع .

(٥) وقد يكون المطلع نصحا وإرشادا (كالسابق) ولكن بينهما وبين موضوع القصيدة صلة ما ؛ فمن شأن هذه الصلة أن تُخَفِّفَ من نفور النفس ، وانحرافها عن سماعهما ، والإصغاء لهما . كقوله في رثاء صاحب المقتطف : —

سماؤك - يا دنيا - خِداعُ سَرَّابٍ وَأَرْضُكَ عُمرَانٌ وَشَيْكُ خَرَّابٍ
وما أنت إلا جيفةٌ طالَ حولها قِيَامُ ضِبَاعٍ ، أو تُعَوِّدُ ذِئَابٍ
وقد أساء الاختيار بكلمة (جيفة) .

وكتلعه في تكريم الدكتور على إبراهيم باشا : —

اَبْتَغُوا ناصيةَ الشمسِ مكانا وَخُذُوا القِمةَ عِلْماً وَبَيَّاناً
واطلُبُوا بالعَبَقْرَبَاتِ المَدَى ليس كلُّ الخيلِ يَشْهَدُنَ الرِّهَانَاً

... ..

تلك أمثلة من مطالع شوق المعيبة . وهي : — إذا اجتمعت وتركزت —
لا تعدل في ميزان النصفَةِ والحق قليلا من معائب المتنبي في استهلاله .

* * *

(٣) المعانى وما يتصل بها

الغرض من الكلام : ترجمة الخواطر ، والإبانة عما فى النفس ؛ لىتم التفاهم والتعاون بين الناس على ما فىه صلاح معاشهم ومعادهم . ولا ىتحقق هذا إلا بفهم معناه ، ووضوح دلالاته ، وإلا كان أصواتا مبهمة ، غامضة ، كأصوات العجماوات . فلا كلام بغير معنى مفهوم .

على أن تحقق هذا الشرط وحده لا ىكفى فى الكلام الأدبى ؛ بل لابد معه من صفات أخرى تكسبه تمكينا فى النفوس ، وتغلغلا فى أعماقها ، وقوة فى التأثير . ومن تلك الصفات : طرافة المعنى ، واستقامته ، ووفاءه بما ىراد منه ، ومناسبته للغرض والمصر الذى قيل فىه ، وترك التصنع والإفاضة . هذا إلى براعة الخيال ، وشيوع العاطفة ، وتدققها فى تدققا ىسرى إلى السامع والقارى ؛ فىشاركنا صاحبه فىما ىحس ويدرك مشاركة فعلية ، لا اختيار فيها ولا طواعية

فإذا كان وضوح المعنى هو الدعاة الكبرى ، بل الأساس الفرد الذى يقوم عليه كل كلام فنى أو غير فنى — فإن الأوصاف التى ذكرناها هى التى تجعل الكلام العام فنيا صفا ، وتحيله أدبا خالصا . وإن شئت فقل : هى الخصائص التى ىمتاز بها الكلام الفنى من غيره ، وىسمو بها الأدب على سائر أنواع الكلام . وقد أفاضوا القول فى ىضاحها ، وبيان المراد منها فى مكانها الخاص من كتب البلاغة والنقد . ولا ىتسع المجال هنا لبسط آرائهم . ولكن حسبنا الإشارة اللامحة إليها .

فقد أرادوا من المعانى الطريفة ما كان من استعمال الخاصة وأشباههم ، ولم يدع بين العامة ومن إليهم ، فزول بهجته ، ولا تقبل النفس عليه ،

ولا تنشط لتحقيق غايته . وأرادوا من براعة الخيال قدرته على أن يخلق من الصور الحسية المفردة ، والمناظر المبعثرة صوراً مركبة لاتقع صورة منها تحت الحس ، فلا وجود لها إلا في العقل وحده .

ومهارته تظهر في خلقها^(١) وتكوينها ، فيزداد المعنى بها جمالا ، ويكتسب

(١) إليك مثالا بوضيح : هيك زرت صديقا في بيته ؟ فرأيت في حديثه وردا ، وعنابا ونرجس ، وشاهدت عنده بعض الدرر والآلى . ثم عدت إلى بيتك فعددت ما رأيت ، ووصفت ما شاهدت على صورته الحقيقية . فهذا العدد والوصف إنما تم بقوة فطرية ؟ تسمى : الخيال المستعصر ، أو : المستعيد . وقد تسمى تلك القوة : (الذاكرة) . ووظيفتها : استرجاع الصور الذهنية على حقيقتها الأولى التي وقعت في الحس المباشر . فإذا ركبت من تلك الصور المتفرقة المبعثرة صورة واحدة متماسكة غير حقيقية لا وجود لها إلا في العقل ، ولا تقع تحت الحس — سميت القوة التي أنشأت هذه الصورة : (الخيال المبتكر) كقول الشاعر يصف حبيته حين هلمت فرائه :

فأمطرت لؤلؤا من نرجس ، وسقت وردا ، وعضت على العناب بالبرد .

أراد بالؤلؤ : الدموع . وبالنرجس : العيون . وبالورد : الخندود . والعناب : الشفتين . وبالبرد : الأسنان . فالؤلؤ وحده معروف محسوس ، وكذا النرجس ، والورد ، والعناب ، والبرد . ولكن الصورة المتماسكة التي تتكون من لؤلؤ يتساقط من نرجس ؟ فيشرب منه الورد — لا وجود لها . كما لا وجود لصورة تعض بالبرد على العناب . وإنما هذه وتلك من صنع الخيال المبتكر ؟ استغل أشياء متفرقة ، متناثرة ، مدركة بالحس فجمعها ، وركبها ، وأنشأ من هذا المجموع المركب صورة متماسكة ، لا وجود لها إلا في الذهن ، فهي صورة عقلية خالصة ، أو : محض خيال ، لا حقيقة لها بعد تركيبها . ومثل هذا وصف زهر (الشقيق) بأنه :

أعلامُ ياقوتٍ نُشِرَ نَعلِي رِمَاحٍ من زَبَرَجَدٍ

فالأعلام . وحدها . معروفة . وكذا الياقوت ، والرماح ، والزبرجد . لكن الصورة المركبة التي تجمع هذه الأشياء كلها جمعا حقيقيا لا وجود لها إلا في الخيال ؟ إذ لا يعرف الحس صورة أعلام من ياقوت ، منشورة على رماح مصنوعة من زبرجد .

قوة ، وروعة تأثير . وقصدوا من استقامة المعنى تماسك أجزائه ، فلا يقع بينهما تعارض ، أو تناقض ، أو تفكك^(١) . وقصدوا من وفائه أن يكون شاملا موضوعه ، مُستَوْعِباً — إلى حد محمود — عناصره وأدلتها العقلية والشعرية التي ترضى الفكر والعاطفة معاً ، من غير استقصاء دقيق يُحيل الشعر فلسفة جافة ، أو بحثاً عقلياً جامداً . ومن غير إلحاح في الاستدلال يُبعده عن ميدان الشعر إلى مجال المنطق البحت ، والبرهان العلمي الخالص ؛ فلا إفراط يدفع الشاعر إلى النهاية بالأدلة الفكرية ، أو العاطفية ، وما يؤديان إليه من الجفاف والتركيز المعقد ، أو الاستحالة والمبالغة الفاسدة ، وجوح العاطفة . ولا تفريط يهوى به إلى النفاهة ، والضآلة ، وإهمال إحدى الناحيتين السابقتين .

وعنوا من مناسبته لغرضه ولعصره أن تكون معاني المدح ، والثناء ، والفزل والعتاب ، وغيرها مستعملة فيما وضعت له ، وكثرت فيه بين خاصة أهل ذلك العصر ، فلا يستعمل معنى في غير غرضه ، أو عند أهل عصر أو قبيل آخر لا يناسبهم^(٢) . وأما ترك التصنع والإفاضة فيراد بها أن يكون

(١) يريدون بالتفكك : أن تكون المناسبة بين المعاني المتصلة بالموضوع الواحد أو أجزائها واهية ضعيفة ، أو مفقودة .

(٢) فن وضع المعاني في غير مواضعها استخدام المعاني الفزلية في المدائح ، كدج الملوك بحلاوة عيونهم ، وتورد خدودهم ، وحسن نفورهم . . . ومن استعمال المعاني في غرض يناسب عصرًا أو قبيلة دون آخر ما يرد في كلام بعض أدبائنا اليوم من : « ألقى عصا النسيار » . « ضرب آباط الإبل » . . .

ونحو هذا مما لا يقع الآن عندنا . وأقبح منه أن نقول ما كان يقوله السابقون : « فلان كثير الرماد » ؛ كناية عن كرمه . أو : « فلان يشكو إليك قلة الجرذان » ؛ كناية عن فقره . أو : « نظيف آنية المطبخ » كناية عن أنه لا يجد شيئاً يأكله . . . فتلك كنايات لا تناسب عصرنا ، والمراد منها قديماً غير ما يفهم منها اليوم .

المعنى عفو الخاطر ، لا يكذبُ الذهن ولا يرهقه ، وأن تكون ألفاظه إلى الإيجاز أقرب . وإلى الأمرين أشار المتنبي مادحاً بهما أحد الكتاب قائلًا :

بَلَّغَتْهُ الْبَلَاغَةُ الْجَهْدَ بِالْعَفْوِ ، وَنَالَ الْإِسْنَابَ بِالْإِيجَازِ

* * *

على ضوء ما تقدم نعود إلى شعر « المتنبي » و « شوقي » فنرى الأول قد أجاد المعاني أحياناً ، ورصد من محاسنها ما يريده الأدباء والناقدون . وأساء إليها أحياناً أخرى ، بل أسرف في الإساءة ، حتى لتقوم أنه تعمد الخروج على كل ما استحسنوه ؛ فأغضبهم ، ونصب نفسه هدفاً لغمزهم ، وتجريحهم ، وحل إماماً كبيراً منهم على أن يعرض به ، وبمفوض معانيه ؛ قائلًا^(١) :

(... إن المحمود من الكلام ما دل لفظه على معناه دلالة ظاهرة ، ولم يكن خافياً مستغلقاً ، كالمعاني التي وردت في شعر أبي الطيب ... وأمثلة الكلام الذي يظهر معناه ، ولا يحتاج إلى الفكر في استخراجه - كثيرة ، وعامة شعر البحتري عليه . فأما الذي يسأل عن معناه ، ويُفكر في فهمه فكالآيات التي من شعر المتنبي . وقد نعاها عليه الصاحبُ بن عباد - رحمه الله - وكان يسميها : رُقى العقارب . والناس إلى اليوم مختلفون في معاني بعضها ، وكلٌّ يذهب فيه ، ويسبق خاطره إلى غرض ...) ورأينا ابن خلدون يسجل في مقدمته^(٢) : (إن الشعر لا يكون سهلاً إلا إذا كانت معانيه تسبق ألفاظه إلى الذهن . ولهذا كان شيوخننا - رحمه الله - يعبئون شعر ابن خفاجة شاعر شرق الأندلس ؛ لكثرته معانيه ، وازدحامها

(١) صاحب سر الفصاحة ص ١٩٥ و ص ٢١٧ .

(٢) باب صناعة الشعر ص ٣٢٨ .

في البيت الواحد . كما كانوا يعيبون شعر المتنبي والمعري بعدم النسيج على الأساليب العربية ؛ فكان شعرهما كلاما منظوما ، نازلا عن طبقة الشعر . والحاكم بذلك هو الذوق ...) بل رأينا الواحدى^(١) ، وهو من الأئمة الذين شرحوا ديوانه ، وأعجبوا بشعره - يصفه بأنه صاحب معان مخترعة ، دقيقة ، مبتكرة . ثم يعترف « بأنه خفيت معانيه على أكثر من روى شعره من أكبر الفضلاء ، والأئمة العلماء ، حتى الفحول منهم والنجباء ، كالقاضي الجرجاني صاحب كتاب الوساطة ، وابن جنى النحوى ، وأبى العلاء المعري ، وابن فورجة - رحمهم الله تعالى . وهؤلاء كانوا من نخول العلماء ، وتكلموا في معاني شعره مما اخترعه ، وانفرد بالإغراب فيه ، وأبدعه . وأصابوا في كثير من ذلك ، وخفي عليهم بعضه ، ولم يبين لهم غرضه المقصود ، لبعد مرماه ، وامتداد مداه ... » .

فأى شعر هذا الذى يخفى على الأئمة الأعلام ورجال اللغة والأدب ، ويقفون أمام معناه حيارى ، يضربون فى يدياء الحدس والتخمين . يستعين بعضهم ببعض ، أو يخطئ بعضهم بعضا على نحو ما نراه فى أبيات كثيرة من شرح العكبرى تتجاوز العشرات إلى المئات ؟ وكيف نسميه شعرا وهو على ما وصفنا ؟ ولقد أحسن بعض أدبائنا^(٢) وأصاب حين نقل رأى الواحدى وأردفه بقوله : —

(إن المعانى الشعرية ليست من قبيل الأسرار الصوفية ، أو القضايا

(١) هو الإمام النحوى الأديب : الواحدى المتوفى سنة ٤٦٨ هـ (كما سبق) .

(٢) فى مقدمة شرحه .

(٣) هو اليازجى فى كتابه : العرف الطيب ص ٦٥٤ .

التعليمية التي تقتضى دقة نظر ، وجهد ذهن في فهمها ؛ وإنما هي معان طبيعية تدركها البداة بأدنى رمز . والاختراع من حيث هو لا يقتضى الخفاء ، وإلا لخبى أكثر شعر المتقدمين ممن سبقوا إلى ابتكار المعاني ، مع أنك لا تكاد ترى في كلامهم ما غاص في الإبهام ، وحسرت من دونه الأفهام إلى الحد الذي تراه في بعض شعر المتنبي . . .)

مالنا ولهذا كله وعندنا الأمثلة الغامرة الكفيلة بالرأى الفاصل السديد ، والتي تشهد بأوضح بيان بغموض معاني المتنبي ، وتعقيدها ، وحرمانها العاطفة ، وفقرها من الخيال والتوفية ، وما إلى ذلك من باقى العيوب .

(١) يصف ليلة طويلة :

أَحَادٌ أَمْ سُدَّاسٌ فِي أَحَادٍ لِيُيَلِّتَنَا الْمَنُوطَةُ بِالتَّنَادِ^(١)

(٢) وقوله يمدح :

نَحْنُ مِنْ ضَائِقِ الزَّمَانِ لَهُ فَيْسُكَ وَخَانَتُهُ قَرَبُكَ الْيَامِ

قال العكبرى معناه : (نحن الذين ضايقه الزمان فيك ، فيبخل عليهم بك ، فيجرمهم لقاءك ، ويباعد بينك وبينهم ، وتخونهم الأيام في القرب منك ، يشير إلى أن الزمان يعشقه ويفار على قربه ، فهو يريد أن يفرد به دون الناس . . .)

(١) قال الواحدى فى كتابه : قد أكثروا فى معنى هذا البيت ، ولم يأتوا ببيان مفيد . ولو حكيت ما قالوا فيه لطال الكلام ، ولكن أذكر ما وافق اللفظ من المعنى . وهو أنه أراد : أواحدة أم ست فى واحدة جعلتها فيها كالقضى فى الطرف ؟ ولم يرد الضرب الحسابى . وخص هذا العدد لأنه أراد ليل الأسبوع ، وجعلها كناية عن ليل الدهر كله .

فهل هذا شعر مفهوم ؟ وهل فيه شئ من صفات الجودة المعنوية ؟
ولقد كان الصاحب بن عباد صادقا حين قال في البيت السابق : إن رُقية
العقرب أقرب إلى الأفهام منه ، وأن قوله : (له فيك ...) لو وقع
في عبارات الجُنَيْدِ والشَّيْبَانِي (وهما من علماء القرن الرابع في التصوف ،
وأئمتة التي تتكلم بلغة رمزية لا يدركها غيرهم) لتناوت عنه المتصوفة
دهراً بعيداً^(١) .

(٣) وفي فراق أحبائه :

لَا تَجْزِيَنِي بِضَيِّ يَ بَعْدَهَا بَقَرٌ تَجْزِي دُمُوعِي مَسْكُوبًا بِمَسْكُوبِ
يدعو لمن ، قائلا : (لَا ضَنْدِي هَذِهِ الْبَقَرُ (يريد النساء) كَا ضَنْدِي ،
ولا جرت دموعهن كما جرت دموعي ؛ لأنه بكى عند الفراق فبكين ؛ فجزين
دمعه بدمع ؛ فدعا لمن ألا يجزين ضناه بضنا ؛ كما جزينه بالدمع دمعاً^(٢))
فهل في البيت حسنة من حسنات المعاني ؟
(٤) وقال في المدح :

وَتَنَسَّبُ أَفْعَالُ السُّيُوفِ نَقْوَسَهَا إِلَيْهِ ، وَيَنْسُبْنَ السُّيُوفَ إِلَى الْهِنْدِ

شرحه ابن جني : (بأن أفعال السيوف أشرف من السيوف . وأفعالها
تشبه بأفعالها في مضائه وحدته ، وتنسب السيوف إلى الهند ؛ ألا ترى أنه
يقال : سيف هندي ، وسيف يمان . وفعل السيف أشرف منه ؛ كذلك
أنت أشرف من الهند . قال ، « ابن فورجة » . قد خلط « ابن جني » حتى

(١) الكشف عن مساوي المتنبي للصاحب ص ١٢ .

(٢) المكبري في شرح البيت .

لا أدري أى أطراف كلامه أقرب إلى الحال . ولم يحجر ذكر التشبيه ؛ وإنما يقول : إنها تنسب أفعالها إليه ، أى : تقول هذه الضربة من فعله ، لامن فعلنا . لأنها حصلت بقوته ؛ أى : الضارب ، ودلت على جودة السيف . وليس فى هذا البيت أنه أشرف من الهند^(١) . . .)

فما ظنك بشعر لا يفهمه الإمام الكبير : « ابن جنى » ، ويشرحه شرحا يستحق من أجله هذه القوارع ؟

وسنكتفى فيما يلى بالأبيات من غير شرح ولا تعليق ؛ إذ ليس مكانهما هنا . وليرجع إليها من شاء فى شرح المكبرى ؛ ليرى ما يعينه على صواب الرأى :

(٥) ذَمَّ الزمانُ إليه من أَحِبَّتِهِ ما ذَمَّ من بَذَرِهِ فى حَمْدِ أَحَدِهِ

(٦) وقال واقفاً على دار الأحباب ؛ يصفها ، ويصف نحول جسمه : (وهو بما اختلف فيه أئمة الشراح) .

ولا وقفتُ بجِسمِ مُنَى ثَالِثَةٍ ذِى أَرْسُمٍ دُرُسٍ فى الأَرْسُمِ الدُّرُسِ (٧) وقوله فى وصف ناقته . (وقد طعنوه من أجله طعنة دامية^(٢)) :

شَيْمُ الْإِيَالِ أَنْ تَشْكَلَ نَاقَتِي صدرى بها أَفْضَى أُمِّ الْبَيْدَاءِ ؟

فَتَبَّيْتُ تُسَيِّدُ مُسَيِّدًا فى زِيَّهَا إِسَادَهَا فى المَهْمَمِ الْأَنْضَاءِ

(٨) وقوله فى وصف سرعته (وهو مما اضطرب فيه الشراح وماجؤا) :

فلو سِرْنَا وفى « تَشْرِينِ » خَسُّ رَأُونِي قَبْلَ أَنْ يَرَوْا السَّمَاءَ

(١) المكبرى فى شرح البيت .

(٢) راجع الصبح النبى ص ١٥١ ج ٢ .

(٩) وقوله في مدح ابن العميد : —

يا ليت باكيةً شجاني دمعها نظرت إليك كما نظرت فتعذرا
فترى الفضيلة لا تردُّ فضيلةً الشمس تشرق والسحاب كنهورا^(١)
(١٠) وقال يمدح نفسه بأنه لا شبيه له : (وقد ضل العلماء في فهم المراد من كلمة : « ما ») :

أعطتك تشبيهاً بما، وكأنه فإحد فوق ، ولا أحد مثلي
(١١) وقوله في مدح سيف الدولة :

إذا دأب هفأً بقراط عنه فلم يعرف لصاحبه ضريب
(وفي كلمة : « إذا » من الآراء والظنون ما يدعو للعجب . وقد شرح البيت ابن جني وابن فورجة ، فقال عنهما الواحدى : إنهما لم يعرفا معناه ، بل خبطا فيه . . .)

(١٢) وقوله في كافور الأسود (وكان يكنى بأبى المسك لتشابه اللونين) :

وبمسكٍ يُكنى به ؛ ليس بالمسك ، ولكنه أريجُ الثناء

(١٣) واستمع إلى أبيات من قصيدة يمدح بها طاهر بن الحسين العلوى ...

وأبهرُ آياتِ التَّهَامِيَّ أَنَّهُ أبوك ، وأجدى مالكم من مناقبِ
إذا لم تكن نفسُ النسيبِ كأصلهِ فما الذى يُغني كرامُ المناصبِ ؟
وما قرَّبْتُ أشباه قومٍ أباعد ولا بعدتُ أشباه قومٍ أقاربِ

... ..

(١) غزيرا متكافا . وقد جاء في الصبح المنى ج ١ ص ١٩٢ (أن ندماء ابن العميد تنازعوا في فهم هذا البيت ؟ فقال : أثبتوه حتى أتأمله . فأثبت البيت ، ووضع بين يديه ؛ فأطرق مليا ، ثم قال : هذا يعطلنا عن المهم . وما كان الرجل يدرى ما يقول . . .)

فقد نقل شارح الديوان في البيت الأول مانصه :

(قال أبو الفتح : قد أكثر الناس القول في هذا البيت ، وهو في الجملة شنيع الظاهر ؛ فأضربت عن ذكره . وقد كان يتعسف في الاحتجاج له ، والاعتذار بما لست أراه مُقنعاً . . .) ثم نقل شرحاً آخر للبيت ملخصه : إنكم أوضحُ المعجزات على صدق نبوة أبيكم محمد التهامي عليه السلام ؛ فقد كان أعداؤه القرشيون يرمونه بأنه أبتَر ؛ لانسُل له ، فإذا مات استراحوا منه . فأنزل الله عليه (إنا أعطيناك الكوثر) أى : العدد الكثير ؛ فلست بالأبتَر . . (إن شئتُك هو الأبتَر . . .)

وهذا المعنى حسن . ولكنه لا يدفع الغموض والتعقيد عن البيت ، ولا يُبَيِّنُه من إشارات تاريخية يتوقف فهمه على فهم مراميها ، وقلَّ من يدركها . وقد سبق أن مدخنا شوقى بكثرة الإشارات التاريخية ، وكدنا نجعلها مزية جليلة له ؛ ذلك لأن إشاراته من نوع آخر ، نوع يزيد المعنى كمالاً ، وقوة ، وروعة . من غير أن يتوقف فهم البيت عليه ، أو يخفى الغرض الأصيل بسببه ، فكلُّ يدرك معنى البيت ؛ ولكن إدراك الخاصة له أوفى وأبلغ ، وسرورهم به أقوى وأكمل ؛ لإحاطتهم بإشاراته ، وما يرد منها . وليس كذلك الشأن في أبيات المتنبي .

وفي البيت الثالث (وما قربت أشباه قوم أباعد . . الخ) نقل الشارح أن الواحدى قال : « لم أجِد في هذا البيت بيانا شافياً ، ولا تفسيراً مُقنعاً . وكل تفسير لا يساعده لفظ البيت لم يكن تفسيراً للبيت . والذي يصح في تفسيره أنه يقول : الأشباه من الأبعاد لا يقرب بعضهم من بعض ؛ لأن

الشبه لا يحصل القُرب في النسب ، والأشباه من الأقارب لا يبعد بعضهم من بعض ؛ لأن الشبه يؤكد قرب النسب . هذا إذا جعلنا الأشباه هم الذين يشبه بعضهم بعضاً ؛ كقوله (الناس مالم يروك أشباه) فإن جعلنا الأشباه جمع الشَّبه ، من قولهم : بينهما شَّبه — فعنى البيت لم يقرب شَّبه قوم أباعد . أى : لا يتقاربون في الشَّبه ، ولا يشبه بعضهم بعضاً ، ولا يبعد شبه قوم أقارب . يريد : أنهم إذا تقاربوا في النسب تقاربوا في الشبه . . »

فأى شعر هذا الذى يُحير أئمة اللغة والأدب في فهم معانيه ، وإشاراته ، ويجعلهم يقولون فيه ما قالوا ؟

(١٤) ويصف أعداء كافور ، ممن يتمنون له السوء والموت بأنهم يموتون قبل أن يروا فيه ما يطلبونه . ولو لم يموتوا لعاش وشاب طفلهم ؛ لشدة ما يرونه ، وصعوبة ما يلحقهم ، وما يقاسونه منه . فيقول : —
ودون الذى يَبْعُونَ مَالُو تَخَذُوا إلى الشَّيب منه عشتَ والطفلُ أُشِبْتُ
وقد اضطرب الشراح في فهم البيت ، وتشعبت آراؤهم . وما أولانا بأن نعذرهم !! .

(١٥) وهل يليق في موضع المدح أن يقول الكافور حاكم مصر^١ (وقد كان عبدا حبشيا ؛ لا تغر له بنسب أوقبيل)

وَيُغْنِيكَ عما يَنْسَبُ النَّاسُ أَنَّهُ إِلَيْكَ تَنَاهَى الْمَكْرَمَاتُ وَتَنْسَبُ ؟

(١٦) وعوارٍ لوامعٍ دِينَهَا الْحِلُّ وَلِسَكَنَ زِيَّهَا الْإِحْرَامُ
قال ابن جنى : « سألت المتنبي وقت القراءة عليه عن : (عوار) فقال : أردت السيوف . ودينها الحل : حتى لا تتخرج عن شئ ،

وإحرامها : تجريدتها من الأغمار . . . « فقد تَوَقَّفَ » ابن جني «
في ناحية من البيت ؛ فكشف غموضها المتغي ، وأحسن أن هناك
غموضاً آخر فكشفه .

(١٧) وزار مريضاً فقال يمدحه . . .

لانتدُلَ المرضَ الذي بك شائقَ أنتَ الرجالَ ، وشائقُ عِلَّاتِهَا^(١)
يريد : « أنت شائق إلى كل أحد ؛ فالمرض — إذا أصابك — غير
معلوم في إصابتك ؛ لأن كل الناس يشتاقون إلى زيارتك ؛ لما يسمعون
من أعاجيب أخبارك . فتشوقُ الرجالَ إلى قصدك ، وتشوقُ أمراضها
معهما ؛ فقد شُقتَ المرضَ حتى زارك ، فلا ينبغي لنا أن نَشْكُوهُ
ونعذله ؛ لأنه اشتاق إلى زيارتك^(٢) » .

فما أقبح هذا التعقيد اللفظي والمعنوي !! وما أقبح المعنى في هذا المقام !!
فمن يستسيغ مدح المريض بأنه يشوق الرجال ، ويشوق عِلَّاتِهَا ؟

(١٨) ويقول فيها : —

مُسْتَرَحَصٌ نَظَرُ إِلَيْهِ بِمَائِهِ نَظَرَتْ ، وَعَثْرَةُ رِجْلِهِ بِدِيَاتِهَا
يريد : لو اشترت البرية نظرتها إليه بأعينها لكان الثمن رخيصاً .
ولو فُذِّيتْ عَثْرَةُ رِجْلِهِ بِدِيَاتِ الْخِلَائِقِ كُلِّهَا لَكَانَتِ الدِّيةُ أَرْخَصَ ، وَالْعَثْرَةُ
أغلى . وفي هذا البيت من القبح ما في سائفه ، فوق المبالغة البغيضة .

(١٩) وقوله في الدنيا : —

وَأَوْفَى حَيَاةِ الْغَابِرِينَ لِصَاحِبِ حَيَاةِ أُمْرِ خَاتَمِهِ بَعْدَ مَشِيبِ

(١) تقدير البيت : أنت شائق الرجال ، وشائق عِلَّاتِهَا .

(٢) راجع شرح العكبري للبيت .

يريد : إذا عاش المرء إلى بلوغ المشيب ، وخاتمة حياته في الهرم — فقد تناهت في الوفاء له ، ولا غاية في الوفاء لها بعد ذلك . وهذا أحد المعاني التي استخلصها الشارح من آراء كثيرة مضطربة في فهم البيت^(١) .

(٢٠) وقال يمدح سيف الدولة بالشجاعة :

إذا ما مرت في آثار قومٍ تحاذلتِ الجناحُ والرقابُ
اختلف الشراح في فهم البيت ، وفي المراد من التحاذل ؛ فلو احدى رأى ، ولا بن جنى رأى ، وللخوارزمي رأى ، وللمعري ، والخطيب غير ذلك^(٢) .

(٢١) وقال يمدح بدر بن عمار : —

بهجر سيفوك أغمادها تَمَنَّى الطلَى^(٣) أن تكون الغمودا^(٤)
ومعناه : سيفوك تركت أغمادها من غير أن تعود إليها ، وتستقر فيها ؛ لأنها مشغولة بضرب الأعداء دائماً . فتمنت الأعناق أن تكون هي الأغماد ، لتفارقها السيوف ، ولا تعود إليها ولا تضربها !!
وقد تعب الشراح في مراده . وشرحه أديب كبير منهم ففلف وأخطأ ، فقال الواحدى : « كنت أربأ به عن مثل هذا الفلف ، لتصدره في هذا الشأن . ونموذ بالله من الفضيحة ... » .

فإذا كان الأديب المتصدر لهذا الشأن يضل في الفهم ، ويفضح نفسه — فكيف حال من دونه ؟

(١) راجع العكبرى في شرحه . (٢) انظر العكبرى .

(٣) جمع مطلية ، وطلاة (ضم الطاء فيهما) بمعنى العنق .

(٤) جمع غمد : وهو جراب السيف .

(٢٢) وقال يمدح مساور بن محمد الرومي : —

وَفَشْتُ سِرَاتُنَا إِلَيْكَ ، وَشَفْنَا تَعْرِضُنَا ؛ بِإِذْكَ التَّصْرِيحُ

شرحه ابن جنى ، فقال الواحدى : « إنه لم يقف على حقيقة المعنى ، وقد ذكر في هذا أوجها فاسدة . وإنما حقيقة المعنى : كَتَمْنَا نَقَصْنَا وهزلنا ، فصار النحول صريح المقال . يريد أنه استدل بالنحول على ما في القلب من الحب ؛ فقام ذلك مقام التصريح لو صرحنا ^(١) » .

(٢٣) وقال يمدح سيف الدولة :

إِذَا كَانَ شَمِ الرَّوْحِ أَذْنَى إِلَيْكُمْ فَلَا بَرِحَتْنِي رَوْضَةٌ وَقَبُولُ

شرحه ابن جنى . فقال عنه الواحدى : « من فسر هذا التفسير فقد فضح نفسه ، وغرَّ غيره ^(٢) » .

(٢٤) وقال يمدح كافورا :

قَدْ اخْتَرْتُكَ الْأَمْلَاكَ ^(٣) ، فَاخْتَرْلَهُمْ بَنَا حَدِيثًا . وَقَدْ حَكَمْتُ رَأْيَكَ ، فَاحْكِمِ

والمعنى : قد اخترتك من ملوك الأرض بالقصد إليك ، فاختر لهم بنا حديثا من مدح ، أو هجاء ، أو منع ، أو عطاء . يريد أنهم يتحدثون بنا ، فاختر ما تريد من ثناء ، وإطراء بالإحسان ، أو ذم أو هجاء بالبخل والحرمان ^(٤) .

وهذا معنى غامض ، حاوله ابن جنى فلم يصل إليه ، ووقع على غيره

(١) العكبرى في شرح البيت . (٢) العكبرى في شرح البيت .

(٣) أى : من الأملاك ؛ بمعنى : الملوك . والكلمة منصوبة على نزع الخافض من غير

مسوغ . (٤) شرح العكبرى .

كما قال الواحدى . وفوق هذا فالمعنى غير ملائم لموقف المدائح ، والثناء على الملوك والأمراء .

(٢٥) ومثله فى عدم الملازمة . قوله فى الغزل : —

حاشا لمنلك أن تكون بخيلةً ولمثل وجهك أن يكون عبوسا
فليس مما تمدح به المرأة أن تكون كريمة ، مشرقة ، متهلة مع الأجانب .

(٢٦) وقال وهو بمصر مادحاً سيف الدولة : —

فارتقمكم ، فإذا ما كان عندكم قبل الفراق أذى بعد الفراق يدُ
إذا تذكرت ما بينى وبينكم أعان قلبى على الشوق الذى أجِدُ
وقد تنازع الشراح فى فهم البيتین وخطأ بعضهم بعضا .

(٢٧) وقوله يمدح شجاع بن محمد الطائى : —

بقيت جموعهم ، كأنك كلها وبقيت بينهم ، كأنك مفردُ
يريد أن يقول : وفقت بين الجموع وكأنها غير موجودة ، إذ لا قيمة لها
معدك : فأنت مفرد بالرغم من وجودها حولك . فأين هذا المعنى من
نظيره الواضح فى قول أبى نواس :

ليس على الله يستنكر أن يجمع العالم فى واحدٍ

(٢٨) وقوله فيه : —

صح يا لجممة^(١)!! نذرك وإنا أشقار عييفك ذابل ومهند
... أنى يكون أبا البرية آدم وأبوك والنقلان أنت محمد
أى : (أنهم يسرعون إليك ؛ لطاعتهم لك ، ويحفون بك ، فتصير

(١) اسم طي "أبو الطائين" يريد قبيلتهم .

مهييا ، تقوم أشفار عينيك مقام الرمح الذابل والمهند . وكيف يكون آدم أبو البرية وأبوك محمد وأنت الثقلان — وهما الجن والإنس — تقوم مقامهما بفضلك وكرمك^(١) ؟) . وفي البيت من التعقيد والتعسف — كما قال الشراح — ما فيهما .

(٢٩) وقال يمدح : —

وَأَنْتَ لَا تَجُودُ عَلَى جَوَادِ هِبَاتِكَ أَنْ يُلَقَّبَ بِالْجَوَادِ
أى : لا تجود هباتك على كريم بأن يلقب بصفة الكريم ؛ لأن هذا الوصف خاص بك ، وقصّر عليك . وفي البيت من التعقيد اللفظي والمنعوى ما لا يخفى .

(٣٠) فبعض الذى يبدو الذى أنا ذا كره وبعض الذى يحنى على الذى يبدو

أى : ما أذكره بعض ما يبدو من فضائلك ، وما يبدو هو بعض ما يخفى على .

(٣١) وسيفي . لأنت السيف ، لا ما تسله لضرب ، ومما السيف منه لك الغمد

أى : أقسم بسيفي إنك السيف الحق ، لأنك أمضى منه . وإن غمدك (أى : الدروع التى تلبسها وتدخل فيها كأنها الغمد) — مصنوع من الحديد الذى يصنع منه السيف .

(٣٢) وقوله يمدح سيف الدولة حين هزم الخارجين عليه من بعض القبائل العربية : —

وَكُنْتَ السَّيْفَ قَائِمَهُ إِلَيْهِمْ وَفِي الْأَعْدَاءِ حَدِّكَ وَالْغِرَارُ^(٢)

(١) شرح العكبرى : (٢) قال الشارح معناه : كنت لهم سيفاً يدافع عنهم ، ويحرسهم . قائمه فى أيديهم ، وحده فى أعدائهم ، إلى أن خالفوك ؛ فصارحدها فيهم .

قال الواحدى : « تخطب ابن جنى وابن فورجة فى تفسيره ولم يعرفاه » .
ومن الأمثلة الأخرى قوله فى مدح ابن العميد : —

(٣٣) كيف يَرْتَدُّ مِنْكِجِي عن سماء والذِّجَادُ الذى عليه نِجَادُهُ

وَتَقَلَّدْتُ شَامَةً فى نَدَاهُ جِلْدُهَا مُنْفِسَاتُهُ وَعَتَاذُهُ

(٣٤) جوابُ مُسَائِلِي أَلَهُ نَظِيرٌ؟ وَلَا لَكَ فى سُوءِ الْإِكِّ لَا ، أَلَا ، لَا

(٣٥) فى مدح الأوراجى الكاتب :

من يَهْتَدِي فى الفعلِ مَا يَهْتَدِي فى القولِ حتى يفعلَ الشعراءُ

(٣٦) وفيها يقول : —

لَا تَكْثُرُ الْأَمْوَاتُ كَثْرَةَ قِلَّةٍ إِلَّا إِذَا شَقِيتَ بِكَ الْأَحْيَاءُ

وَالْقَلْبُ لَا يَنْشَقُّ عَمَّا تَحْتَهُ حَتَّى تَحُلَّ بِهِ لَكَ الشَّحْنَاءُ

... ..

وَلَجِدْتَ حَتَّى كَذَتْ تَبْخَلُ حَائِلًا الْمُنْتَهَى وَمِنْ الشُّرُورِ بُكَاهُ

(٣٧) وفيها :

فَيَأْتِيَا قَدَمٍ سَعَيْتَ إِلَى الْعَلَا أَدُمُ الْهَلَالِ لِأَخَصَّتِكَ حِذَاهُ

لَوْ لَمْ تَسْكُنْ مِنْ ذَا الْوَرَى اللَّذِمْنِكَ هُوَ عَقَمَتْ بِمَوْلِدِ نَسْلِهَا حَوَاهُ

... ..

(٣٨) وإذا كانت العاطفة تظهر أقوى ما تكون تدفقا ، وأبرز ما تبدوا أثرها

فى الرثاء والغزل فأين هى فى شعر المتنبى ؟ وأين حسن المناسبة حين

يقول فى رثاء والده سيف الدولة :

صَلَاةُ اللَّهِ خَالِقِنَا حَنُوطٌ عَلَى الْوَجْهِ الْمَكْفَنِ بِالْجَمَالِ
عَلَى الْمَدْفُونِ قَبْلَ التَّرْبِ صَوْنًا وَقَبْلَ الْأَحْدِ فِي كَرَمِ الْخِلَالِ
فَإِنَّ لَهُ بَيْطَانَ الْأَرْضِ شَخْصًا جَدِيدًا ذِكْرُنَاهُ وَهُوَ بَالِي
وَمَا أَحَدٌ يُخَلِّدُ فِي الْبَرَايَا بَلِ الدُّنْيَا تَمُوتُ إِلَى زَوَالِ
أَطَابَ النَّفْسَ أَنْكَ مِثَّ مَوْتَا تَمَنَّتْهُ الْبَوَاقِي وَالْخَوَالِي

... ..

وهل يسوغ في مواقف الرثاء أن يقال : طابت النفس بموت الميت ؛ لأنه أدرك كذا وكذا ؟

(٣٩) وقوله في رثاء تغلب عم سيف الدولة : — (وتأمل البيت الأخير ، وقبيح مناسبته لموقف العزاء) :

مَاسِدِكُ^(١) عِلَّةٌ بِمَوْرُودِ أَكْرَمَ مِنْ تَغْلِبَ بْنِ دَاوُودِ
يَأْتِي مِنْ مَيْتَةِ الْفَرَّاشِ . وَقَدْ حَلَّ بِهِ أَصْدَقُ الْمَوَاعِيدِ
وَمَثَلُهُ أَنْكَرَ الْمَمَاتِ عَلَى غَيْرِ سُرُوجِ السَّوَابِحِ الْقُودِ^(٢)
بَعْدَ عِثَارِ الْقَدَا بِلَبَّتِهِ وَضَرْبِهِ أَرْوَسَ الصَّنَادِيدِ
وَحَوْضِهِ غَمَرٌ كُلُّ مَهْلَكَةٍ لِلذَّمْرِ^(٣) فِيهَا فَوَادُ رِغْدِيدِ
فَإِنْ صَبَرْنَا فَإِنَّا صُـبْرُ وَإِنْ بَكَيْنَا فغَيْرُ مَرْدُودِ^(٤)

(٤٠) وقوله في الغزل :

خَوْدُ جَنْتَ بَيْتِي وَبَيْنَ عَوَازِلِي حَرْبًا ، وَغَادَرَتِ الْفَوَادُ وَطَيْسَا

(١) ملازمت . (٢) الطوال (الفرد : قيدود) . (٣) للشجاع .

(٤) أى : فان البكاء غير راجع علينا باللوم .

بَيْضَاءُ، يَمْنَعُهَا تَسَكُّمٌ^(١) دَلَّهَا تَيْهًا، وَيَمْنَعُهَا الْحَيَاءُ تَمِيسًا^(٢)
لَمَّا وَجَدْتُ دَوَاءَ دَائِي عِنْدَهَا هَانَتْ عَلَى صِفَاتُ جَالِينُوسَا
مُنْعَمَةٌ، مُنْعَمَةٌ، رَدَّاحٌ^(٣) يُكَافُّ لَفْظُهَا الطَّيْرَ الْوُقُوعَا
تُرْفَعُ ثَوْبَهَا الْارْدَافُ عَنْهَا فَيَقِي مِنْ وَشَاحِيهَا شَسُوعَا^(٤)
إِذَا مَاسَتْ رَأَيْتَ لَهَا ارْتِمَاجَا لَهُ^(٥) لَوْلَا سَوَاعِدُهَا تَزُوعَا^(٦)
تَأْلُمُ دَرَزُهُ^(٧)، وَالْدَرَزُ لَيْنٌ كَمَا تَتَأْلَمُ الْعَصْبُ الصَّنِيعَا^(٨)
ذِرَاعَاهَا عَدُوَا دُمَلَجِيهَا يَقْنُ ضَجِيعُهَا الزَّنْدُ الضَّجِيعَا
كَأَنَّ نِقَابَهَا غَيْمٌ رَقِيقٌ يُضِيءُ بِمَنْعِهِ الْبَدْرَ الظُّلُوعَا

وإذا كان هذا نصيب الفزل والرئاء من عاطفته فنصيب غيرها أضعف وأقل . فلا عجب أن سمعناه يمدح عبد الواحد بن العباس الكاتب بشعر لا يوصف إلا بأنه مجرد ألفاظ مرصوفة ميتة يقول :

.....
الْحَازِمَ الْيَقِظَ الْأَغْرَّ الْعَالِمَ الْفَطِنَ الْأَلَدَّ الْأَرْيَحِيَّ الْأَرْوَعَا
الْكَاتِبَ اللَّبِيقَ الْخَطِيبَ الْوَاهِبَ النَّدُسَ^(٩) اللَّيِّبَ الْهَبْرِيَّ^(١٠) الْمِصْقَعَا^(١١)

(٢١) المراد : أن تتكلم ، وأن تبتس خذفت « أن » وبقي عملها في القملين على مذهب الكوفيين ، ومنهم اللنبي .

(٣) ضخمة الجيزة . (٤) بعيدا . (٥) لثوبها .

(٦) صفة لا يرتجاج ؛ أي : ارتجاج يزرع الثوب .

(٧) الدرز : موضع الحياطة المكشوفة ، والمراد : تتألم من مكان الحياطة إذا لمس جسمها . (٨) الحكمه المتقن . (٩) الفهامة .

(١٠) السيد الكريم . (١١) الفصيح .

وَبِمَثَلِهِ يمدح سيف الدولة :

أَحِبُّكَ يَا شَمْسَ الزَّمَانِ ، وَبَذَرَهُ وَإِنْ لَامَنِي فِيكَ الشَّهَاءُ ، وَالْفَرَاقِدُ
وَذَاكَ لِأَنَّ الْفَضْلَ عِنْدَكَ بَاهِرٌ وَلَيْسَ لِأَنَّ الْعِيشَ عِنْدَكَ بَارِدُ
فَإِنْ قَلِيلَ الْحُبِّ بِالْعَقْلِ صَالِحٌ وَإِنَّ كَثِيرَ الْحُبِّ بِالْجَهْلِ فَاسِدُ

وغير هذا كثير في موضوعاته الشعرية المختلفة . إلا مالا أم طبيعته ،
ولمَسْ شَاف قلبه ، وَحَبَّةُ فؤاده ؛ كالتطمع في ولاية ، أو التطلع لضيعة ،
أو ترقب هبة جزيلة ، أو وصف حرب طاحنة ، أو إظهار نقمة على حاسد ،
أو الغضب على الدنيا التي لا تحقق كبار مطامعه ، أو ما يشبه هذا ؛ من كل
ما هو إلى المَقَمِّ أَدْنَى ، أو إلى القوة والعنف أَقْرَب .

أما في غير هذه الموضوعات فلا نرى العاطفة الرقيقة المرفهة التي تشارك
— بحق — في السراء والضراء ، وتستجيب للأحداث ؛ خيرها ، وشرها ،
وتَظَهَّرَ على صفحتها صور الانفعالات واضحة صادقة . نعم لانراها في كثير
من شعر المتنبي « وإن وجدت ^(١) زاحمتها الصنعة ، وكان للتفكير العقلي
نصيب وافر بجانبها ؛ فلا تظهر في الشعر تلك الروعة التي تؤثر دفعة واحدة
في العواطف قبل أن يستيقظ العقل ، ويفكر ، وتفعل في القلب فعلها قبضاً
وبسطاً ؛ حتى تدعه وهو كالعصفور ؛ يثب في قفصه حيران مضطرباً .

أجاد أبو الطيب في أبواب شتى من الشعر ، وانفرد بفنون قل أن
يزاحمه فيها مزاحم . ولكنه في باب الحساسية النفسية لا يستطيع أن يعطينا
مثل ما أعطانا في الأبواب الأخرى . والسبب في احتجاب الحساسية عن

(١) ما يأتي من كتاب المتنبي : لسكمال حلمي بك ص ١٨٥ باختصار .

شاعرنا ، ونفورها منه — أن المصادفات لم تَرَم به في المواقف التي تبعث على إيقاظ هذه الروح ؛ حتى كاد طبعه يتحجر ، ولا يتقبل التأثر ؛ لكي يستطيع أن يؤديها في شعره بنفس القوة التي اندفعت بها إلى قلبه . ويظهر أنه اعترف بهذا الجود حين قال : —

أصخرة أنا ؟ مَالِي لَا تُفَيِّرُنِي هَذِي الْمُدَامُ ، وَلَا هَذِي الْأَغَارِيدُ ؟
هذه أشعاره في الغزل والرثاء مثلا — والحساسية في هذين البابين أظهر فيهما من غيرها — لا نجد روحه الشعرية أو عواطفه فيهما إلا ضعيفة ، متكلفة ، نافرة ، مستعصية . ولولا قوة تفكير الشاعر ، وإتقان صنعته ومهارته في التأليف ما بقى لكثير من أشعاره في هذين الفنين رونق ، ولا ديباجة ؛ إذ نراه في الموضع العاطفي يخاطب العقل المفكر ؛ فيغيب عنه الشعر الوجداني .

قدّمنا أن وجدانه لا يهيج إلا في مواضع معلومة . ولكل شاعر ما يهيج وجدانه . قال عبد الملك بن مروان لأحد الشعراء : هل تقول الآن شعرا ؟ قال : ما أشرب ولا أطرب ولا أغضب ؛ ولست أقول الشعر إلا بوحدة من هذه . وشاعرنا لا يتحرك للشراب ، ولا للغناء ، ولا يكاد يعرف الحب ، ولا يحن إلى الأوطان النائية ، ولا يبكي على عزيز مضى . ولكنه يعرف فنونا أخرى ؛ إنه كالوحش الضارى إذا أغضبه . أغضبه إن شئت ؛ ثم انظر إليه كيف يحيد القول ؟ أخزّنه بالحرمان ؛ ثم دعه يشعر : أخزّ عنه العطاء ؛ ثم استمع لشكواه ، عِدّه الولاية ، وتناقل عنه قليلا ؛ ثم اتركه يتلهب غيظا على الزمن ، وانظر إليه وقد تولّته السكّابة ، وأخذت عليه مسالكه ؛ فيزهد

في الدنيا ، ثم لا يلبث أن يبرق له بارق أمل ، فيفيض في الاستعطاف ،
ثم يستريح في الوعد ؛ فيصب النقم صباً . . . » .

* * *

إلى هنا ينتهى القول في بعض عيوب المتنبي المعنوية . ومن الخيف أن ننكر
طرافة معانيه ، وغزارتها في أكثر شعره ، ولعب الخيال بها . بل إنه بالغ
في هذه الأوصاف ؛ فوقع فيما يقع فيه المسرفون المتكلفون ؛ خفاء في المعنى
وغموض في الفكرة ، ومعاذلة في الألفاظ ومدلولاتها . وكثير من الأمثلة
المُعتمة التي سردناها إنما داخلها الفساد من هذه الناحية ، ومن الإفراط
في تدقيق المعاني ، واستقصائها أحياناً . متناسياً (أن الغاية في تدقيق المعاني
سبيل إلى تعميمها ، والتعمية لُكنةٌ . ومن أراد الإبانة في مديح ، أو غزل ،
أوصفه شئٌ ... فأتى بأغلاق — فقد دل على عجزه عن الإبانة ، وقصوره
عن الإفصاح ^(١)) .

ويظهر أن المتنبي نفسه كان يدرك عيبه ، ويحس ما يدور حول معانيه
من تشعب الآراء ، وتضارب المذاهب ، وتنازع الأئمة في كشف خباياها
إذ يقول :

أَنَامُ مِلَّ جُفُونِي عَنْ شَوَارِدِهَا وَيَسْهَرُ الْخَلْقُ جَرَّاهَا، وَيَخْتَصِمُ

وليس بشعر ما يسهر الخلق في تفهمه ، ويختصم الأئمة في إدراك مراميه .
ومما يتصل بعيوبه المعنوية مبالغاته المسرفة التي تتجاوز حد الاعتدال
إلى حيزِ المحال ؛ فتصير إلى الهذر واللغو أقرب ، وتنفر النفس منها ومن الشعر

الذى تَصْمَنُهَا . وتنشكك في حقائقه الأخرى ، وتستقبل صورته الخيالية وجماله
الفنى بالبرود ؛ بل الجود . وعسى ألا يختلط الأمر علينا بين هذه المبالغات
البغيضة وقول الأدباء : (خير الشعر أ كذبه) ؛ فإنهم لم يقولوا هذا « وهم^(١)
يريدون كلاما غُفلاً ساذجا ؛ يكذب فيه صاحبه ، ويُفِرط ؛ كأن يصف
الحارس بأوصاف الخليفة ، ويقول للبائس المسكين : إنك أمير العراقين .
ولكن مافيه صنعة يُتَعَمَّلُ لها ، وتدقيق فى المعانى يحتاج إلى فطنة لطيفة ، وفهم
ثاقب... فلا نجري مقاييس الشعر على حدود المنطق ، ونأخذ نفوسنا فيه بالقول
الحقيق ، حتى لا ندعى إلا ما يقوم عليه من العقل برهان يقطع به ، ويُبلِجُ
إلى موجبه ؛ مع أن الشعر يكفى فيه التخيل ، والذهاب بالنفس إلى ما تتراح
إليه من التعليل . ولا شك أن من قال :

كَلَّفْتُمُونَا حُدُودَ مَنْطِقِكُمْ وَالشَّعْرُ يَكْفِي عَنْ صَدَقِهِ كَذِبُهُ

إلى هذا النحو قصد ، وإياه عمد ؛ إذ يبعد أن يُريدَ بالكذب إعطاء
الممدوح حظاً من الفضل والسؤدد ليس له ، ويُبلغه بالصفة حظاً من التعظيم
يجاوز به من الإكثار محله ؛ لأن هذا الكذب لا يبين بالحجج المنطقية ،
والقوانين العقلية ؛ وإنما يُكذَّبُ فيه القائل بالرجوع إلى حال المذكور ،
واختباره فيما وُصِفَ به ، والكشف عن قدره وخسته ، ورفعته أو وضعته ،
ومعرفة محله ومرتبته .

والمتنبى من هذه المبالغات المقيمة أوفر نصيب ، ولا يكاد أحد يسبقه

(١) أسرار البلاغة ص ٢٣٥، ٢٣٩ .

فيها . ولعل السبب في ذلك أنه يتكسب بشعره ، ويتخذ مَظِيَّةً لِمَآرِبِهِ ومطامعه التي فاق بها نظراءه ، ولم يقف عند حد كما وقفوا ؛ فليس بدعا أن يفوقهم في المبالغة كذلك ؛ ليرضى الممدوحين ، ويصل إلى ما يريد . استمع إليه يمدح ابن العميد فيقول ^(١) :

خلقَ الله أَفصحَ الناسِ طُرًّا في بلادِ أعرابِهِ أكرادُهُ
وَأحقَّ الغُيُوثِ نفسًا بحَمْدِهِ في زمانٍ كلُّ النفوسِ جَرَادُهُ
مثلَ ما أحدثَ النُّبُوَّةَ في العالَمِ ، والبَغْتِ ؛ حينَ شاعَ فَسادُهُ
زانتِ الليلَ غرةَ القمرِ الطالِعِ فيه ، ولم يَشْنُهُ سَوَادُهُ
كثُرَ الفكرُ ! كيف نُهْدِي كما أَهْدَتْ إلى رَبِّهَا الرئيسِ عِبَادُهُ ^(٢) ؟
والذي عندنا من المالِ والخيلِ فنُهُ هَبَانُهُ ، وَقِيَادُهُ

(١) بل استمع إليه حين يمدح ابن المبارك الأنطاكي فيقول :

مَنْ يَزُرُهُ يَزُرُ سُلَيْمَانَ فِي السَّمَاكِ ؛ جَلَالًا ، وَيُوسُفًا فِي الْجَمَالِ
وربيعًا يُضاحِكُ الغَيْثُ فيه زَهَرَ الشُّكْرُ من رياضِ المعالي
أَكْبَرُ العيبِ عنْدَهُ البخلُ ، والطَّمَنُ عليه التَّشْبِيهُ بالرُّثْبَالِ
فَخُذْ ماءَ رِجْلِهِ ، وَانْضَحْ في السَّمْدَنِ ؛ تَأْمَنُ بَوَاقِ الزَّلْزَالِ

(١) أبو الفضل محمد بن الحسين العميد : فارسي الأصل ، ولكنه نبغ في الأدب ، وعلوم اللغة ؛ حتى صار أشهر أديب في عصره . وقد زاره النبي بَارِجَان (من بلاد فارس حيث يتولى الوزارة لركن الدولة البويهى) ومدحه ؛ فأغدق عليه . وكانت وفاته سنة ٣٦٠ هـ .

(٢) تأمل هذا البيت خاصة . ومعناه كما قال العكبرى : أ كثرتُ الفكرُ ؛ فكيف أهدي إليك شيئًا كما تهدي العميد إلى ربها ؟ .

وَأَمْسَحًا ثُوبَهُ الْبَقِيرَ^(١) عَلَى دَا يُكَمَا ؛ تُشْفِيًا مِنَ الْأَعْلَالِ
 مَالثًا مِنْ نَوَالِهِ الشَّرْقَ وَالْغَرْبَ ، وَمِنْ خَوْفِهِ قُلُوبَ الرِّجَالِ
 قَابِضًا كَفَّهُ الْيَمِينَ عَلَى الدُّنْيَا . وَلَوْ شَاءَ حَازَهَا بِالشَّمَالِ
 نَفْسُهُ جَيْشُهُ ، وَتَدِيرُهُ النَّصْرُ ، وَالْحَظُّهُ الظُّلُمَاتُ وَالْعَوَالِي
 رَجُلٌ طِينُهُ مِنَ الْعَنْبَرِ الْوَرْدِ ، وَطِينُ الْعِبَادِ مِنْ صَلْصَالِ
 فَبَقِيَّاتِ طِينِهِ لَاقَتْ الْمَاءَ ، فَصَارَتْ غُذُوبَةً فِي الزَّلَالِ
 وَبَقَايَا وَقَارِهِ عَافَتْ النَّاسَ ؛ فَصَارَتْ رَكَاةً فِي الْجِبَالِ
 أَنْتَ طَوْرًا أَمْرٌ مِنْ نَاقِعِ السَّمَاءِ وَطَوْرًا أَحْلَى مِنَ السَّلْسَلِ
 إِنَّمَا النَّاسُ حَيْثُ أَنْتَ ؛ وَمَا النَّاسُ فِي مَوْضِعٍ مِنْكَ خَالِ

.....

(٢) وقوله في مدح سيف الدولة : —

تَشْبِيهُ جُودِكَ بِالْأَمْطَارِ غَادِيَةً جُودٌ إِكْفَكَ ثَنَانٌ ؛ نَالَهُ الْمَطَرُ^(٢)
 تَكَسَّبَ الشَّمْسُ مِنْكَ النُّورَ طَالِعَةً كَمَا تَكَسَّبَ مِنْهَا نُورُهُ الْقَمَرُ

(٣) وقوله في مدح أمير حمص : —

تَمْضَى الْمَوَاقِبُ ، وَالْأَبْصَارُ شَاخِصَةً مِنْهَا إِلَى الْمَلِكِ الْمَيْمُونِ طَائِرُهُ
 قَدْ حَرَنَ فِي بَشَرٍ ؛ فِي تَاجِهِ قَرَرٌ فِي دِرْعِهِ أَسَدٌ ، تَدْمِي أَظْفَرُهُ
 حُلُوْ خِلَافَتِهِ ، شُوسٍ^(٣) حَقَائِقُهُ^(٤) تَحْصِي الْحَصَى قَبْلَ أَنْ تَحْصَى مَا زَرُهُ

(١) الذي لا كمل له . (٢) لأنك رضيت أن يتشبه بك .

(٣) جمع : أَشْشُوسُ ؛ وهو : الشيء البعيد الذي لا يُنال .

(٤) جمع : حقيقة ؛ وهي : الشيء الذي يجب على المرء أن يصونه ويحرسه .

تَضِيقُ عَنْ جِيشِهِ الدُّنْيَا ؛ فَلَو رَحِبَتْ كَصَدْرِهِ لَمْ تَبِنْ فِيهَا عَسَاكِرُهُ
إِذَا تَغَلَّغَلَ فِكْرُ الْمَرْءِ فِي طَرَفٍ مِنْ مَجْدِهِ غَرِقَتْ فِيهِ خَوَاطِرُهُ
مَنْ قَالَ : لَسْتُ بِمُخَيِّرِ النَّاسِ كُلِّهِمْ فَجْهَلَهُ بِكَ عِنْدَ النَّاسِ عَازِرُهُ

(٤) وقوله في مدح محمد بن زُرَيْقٍ الطرسوسي : —

لَوْ كَانَ ذُو الْفَرْزَيْنِ أَعْمَلَ رَأْيَهُ^(١) لَمَّا أَتَى الظُّلُمَاتِ - صِرْنَ شُمُوسًا
أَوْ كَانَ صَادِفَ رَأْسٍ عَازَرَ^(٢) سَيْفُهُ فِي يَوْمٍ مَعْرَكَةٍ - لَأَعْيَا عِيسَى
أَوْ كَانَ لُجُجَ الْبَحْرِ مِثْلَ يَمِينِهِ مَا انْشَقَّ ؛ حَتَّى جَارَ فِيهِ مُوسَى
أَوْ كَانَ لِلنِّيرَانِ ضَوْءُ جَبِينِهِ عُبِدَتْ ؛ فَصَارَ الْعَالَمُونَ مَجُوسًا

(٥) وقوله في الغزل : —

فَذُقْتُ مَاءَ حَيَاةٍ مِنْ مُقْبَلِهَا لَوْ صَابَ تَرْبًا لِأَحْيَا سَالِفَ الْأَمَمِ
(٦) وقال يصف سيف الممدوح ، وما شربه السيف من دم الأعداء : —
رَبَّانَ ؛ لَوْ قَذَفَ الَّذِي أَسْقَمْتَهُ لَجَرَى مِنَ الْمُهْجَاتِ^(٣) بَحْرٌ مُزْبَدٌ

(٧) وقوله يصف نفسه بالنحول ، ويخاطب حبيبته : —

خُلْتُ دُونَ الْمَزَارِ ؛ فَالْيَوْمَ لَوْ زُرْتُ لِحَالِ النُّحُولِ دُونَ الْعِنَاكِ

(٨) ومثله : —

أُبَلَى الْهَوَى أَسْفَابَ يَوْمِ النَّوَى بِدَنِي وَفَرَّقَى الْهَجْرُ بَيْنَ الْجَفْنِ وَالْوَسَنِ

(١) أى : عمل برأى الممدوح . (٢) ميت أحياء سيدنا عيسى .

(٣) أى : من دم المهج .

رُوحٌ تَرَدَّدُ فِي مِثْلِ الْخِلَالِ ؛ إِذَا أَطَارَتِ الرِّيحُ عَنْهُ الثُّوبَ لَمْ يَبِينِ
كَفَى بِجِسْمِي نَحْوَلًا أَنِّي رَجُلٌ لَوْلَا مُخَاطَبَتِي إِيَّاكَ لَمْ تَرَنِي

(٩) وقوله في مدح سعيد بن عبد الله الكلابي ، ووصف فلول أعدائه المنهزمة
من قبيلة تميم : —

وَضَاقَتِ الْأَرْضُ ؛ حَتَّى كَانَ هَارِبُهُمْ إِذَا رَأَى غَيْرَ شَيْءٍ ظَنَّهُ رَجُلًا
فَبَعْدَهُ - وَإِلَى ذَا الْيَوْمِ - لَوْرَكَضَتْ بِالْخِلِيلِ فِي لَهَوَاتِ الطُّغْلِ مَا سَعَلَ^(١)

(١٠) وفي مدح سيف الدولة : —

إِنْ كَانَ مِثْلُكَ كَانَ أَوْهُوَ كَانَ فَبِرْتُ حِينَئِذٍ مِنَ الْإِسْلَامِ

(١١) وفي مدح أبي علي هارون الكاتب : —

لَمْ تَحْكُ نَائِلَكَ السَّحَابُ ؛ وَإِنَّمَا حُمَّتْ بِهِ ؛ فَصَبِيحُهَا الرُّحَصَاءُ^(٢)
لَمْ تَلَقَ هَذَا الْوَجْهَ شَمْسُ نَهَارِنَا إِلَّا بَوَجْهِ نَيْسٍ فِيهِ حَيَاءُ

(١٢) وفي مدح محمد الأوسى (من بني أوس بن معن) : —

لَمْ يَخْلُقِ الرَّحْمَنُ مِثْلَ مُحَمَّدٍ أَحَدًا . وَظَنِّي أَنَّهُ لَا يَخْلُقُ

(١٣) وفي بدر بن عمار : —

لَوْ كَانَ عِلْمُكَ بِالْإِلَهِ مُتَسَّمًا فِي النَّاسِ مَابَعَثَ الْإِلَهُ رَسُولًا
لَوْ كَانَ لَفُظُكَ فِيهِمْ مَا أُنْزِلَ الْقُرْآنَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ

(١) أى : بعد اليوم الذى انهزم فيك أعداؤك وللى يومنا هذا — لو ركضت خيلهم
في حلق صبي ماسعل ، لأنه لا يشعر بها ، ولا براكيها ؛ لفلتهم وذلتهم .
(٢) عرق الحمى .

(١٤) ويقول عن نحوله وهزاله :

ولو قلمُ أَلْقَيْتُ في شِقِّ رَأْسِهِ من السَّقَمِ مَا غَيَّرْتُ مِنْ خَطِّ كَاتِبٍ^(١)

(١٥) وقوله : —

يَفْنَى الْكَلَامُ وَلَا يُحِيطُ بِوَصْفِكُمْ أُمُحِيطُ مَا يَفْنَى بِمَا لَا يَنْفَدُ

(١٦) وقوله : —

فَخَلَّ كَفَكَ تَهْمِي ، وَاثْنِ وَابِلَاهَا إِذَا اكْتَفَيْتُ ؛ وَإِلَّا أَغْرَقَ الْبِلَادُ

(١٧) وقوله :

فَلَمْ تَلَقِ ابْنَ إِبْرَاهِيمَ عَنَسِي^(٢) وَفِيهَا قُوْتُ يَوْمِ الْقُرَادِ^(٣)

(١٨) وقوله في مدح محمد بن سيار : —

يَكَادُ يَصِيبُ الشَّيْءَ مِنْ قَبْلِ رَمِيهِ وَيُمْكِنُهُ - فِي سَهْمِ الْمُرْسَلِ - الرَّؤْدُ^(٤)

و يُنْفَذُهُ فِي الْعَقْدِ وَهُوَ مُضَيِّقٌ مِنْ الشَّعْرَةِ السُّودَاءِ وَاللَّيْلِ مُسْوَدٌ^(٥)

وفي هذه المبالغة وأشباهاها يقول ابن فورجة : ليس هذا أول محال ادعاه للمدح ؛ وما هو إلا هَوَسٌ عَرَّضَ لَهُ فُقُذُهُ .

(١٩) ويدعو على الإبل المرتحلة بأحبابه فيقول : —

لَا مِرْتٍ مِنْ إِبِلٍ لَوْ أُنِيَ فَوْقَهَا لَمَحَتْ حَرَارَةُ مَدْمَعِي سِمَاتِهَا

(١) يقول : بلغ من سقمي ونحولي أنني لو وضعت في داخل الشق الذي برأس القلم (بجانب السن ؛ حيث يجري الحبر) وكتب الكاتب به — ما أثر هذا في القلم أو الكتابة .

(٢) ناقتي الصلبة . (٣) قتل الحيوانات .

(٤) أي يمكنه إرجاع السهم المرسل ؛ لأن السهم بطبعه .

(٥) أي : ينفذ سهمه في العقدة الضيقة بالشعرة السوداء ، في الليل المظلم .

(٢٠) وقال يمدح فارساً : —

لَوْ رَزَّ يَرْكُضُ فِي سَطُورِ كِتَابَةٍ أَخَصَى بِخَافِرِ مُهْرِهِ مِيَامَتَهَا

(٢١) فَنِي فُؤَادِ الْحُبِّ نَارُ جَوَى أَحْرُ نَارِ الْجَحِيمِ أَبْرَدَهَا

(٢٢) يَا كَرَمَ الْأَكْرَمِينَ ، يَا مَالِكَ الْأَمْلاكِ طَرًّا ، يَا أَصِيدَ الصَّيْدِ

(٢٣) أَلْبَابِنَا بِجَمَالِهِ مَبْهُورَةٌ وَسَجَابِنَا بِنَوَالِهِ مَفْضُوحُ

(٢٤) لَوْ فَرَّقَ الْكَرَمَ الْمَفْرَقَ مَالَهُ فِي النَّاسِ لَمْ يَكْ فِي الزَّمَانِ شَحِيحُ

(٢٥) إِنْ كُنْتَ ظَاعِنَةً فَإِنَّ مَدَامِي تَكْفِي مَزَادَ كَمْ ، وَتُرَوِّي الْعِيسَا

(٢٦) وَفِي مَدْحِ كَافُورٍ ، وَتَهْنِئَتِهِ بِدَارِ جَدِيدَةٍ : —

أَنْتِ أَعْلَى مَحَلَّةً أَنْ تُهَيَّيْ بِمَكَانٍ فِي الْأَرْضِ ، أَوْفَى السَّمَاءِ

وَلَكَ النَّاسُ ، وَالْبِلَادُ ، وَمَا يَسْرَحُ بَيْنَ الْغُبَرَاءِ وَالْخَضِرَاءِ

(٢٧) وَفِي مَدْحِهِ (وَهُوَ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَلَسْ لَهُ وَلَا حَسَبٌ) : —

وَأَيُّ قَبِيلٍ يَسْتَحِقُّكَ قَدْرُهُ مَعْدُنُ عِدْنَانٍ فِدَاكَ ، وَيَعْرُبُ

(٢٨) وَقَالَ فِي رِيعِ الْأَحْبَابِ : —

سَقَمِيَّتُهُ عِبْرَاتٍ ؛ ظَنَّمَا مَطَرًا سَوَائِلًا مِنْ جُفُونٍ ؛ ظَنَّمَا سُحْبًا

(٢٩) وَقَوْلُهُ فِي مَدْحِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ :

إِنْ كَانَ قَدْ مَلَكَ الْقُلُوبَ فَإِنَّهُ مَلَكَ الزَّمَانَ ؛ بِأَرْضِهِ وَسَمَائِهِ

الْشَّمْسُ مِنْ حُسَادِهِ ، وَالنَّصْرُ مِنْ قُرْنَائِهِ ، وَالسَّيْفُ مِنْ أَسْمَانِهِ

أَيْنَ الثَّلَاثَةِ مِنْ ثَلَاثٍ خِلَالِهِ مِنْ حُسْنِهِ ، وَإِبَائِهِ ، وَمَضَائِهِ

مَضَتْ الدُّهُورُ وَمَا أَتَيْنَ يَمِثْلُهُ وَلَقَدْ أَتَى ؛ فَعَجَزْنَا عَنْ نَظَرَانِهِ

(٣٠) وفي مدح المغيث بن علي (وقد جاء اسمه على لسان امرأة فقال) :

جاءت^(١) بأشجع من يُسمى ، وأسمَح من أعطى ، وأبلغ من أُملى ، ومن كتبنا
لو حلَّ خاطِرُهُ في مُقعدٍ لمشي أو جاهلٍ لصَحَا ، أو أخرسٍ خطبَا

.....

تَحَلَّوْا مَذَاقَهُ ، حَتَّى إِذَا غَضِبْنَا حَالَتْ ؛ فَلَوْ قَطَرَتْ فِي الْبَحْرِ^(٢) مَاشِرِبَا
(٣١) وفي مدح علي بن محمد التميمي :

قَسَا ؛ فَالْأَسَدُ تَفَزَّعُ مِنْ قَوَاهُ وَرَقَّ ؛ فَنَحْنُ نَفَزَّعُ أَنْ يَذُوبَا
أَشَدُّ مِنَ الرِّيحِ الْهَوَجِ بَطْشَا وَأَسْرَعُ فِي النَّدَى مِنْهَا هُبُوبَا

(٣٢) وفي مدح طاهر بن الحسين العلوي :

وَحَقٌّ لَهُ أَنْ يَسْبِقَ النَّاسَ جَالِسَا وَيُدْرِكَ مَا لَمْ يَدْرِكُوا غَيْرَ طَالِبِ
وَيُحْدِثَ عَرَائِينَ الْمُلُوكِ ؛ وَإِنَّهَا لَعِنُ قَدَمَيْهِ فِي أَجَلِ الْمَرَاتِبِ

* * *

تلك أمثلة من شنيع مبالغاته ، وما أكثرها ! . وقد يكون عذره فيها أنها
الوسيلة الناجعة لاستنزاف المنح ، والعطايا ، وإغراء الملوك والأمراء وأشباههم
من الأغنياء بالبذل والهبات ؛ لميلهم — إذ ذاك — إلى المديح المسرف ،
وحب الثناء المستفيض . وهو هوَى يخالج نفوس كثير من الأمم العربية
قديمها وحديثها ؛ لأسباب تاريخية .

(١) أى : ذكرت اسمه . (٢) المراد : النهر العذب .

على أن له مبالغات أخرى لم تبلغ في القبح ما بلغت هذه ؛ فقد يلبسها ما يجعلها خفيفة الوقع ، مستظرفة الأثر ؛ (اقربها مما يجري على السنة الناس وخواطرم ، أو : لاشتغالها على ما يدل على التشبيه ، والمقاربة ، والبعد عن الحقيقة) كقوله :

- (١) وَعَذَلْتُ أَهْلَ الْعِشْقِ حَتَّى ذُقْتُهُ فَعَجِبْتُ كَيْفَ يَمُوتُ مَنْ لَا يَعْشَقُ
(٢) لَوْ لَا مُفَارَقَةُ الْأَحْبَابِ مَا وَجَدْتُ لَهَا الْمُنَابَا إِلَى أَرْوَاحِنَا سُبُلًا
(٣) هَامَ الْفَوَادُ بِأَعْرَابِيَّةٍ سَكَنْتُ بَيْتًا مِنَ الْقُلُوبِ لَمْ تَمُدُّ لَهُ طُنْبًا^(١)
مُظْلُومَةُ الْقَدِّ فِي تَشْبِيهِهِ غُصْنًا مُظْلُومَةُ الرِّيقِ فِي تَشْبِيهِهِ ضَرْبًا^(٢)
(٤) ذُكِرَ الْأَنَامُ لَنَا ؛ فَكَانَ قَصِيدَةً كُنْتُ الْبَدِيعَ الْفَرْدَ مِنْ أَيْتِهَا
(٥) يَجِدُ^(٣) الْحَمَامُ ، وَلَوْ كَوَّجْدِي لَا نَبْرَى شَجَرُ الْأَرَاكِ مَعَ الْحَمَامِ يَنْفُوحُ
(٦) كَيْفَ الرَّجَاءُ مِنَ الْخُطُوبِ تَخَلُّصًا مِنْ بَعْدِ مَا أَنْشَبَنِي فِيَّ مَحَالِيًا ؟
أَوْحَدَنِي ، وَوَجَدَنِي حُزْنًا وَاحِدًا مَتَنَاهِيًا ؛ فَجَعَلَنِي لِي صَاحِبًا
وَنَصَبَنِي غَرَضَ الرُّمَاءِ ؛ تُصِيدُنِي مَحْنٌ أَحَدٌ مِنَ الشُّيُوفِ مَضَارِبًا
(٧) رِعْدُ^(٤) الْفَوَارِسِ مِنْكَ فِي أَبْدَانِهَا أَجْرَى مِنَ الْعَمَلَانِ^(٥) فِي قَنَوَاتِهَا
(٨) وَفِي الْغَزْلِ :

- تَنَاهَى سَكُونُ الْحُسْنِ فِي حَرِّ كَاتِبِهَا فَلَيْسَ لِرَأَى وَجْهَهَا لَمْ يَمُتْ عُذْرُ
(٩) مَلِكٌ تَصَوَّرَ كَيْفَ شَاءَ ؛ كَأَنَّمَا يَجْرِي بِفَضْلِ قَضَائِهِ الْمَقْدُورُ

(١) الجبل الذي تربط به الخيمة . (٢) عَسَلًا أَيْضَ .

(٣) يَجْزَن . (٤) جَمْعُ : رَعْدَةٌ ، وَهِيَ : الرَّعْشَةُ مِنْ خَوْفٍ وَنَحْوِهِ .

(٥) الْاضْطِرَابُ .

(١٠) لَا كُلُّ سَمَحٍ غَيْرُكَ الْيَوْمَ بَاطِلٌ وَكُلُّ مَدِيحٍ فِي سَوَاكَ مُضَيِّعٌ

* * *

ولا ندع الكلام على عيوب المتنبي قبل أن نُردِّفَهَا بعيب آخر ؛ هو : الضَّالَّة ، أو : التفاهة . فقد سبقت الإشارة إلى أن له معاني غزيرة ، دسمة ؛ ترضى العقل ، وتشبع النفس . لكن إلى جانبها أخرى لادَّسَمَ فيها ولا غداء . تعرفها بامتهانها ، وابتذالها ، وأنها من البدائِه الأولى ، أو : بِسَطْحِيَّتِهَا ، والإسراف في ألفاظها من غير حاجة . ومن أمثلتها :

(١) قوله في رثاء عبد تركي لسيف الدولة :

وإني وإن كان الدفين ^(١) حبيبَه ^(٢) حبيبٌ إلى قلبي حبيبٌ حبيبي

(٢) وقوله في مدح محمد بن زريق :

أُبْقَى زُرَيْقٌ لِلنُّغُورِ مُحَمَّدًا أَبْقَى نَفِيسٌ لِلنَّفِيسِ نَفِيسًا

(٣) وقوله في مدح علي بن صالح الكاتب الدمشقي ، ووصف حساده بأنهم يقضمون الحديد غيظًا كما يُقضم السكر :

تَقْضَمُ الْجَمْرَ وَالْحَدِيدَ الْأَعَادَى دُونَهُ ، قَضَمَ سُكَّرِ الْأَهْوَاِ

(٤) وقوله في مدح ابن العميد :

أنت الوحيدُ إذا ارتكبتَ طريقةً فمن الرديفُ وقد رَكِبْتَ غَضَنَفَرًا؟

(٥) وقوله يخاطب سيف الدولة حين مرض :

وجسْمُكَ فوقَ هِمَّةٍ كُلِّ داءٍ قُرْبُ أَقْلَهَا مِنْهُ عَجِيبٌ ^(٣)

(١) البيت . (٢) أى : حبيب إلى سيف الدولة . (٣) أى : كل الأدواء .

(٦) وقوله لرجل نقل إليه ذما (وقد سبق البيت) :

أَنَا عَيْنُ الْمُسَوَّدِ ^(١) الْجَحْجَحِ ^(٢) هَيَّجَتْنِي كَلَامُكُمْ بِالنُّبَاحِ

(٧) وقوله في رثاء عمة عضد الدولة ، وقد ماتت بعيدة عنه في بلد آخر :

لَوْ دَرَّتِ الدُّنْيَا بِمَا عِنْدَهُ لَا سَمَحْتِ الْأَيَّامُ مِنْ عَتِيهِ
لَعَلَّهَا تَحْسَبُ أَنَّ الذِّي لَيْسَ لَدَيْهِ لَيْسَ مِنْ حِزْبِهِ

... ..

حَاشَاكَ أَنْ تَضَعْفَ عَنْ حَمَلِ مَا تَحْمَلُ السَّائِرُ ^(٣) فِي كَتَبِهِ
يَدْخُلُ صَبْرُ الْمَرْءِ فِي مَدْحِهِ وَيَدْخُلُ الْإِشْفَاقُ فِي قَلْبِهِ

(٨) إِذَا كَانَ بَعْضُ النَّاسِ سَيْفًا لِلدَّوْلَةِ فِي النَّاسِ بَوَاقُ لَهَا وَطَبُولُ

(٩) فَإِنْ قَلِيلَ الْحُبِّ بِالْعَقْلِ صَالِحٌ وَإِنْ كَثِيرَ الْحُبِّ بِالْجَهْلِ فَاسِدٌ

(١٠) فَمَنْ كَلَامُ امْرِئِ ابْنِ بِنْتِ الْأَمِيرِ : أَوْ مَنْ كَا بَانُهُ وَالْجُدُودُ

(١١) تَهَلَّلَ قَبْلَ تَسْلِيمِي عَلَيْهِ وَأَلْقَى مَالَهُ قَبْلَ الْوَسَادِ

تَلَوْمُكَ يَا عَلِيُّ بِغَيْرِ ذَنْبٍ لِأَنَّكَ قَدْ زَرَيْتَ ^(٤) عَلَى الْعِبَادِ

(١٢) وَمَقِيلُ ^(٥) حُبِّ مُحِبِّهِ فَرَحٌ بِهِ وَمَقِيلُ غَيْظِ عَدُوِّهِ مَقْرُوحٌ

(١٣) أَيْنَ الْمَهَبَاتُ الَّتِي يُفَرِّقُهَا عَلَى الزُّرَّافَاتِ ^(٦) وَالْمَوَاحِيدِ ^(٧)

(١) السيد . (٢) السيد العظيم .

(٣) الذي سار حاملا إليه كتابا فيه خبر الوفاة .

(٤) عبت . والمراد : أنه أظهر عيبتهم بأفعاله الجميلة .

(٥) مكان ومستقر ... والمراد به : القلب . (٦) الجماعات .

(٧) جمع موحّد . وهو : الفرد .

(١٤) في وصف حوادث الأيام :

مَطَايَا لَا تَذِلُّ لِمَنْ عَلَيْهَا وَلَا يَنْفِي لَهَا أَحَدٌ رُكُوبًا

(١٥) وقوله يخاطب طاهرا العـلوى حين أشار إليه بمسك ، والأمير

الحسن بن طعيج حاضر :

الطَّيِّبُ رِمًّا غَنِيَتْ عَنْهُ كَفَى بِقُرْبِ الْأَمِيرِ طَيْبًا

يَنْبِي بِه رَبُّنَا الْعَالِي كَأَبِكُمْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَا

(١٦) وقوله في مدح بدر بن عمار :

يَا بَدْرُ ، يَا بَجْرُ ، يَا غَمَامَهُ ، يَا

(١٧) وكلُّ طريق أُنَاهُ الْفَتَى عَلَى قَدَرِ الرَّجُلِ فِيهِ الْخَطَا

(١٨) فَإِنَّهُمْ قَدْ أَكْثَرُوا الْحُجَابَا وَاسْتَوْفَعُوا لِرَدَّنَا الْبَوَابَا

(١٩) لَا يَحْزَنُ اللَّهُ الْأَمِيرَ ؛ فَإِنِّي لَأَخْذُ مِنْ حَالَاتِهِ بِنَصِيبِ

(٢٠) بَادَا الْعَالِي ، وَمَعْدَنُ الْأَدَبِ سَيِّدُنَا ، وَاسْنِ سَيِّدِ الْعَرَبِ

* * *

تلك أبيات متفرقات وإن شئت قصائد كاملة فاقرا قصيدته التي مطلعها :

لهذا اليوم بعد غدٍ أَرِمْجُ وَنَارُ فِي الْعَدُوِّ لَهَا أَجِيجُ

والتي مطلعها :

أَمِنْ أَرْدِيَارِكَ فِي الدُّجَى الرِّقَابِ إِذْ حَيْثُ كُنْتُ مِنَ الظَّلَامِ ضِيَاءِ

والتي مطلعها :

أَلَا كُلُّ مَا شِيعَ الْخَيْزَلَى فِدَا كُلِّ مَا شِيعَ الْهَيْدَبَى

والتي مطلعها :

يَا أختَ خَيْرِ أَخٍ ، يَا بنتَ خَيْرِ أَبٍ كِنَايَةً بِهِمَا عَنْ أَشْرَفِ النِّسَبِ

ومن عيوبه إلحاحه في موضوعاته الشعرية — من غير تجديد وحسن تصرف — على المعاني التي سلكها الشعراء وغيرهم في عصره ، وقبل عصره . ولا تزال مُرَدِّدة حتى يومنا ؛ في المدح ، والغزل ، والثناء ، وغيرها مما رأينا بعض أمثلة فيما سبق ؛ فالممدوح كريم كالبحر ، فيّاض اليدين كالغيث ، على المكانة كالثرثرا ... والحبيبة مُشْرِقة كالقمر ، قرءاء كالغصن ، مرتجة الأرداف كالكتيب ، قتالة الأجنان كالسهم والميت متفرد بالחסن ، تحصد السماء عليه الأرض وأشباه هذا مما يجري على ألسنة الجمهرة الغالبة من الأدباء وغيرهم حتى عصرنا ، ويذيع حتى صار قولاً مُكرَّراً ، وحديثاً مُعاداً ؛ لاجِدَّة فيه ولا طرافة . وقد يكون للشاعر العذر في بعضه ؛ مما لا غناء عنه ، ولا منجاة منه . ولكن ليس له عذر في بعض آخر يستوعب أن يتناوله بالتجديد الحسن ، أو التوليد الحمود كالذي فعله أبو تمام وابن الرومي وأمثالهما (وسنبين هذا تفصيلاً في مكانه عند الكلام على الموضوعات الشعرية) .

* * *

ثم ننقل للكلام على نصيب المتنبي من تَوْفِيَةِ المعاني، واستيعابها الحمود، واشتمالها على ناحية منطقية مقبولة ؛ ترضى الفكر ، ولا تعفى على العاطفة والخصائص الشعرية .

فأما نصيبه من التَّوْفِيَةِ والاستيعاب فنصيب الجمهرة الغالبة من شعراء العربية — وإن تفاوتوا في ذلك^(١) — ؛ يتناولون المعاني بِقَدَرٍ ، ويتخففون منها ،

(١) ولعل من أحسنهم في ذلك : ابن الرومي . وخير شاهد على هذا قصيدته الحمزية في عتاب أبي القاسم التوزي . وقصيدته العينية في الصيد والطرْد .

ولا يجمعون أطرافها وما قد يتصل بها اتصالاً وثيقاً . وكل معاني المتنبي من هذا النوع الأثير . لكنه في الهجاء ، ووصف الحرب ، والثورة على الأيام والحساد — أقلّ تقصيراً .

أى توفية محمودة في قوله متغزلاً ؟ :

قد عَلَّمَ البينُ مِنَّا البينَ أَجْفَانًا تَذَمَّى ، وَأَلَفَ فِي ذَا الْقَلْبِ أَحْزَانًا
أُمَلَّتْ سَاعَةٌ سَارُوا كَشَفَ مَعْصَمِهَا لِيَلْبَثَ الْحَيُّ دُونَ السَّيْرِ حَيْرَانًا
فَأَيْنَ وَلَهُ ، وَذَهْوُهُ ، وَسَهْدُهُ ، وزهده في الطعام . والشراب وَمُتَعُّ
الحياة ؟ وأين لهفته على متابعتها ، أو ترقب عودتها ورؤيتها ؟ وأمثال هذا مما يتصل بما هو فيه ؟

وأين استيفاء المعاني ، بل أين إيفاء المعنى الواحد بما يتصل به حين يقول
في التهنية بدار جديدة :

أَحَقُّ دَارٍ بَأَن تَسْمَى مُبَارَكَةً دَارٌ مُبَارَكَةٌ الْمَلَكِ الَّذِي فِيهَا
وَأَجْدَرُ الدُّورِ أَن تَسْقَى بِسَاكِهَا دَارٌ غَدَا النَّاسُ يُسْتَسْقُونَ أَهْلِيهَا

...

وحين يقول في وصف بطيخة من الندِّ ، في غِشَاء من الخيزُرَان ، عليها
قِلَادَةٌ مِنَ اللُّؤْلُؤِ :

وسوداءَ مَنْظُومٍ عَلَيْهَا لَآلِيٌّ لها صورةُ الْبِطِّيخِ وَهِيَ مِنَ النَّدِّ
كَأَنَّ بَقَايَا عَنَبٍ فَوْقَ رَأْسِهَا طُلُوعُ رَوَاعِي الشَّيْبِ فِي الشَّعْرِ الْجَعْدِ

وأما نصيبه من المناحى الفكرية المنطقية السائفة فسطحي ضئيل .
وهو — على ضآلته — أوفى من نصيب الكثرة الكاثرة من شعرائنا
— إلا أبا تمام وابن الرومي والمعرى — ولعل عذر الجهرة في هذا : نشأتهم الأولى ،

ونصيبهم ونصيب بيتهم المحدود من فنون الثقافة ، وأصول شعرهم التي تفرض عليهم الوزن والقافية ، واشتغال القصيدة على عدة أغراض — في الغالب — واستقلال كل بيت بمعناه ؛ فكل هذه أسباب تساعد على التفكك ، وإهمال التحليل السائغ ، والتعليل الحميد ، وإضعاف الربط المعنوي في القصيدة . لكن إذا ساع لهم العذر في التقصير أيام جهالتهم ، ونقص ثقافتهم الفلسفية — فهل يسوغ أيام حضارتهم ، وشيوع الفلسفة والمنطق زمن العباسيين ومن بعدهم ؟ وكيف تناسوا أن الشعر فرع من الأدب ؛ ولن يكون الكلام أدبا حتى يرضى الفكر والعاطفة معاً ؟

إن المتنبى — كغيره — يعرض للمعاني عَرَضاً مجملاً ، ويمسحها مساً رقيقاً ، في عجلة وإسراع ؛ فلا تفصيل ، ولا تعليل ، ولا ربط ، ولا تناسب ، ولا تحليل . يمدح فيقول :

الناسُ ما لم يَرَوْكَ أَشْبَاهُ والدهرُ لفظٌ ، وأنتَ معناهُ
والجودُ عينٌ ، وأنتَ ناظرُها والبأسُ باعٌ ، وأنتَ يُمْنَاهُ

فَلِمَ كان الناسُ أشباها إن لم يَرَوْه ؟ ولم كان المدح معنى الدهر ، وناظر العين ، ويمين الباس ؟ وما الصلة بين هذه المعاني ؟

ويهجو فيقول :

وإنما نحنُ في جيلٍ سواسيةٍ شرٌّ على الحرِّ من سُقمٍ على بَدَنٍ
حولى بكلِّ مكانٍ منهمُ خلقٌ تُخطى إذا جِثَّتْ في استِفْهَامِها بِمَنٍ

.....

فلم كانوا سواسية ؟ ولم كانوا شرا على الحر ؟ وكيف انتشروا وهم على هذا الحال ؟ وما صلة بعضهم ببعض ومظاهر ذلك ؟ وكذلك الشأن في مواضع أخرى .

.....

لكن له مواضع غيرها كثيرة تبدو عليها بعض المظاهر المنطقية الحميدة كقوله :

فلما صار وُدُّ الناسِ خِيبًا جَزَيْتُ عَلَى ابْتِسَامٍ بِابْتِسَامٍ
وصرتُ أَشْكُ فَيَمَنْ أَصْطَفِيهِ لِعِلْمِي أَنَّهُ بَعْضُ الْأَنَامِ

.....

وقوله في مدح سيف الدولة ، وعلو منزله على سائر الملوك والأمراء ...
ولو كنتُ سَمَّيْتُهُمْ بِاسْمِهِ لَكَانَ الْحَدِيدَ ، وَكَانُوا الْخَشَبَ
أَفَى الرَّأْيِ يُشَبِّهُ ، أَمْ فِي السَّخَا ، أَمْ فِي الشَّجَاعَةِ ، أَمْ فِي الْأَدَبِ ؟
مَبَارَكُ الْأَنَمِ ، أَغْرَأَ اللَّقَبَ كَرِيمُ الْجُرَشِيِّ ^(١) ، شَرِيفُ النَّسَبِ
أَخُو الْحَرْبِ ؛ يُخَدِّمُ مِمَّا سَبَى قَنَاهُ ، وَيُخْلَعُ مِمَّا سَلَبَ
إِذَا حَازَ مَالًا فَقَدْ حَازَهُ فَتَى لَا يُسَرُّ بِمَا لَا يَهَبُ
وقوله : —

الرأى قبلَ شجاعةِ الشُّجْعَانِ هُوَ أَوَّلُ ؛ وَهِيَ الْحُلُ الثَّانِي
فَإِذَا مَا اجْتَمَعَا لِنَفْسٍ حُرَّةٍ بَلَفَتَ مِنَ الْعَلِيَاءِ كُلِّ مَكَانٍ
وَلَرْبَمَا طَعَنَ الْفَتَى أَقْرَانَهُ بِالرَّأْيِ قَبْلَ تَطَاعُنِ الْأَقْرَانِ
لَوْلَا الْعُقُولُ لَكَانَ أَدْنَى ضَيْغَمٍ أَدْنَى إِلَى شَرَفٍ مِنَ الْإِنْسَانِ

(١) النفس . وكلمة : الجرشي ، من الكلمات التي طابها النقاد على التفتي .

ولما تَفَاضَلَتِ النفوسُ ، وَدَبَّرَتِ أَيْدِي السَّكَمَةِ عَوَالِي المُرَّانِ ^(١)

.....

وقوله في وصف الدنيا :

ولا فضلَ فيها للشجاعة والنَّدَى وصبرِ الفتى ؛ لولا إلقاء شَعُوبِ

وقوله : —

حَتَّامَ نَحْنُ نُسَارِي النَجْمَ فِي الظَّلَمِ ؟ وما سُرَاهُ عَلَى خُفٍّ ، ولا قَدَمَ
ولا يُحْسُ بِأَجْفَانٍ ؛ يُحْسُ بِهَا فَقَدَ الرِّقَادِ غَرِيبُ بَاتَ لَمْ يَنْمَ -
تُسَوِّدُ الشَّمْسُ مَنَا بِيضَ أَوْجُهِنَا ولا تُسَوِّدُ بِيضَ العُذْرِ ، وَاللَّيْمَ -
وكان حالهما في الحُكْمِ واحدةً لو احْتَكَمْنَا مِنَ الدُّنْيَا إِلَى حَكَمِ

.....

ومما يتصلُ بالناحية المنطقية الفلسفة ومذاهبها . وليس للمتنبي حظٌّ منها
إن أردنا بها ما يريده علماءها ؛ من كشف مذهب جديد ، أو تأييد رأى
خاص ، بعد دراسة كل منهما دراسة فنية وافية ؛ تمتد من أصوله إلى
فروعه ، وتشمل دقائقه وأجزائه ، كما تشمل نتائجه وغاياته وتنتهي بحقائق
جديدة . فأما إن قصدنا بها أن يكون لصاحبها مذهبٌ خاص في فهم
الحياة ، ومعاملة الناس ؛ يختاره من المذاهب المعروفة ، ويمرضه عرضاً
سريعاً مجحلاً ، بل مكرراً — فالمتنبي فيلسوف من هذه الناحية فلسفة تافهة
سطحية ؛ لأن له مذهباً ارتضاه ؛ هو : مذهب الإيمان بالقوة وحدها ،
وبالعنف ، وسوء الظن بالناس جميعاً ؛ وعلى هذا يدور شعره في كثير من

(١) جمع مُرَّانَة : وهي : القناة (الرمح) .

مناحيه ... وهو مذهب سُبِقَ إليه ، ولا يزال يردده أفراد كثيرون في سائر العصور والبقاع ؛ فليس فيه فضل ابتكار ، ولا فضل دراسة وإقناع . ومن عجب أن يَعُدَّه بعض الباحثين ^(١) فيلسوفاً بمثل الأبيات الآتية التي قالوا فيها إنها أخرجته عن رسم الشعراء إلى الفلسفة .

- (١) ولجُذْتُ حَتَّى كَذْتُ تَبْخُلُ حَانِلاً ^(٢) لِمُنْتَهَى ^(٣) ؛ ومن السرور بكاه ^(٤)
 (ب) إِنْ ^(٥) هذا الهواء أَوْقَعَ فِي الْأَنْفَسِ أَنْ الْحِمَامَ مَرُّ الْمَذَاقِ ^(٦)
 وَالْأَمْسَى قَبْلَ فُرْقَةِ الرُّوحِ تَحْجِزُ وَالْأَمْسَى لَا يَكُونُ بَعْدَ الْفِرَاقِ
 (ح) تَخَالَفَ النَّاسُ حَتَّى لَا اتَّفَاقَ لَهُمْ إِلَّا قَلَى شَجَبٍ ^(٧) ؛ وَالْخُلْفُ فِي الشَّجَبِ ^(٨)
 فَقِيلَ تَخْلُصُ نَفْسُ الْمَرْءِ سَالِمَةً وَقِيلَ تَشْرِكُ جِسْمَ الْمَرْءِ فِي الْعَطَبِ
 (د) نَمْتَعُ مِنْ سُهَادٍ ، أَوْ رُقَادٍ وَلَا تَأْمُلْ كَرَّمَى تَحْتَ الرُّجَامِ ^(٩)

- (١) راجع الصبح النني ج ١ ص ١٦٤ هامش العكبرى . والوساطة للجرجاني عند الكلام على فلسفة النني ص ١٤٧ (طبعة عارف الزين بصيدا) .
 (٢) راجعاً . (٣) لأجل بلوغك النهاية .
 (٤) المعنى : كدت تعود للبخل ؛ بلوغك نهاية الكرم . وما دمت لا تزداد فكأنك بخلت . (٥) مؤالفة ومصاحبة .
 (٦) معنى هذا البيت والذي يليه : مصاحبتنا الهواء ، ومداومتنا له ، جعلنا فراقه صعبا علينا ؛ لأن من تعود شيئا وألفه صعب عليه فراقه ؛ فلا شيء في الموت إلا صعوبة الفراق . ومن تألم قبل الموت كان عاجزا جباناً ؛ يعذب نفسه بشيء لم يقع بعد . ومن مات لا يشعر بألم . فقيم الحزن والهَمَّ وشدة الخوف من الموت ؛ لأنه من كذب النفس . (٧) هلاك وموت .
 (٨) معنى البيت والذي يليه : أن الناس مختلفون في كل شيء إلا في حقيقة واحدة ؛ هي : الموت ؛ فهم متفقون جميعا على أنهم سيموتون . ومع ذلك هم مختلفون في الموت نفسه ؛ أهو للجسم وحده ؟ أم للجسم مع الروح ؟ أتبعث النفس (الروح) وحدها يوم القيامة ؟ أم تبعث في الجسم . . . ؟
 (٩) القبور . (المفرد : رَجْم) .

فَإِنَّ لِمَاثِ^(١) الْحَالَيْنِ مَعْنَى سَوَى مَعْنَى انْتِبَاهِكَ وَالْمَنَامِ
(هـ) وَكَمْ لِظَلَامِ اللَّيْلِ عِنْدَكَ مِنْ يَدٍ تُخَبِّرُ أَنَّ الْمَانَوِيَّةَ^(٢) نَسَكُذِبُ
(و) يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الْمُصَفَّى جَوْهَرًا مِنْ ذَاتِ ذِي الْمَلَكُوتِ أَسْمَى مِنْ سَمَاءِ
نُورٍ تَظَاهَرَ فِيكَ لَاهُوتِيَّةً^(٣) فَتَسْكَاذُ تَعْلَمُ عِلْمَ مَا لَنْ يُعْلَمَا
(ز) وَلَقَدْ رُمْتَ بِالسَّعَادَةِ بَعْضًا مِنْ نُفُوسِ الْعِدَا ؛ فَأَذْرَكَتَ كُلًّا

فماذا في الآيات السالفة — وأشباهاها — مما يدل على أن صاحبها
فيلسوف ؟ أين الفلسفة ومذاهبها وأصولها وأداتها ؟ وهل الفلسفة ترداد كلمة
من كلمات الفلاسفة ، أو مصطلح من مصطلحاتهم ، أو التعريض ، أو التنويه
المجرد باسم زعيم من زعمائها ؟ إذاً لكان طلاب العلم جميعاً فلاسفة .

* * *

تلك صورٌ للفتن في معانيه المجرَّحة الواهنة . أما صُورُهُ في معانيه
الفنية الناضرة فكثيرة أيضاً . وقد يسبق في بعضها (شوقياً) بل يسبق شعراء
العربية جميعاً .

كقوله في الغزل : —

(١) فَذَيْفَاكَ أَهْدَى النَّاسِ سَهْمًا إِلَى قَلْبِي وَأَقْتَلَمَهُمُ لِلدَّارِ عَيْنِ^(٤) بِلا حَرْبٍ

(١) هو : الموت . (٢) المانوية : قوم ينسبون إلى رجل يسمى : «مانى» .

يقول : إن الخير من النهار ، والشر من الليل .

(٣) لاهوتية أو لاهوتية . أى : أنه منسوب إلى اللاهوت ، وهو : الله . ومعنى البيت :

ظهر فيك نور إلهي تكاد تعلم به الغيب الذي لا يعلمه إلا الله .

(٤) لمن يلبسون الدروع .

وقوله :

ما باله ؟ لاحتطته ، ففصررت ، وفؤادى المجرؤح
ورمى - ومارمتا بداه - فصابنى سهم يعذب والسهم تريخ

(٢) وقوله :

ومن سراًهل الأرض ، ثم بكى أسى بكى بعيون سراًها وقلوب^(١)

(٣) وقوله فى الغزل :

وكيف عرفتنا رسم من لم تدع لنا فؤاداً لعرفان الرثوم ، ولا لباً ؟

(٤) وقوله يخاطب سيف الدولة حين تمكن من الخارجين عليه ، وفيهم بعض أقاربه : —

وكيف يتم بأسك فى أناس تصيبهم ؛ فيؤلمك المصاب
ترفق - أيها المولى - عليهم ؛ فإن الرفق بالجانى عتاب
وانهم عبيدك حيث كانوا إذا تدعوا لحادثه أجابوا
وعين الخطئين هم ، وليسوا بأول معسر خطئوا ؛ فتأبوا
وأنت حياتهم غضبت عليهم وهجر حياتهم لهم عقاب
وما جهلت أيادك البوادي ولكن ربما خفى الصواب
وكم ذنب مولده دلال !! وكم بعد مولده اقتراب !!
وجرم جرّه سفهاء قوم وحل بغير جارمه العذاب

(٥) وقوله فى رثاء أخت سيف الدولة ، (وأصولها من قبيلة تغلب) :

(١) أى : أن هذه العيون والقلوب تشاركه فبكى معه .

وإن تَكُنْ تَغْلِبُ الغلباءَ ^(١) عَنْصَرَهَا
 فَلَيْتَ طَالَعَةَ الشَّمْسِينَ ^(٢) غَائِبَةً
 (٦) يزورُ الأَعَادِي في سماءِ عَجَاجَةٍ
 فَتَسْفِرُ عَنْهُ وَالسَّيُوفُ كَأَمَّا
 طَلَعْنَ شَمُوسًا ، وَالْعَمُودُ مِشَارِقُ
 (٧) فَإِنَّ نَهَارِي لَيْلَةٌ مَدْلُومَةٌ
 بَعِيدَةٌ مَا بَيْنَ الْجَفُونِ ؛ كَأَنَّمَا
 فَيَالَيْتَ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ أَحَبِّتِي
 (٨) تَرَكْنَا لِأَطْرَافِ الْقَدَا كُلِّ شَهْوَةٍ
 (٩) أَبْدَى الْعُدَاةُ بَكَ السَّرُورَ ؛ كَأَنَّهُمْ
 قَطَعَتْهُمْ حَسَدًا ؛ أَرَاهُمْ مَا بِهِمْ
 حَتَّى انْتَنَوْا وَلَوْ أَنَّ حَرَّ قُلُوبِهِمْ
 (١٠) وَقَوْلُهُ (يَخَاطَبُ مَنْ نَامَ وَالْمُتَنَبِّئُ يُنْشِدُ) :

إِنَّ الْقَوَائِي لَمْ تُنَمِّكَ ؛ وَإِنَّمَا
 وَكَأَنَّ أَذْنَكَ فَوْكَ حِينَ سَمِعْتَهَا
 (١١) أَنَا بِالْوِشَاقِ إِذَا ذَكَرْتُكَ أَشْبَهُ
 وَإِذَا رَأَيْتَكَ دُونَ عَرَضٍ عَارِضًا
 مَحَقَّتْكَ حَتَّى صِرْتَ مَا لَا يَوْجَدُ
 وَكَأَنَهَا - مِمَّا سَكِرْتَ - الْمُرْقِدُ ^(٣)
 تَأْتِي النَّدَى ، وَيُدَاعُ عَنْكَ ؛ فَتَكْرَهُ
 أَيْقَنْتُ أَنَّ اللَّهَ يَبْغِي نَصْرَهُ

(١) كثيرة الغلب والنصر . (٢) الشَّمسَان : شمس الدنيا الطالعة ، والشمس

التي ماتت .

(٣) ماحقته منها بأذنك مرقد (أى : منوم) شرهته بفمك .

(١٢) صِيَامٌ^(١) بِأَبْوَابِ الْقِبَابِ جِيَادُهُمْ وَأَشْخَاصُهَا فِي قَلْبِ خَائِفِهِمْ تَعْدُو
وَأَنْفُسُهُمْ مَبْذُولَةٌ لَوْفُودِهِمْ وَأَمْوَالُهُمْ فِي دَارٍ مِنْ لَمْ يَفِذْ وَفُذْ
(١٣) رِضَاكَ رِضَايَ الَّذِي أُورِئُ وَسِرِّكَ سِرِّي ؛ فَا أَظْهَرُ
كَفَتَكَ الْمَرْوَةُ مَاتَتَقَى وَأَمْنَكَ الْوُدُّ مَا تَحْذَرُ
وَمِرَّتَكُمْ فِي الْحَشَا مَيَّتْ إِذَا أَنْشَرَ السَّرُّ لَا يُنْشَرُ

.....

(١٤) تَمَرَّسْتُ بِالْآفَاتِ حَتَّى تَرَكْتُهَا تَقُولُ : أَمَاتَ الْمَوْتُ أَمْ دُعِيَ الذَّعْرُ ؟
وَأَقْدَمْتُ إِقْدَامَ الْآتِي^(٢) ؛ كَأَنَّ لِي سَوَى مُهْجَتِي ، أَوْ كَانَ لِي عِنْدَهَا تَرُ
دَعِ النَّفْسَ تَأْخُذُ وَسَعَهَا قَبْلَ تَبَيُّنِهَا فَفَتَرَقُ جَارَانِ دَارُهَا الْعُمُرُ
(١٥) وَدَعَاكَ حُسْدُكَ الرَّئِيسَ وَأَمْسَكُوا وَدَعَاكَ خَالَتُكَ الرَّئِيسَ الْأَكْبَرَ
خَلَفَتْ صِفَاتُكَ فِي الْعِمُونَ كَلَامَهُ كَأَلْطُ يَمْلَأُ مِسْمَعِي مَنْ أَبْصَرَ^(٣)

(١٦) وَقَوْلُهُ يَمْدَحُ ابْنَ الْعَمِيدِ وَيُودِعُهُ : —

كَأَنَّا أَرَادَتْ شُكْرَنَا الْأَرْضُ عِنْدَهُ فَلَمْ يُخْلِنَا جَوْهُ هَبْطُنَاهُ مِنْ رِفْدٍ^(٤)
(١٧) وَخَصَرُ تَمَثَّبَتْ الْأَبْصَارُ فِيهِ كَأَنَّ عَلَيْهِ مِنْ حَدَقِي نَطَاقًا

(١) قِيَام . (٢) السَّيْلُ الَّذِي لَا يَرُدُّهُ شَيْءٌ .

(٣) مَعْنَى الْبَيْتَيْنِ : حَسَادُكَ بِسْمُونِكَ : الرَّئِيسُ ؛ وَلَا يَزِيدُونَ عَلَى هَذَا شَيْئًا . أَمَّا اللَّهُ
فَأَنَّهُ بِسْمِكَ : الرَّئِيسُ الْأَكْبَرُ ؛ نَعَمْ لَمْ يَنْطِقْ بِهَذِهِ التَّسْمِيَةِ ، وَلَكِنَّهُ وَهَبَ لَكَ
مِنَ الْأَوْصَافِ مَا يَنْبَغُ عَنِ النُّطْقِ ، فَكُنْ تِلْكَ الْأَوْصَافِ مِثْلَ الْكِتَابَةِ الَّتِي تَمْلَأُ
الْبَصَرَ ، وَتَفْنِي عَنِ الْكَلَامِ وَعَنِ اسْتِعْمَالِ السَّمْعِ .

(٤) كَرَّمَ وَعَظَّمَ . وَمَعْنَى الْبَيْتِ : كُلُّ مَوْضِعٍ تَزَلَّاهُ فِي طَرِيقِنَا إِلَيْهِ أَصَابَنَا بِالْخَيْرِ
وَالرَّاحَةِ ؛ تَقَرُّبًا لِلْأَمِيرِ ، وَحِرْصًا عَلَى رِضَاهُ ، وَعَمَلًا عَلَى أَنْ نَذْكُرَهُ بِالْخَيْرِ
فِي حَضْرَتِهِ .

(١٨) نَهَبْتَ مِنَ الْأَعْمَارِ مَا لَوْ حَوَيْتَهُ لَهَنْتِ الدُّنْيَا بِأَنْكَ خَالِدُ
(١٩) يُعْطِيكَ مَبْتَدَأًا ، فَإِنْ أَعْمَلْتَهُ أَعْطَاكَ مَعْتَدِرًا ؛ كَمَنْ قَدْ أُجْرِمَا
وَيَرَى التَّعْظُمَ أَنْ يُرَى مُتَوَاضِعًا وَيَرَى التَّوَاضُعَ ^(١) أَنْ يُرَى مُتَعَظِمًا
(٢٠) قوله في وصف القلم : —

نَحِيفُ الشَّوَى ، يَدُودُ عَلَى أُمِّ رَأْسِهِ وَيَحْفَى ؛ فَيَقْوَى عَدُوُّهُ حِينَ يُقْطَعُ
يَمُجُّ ظِلَامًا فِي نَهَارٍ لِسَانُهُ وَيُفْهِمُ عَمَّنْ قَالَ مَا لَيْسَ يَسْمَعُ
فَصَبِيحٌ ، مَتَى يَنْطِقُ تَجْدُّ كُلِّ لَفْظَةٍ أَصُولَ الْبَرَاعَاتِ الَّتِي تَتَفَرَّعُ
فَإِنْ شئتَ قصائد كاملة من روائعه فإليك قصيدته التي مطلعها : —
غَيْرِي بِأَكْثَرِ هَذَا النَّاسِ يَنْخَدِعُ إِنْ قَاتَلُوا جَبَنُوا ، أَوْ حَدَّثُوا شَجُمُوا

والتي مطلعها :

الرَأْيُ قَبْلَ شَجَاعَةِ الشَّجْمَانِ هُوَ أَوَّلُ وَهْيِ الْحَلِّ الثَّانِي
والتي مطلعها :

الْحُبُّ مَا مَنَعَ الْكَلَامَ الْأَلْسُنَا وَالَّذِ شَكْوَى عَاشِقٍ مَا أَعْلَنَا
والتي مطلعها :

مَعَايِ الشَّعْبِ طَبِيبًا فِي الْمَغَانِي بِمَنْزِلَةِ الرَّبِيعِ مِنَ الزَّمَانِ .
والتي مطلعها :

أَطَاعَنُ خَيْلًا مِنْ فَوَارِسِهَا الدَّهْرُ وَحِيدًا وَمَا قَوْلِي كَذًا أَوْ هِيَ الصَّبْرُ
والحق أن في الديوان كثيرا من قصائده الخالدة على الزمان .

* * *

(١) الضمة والهوان .

شوقى . معانيه وما يتصل بها :

معانى شوقى — كألفاظه ، وكسائر خصائصه الشعرية — صَدَرَتْ
فى طورين مختلفين من حياته ؛ أحدهما : قبل منفاه إلى البلاد الأندلسية ،
والآخر بعد المنفى . وكان فى الطور الثانى أنضجَ عقلا ، وأوفرَ تجربة ،
وأخصبَ خيالا ، وأكملَ شاعرية ؛ فجاءت معانيه أكرمَ جوهرًا ، وأتمَّ
صقلا من معانى الطور الأول ، وأدنى إلى الغاية التى يرتضيها الأدباء .
وبالرغم من تَفَاوُتِ المعانى بين الطورين لن ترى فىهما أو فى أحدهما
من النقائص والعيوب ما تراه مركزا مُجَمَّعا فى شعر المتنبى .

(١) فالدعامة الكبرى فى المعانى — وهى الوضوح — شائعة فى أدب
شوقى . وقَرِيضُهُ موسوم بسمه الإشراف والنصاعة . وديوانه فى مختلف
نواحيه خير شاهد على ذلك . بل إن شوقى ليعمد إلى المعنى المختلط
بغيره فى النفس ، الذى يُغَشِّيه الإيهام والخفاء بسبب ذلك الاختلاط
والامتزاج — فينتزعه من مكانه ، ويفرده عن نظائره ، ويسوقه لك
واضحا ، جليا ، لا لبس فيه ولا إبهام . يشفى نفسك به وقد كانت
منه فى قلق .

غير أن المعانى الشوقية قد يمتريها أحيانا بعض الغموض والاستغراق ،
وهذا قليل . وهو ينكشف بالمحاولة اليسيرة ، والمعالجة الهيئَة . وقد يكون
مرجه إلى كلمة واحدة خفية ينبجلى بانجلاؤها المعنى . وليس الشأن كذلك
فى معانى المتنبى ؛ فإن غوامض كلماته بل أبياته — كثيرة ، واستجلاؤها
عسير . فى حين نرى غوامض شوقى قليلة — كما قلنا — تكاد تقتصر على

الكلمات المفردة ، ولا تحتاج في تجليتها إلى كبير عناء . أما الأبيات المعقدة التي تَصَلّ فيها العقول ، وتضطرب الأفهام فمادرة . وغموض المتنبي يكاد يكون طبعاً فيه ، أو ما يشبه الطبع . أما غموض شوقي فبعيد عن هذا بُعدَه عما يقع فيها صاحبه من المعاظلة (بنوعها اللفظي والمعنوي) .

وأكثر ما يتسرّب الغموض إلى المعاني الشوقية من قِبَل إشاراتهِ لوقائع وأحداث تاريخية ، قد تخفى على غيره ؛ فيذهب الخفاء بمزيتها وبقيمتها في وصل الحاضر بالماضي ، وإمداد المعنى بفيض من القوة والغزارة . ولهذا العيب دلالاته الأخرى على سعة ثقافة شوقي ، وإلمامه بالتاريخ إلماماً وانياً . وقد يكون منشأ الغموض حديثُه عن خواطر نفسية لا يعلمها سواه ، ولا يريد أن يُفصح عنها لأسباب سياسية أو غير سياسية . وقد يكون من معارضته أحد الشعراء — كما سبق — ؛ فتضطره المعارضة إلى الخروج عن طبيعته ؛ (ليسلك مسلك قريبه ، أو ليفوقه) فيجئح إلى التكلف والاعتساف ؛ وهما مطية الغموض غالباً ؛ كسينيته التي عارض بها سينية البحتري ، ونونية التي عارض بها نونية ابن زيدون فجاءت القصيدتان جميلتان ولكنهما مشوّبتان بعلق احنى ، وقلق القافية :

وقد يكون الغموض عنده من إيغال الخيال ، وإطلاقه بغير عنان يضبطه ويكبح جماحه ؛ كما سَرى في الأمثلة .

تلك هى خلاصة الأسباب المباشرة للغموض الذى يكتنف المعانى الشوقية (وهى التى تكلمنا عليها آنفاً فى مواضع متفرقات بمناسبات أخرى) .

ومهما تكن الأسباب فشوقى — فى هذه الناحية — خير من المتنبي كما قلنا .

وإليك أبياتا من غوامضه توضح ما أشرنا إليه :

(١) لِنَفْسٍ حَرْبُ الْمَوْتِ إِلَّا أَهْهَا أَنْتَ الْحَيَاةُ وَشَغْلُهَا مِنْ بَابِهِ
، معنى هذا البيت الغامض ، عبر عنه المتنبي فأحسن وأبان حيث قال :
سُبِقْنَا إِلَى الدُّنْيَا ؛ فَلَوْعَاشَ أَهْلُهَا مُنْعِمًا بِهَا مِنْ جَيْئَةٍ وَذُؤُوبِ
(٢) بِصَفِّ كَوَاعِبِ :

بِضِّ رِيقِ الْحُسْنِ فِي لَحْمَةٍ مِنْ نَاعِمِ الدَّرِّ وَمِنْ رَطْبِهِ
ذَوَابِلُ النَّرْجِسِ فِي أَصْلِهِ يَوَانِعُ الْوَرْدِ عَلَى قُضْبِهِ
(٣) وَقَوْلُهُ فِي وَصْفِ مِصْرَ أَيَّامِ الْخَلْدِيِّ إِسْمَاعِيلَ وَمَدْحِهِ :

كَلَّ يَوْمٍ صَرْحٌ بِشَيْدٍ لِلْعَدَمِ ، وَظِلٌّ يُمَدُّ فِي مِصْرَ مَدًّا
وَلَوْلَا ، وَعُدَّةٌ ، وَعَدِيدٌ وَنِظَامٌ نَرَى بِهِ الشُّهْبَ جُنْدًا
وَعِزَّةً فِي الْبَيْضِ وَالسُّودِ ؛ تَبْقَى مِصْرُ فِيهَا مُجَدِّدًا مُسْتَرَدًّا
وَبَرِيدًا لَهَا تَسِيلُ بِهِ الْقُضْبُ ، وَثَانٍ بِالْبَرْقِ أَجْرَى وَأَهْدَى
فَمَا مَعْنَى الْبَيْتِ الْأَخِيرِ ؟ أَلَيْسَ مُحْتَاجًا إِلَى وَقْفَةٍ وَإِنْ كَانَتْ خَفِيفَةً ؟
(٤) وَقَوْلُهُ فِي تِلْكَ الْفَصِيدَةِ : —

يَا كَبِيرَ الْفَوَادِ ، وَالْهَمُّ ، وَالْآبُ رَابٍ ، مَهْلًا ، مَهْلًا ، رَوِيدًا ، رَوِيدًا
لَمْ تَكُنْ حِقْبَةً أَسَاءَتْ عَلَيْهَا فِي جَنَى عَمْرِهِ لَتَحْفَظَ وَدًّا
فَفِي الْبَيْتِ الثَّانِي إِشَارَةٌ تَارِيخِيَّةٌ أَسَدَلْتُ عَلَيْهِ سِتَارًا مِنَ الْغُمُوضِ
لَا يَنْكَشِفُ إِلَّا بِكَشْفِهَا ، وَلَا يَتَضَحُّ مَعْنَاهُ إِلَّا لِعَارِفِهَا . تِلْكَ أَنَّ الدُّوْلَ الْأَوْرَبِيَّةَ
وَقَفَتْ فِي وَجْهِ مُحَمَّدٍ عَلَى حِينِ أَقْبَلَتْ الدُّنْيَا عَلَيْهِ ، وَانْعَقَدَ لَوَاءُ النُّصْرَةِ
فِي فَتُوْحِهِ الْعَظِيمَةِ . فَلَنْ تَرْضَى تِلْكَ الدُّوْلُ أَنْ تَدْعَ إِسْمَاعِيلَ بِسُلْكَ بِيْلَادِهِ
مَسْلَكَ الْمَجْدِ وَالْفَوْزَةِ كَمَا فَعَلَ جَدُّهُ . فَالزَّمَنُ الَّذِي قَاوَمَ الْجَدُّ وَعَوَّقَهُ يَقَاوَمُ

الحفيد وَيُعَوِّقُهُ . وهذا المعنى لا يفهم إلا بفهم الإشارة التاريخية كما قلنا . فإذا تكشفت زاد بها قوة ، وررعة ، وغزارة . ومن هنا صح ما يردده الباحثون من أن ديوان شوقي — على نفاسته ، وكريم منزلته بين الدواوين الغالية — لم يحظ حتى اليوم بمن يشرحه شرحاً وافياً ، ويتصدى لبيان إشارته التاريخية قبل أن يطول عليها الأمد ؛ فتكاثف فوقها سحب الإبهام والخفاء ؛ ولا سيما الإشارات التي تتعلق بعصرنا الحديث ، ونهضتنا القائمة ، وما يتصل بها من الوقائع والأحداث التي شهدناها كثير من أهل هذا الجيل الذي وقعت فيه ، وأدركوا حقائقها ، وتفصيلاتها ، وستفرض بانقراضهم ، أو يختفي كثير من معالمها . وفي هذا خسارة كبيرة يجب العمل على اتقانها منذ اليوم . بل كان الواجب اتقانها في حياة شوقي ، وتحت سمعه وبصره ؛ ليكون المرجع الوثيق فيها ، الخبير بأسرارها ؛ فلا تذهب العقول في فهمها مذاهب شتى .

(٥) ومثله في قصيدة توت عنخ آمون : —

أَمَنْ سَرَقَ الْخَلِيفَةَ وَهُوَ حَيٌّ يَعِفُّ عَنِ الْمُلُوكِ مَكْفَنِينَا^(١)

فمن الخليفة المسروق وهو حي ؟ ومن سرقه وسرق الملوك الموتى ؟

(٦) ويقول : —

مَا سَمِعْنَا بِفَاتِحِ سَلِّ سَيْفًا يَأْخُذُ الْمَلِكَ حَدَّهُ ثُمَّ أَنْعَمْدُ

حَالَةً سَامَهَا (الْأَمِينَ) أَخُوهُ وَأُمُورُهَا (أُمِيَّةٌ) يَشْهَدُ

(٧) ومثل هذا قوله في قصيدة الأزهر التي نظمها بمناسبة إصلاحه^(٢) : —

نَبَأْتُ سَرَى ؛ فَكَسَا (الْمَنَارَةَ) حَبْرَةً وَزَهَا (الْمُصَلَّى) وَاسْتَخَفَّ (الْمَنِيرَا)

(١) لهذا البيت قصة تاريخية وردت في الجزء الأول ص ٣٣٩ من الشوقيات عند

شرح هذا البيت . (٢) في عهد الملك فؤاد الأول .

وَمَا (بَارُوقَةٍ) الْهُدَى؛ فَأَخْلَهَا فَرَعَ الثُّرَيَّا، وَهِيَ فِي أَصْلِ الثُّرَى
وَمَشَى إِلَى (الْخَلَقَاتِ)؛ فَانْفَرَجَتْ لَهُ خَلْقًا؛ كَهَالَتِ السَّمَاءِ، مُنَوَّرًا
حَتَّى ظَنَنَّا (الشَّافِعِيَّ) وَ (مَالِكًا) (وَأَبَا حَنِيفَةَ) (وَابْنَ حَنْبَلٍ) حُضَرَ
إِنَّ الَّذِي جَعَلَ (الْعَتِيقَ) ^(١) مَثَابَةً جَعَلَ (السَّكَنَانِيَّ) ^(٢) الْمُبَارَكَ كَوْنًا
فَلَنْ يَدْرِكَ مَعَانِي هَذِهِ الْأَبْيَاتِ عَلَى حَقِيقَتِهَا إِلَّا مَنْ عَرَفَ الْأَزْهَرَ،
وَمَنَارَتَهُ الْأَثَرِيَّةَ، وَمُصَلَّاهُ الْعَامَ، وَمَنْبَرُهُ الْقَدِيمَ، وَالْأُرُوقَةَ الْخَاصَّةَ بِالطَّلَابِ
— وَلَا سِيَا الْقُرْبَاءِ عَنْ مِصْرَ — وَنِظَامِ الدِّرَاسَةِ، وَجُلُوسِ الطَّلَابِ -لِلْعَلَقَاتِ-
فِي الدَّرُوسِ أَمَامَ أَشْيَاخِهِمْ، وَالْعَنَاءِ بِتَلْقِينِهِمْ مَذَاهِبَ الْأُئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ
وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِمَّا يَتَّصِلُ بِالْمَسْجِدِ السَّكَنَانِيِّ.

(٨) وَمِثْلُ هَذَا قَصِيدَتُهُ فِي مَشْرُوعِ ٢٨ فَبْرَايِرَ :

قَالُوا: (الْحَمَاةُ) زَالَتْ. قُلْتُ: لَا تَجِبُ بَلْ كَانَ بَاطِلًا فِيكُمْ هُوَ الْمَجْبُوهُ
رَأْسُ الْحَمَاةِ مَقْطُوعٌ؛ فَلَا عَدَمَتْ كِنَانَةُ اللَّهِ حَرَمًا يَقْطَعُ الدَّيْبَ
لَوْ تَسْأَلُونَ (الْأَنْبِيَّ) يَوْمَ جَنْدَلَهَا بَأَى سَيْفٍ عَلَى يَافُوحِهَا صَرَبًا؟
أَبِالَّذِي جَرَّ يَوْمَ السَّلَمِ مُنْشَحًا أَمْ بِالَّذِي هَزَّ يَوْمَ الْحَرْبِ الْمُتَضَبًا
يَا (فَاتِحَ الْقُدُسِ) خَلَّ السَيْفُ نَاحِيَةً لَيْسَ الصَّلِيبُ حَدِيدًا كَانَ، بَلْ خَشَبًا
فَمَا رَأْسُ الْحَمَاةِ؟ وَمَا ذَنْبُهَا؟ وَمَنْ «الْأَنْبِيُّ» الَّذِي ضَرَبَهَا؟ وَمَا دَخَلَ
الْحَرْبَ وَالسَّلَامَ وَفَتَحَ الْقُدُسَ هُنَا؟ إِنَّهَا إِشَارَاتٌ تَارِيخِيَّةٌ؛ يَعْرِفُهَا كَثِيرٌ مِنَ
الْمُعَاصِرِينَ، وَيَجْهَلُهَا كَثِيرٌ يَزْدَادُ عَدَدُهُمْ عَلَى الْأَيَّامِ.

(١) الْبَيْتُ الْعَتِيقُ، هُوَ: السَّكْبَةُ، وَالْجَامِعُ الْعَتِيقُ: جَامِعُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ بِمِصْرَ الْقَدِيمَةِ،

وَقَدْ كَانَ مَوْضِعًا لِلتَّعْلِيمِ. (٢) الْأَزْهَرُ. نِسْبَةً لِّلْكَنَانَةِ، وَهِيَ: مِصْرُ.

(٩) أو يقول في قصيدة المؤتمر (مشيرا) إلى البرلمان الذي سماه : حصن الحق) .
احتل حصن الحق غير جنوده وتكالبت أيدٍ على المفتاح ...
فمن المحتلون من الأحزاب السياسية المصرية ؟ وما تلك الأيدى ؟
لم يرد الإنصاح .

(١٠) وقوله في قصيدة بنك مصر :

تُرَاحُ بالحوادثِ أو تُنادَى ونفكرُها ، ونُعطيها القيادَا
وتَحُدُّها ، وما رعتِ الضحايا ولا جَزَتِ المواقفَ والجِهَادَا
لَحَاها الله !! باعَتنا خيَالًا من الأحلام واشترتِ اتحادَا
مَشِينَا أمسِ نلقاها جميعًا ونحنُ اليومَ نلقاها فرادَى
فما تلك الحوادث بل الكوارث التي أشار إليها ؟ وما تلك الأحلام التي
اشتريناها باتحادنا ؟ وما أمس واليوم ونصيبهما من تلك الأحداث ؟
إنها أحداث سياسية خطيرة لم يشأ أن يفصح عنها في إبانة وجلاء لأمر
يطويه في نفسه . فهو يشير إلى النزاع بين الأحزاب المصرية سنة ١٩٢٦ ،
وما انتهى إليه من اتساع الهوة بينها ، ومقاومة كل حزب للآخر ،
بل محاربتة محاربةً دنيئة ؛ لا هوادة فيها ولا مهادنة ؛ حتى كادت تقضي
على حرية البلاد ، ودستورها ، ومظاهر الحضارة فيها .

(١١) وقوله في السجناء السياسيين الذين أطلق سراحهم بالغفو عنهم : —

طلبوا الجلاء على الجهادِ مشوبةً لم يطلبوا أجرَ الجهادِ زهيدا
والله ما دونَ الجلاءِ ويومه يومٌ تُسميه الكِنَانَةُ عيدا
وجدَ السجينُ يداً تُحطَّمُ قيدهُ من ذا يُحطَّمُ للبلادِ قيودَا ؟

رَبَّحْتَ مِنَ (التصريح) أَنْ قِيودَهَا قَدْ صِرْنَ مِنْ ذَهَبٍ ، وَكُنَّ حَدِيدًا
أَوْ مَاتَرُونَ عَلَى (المنابع) عُدَّةً لَا تَعْبَلُ ، وَعَلَى الصُّفَافِ عَدِيدًا ؟
فَمَا الْجَلَاءُ ^(١) ؟ وَمَا التَّصْرِيحُ ^(٢) وَقِيوده الَّتِي صَارَتْ ذَهَبًا بَعْدَ أَنْ كَانَتْ
حَدِيدًا ؟ وَمَا الْمَنَابِعُ ^(٣) وَعُدَّتْهَا ؟ وَالصُّفَافِ ^(٤) وَعَدِيدُهُ ؟
(١٢) وَيَقُولُ فِي قَصِيدَةِ شَهِيدِ الْحَقِّ الَّتِي سَلَفَتْ : —

إِلَامَ ائْخُلَفُ بَيْنَكُمْ ؟ إِلَامَا ؟ وَهَذِي الضَّعْفَةُ الْكُبْرَى عَلَامَا ؟
وَفِيمَ يَكِيدُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ ؟ وَتُبْدُونَ الْعِدَاوَةَ وَالْخِصَامَا ؟
وَأَيْنَ الْفَوْزُ ؟ لِمِصْرُ اسْتَقَرَّتْ عَلَى حَالٍ ، وَلَا السُّودَانُ دَامَا
وَأَيْنَ ذَهَبْتُمُو بِالْحَقِّ لِمَا رَكِبْتُمْ فِي قَضِيئِهِ الظَّالِمَا ؟
لَقَدْ صَارَتْ لَكُمْ حُكْمًا وَغُنْمًا وَكَانَ شَعَارُهَا (الْمَوْتُ الزَّوَامَا)
فَأَيُّ خَلْفٍ وَضْجَةٍ يَقْصِدُ ؟ وَمَا السَّكِيمُ وَالْعِدَاوَةُ وَالْخِصَامُ الَّتِي أَشَارَ إِلَيْهَا ؟
وَمَاذَا يَعْنِي بِالْفَوْزِ ؟ وَأَيْنَ ذَهَبَ السُّودَانُ ؟ وَمَا ذَلِكَ الشَّعَارُ : (الْمَوْتُ الزَّوَامَا) ؟
وَكَيْفَ انْتَهَى أَمْرُ الْقَضِيَّةِ إِلَى الْحُكْمِ وَالْغَنَمِ ؟
تِلْكَ رَمُوزُ لَوْاقِعٍ وَأَحْدَاثٍ تَارِيخِيَّةٍ حَاتٍ بِمِصْرَ ، وَاشْتَهَرَتْ بَيْنَ أَبْنَاءِ
ذَلِكَ الْعَهْدِ الَّذِي قِيلَتْ فِيهِ الْقَصِيدَةُ (سَنَةِ ١٩٢٤) أَمَّا الْآنَ فَقَلَّ مَنْ يَعْرِفُهَا
مِنَ النَّاشِئَةِ الْجَدِيدَةِ ، وَشَبَابِ الْجِيلِ الْحَاضِرِ .

-
- (١) يَرِيدُ : جَلَاءُ الْإِنْجِلِيزِ عَنْ وَادِي النَّيْلِ .
(٢) تَصْرِيحٌ ٢٨ فَبْرَايِرِ الَّذِي صَرَّحَتْ فِيهِ لِمَنْجَلْتِرَا بِأَنْ مِصْرَ صَارَتْ مُسْتَقْلَلَةً . وَاشْتَرَطَتْ
لِذَلِكَ شُرُوطًا أَرْبَعَةً ؛ هِيَ الَّتِي سَمَّاها الشَّاعِرُ : الْقِيُودَ .
(٣) يَرِيدُ مَنَابِعَ النَّيْلِ وَمَا أَقَامَهُ حَوْلَهَا الْإِنْجِلِيزُ مِنْ حِصُونٍ وَمَعْدَاتٍ حَرْبِيَّةٍ .
(٤) أَيْ : صُفَافِ النَّيْلِ ؛ وَمَا عَلَيْهِ مِنْ جِيُوشِ الْإِنْجِلِيزِ الْمُحْتَلَةِ .

(١٣) بل إنه قد يسرف في الإشارات التاريخية إسرافاً لم يسبقه إليه شاعر؛
كقوله يخاطب الخليفة العثماني في قصيدة عنوانها : « عيد الدهر » .

مَكْنَتَ لِلدُسْتُورِ فِيهِ ، وَحُزْنَتهُ تَاجاً لَوَجْهِكَ فَوْقَ تَاجِ جَلَالِهِ
فَكَأَنَّكَ (الفاروق ^(١)) فِي كَرْسِيهِ نَعِمْتَ شُعُوبُ الْأَرْضِ تَحْتَ ظِلَالِهِ
أَوَأَنْتَ مِثْلُ (أَبِي تَرَابٍ ^(٢)) يُتَقَمَّى وَيَهَابُهُ الْأَمَلَاكُ فِي أَسْمَالِهِ
عَهْدُ النَّبِيِّ هُوَ السَّاحَةُ وَالرُّضْبُ (بِمُحَمَّدٍ ^(٣)) أَوْلى ، وَسَمَحَ خِلَالِهِ
يَابْنَ « الْخَوَاقِينِ » (الثَّلَاثِينَ ^(٤)) الْأَلَى قَدْ جَمَلُوا الْإِسْلَامَ فَوْقَ جَمَالِهِ

... ..

الْمُوطِئِينَ مِنَ الْمَمَالِكِ خَيْلَهُمْ مَا لَمْ يَفْزُ (إِسْكَندَرُ ^(٥)) بِوَصَالِهِ
فِي عَدَلٍ فَاتِحِهِمْ ^(٦)) وَ(قَانُونِيهِمْ ^(٧)) مَا يَحْتَمِدِي الْخُلَفَاءَ حَذُوَ مِثَالِهِ
إِلَى أَنْ قَالَ : —

إِيهِ (فَرُوقٌ ^(٨)) الْحَسَنُ نَجْوَى هَائِمٍ يَسْمُو إِلَيْكَ بِجَدِّهِ ^(٩) وَبِحَالِهِ ^(١٠)
أَخْرَجْتَ لِلْعَرَبِ الْفِصَاحَ بَيَانَهُ قَبَسًا يَضِيءُ الشَّرْقَ ، مِثْلَ كَمَالِهِ
لَمْ تُكْثِرِ (الْحَمَاءَ) مِنْ نَظَرَانِهِ نَسْلاً ، وَلَا (بَغْدَادُ) مِنْ أُمَمَالِهِ
جَعَلَ الْإِلَهُ خِيَالَهُ (قَيْسَ) الْهُوَى وَجُعِلَتْ (أَيْمَنُ) (لِي) فِتْنَةً لِنَحْيَالِهِ

(١) عمر بن الخطاب . (٢) علي بن أبي طالب .

(٣) محمد رشاد الخليفة العثماني .

(٤) هم آباء الخليفة العثماني الذين سبقوه للسلطنة العثمانية . (٥) إسكندر المقدوني .

(٦) محمد الفاتح الخليفة العثماني الذي فتح القسطنطينية ، وكان أول خليفة استولى عليها .

(٧) سليمان القانوني . (٨) اسم القسطنطينية .

(٩، ١٠) يشير إلى أن جده وخاله من الأتراك .

أَفْرَاحُهُ لَمَّا رَأَى طَلِيْقَةً أَفْرَاحُ (يوسف) يَوْمَ حَلِّ عِقَالِهِ
وَسُرُورُهُ بِكَ مِنْ قِيودِكَ حُرَّةَ كَسْرُورِ (قيس) بِانْفِلَاتِ غَزَالِهِ

... ..

أَرَأَيْتَ الإِسْرَافَ فِي الإِشَارَاتِ وَالْأَعْلَامِ التَّارِيخِيَّةِ ؟ وَكَيْفَ تَزَاحَتَ
فِي قَصِيدَةٍ وَاحِدَةٍ ؛ تَخَفَّى بِهَا الْمَعْنَى إِلَى أَعْلَى مِنْ نَالِ حِظٍّ مِنَ الْعِلْمِ ، وَأَثَارَةٍ
مِنَ التَّارِيخِ ؟ وَمَا أَقْلَ هَؤُلَاءِ ... أَمْ كَانَ شَوْقِي يَنْظُمُ الشَّعْرَ لَهُمْ ، وَيُغْفِلُ
مِنْ عَدَاةٍ ؟ أَمْ كَانَ يَزْعُمُ أَنَّ الْجُمُورَةَ مِنَ النَّاسِ تُدْرِكُ سِرَامِيَهُ ، وَتَعْنِي إِشَارَاتِهِ
التَّارِيخِيَّةَ ؟ أَمْ كَانَ يَقُولُ الشَّعْرَ لِنَفْسِهِ ؛ لَا يَعْأُ بِمَنْ يَدْرِكُهُ أَوْ لَا يَدْرِكُهُ ؟ .
سِوَاءِ أَمْ كَانَ هَذَا أَمْ ذَاكَ أَمْ غَيْرَهَا ، فَلَنْ يَتَسَعَ مَجَالُ الْعَذْرِ لَشَوْقِي . وَلَنْ يَجِدَ
النَّاقِدُ النَّزِيهَ بُدْءًا مِنْ تَغَزِيهِ لِهَذَا الإِسْرَافِ الَّذِي سَلِمَ مِنْهُ الْمُتَنَبِّي ؛ فَقَدْ كَانَتْ
إِشَارَاتُهُ التَّارِيخِيَّةُ قَلِيلَةً ، وَهِيَ — مَعَ قِلَّتِهَا — أَشْهَرُ وَأَوْضَحُ مِنَ الْحَوَادِثِ
الَّتِي بَشِّرُ إِلَيْهَا شَوْقِي . وَلَا أَعْرِفُ لِلْمُتَنَبِّ قَصِيدَةً وَاحِدَةً جَمَعَتْ بَعْضَ مَا جَمَعَتْهُ
الْقَصِيدَةُ الشَّوْقِيَّةُ السَّابِقَةُ مِنَ الْأَسْمَاءِ التَّارِيخِيَّةِ . حَتَّى قَصِيدَتُهُ فِي مَدْحِ
أَبِي الْفَضْلِ بْنِ الْعَمِيدِ (وَعَدَدُ أُبْيَاتِهَا سَبْعَةٌ وَأَرْبَعُونَ) وَهِيَ الَّتِي اشْتَهَرَتْ
بِكَثْرَةِ مَا فِيهَا مِنْ أَعْلَامٍ وَأَسْمَاءٍ تَّارِيخِيَّةٍ ؛ فَإِنَّ الْأَعْلَامَ وَالْأَسْمَاءَ فِيهَا لَمْ تَزِدْ عَلَى
سَبْعَةِ مَشْهُورَةٍ ، سَاقَتْهَا فِي خَمْسَةِ أُبْيَاتٍ هِيَ : —

لَا تَتَرَبَّ^(١) الْأَيْدِي الْمَقِيْمَةُ فَوْقَهُ (كَسْرِي) مُقَامَ الْحَاجِبِينَ وَ (قَيْصَرَا)
(أَرْجَان) أَيْتِهَا الْجِيَادُ ؛ فَإِنَّهُ عَزَمِي الَّذِي يَدْرُ الْوَشِيحَ مُكْسَرًا

... ..

(١) أَيْ : لَا يَصِيبُهَا التَّرَابُ . يَدْعُو لَهَا بِعَدَمِ الْفَقْرِ .

... ..

أُحْيِ (أبا الفضل) الدبرَ اليبتي لَا يَمَنَّ أَجَلَ بَحْرِ جَوْهَ—رَا
مَنْ مُبْلِغُ الْأَعْرَابِ أُنَى بَعْدَهَا شاهدتُ (رَسْطَالِدِس) و (الإسْكَندَرَا)

... ..

وَسَمِعْتُ (بَطْلَيْمُوسَ) دَارِسَ كُتُبِهِ مُتَمَلِّكًا ، مُتَبَدِّيًا ، مُتَحَضِّرًا
فأين هذه من الشوقية السابقة : « عيد الدهر » وعدتها سبعة وخمسون
بيتًا حوت من الأسماء والأعلام التاريخية نحو خمسة وعشرين أو تزيد ؟
لاشك أن هذا إسراف لايجد دفاعا .

ومن غوامض معناه قوله يخاطب الخديو إسماعيل : —
فتركت السريرَ مضطربَ الأحوالِ ؛ مِنْ نَأْيِ رَبِّهِ ، أَيْسَ يُهْدَى
لم تكنْ مَنْ جَنَى عَلَيْهِ ؛ وَلَكِنْ عَوَّدَتْهُ الْأَيَّامُ أَنْ تَسْتَبِيدَا
منعتْ مصرَ أَنْ تُتَوَجَّعَ مِصْرُ وَأَبَى النِّيلُ أَنْ يُحَرَّرَ وَرَدَا
فماذا يريد بالبيت الأخير ؟

(١٤) وقوله في وصف القذائف الحربية : —

قذائفٌ تُخَشِّي مَهْجَةَ الشَّمْسِ كُلَّمَا عَلَتْ مَصْعِدَاتِهَا لَا تُصَوِّبُ^(١)
(١٥) مجدُ الأمورِ زوالُهُ فِي زَلَّةٍ لَا تَرَجُ لَأَسْمِكَ بِالْأُمُورِ خُلُودَا
فما المعنى ؟ لعله يريد بالأمور (الأوامر) فينكشف المراد .

(١٦) وقوله في وصف شعر غزلى : —

(١) أى : أن الشمس تخشى أن تصيبها القذائف ؛ فتفتك بها إذا لم تصب أهدافها ،
وسارت مصعدة .

ونسب تحاذر الغيد منه شَرَكُ الحُسْنِ ، أوشبَاكَ الدَّلَالِ
(١٧) ومن بدائع شوقي الفتاة التي يشوبها الغموض ؛ بسبب وفرة أسماؤها
وأعلامها — سيندته التي قالها في منفاه ، يعارض سينية البحترى .
فهي على روعتها وفتنتها تضم نحو خمسين اسما وإشارة تاريخية في أبياتها
التي تبلغ عشرة ومائة . فوق ما يسمى إليها أحيانا من خيال مُعَقَّد ،
أو لفظة مُحَجَّبةٌ ، أو قافية مقهورة . وفيها يقول : —

وسلامصر ؛ هل سلا القلب عنها أو أسا جرحه الزمانُ المؤسَّى
كلما مرَّتِ اليايلى عليه رَقَّ . والعهدُ في الليالى نُقْسَى
مستطارٌ إذا البواخر رنَّتْ^(١) أولَ الليل ، أوعوتْ بعد جرسِ
راهبٍ في الضلوع ، للسفنِ فطنٌ كلما ثُرْنَ شاعهن بنقْسِ

نَفْسِي مِرْجِلٌ ، وقلبي شِرَاعٌ بِهِمَا في الدموعِ سِيرِي وَأُرْبِي
وَأَجْعَلِي وَجْهَكَ (المنارَ) وَحَجْرًا لِيَدَ (الثغر) بَيْنَ (رمل) وَ(مكس)
وطني لو شَغَلْتُ بِالْخَلْدِ عَنْهُ نَازَعْتَنِي إِلَيْهِ فِي الْخَلْدِ نَفْعِي
وهفًا بالفؤادِ في سلسبيلٍ ظمًا لِّلسَّوَادِ مِنْ (عين شمس)
شَهِدَ اللَّهُ لَمْ يَغِبْ عَنْ جَفُونِي شَخْصُهُ سَاعَةً ، وَلَمْ يَخْلُ حِمِي
يُصْبِحُ الْفَكْرُ وَ(المِسْلَةُ) نَادِيَهُ ، وَ(بالسَّرْحَةِ الزَكِيَّةِ) يُمِيعِي
وَكأَنِّي أَرَى الْجَزِيرَةَ أَيْكًا نَفَعَتْ طَيْرُهُ بِأَرْحَمِ جَرَسِ

(١) كان في منفاه يسكن بيتا قريبا من ميناء السفن .

مى (بَلْقَيْس) فى الخمائل صرحُ من عباب ، وصاحبُ غير نيكسِ
 حسبها أن تكون للنيل عرسا قبلها لم يُجَنَّ يوما بعُرسِ
 لبستُ بالأصيل حُلَّةَ وشي بين صنعاء فى الثياب ، وقَسَّ
 قدَّها النيلُ ؛ فاستَحَتْ ؛ فتَوَارَتْ منه بالجسر بين عُريِّ ولُبْسِ
 وأرى النيلَ (كالعقيق) بواديه ، وإن كان كوترَ المتَحَسِّ
 ابنُ ماء السماء ، والموكب الفخم الذى يحسُرُ العيونَ ويُنْحِي
 لا ترى فى ركابه غير مثنٍ بحميل ، وشاكرٍ فضلَ غُرسِ
 وأرى (الجزيرة) الحزينة تكللى لم تُفَقْ بعدُ من مَنَاحَةٍ (رَمْسِي)^(١)

ومنها : —

وعظ (البحتريُّ) إيوانُ (كسرى) وشَفَتْنِي القصورُ من (عبد شمس)
 رَبَّ ليلٍ سریتُ ، والبرقُ طِرْفِي وبساطٍ طويتُ ، والريحُ عَنَسِي
 أنظُمُ الشرقَ فى (الجزيرة) بالعر ب ، وأطوى البلادَ حَزَنًا لدَهْسِ
 فى ديار من الخلائف دَرَسِ ومنار من الطوائف طَمَسِ
 وربًّا كالجنانِ فى كنف الزيتو ن خضرٍ ، وفى ذرا الكرم طُلَسِ
 (١٨) ومن طرائفه الساحرة أندلسيته النونية التى يعارض بها نونية
 ابن زيدون ، والتى أَطْلَقَ فيها خياله ؛ يبتدع ، ويبتكر ما شاءت له
 القدرة ، والحرية ، والبراعة التى أغرته بالجموح حيناً . وفيها يقول :
 ياسارى البرقِ ؛ يرمى عن جواحننا بعد الهدوء ، ويَهْمِي عن مآقينا

(١) أى : رمس .

لما تفرق في دمع السماء دماً
الليل يشهد لم تهتك دياجيه
والنجم لم يرنا إلا على قدم
بالله إن جبت ظلماء العباب على
ترد عنك يدها كل عادية
حتى حوتك سماء النيل عالية
وأحرزت شُوفُ اللَّازوردِ ، على
وحازك الرِّيفُ أرجاء مؤرَّجة
فقف إلى النيل ، واهتف في خائله
وأس مابات يذوى من منازلنا
وفيها يقول :

نحن البواقيت ؛ خاض النار جوهراً
ولا يحول لنا صيغ ، ولا خلق
لم تنزل الشمس ميزاناً ، ولا صعدت
ألم تؤلّه على حافاته ؟ ورأت
إن غازات شاطئيه في الضحا لبسا
وبات كل مُجاج الواد من شجر
ولم يهن بيعد التشيت غليفا
إذا تلون - كالخرباء - شائناً
في ملكها الضخم عرشاً مثل وادينا
عليه أبناءها الغر الميامين ؟
خائل السُّدس ، الموشية ، الغينا
لواظ القز بالخيطان ترمينا

وبهذه المناسبة نقول : إن خيال شوقي بادٍ في مختلف قصائده ؛ شأن
الذين أتاحت لهم ثقافته وسياحاته ، ومُتمّعه ، ووسائل حياته . بيد أن خياله

في شعر الطور الأوّل (قبل المنفى) أضعف ظهوراً ، وأقل براعة ، وأهدأ حركة — من شعر الطور الثانی الذي يبدو الخيال فيه واضحاً ، قويا ، نشيطاً . وقد يتجاوز النشاط حدّ الفراهة الممود إلى حد الجوح والشطّط كما قلنا . ومن أمثلة شعره في الطور الأول قوله يخاطب القمر من سفينة تجوب البحر : -

الماء والآفاق حولك فضة والشهب دينار لدى دينار
والفلك مشرقة الجوانب في الدجى يبدو لها ذيل من الأنوار
بيننا تخطر في لجّين ما مألج إذ تنثني في عسجد زخار
وقوله في الحرب العثمانية اليونانية يمدح الترك ويصف حصنا : -

حتمه ليوث من حديد تركزت على عجل ، واستجمعت ترقب
تأبى ؛ فظن العالمون استحالة وأعيا على أوهامهم ؛ فتریبوا
فما في القوى أن السموات ترتقى بجيش ، وأن النجم يغشى ؛ فيغضب
سموئهم إليه ، والقنابل دونه وشهب المنايا ، والرصاص المصوب
فكنتم يواقيت الحروب كرامة على النار ، أو أنتم أشد ، وأصلب
ومن هذا قصيدته في وصف المرقص وأولها : -

مال واحتجب وادعى الغضب
لنت هاجرى يذكر السب

وقصيدته في وصف (البال) وأولها : -

حف كأسها الحبيب فهي فضة ذهب

وقصيدته في المطرية وأولها : —

يا ناشر العلم بهذى البلاد وَقَفْتَ ؛ نَشْرُ الْعِلْمِ مِثْلُ الْجِهَادِ
ومن أمثلة الطور الثاني (غير ماسبق) قصيدته في الخلافة التي ألغاها الترك
بعد انتصارهم على أعدائهم عقب الحرب الأوروبية الأولى (وقد أشرنا إليها
قبلاً) ومطلعها : —

عادت أغاني العُرسِ رَجَعَ نَوَاحِ وَنُعَيْتِ بَيْنَ مَعَالِمِ الْأَفْرَاحِ
كَفَنْتِ فِي لَيْلِ الزَّفَافِ بِثَوْبِهِ وَدُفِنْتَ عِنْدَ تَبَلُّجِ الْإِضْبَاحِ
شُيِّعَتْ مِنْ هَلَعٍ بَعْبَرَةٍ ضَاحِكٍ فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ ، وَسَكْرَةٍ صَاحِ

.....

وقصيدته في أبي الهول ، ومنها : —

أبا الهولِ ، ويحك !! لَا يُسْتَقْلُ مَعَ الدَّهْرِ شَيْءٌ ، وَلَا يُحْتَقَرُ
تَهَزَّأتْ دَهْرًا بِدَيْكِ الصَّبَاحِ فَتَقَّ — رَ عَيْنِيكَ فِيمَا نَقَرُ
أَسَالَ الْبَيَاضَ ، وَسَلَّ السَّوَادَ وَأَوْغَلَ مِنْقَارَهُ فِي الْحُفْرِ
أَبَا الْهَوْلِ ، أَنْتِ نَدِيمُ الزَّمَانِ نَجَى الْأَوَانِ ، سَمِيرُ الْعُصْرِ
بَسَطَتْ ذِرَاعِيكَ مِنْ آدَمٍ وَوَلَيْتَ وَجْهَكَ شَطْرَ الزُّمَرِ

.....

وكقصيدته في تكريم بعض الوطنيين ، وأولها :

وِطْنٌ يَرْفُ هَوًى إِلَى شَبَابِهِ كَالرُّوضِ رِقَّتُهُ عَلَى رِيحَانِهِ
هَمْ نَظْمُ حَلِيقَتِهِ ، وَجَوْهَرُ عِقْدِهِ وَالْعَقْدُ قِيَمَتُهُ يَتِيمُ جُبَانِهِ

.....

وقصيدته التي عنوانها : اعتداء^(١) ، ومطلعها :

نَجَا وَتَمَائِلَ رُبَّانُهَا وَدَقَّ الْبِشَارُ رُكْبَانُهَا
وَهَلَّلَ فِي الْجَوِّ قَيْدُومَهَا وَكَبَّرَ فِي الْمَاءِ سُكَّانُهَا

.....

ومن أظهر أمثلة الخيال قصيدته في وصف مشاهد الطبيعة^(٢) ومنها :

وَلَقَدْ تَمَرَّ عَلَى الْغَدِيرِ تَخَالُهُ وَالنَّبْتُ مِنْ آةٍ زَهَتْ بِإِطَارِ
حُلُوِّ السَّلْسَلِ مَوْجُهُ وَخَرِيرُهُ كَأَنَّمَا لِي مَرَّتْ عَلَى أوتارِ

وللخيال نصيب محمود في أكثر أبيات القصيدة :

وقوله في أبي الهول وقد أوغل الخيال : —

لَعِبَ الدَّهْرُ فِي ثَرَاهُ صَبِيغُهُ وَاللَّيَالَى كَوَاعِبًا غَيْرَ غُنْسِ
رَكِبْتُ صَيْدُ الْمَقَادِيرِ عَيْنَهُ هِ انْقَدِ ، وَخِائِبِيهِ إِفْرَسِ

وغير هذا من قصائد الطور الثاني التي يَمُوجُ الخيال فيها ، ويجود ، ويمرح ، وقد يجمع كما سبق . وشوق في خياله الهادئ ، أو الجامح خير من المتنبي ، وأقدر . فكيف به في الخيال الفاره الشيط ؟

* * *

أما طرافة المعاني الشوقية ، واستقامتها ، ومناسبتها لموضوعها ، وعصرها — فليست موضع جدل ؛ فكل شعره ناطق بها . والَبَوْنُ بينه وبين المتنبي

(١) فالها حين ضرب الزعيم سعد زغلول باشا برصاصة من شاب أحق فأصابته
ولكنها لم تقتله . (٢) ج ٢ ص ٤٣ .

شامعٌ . وأمامك الدليل من قصائده : (توت عنخ آمون) و (انتحار الطالبة)
و (الأندلسية الجديدة) ... وأمثالها .

غير أننى ألحظ فى مدائح شوق وبعض موضوعاته الأخرى ما لحظته
فى مدائح المتنبى من النعوت الشائعة المرددة ؛ كوصف المدوح بأنه كريم
كالبحر ، فياض كالفيث ، على المنزلة كالنجم ... ، وأشباه هذا مما قد يقوم
لها فيه وجه العذر أحيانا ؛ لعجز الشاعر عن أن يجد فى التشبيه أكل وأنسب
من هذه فى موضوعها ؛ فليس أغزر من البحر ، ولا أعذب من المطر ،
ولا أعلى من النجم ... ولن يحول الشيوخ والابتذال دون هذا التشبيه الذى
لا غناء عنه ، حتى يهتدى الناس إلى ما يضارع البحر ، والمطر ، والنجم ،
وأشباهها — فى المزايا ، أو يفوقها . وعندئذ يستغنون عن الشائع القديم ،
ويستبدلون به الجديد . ولكن هذا لا يعنى « شوق » من تهمة التفتير
إعفاء تاما ؛ فقد كان أمامه منافذ للتجديد والتوليد لم يدخل منها إلا قليلا ؛
حيث تسلل إلى بعض المعانى الشائعة المرددة ، وتناولها بالصقل ، أو التوليد ،
وحسن التصرف ؛ فبدت كأنها الجديدة المبتكرة . كقوله فى قصيدة الحجاب
والسفور يصف السكران ، وهى (مثال لخياله أيضاً) :

فوق الأسيرةِ والمَناءِ برِ قَطُّ لم تترَجَّلِ
تَهْتَز كالدينارِ فى مُرَبَّجٍ لَحْظِ الأَحْوَلِ
وَإِذَا خَطَرَتْ عَلَى المِلا عِبِ لم تَدَعِ لِمُمَثِّلِ
ولقد تَخَذَتْ مِنَ الضُّحَا صُفْرُ الغلائِلِ ، وَالْحِلِ
وَرَوَيْتَ فى بَيْضِ القَلَا نِسَ عَنْ عَذَارَى الهَيْسِكِ

...

فماذا وراء هذه الأبيات من المعانى إلا وصفه العصفور بأنه حَمِيس ،
يظل واقفاً فوق الأسلاك ، مضطرباً لا يهدأ . يتحرك ، ويغنى ، ويصيح
في براعة تفوق براعة الممثل . أصفر الريش ، أبيض الرأس ؟ وكلها معان ،
وأوصاف مألوفة ، بل مبدولة . ولكن الصقل والتوليد جعلها منها شيئاً
جديداً ، أو كالجديد .

وكقوله متغزلاً :

أذكرتِ هرولة الصبابة والهوى	لما خطرَتِ يُقْبَلانِ خطاك ؟
لم أدر ما طيبُ العناقِ على الهوى	حتى تَرَفَّقَ ساعدي ؛ فطَوَاكِ
وتأوَّدتِ أغصانَ بَانِكِ فى يدي	وأحرَّرتِ من خَفَرِهنَّ خَدَاكِ
ودخلتِ فى ليلين ؛ فَرَعكِ ، والدَّجَى	ولثَمْتُ - كالصبح المنور - فَالِكِ
ووجدتِ فى كُفِّه الجوانحَ نَشْوَةَ	من طيبِ فيكِ ، ومن سُلَّافِ أَمَّاكِ
وتعطلتِ لغةُ الكلامِ ، وخاطَبَتِ	عينيَّ فى لغةِ الهوى عيناكِ

فهل فى هذه الأبيات الرائعة المعانى إلا هرولته وراءها ، ومعانقتها ،
وأنها بانيئة القوام ، حمراء الخلد ، سوداء الشعر ، مضيدة الثغر ، طيبة
الغم ، خمرية الريق ؟ وأن دهشة اللقاء ، والسرور به — عقدا لسانهما
عن الكلام ؛ فاكتميا بالنظرات ؟ وهل فى هذا كله معنى جديد غير
معروف ؟ اللهم لا . ولكن البراعة والصقل ؛ خلقته خلقاً آخر ، وعرضته
علينا عرضاً قشيباً طريفاً . وما أكثر هذا فى الشوقيات .

أما حظ « شوقي » من توفية المعنى ، وإرضاء الفكر — فكحظ المتنبي ، أو أحسن قليلا . يعرض المعاني عرضاً مُجَمَّلاً ، ويتناولها برفق ، وينعزف عنها بغير استيعاب ، ولا تفصيل ، ولا ربط ، ولا تعليل . وإذا كان هذا عيباً كبيراً ، وقبحاً ظاهراً في المتنبي — فهو في شوقي أكبر وأظهر ؛ لنصيب شوقي الأوفى من الثقافة ، ولعصره الذي يموج بأسباب الحضارة ، ولا يرضى بإهمال الفكر في النتاج الأدبي الخالص .

واقدر قلنا إن المتنبي بعيد عن الفلسفة بمعناها العلمية ، ولم يكن له رأى فيها ، ولا في مذاهبها إلا إن جعلنا مسلكه في الحياة ، وحكمه على الناس — مذهبا يدعو فيه إلى العنف والجبروت . وشوقي مثله من هذه الناحية ؛ ليس له مذهب فلسفي خاص ، ولا رأى ذاتي ينفرد به ، إلا لحاحات نفسية عابرة ليست من صميم الفلسفة ؛ وإن كانت منها بسبب . وأظهر ما يتردد في شعره رأيه في الملاينة ، والموادة ، والفرار من الإيذاء . فهو على النقيض من رأى المتنبي .

ومن الشوقيات التي فازت ببعض الاستيعاب ، والمنطق الفلسفي — قصيدته في سجناء الوطنية الذين احتملوا من أجلها أنواع الشقاء والتعذيب إلى أن أطلق سراحهم ، وفيها : —

قَالُوا: أُنْظِمُ لِلشَّبابِ تَحِيَّةً تَبَقَى عَلَى جِدِّ الزَّمَانِ قَصِيدَا ؟
قُلْتُ: الشَّابُّ أَنْتُمْ عِقْدُ مَاثِرٍ مِنْ أَنْ أَزِيدَهُمُ الثَّنَاءَ قَصِيدَا
قَبِلْتُ جُهُودَهُمُ الْبِلَادَ ، وَقَبِلْتُ تَاجًا عَلَى هَامَتِهِمْ مَعْقُودَا
خَرَجُوا ؛ فَمَا دُؤُوا حَنَاجِرَهُمْ ، وَلَا مَنُؤُوا عَلَى أَوْطَانِهِمْ مَجْهُودَا

.....

ما كان أفطنهم لكل خديعة !! واكل شرّ بالبلاد أريدا !!
جادوا بأيام الشباب ، وأوشكوا يتجاوزون إلى الحياة الجودا

.....

وأبياته من قصيدة محمد علي : —

حبّذا دولة ، ومُلك كبيرٌ أنت باني رُكنَيْهِما ، يا مُحَمَّدُ
ولوائه في البر والبحر يُعطى مظهر الشمس في الوجود ، وأزِيدُ
تَدْخُلُ الأرضُ فيه قُطْرًا قُطْرًا مُدْخِلُ الناسِ في شريعةِ أحدِ
تَمَلَأُ الأرضَ صافناتٍ ، وتُجْزِي لك في البحرِ كلَّ بُرْجٍ مُشِيدُ
علمت مصرُ ، والحجازُ ، وأرض النُّوب ، والشامُ — أنَّ عَهْدَكَ عَسَجَدُ

.....

وقصيدته في الفلاء : —

عبادك — رَبِّ — قد جاعوا بِمِصْرٍ أُنْيالاً سُنُفَتَ فِيهِمْ ، أم سَرَابًا ؟
حَفَانِكَ ، واهْدِ لِلْحُسْنَى تِجَارًا بِهَا مَلَكَوا المرافقَ والرقابا
أَمَنْ أَكَلَ الْيَتِيمَ لَهُ عِقَابٌ ومن أَكَلَ الْفَقِيرَ فَلَا عِقَابًا ؟

.....

وكذلك أبياته الأولى في وصف الصحف ، وأبياته في وصف الصحراء

من قصيدة رحالة الشرق^(١) ..

لكن أي استيعاب وأي منطق يُرضى الفكر في قوله يمدح السلطان عبد الحميد :

(١) وأولها :

كم في الحياة من الصحراء من شبه كلتاعا في مفاجاة الفتى شرع

نَهَضَتْ بَعْرَشٍ يَنْهَضُ الدَّهْرُ دُونَهُ خَشَوْعًا وَتَخْشَاهُ اللَّيَالِي ، وَتَرْهَبُ
مَكِينٍ عَلَى مَتْنِ الْوُجُودِ ، مُؤَيَّدٍ بِشَمْسِ اسْتِوَاءٍ ؛ مَا لَهَا - الدَّهْرَ - مَغْرِبُ
تَرَقَّتْ لَهُ الْأَسْوَاءُ ؛ حَتَّى ارْتَقِيَتْهُ فَقُمْتَ بِهَا فِي بَعْضِ مَا تَنْفَكُّ
فَكُنْتَ كَمَنْ ذَاتَ جَرَى ، كَمِينَةٍ تَفِيضُ عَلَى مَرِّ الزَّمَانِ ، وَتَعْدُبُ
مُوكَلَّةٍ بِالْأَرْضِ ، تَنْسَابُ فِي الثَّرَى ؛ فَيَحْيَا ، وَتَجْرَى فِي الْبِلَادِ ؛ فَنَخْصِبُ
فَأَحْيَيْتَ مَيِّتًا ، دَارِسَ الرَّسْمِ ، غَابِرًا كَأَنَّكَ فِيهَا جِئْتَ عَيْسَى الْمُقَرَّبُ
وَشَدَّتْ مَنَارًا لِلْخِلَافَةِ فِي الْوَرَى تُشَرِّفُ فِيهِمْ شَمْسُهُ ، وَتُقَرَّبُ

فَأَيْنَ الاسْتِعَابِ ، وَالتَّفْصِيلِ ، وَالتَّعْلِيلِ ، وَالرِّبْطِ فِي مَعَانِي هَذِهِ
الْأَبْيَاتِ ؟ أَلَيْسَتْ بِمَجْمَلَةٍ ، مَبْهَمَةٍ ، مَرْسَلَةٍ . فَمَا تِلْكَ الْأَسْوَاءُ الَّتِي تَنْفَكُّ بِهَا ؟
وَمَا خِيَرَاتُهُ الَّتِي أَحْيَا بِهَا الدَّارِسَ وَكَانَ بِهَا كَعَيْسَى الَّذِي أَحْيَا الْمَوْتَى
بِإِذْنِ اللَّهِ ؟ ...

وقوله في براءة مرقص بك فهمي في تهمةٍ نسبت إليه ، ومنعته من
الاشتغال بالحمامة إلى أن ظهرت براءته : —

قُلْ لِلدَّيْرِ مَرْقِصٌ : أَنْتَ النَّقِيُّ مِنَ الطَّبَعِ
هَذَا الْقَضَاءُ رِمَاكَ بِالْيَمْنِ ، وَبِالْيَسْرِ نَزَعُ
هَذَا قَضَاءُ اللَّهِ مُنْتَمِلُ الْحُكُومَةِ ، مَتَّبِعُ
عَدِّ لِلْحَمَامَةِ الشَّرِيفَةِ عُودِ مُشْتَاقٍ وَرِلْعِ
وَالْبَسَ رِدَائِكَ طَاهِرًا كَرْدَاءِ مَرْقِصٍ فِي الْبَيْعِ

فَهَلْ يَكْفِي فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْقِفِ أَنْ يَقُولَ لَهُ : أَنْتَ النَّقِيُّ ، وَأَنْتَ الْوَلَمُ
بِالْحَمَامَةِ ، وَأَنْتَ ، وَأَنْتَ ... مِنْ غَيْرِ تَفْصِيلٍ ؟ فَمَا مَظَاهِرُ النِّقَاطِ عِنْدَ مَرْقِصٍ ؟

وما دلائل براعته وولمه بالحمامة ؟ وما آثاره فيها ؟ وما سبب اتهامه ؟
ومثل هذا قصيدته التي عنوانها : (إلى عَرَافَات) . وقصيدته في نابليون
وغيرهما من القصائد ؛ ولا سيما التي صدرت في الطور الأول من حياته ،
والتي قرّبت الشبه بينه وبين المتنبي من هذه الناحية .

وجدير بنا — ونحن نتكلم عن المعنى وتفاصيله ، والخيال وعجزه ، والفلسفة
والمنطق وضعفهما — ألا نُلقيَ النَّبِيَّةَ كلها على الشاعر وحده (المتنبي ، أو :
شوقي ، أو : غيرهما) فإن الإنصاف يقتضينا أن نشرك معه في احتمالها :
نظام القصيدة في الشعر العربي ، والبيئة التي يعيش بين أهلها .

فأما نظام القصيدة العربية فدقيق ؛ يفرض على الشاعر قيوداً صعبة ،
عنيفة ؛ تكاد تبلغ حد الإرهاق ؛ كما أشرنا من قبل .

وأما البيئة فلأن الشاعر يتأثر بها ، ويعمل جاهداً لإرضاء أهلها ؛
فإن كانوا جهلاء لم ينالوا حظاً محموداً من الثقافة العلمية والأدبية فإنهم
لا يرضون عن الشاعر الغني المعنى ، المنطقي الفكرة ، الفسيح الخيال ؛ لأنهم
لا يفهمونه ، ولا يستطيعون مسايرة خياله ، وكشف دقائقه في التصوير والابتكار ،
ويرونه مُلْفِزاً مُعَمِّياً ؛ ولعل هذا سرّ إقبال العامة وأشباهم من أهل عصرنا على
شعر «حافظ إبراهيم بك» أكثر من شوقي^(٢) وكذلك الشأن في العصور الأخرى .
ولهم العذر ؛ فليس العقل الضعيف إلا كالمعدة الضعيفة ؛ لا تطيق
دسم الطعام ، ولا تحتمل الكثير منه ، وإن كان غنيا بالعناصر الغذائية
المفيدة . ومن ثمّ كان الشاعر مضطراً أن يجارى بيئته إلى حدٍّ ، ويرضيها
بقدر ؛ وإلا انصرفت عنه ولم يكن لشعره الأثر المُبْتَغَى .

(١) ص ١٦٤ . (٢) مع أن «حافظا» نفسه كان من المفتونين « بشوقي »
السابقين إلى الاعتراف بإمارته ، ومبايعته بالزعامة الأدبية .

ولم تكن البيئة المصرية (ولا العربية عامة) أيام (شوقي) تَسِمِغُ
الغزير العميق من المعاني والأخيلة ؛ إذ الأُمِّيَّةُ شائعة ، والجهالة الأدبية غالبة ،
وانصراف القلة المثقفة إلى أسباب الحياة المادية عامٌ شامل ، والأديب
في صدر ذلك العصر - غريب ، أو : كالغريب ، والثقة به وبالأدب
وآثاره واهية مزعزعة أمام العلوم المادية ، وشئون الحياة العملية . ولم
يَشُقَّ الأدب العَرَبِيَّ طريقه في موكب الحضارة ، ويسترد مكائنه - إلا بعد
الحرب العالمية الأولى ، وما تلاها من نهضات قومية لا تزال تسير قَدَمًا نحو
تحقيق أهدافها النبيلة .

كذلك كانت البيئة أيام المتنبى . ولكنها أفضل وأسلم من البيئة أيام
شوقي ؛ لقُرْبُ الأولى من عهود اللغة الفصحى ، وقُرْبُ الأعراب الخلص
من حدود ممالكها ، وكثرة معاهد العلوم العربية ورجالها في المدن والحوضر ،
وعَدَمُ تداول الغزاة الأجانب عليها وفرض لغاتهم على سكانها ؛ لهذا كله
كثُرَ شعراؤها وأدباؤها ، والبارعون في كل علم وفن .

فمن النصفة أن نخفف الملام عن الشاعرين ، ونلتمس لهما من الأمرين
السالفين (نظام القصيدة ، والبيئة) بعض العذر . بل قد نحمد لهما تقدير الملابس ،
والموامة بين دواعي الفن وضرورات العصر . أو : كما يقول البلاغيون :
مراعاة المقام . ونحن حين نرميهما بالتقصير إنما نتطلب منهما الكمال المرجو
من مثلهما ، ونقيسهما إلى أقران لهما برعوا في بعض النواحي التي بدا فيها
تقصيرهما ؛ كالفلسفة بالنسبة للمعري مثلا فقد تخلفا عنه فيها ...

* * *

بقيت العاطفة ومبلغ تدفقها في الشوقيات ، وسريان تيارها في القصائد
والأبيات . والذي ألاحظه أنها فاترة ، خامدة في كثير من شعر شوقي ؛
لا تتأجج ولا تتدفق إلا في :

(١) النواحي الوطنية والدينية (ب) ، وصف متاعبه . وما يليق من أهوال
(ج) وراثته لأهله ، وخاصة نفسه ، وأصحاب نعماء (د) وبعض الغزليات .
فإن جاوزنا هذه المناحي رأينا شعرا لا عاطفة فيه ولا روح : —

(١) فن وطنياته قوله وهو منفي :

لكن مصر وإن أغضت على مقة
على جوانبها رقت تماثنا
ملاعب مريحت فيها ماربنا
ومطلع لسعود من أواخرنا
بنّا ؛ فلم نخل من روح يراو حنا
من مصر ، ورئحان يفادينا

...

ياسرى البرق ؛ يرمى عن جوانحننا
لما ترقق في دمع السماء دما
الليل يشهد لم تهتك دياجيه
والنجم لم يرنا إلا على قدم

...

بالله إن جئت ظماء العباب على
نجائب النور محدواً بجبرينا^(١)

...

(١) أى : بجبريل .

فَقَفْتُ إِلَى النِّيلِ، وَاهْتَفْتُ فِي خَائِلِهِ
وَإِنْزَلَ كَمَا نَزَلَ الطَّلُّ الرِّيحَيْنَا
وَأَسِرَ مَا بَاتَ يَذْوَى مِنْ مَنَازِلِنَا
بِالْحَادِثَاتِ، وَيَضْوَى مِنْ مَغَانِدِنَا

... ..

وكل هذه القصيدة فياض بالعاطفة ، مُتَرَعِّع بالشعور الوجداني الدَّفَاق .
أما شعره الديني العاطفي فأظهر مثال له قصيدته المشهورة : (نهج البردة)
فوق ما له من أبيات منشورة خلال القصائد الأخرى .

ففي نهج البردة يقول : —

إِنْ جَلَّ ذَنْبِي عَنِ الْغَفْرَانِ لِي أُمَلِّ
فِي اللَّهِ يَجْعَلُنِي فِي خَيْرٍ مُنْتَصِمٍ
أَلْتَقَى رَجَائِي — إِذَا عَزَّ الْمُجِيرُ — عَلَى
مُفَرِّجِ الْكَرْبِ فِي الدَّارَيْنِ، وَالْعُمْمِ
إِذَا خَفَضْتُ جَنَاحَ الذِّلِّ أَسْأَلُهُ
عِزَّ الشَّفَاعَةِ لَمْ أَسْأَلْ سِوَى أُمِّهِ (١)
وَإِنْ تَقَدَّمَ ذُو تَقْوَى بِصَالِحَةٍ
قَدَّمْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ عِبْرَةَ النَّدَمِ

... ..

وفي عرفات يقول : —

لَكَ الدِّينُ يَا رَبَّ الْحَجِيجِ ؛ جَمَعْتَهُمْ
لَبِيتَ طَهُورِ السَّاحِ ، وَالْعَرَاصَاتِ
دَعَانِي إِلَيْكَ الصَّالِحُ ابْنُ مُحَمَّدٍ (٢)
فَكَانَ جَوَانِي صَالِحَ الدَّعَوَاتِ
وَخَيْرِي فِي سَابِحٍ ، أَوْ : نَجِيَّةٍ
وَقَدَّمْتُ أَعْذَارِي، وَذُلِّي ، وَخَشْيَتِي
إِلَيْكَ ؛ فَلَمْ أَخْتَرْ سِوَى الْعَبْرَاتِ
وَجِئْتُ بِضِعْفِي شَافِعًا ، وَشَكَاتِي

(١) أمر يسر .

(٢) الحديوي عباس بن محمد توفيق ، وكان قد دعا الشاعر لمرافقته في الحج ؛ فاعتذر .

ويا رب ، هل تُغْنِي عن العبد حَجَّةٌ
وَتَشْهَدُ مَا أَذِيتُ نَفْسًا ، وَلَمْ أَضِرْ
وَلَا غَلَبْتَنِي شِقْوَةٌ ، أَوْ سَعَادَةٌ
وَلَا جَالٌ إِلَّا الْخَيْرُ بَيْنَ سَرَائِرِي
وَأِنِّي (وَلَا مَنْ عَلَيْكَ بِطَاعَةٍ)
أَبَالِغُ فِيهَا ، وَهِيَ عَدْلٌ ، وَرَحْمَةٌ
وَأَنْتَ وَلِيُّ الْعَمُورِ ؛ فَأَمُحْ بِفَاصِعٍ
وَفِي الْعُمُرِ مَا فِيهِ مِنَ الْهَفَوَاتِ ؟
وَلَمْ أَفْغِرْ فِي جَهْرِي ؛ وَلَا خَطَرَاتِي
عَلَى حِكْمَةِ آتَيْتَنِي ، وَأَنَا
لَدَى سُدَّةٍ خَيْرِيَّةِ الرَّغَبَاتِ
أَجِلُّ وَأُغْلِي فِي الْفُرُوضِ زَكَاتِي
وَيَتْرَكُهَا النَّسِيكَ فِي الْخَلَوَاتِ
مِنَ الصَّفْحِ مَا سَوَدَّتْ مِنْ صَفْحَاتِي

(ب) ومن متاعبه (وهي من وطنياته أيضا) قوله في المنفى يحنّ إلى مصر :

وَسَلَا مِصْرَ : هَلْ سَلَا الْقَلْبُ عَنْهَا ؟
كَلَّمَا مَرْتِ الْإِلَى عَلَيْهِ
مُسْتَطَارٌّ إِذَا الْبَوَاخِرُ رَنَّتْ
رَاهِبٌ فِي الضُّلُوعِ ، لِلشَّفَنِ فُطْنٌ
يَا بِنَةَ الْيَمِّ ، مَا أَبُوكَ بِخَيْلٍ
أَحْرَامٌ عَلَى بِلَابِلِهِ الدُّو
كُلْ دَارٍ أَحَقُّ بِالْأَهْلِ إِلَّا
أَوْ أَسَا جُرْحَهُ الزَّمَانُ الْمُوْءَسَى ؟
رَقَّ ؛ وَالْعَهْدُ بِالْإِلَى تَقَمَّى
أَوَّلَ اللَّيْلِ ، أَوْعَوْتُ بَعْدَ جَرَسِ
كَلَّمَا تُرْنَنَ شَاعِنٌ بَنَقَسِ
مَالِهِ مَوْلَعًا بِمَنْعٍ وَحُبْسِ ؟
حُ حَلَالٌ لِلطَّيْرِ مِنْ كُلِّ جِنْسِ ؟
فِي خَبِيثٍ مِنَ الْمَذَاهِبِ ، رَجَسِ

... ..

وَطَنِي لَوْ شُغِلْتُ بِالْخَلْدِ عَنْهُ
وَهَذَا بِالْفَوَادِ فِي سَلَسِيلِ
شَهِدَ اللَّهُ لَمْ يَغِبْ عَن جَفُونِي
نَازَعْتَنِي إِلَيْهِ فِي الْخَلْدِ نَفْسِي
ظَلَمًا لِلسَّوَادِ مِنْ (عَيْنِ شَمْسِ)
شَخْصُهُ سَاعَةً ، وَلَمْ يَخْلُ حِسِّي

(ج) ومن رثائه لوالدته : —

إلى الله أشكو من عَوَادِي النَّوَى سَهْمًا أصابَ سويداءَ الفؤادِ ، وما أضْمَى
من الهاتِكَاتِ القلبِ أولَ وهْلَةٍ وما داخِلَتْ لِحْمًا ، ولا لامَسَتْ عَظْمًا
تَوَارَدَ والنَّاعِي ؛ فأوجِسْتُ رَنَّةً كَلَامًا على سَمْعِي ، وفي كَبْدِي كَلَمًا
فَاهْتَمًّا حَتَّى نَزَا الجَنْبُ ، وانزَوَى فَيَا وَيْحَ جَنِّي !! كم يَسِيلُ ، وكَم يَدْمَى !!
ومن رثائه لصديقه الدكتور أحمد فؤاد : —

أُمْدَاوَى الأرواحِ قَبْلَ جُسُومِهَا : قُمْ دَاوِ فِيكَ فَوَادِيَ الْحَزُونَا
رُوحٌ بَلْفُظْكَ كُلَّ رُوحٍ مَعْدَبٍ حَيْرَانَ طَارَ بَلْبُهُ النَّاعُونَا
قَدْ كَالُ اللَّقْدَرِ الْعَتَابِ ؛ وَرَبَّمَا ظَنَ الْمُدَّةُ بِالْقَضَاءِ ظَنُونَا
... ..
اللهُ أَبْقَى . أَيْنَ مِنْ جَسَدِي يَد لَمْ أَنْسَ رَفَقَ بَنَانِهَا وَاللَّيْنَا ؟
... ..

(د) ومن غزلياته العاطفية : —

رُدَّتِ الرُّوحُ عَلَى الْمُضْنَى مَعَكَ أَحْسَنُ الأَيَّامِ يَوْمُ أَرْجَعَكَ
مَرًّا مِنْ بَعْدِكَ مَا رَوَّعَنِي أَنْزَى يَا حُلُوْ بُعْدِي رَوَّعَكَ
كَمْ شَكُوتُ الْبَيْنَ بِاللَّيْلِ إِلَى مَطْلَعِ الْفَجْرِ !! عَسَى أَنْ يُطْلِعَكَ
وَبَعَثْتُ الشُّوقَ فِي رِيحِ الصَّبَا فَشَكَا الْحَرْقَةَ مِمَّا اسْتَوَدَّعَكَ
يَا نَعِيمِي ، وَعَذَابِي فِي الْهَوَى بَعْدُولِي فِي الْهَوَى مَا جَمَعَكَ ؟
أَنْتَ رُوحِي ؛ ظَلَمَ الْوَأَشَى الَّذِي زَعَمَ الْقَلْبَ سَلَا ، أَوْضِيَعَكَ
... ..

أَرْجَفُوا أَنْكَ شَاكٍ مُوجَعٌ لَيْتَ لِي فَوْقَ الضَّنَا مَا أَوْجَعَكَ

نَامَتِ الْأَعْيُنُ إِلَّا مَقَالَةً تَسْكِبُ الدَّمْعَ ، وَتَرَعَى مُضِجَعَكَ

تلك صُورَ من شعره العاطفي ، وكثير غيره لا عاطفة فيه ولا وجدان — كما قلنا — وأظهر ما يكون ذلك في مدائحه ومراثيه ، ولا سيما التي يسرع إلى إعدادها لتدرك حَفَلًا عاجلا ، أو مناسبة طارئة . وفي قصائده التي يَحْمَلُ على نظمها ؛ لدافع سياسي أو اجتماعي ، من غير أن يُؤْمِنَ بعظمة صاحبها ، واستحقاقه التمجيد ؛ فتراه يرصف القول رصفا ، ويقذف بالأبيات جامدة الحس ، فاقدة الروح . وَرُوعٌ ويتهرَّب ؛ فَيُضَمِّنُ القصيدة أغراضا مختلفة ، لعل أقلها وأضعفها الغرض الذي قيلت فيه . وقد يكون من هذا النوع قصيدته التي أقيمت في تكريم الرحالة المصري (أحمد حسنين باشا)^(١) بعد عودته من رحلته الصحراوية ؛ فأبياتها أربعون ؛ تضرب في نواح شتى ؛ من سرد المحترعات الحديثة ، وأثرها ، وأهمية الإقدام في الحياة ، ونصح الشبان . ولم يرد فيها ما يخص الرحالة إلا بيتين في آخرها ، هما : —

أَكْبَرْتُ مِنْ (حَسْنِين) هِمَّةً طَمَحَتْ تَرُومُ مَا لَا يَرُومُ الْفَتِيَّةُ الْقُنْعُ

...

رحالة الشرق ، إِنَّ الْبِيدَ قَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّكَ اللَّيْثُ لَمْ يَخْلُقْ لَهُ الْفَزَعُ

...

وكرثائه للأميرة فاطمة إسماعيل^(٢) ، وفيها يقول : —

حَلَفْتُ بِالْمُسْتَرَّةِ وَالرَّوْضَةِ الْمَعْطَرَةِ

(١) الذي كان رئيس الديوان الملكي . (٢) أخت الملك فؤاد .

وجلس الزهراء في الحفظاء المنسورة
مرقد السلالة الطيبة المطهرة
ما أنزلوا إلى الثرى بالأمس إلا نيرة

* * *

ولم تتجلّ العاطفة في شعر لشوق كما تجلت في الموشح الذي اهتمصر
فيه كبده ، واعتصر فؤاده ؛ ليصف الغريب في غربته . وفي أوله يقول :

مَنْ لِيَضُو يَتَنَزَّى أَلَمًا بَرَّحَ الشَّوْقُ بِهِ فِي الْفَلَسِ
حَنٌّ لِلْبَانِ وَنَاجَى الْعَلَمَا أَيْنَ شَرِقُ الْأَرْضِ مِنْ أُنْدَاسِ

* * *

ومنه :

قلتُ لليل : - ولليلِ عوادِ - من أخو البَثِّ ؟ فقال : ابن فِرَاقِ
قلت : ما واديه ؟ قال : الشَّجْوَادِ ليس فيه من حجازٍ ، أو عراقِ
قلت : لكنْ جفنه غير جوادِ قال : شر الدمع ما ليس يُرَاقِ

ومنه :

نَغِيْطُ الطَّيْرِ ؛ وما نَعْلَمُ ما هِيَ فِيهِ ؛ من عَذَابِ بَيْسِ
فدع الطَّيْرَ ، وحطًّا قُسمًا صَيَّرَ الْأَيْكَ كدُورِ الْأَنْسِ

... ..

* * *

ولا يفوتني أن أسجل على شوقي عيين آخرين لم يبلغ فيهما درجة المتنبي ،
ولم يشبعا في نظمه كما شاعا في نظم قريعه ؛ هما : المبالغة الدميمة حيناً ، والتفاهة
حيناً آخر .

فمن مبالغاته قوله يخاطب الوطن : —

ولو أنى دُعيت^(١) لكنت دبنى عليه أقابلُ الحُثمَ المُجَابَا^(٢)
أديرُ إليك قبلَ البيتِ وجهى إذا فُهِتُ الشهادةَ والمَتَابَا
وقوله فى الحديو إسماعيل : —

حُلمٌ مَدَّه الكرى لك مدًا وسُدَى ترهنجي لحُلمِكَ رَدَا
وحياة ما غادرت لك فى الأحىاء قبلاً، ولم تذُرْ لك بقدا
وقوله فى حب الوطن : —

وجه الكفانة ليس يُغضبُ ربَّكم أن تجملوه - كوجهه - معبودا
وقوله فى وصف الروض والبحر :
والروض فى حجم الدنيا^(٣) والبحر فى حجم الفـ——دير
وقوله يصف قلبها بالحنان : —

قلبٌ لو انتظمَ القلوبَ حنانه لم يبقَ قاسٍ فى الجوانح ، جافٍ
وقوله يخاطب عرش الخلافة العثمانية بالقسطنطينية مادحا الخليفة : —

يا عرش (قسطنطين). نلت مكانة لم تُعطها فى سالف الأعصار
شُرِّفت بالصدقِ، والفاروقِ، بل بالأقربِ الأدنى من المختارِ^(٤)
حامى الخلافة ؛ مجدِّها ، وكيانِها بالرأى آونةً ، وبالبنة——ار
يا واحد الإسلام غيرَ مدافع أنا فى زمانك واحدُ الأشعار

(١) مُطلبت للموت .

(٢) الموت .

(٣) الدنيا .

(٤) على بن أبى طالب .

ومن التوافه قوله في محمد علي ، وما أنشأ في مصر :
والقطن مزروعا بفضل محمدٍ في مصر ، محلوجاً ، بها مغزولا
وقوله :

- (١) خَيْلُ الرسول من الفولاذِ معدِنُها وسائر الخيل من لحم ، ومن عَصَبِ
(٢) وكل مسافرٍ سيثوب يوما إذا رُزِقَ السَّلامَةَ والإيابة
(٣) ففقتُ أجيلُ الطرف حيران ، قائلا : أهذى تُغور الترك أم أنا أحسب ؟
(٤) فقالت شهدت الحرب أم أنت موثِك ؟ فصفتنا ؛ فأنت الباسل ، المتأدب
(٥) وما هي إلاءة — وة وإجابة أن التتحت ؛ والحربُ بَكَرو تغلبُ
(٦) إذا رأيت الهوى في أمة حَكَمًا فاحكم هنالك أن العقل قد ذهب
(٧) عبد الحميد^(١) حسابُ مثلك في يد الملك الغفــــــــــــــــور
ســــــــــــــــدت الثلاثين الطوا ل ؛ ولسنَ بالْحكم القصير
تنهى وتأسر ما بــــــــــــــــدا لك في الكبير وفي الصغير
...

- (٨) هل كلام العباد في الشمس إلا أنها الشمس ليس فيها كلامٌ
وله قصائد عدة ؛ يغلب على كل واحدة منها الهُزَال والتفاهة إذا قيسَتْ
إلى أغراضها الجليلة ، وموضوعاتها الهامة التي قيلت فيها ؛ كقصيدة : الجامعة^(٢) ،
وقصيدة : وداع (فروق^(٣)) ، وقصيدة : كرومر^(٤) ، ومقطوعة : (يانصيب^(٥)) .
وكقوله : — (في الهلال)

(١) قال هذه الأبيات في الخليفة العثماني عبد الحميد بعد إسقاطه عن عرش السلطنة .
(٢) ج ١ ص ١٨٠ . (٣) ج ١ ص ١٨٢ . (٤) ج ١ ص ٢٠٩ .
(٥) ج ٤ ص ٨٩ .

متواضعٌ ، واللهُ شَرَفَ قدرهُ بالشَّمسِ نِدًّا ، والكواكبِ آلاَ
مُتَوَدِّدٌ عندَ الكمالِ ؛ تخالُهُ في راحتِكَ . وعَزَّ ذاكَ منالاً
وكقوله في مطلع قصيدة يودع بها الخديوى حين اعتزم الحج : —

إلى عرفاتِ الله (يا بنَ محمدٍ) عليك سلام الله في عرفاتِ
وكقوله في مطلع قصيدته في احتفال الجامعة القديمة أيام الخديوى عباس : —
يا بَارِكِ اللهُ في عباس من ملكٍ وبارك اللهُ في عَمَّاتِ عباس
وقوله : —

يا أهل مصرَ كُلُوا الأمورَ لربكمْ فاللهُ خيرُ مُؤثِّلٍ ومَقِيٍّ — لا
سبحانَ من لا عزَ إلا عزُهُ يَبْقَى ، ولم يكْ مُلْكُهُ ليزولاً

* * *

ولكن شوقى صاحب تلك التوافه القليلة هو شوقى صاحب الروائع الكثيرة
الذى ينطق بالحكمة وفصل الخطاب . ولك في قصيدة : نابليون ، وقصيدته
التي ألقاها في حفل تكريمه ، وقصيدته في مسجد أياصوفيا ، وقصيدته الخائبة
في خلافة الإسلام ، وأشباهها من خالد القصائد — ما ينهض دليلاً أى دليل
على صحة ما نقول .

(٤) الموضوعات والأغراض التي عالجها الشاعران ؟

طريقتهما في ذلك (١)

نظم المتنبي شعره في الموضوعات التي سبق إليها الجاهليون ، ومن تبعهم إلى آخر الدولة الأموية ، والتزم أغراضهم ، وحافظ على ما يسميه القُدَامِي : (عمود الشعر) ويسميه المحدثون : (الشكل، والموضوع) .

(أ) فأما من حيث الشكل فقد سلك مسلكهم في تأليف الجمل ، واختيار الأساليب ، واستخدام الوسائل البلاغية كما كانوا يستخدمونها ، ووزن شعره بموازين بحورهم ، وأخضعه لحدود قوافيهم ، ولم يتناول شيئاً من ذلك كله بالابتكار ، أو التجديد ، أو الإصلاح كما تناوله بشار ، ومسلم ، وأبو تمام ، والنواسي ، وابن المعتز ، وغيرهم من المجددين المصلحين قبله . فليس له من هذه الناحية فضل يتميز به . فكل عمله أنه تلقى التراث الأدبي القديم فالتزمه ، وحافظ عليه ، بل ربما أساء إليه أحياناً بلفظة معيبة ، أو أسلوب مُجَرَّح ، أو استعارة قبيحة ، أو كناية خفية ، أو صنعة بلاغية سيئة ، أو بحر غير مناسب للموضوع ، أو قافية ناثرة (وما أكثر ما يسيء اختيار البحر والقافية) أو غير ذلك مما يبناه بإفاضة وتفصيل عند الكلام على الألفاظ والمعاني ...

(ب) وأما من حيث الموضوع فترى الأغراض الشعرية التي نظم فيها القصائد هي الأغراض السبعة الماثورة عن الجاهليين والأمويين ؛ أخذها عنهم ، وأفرط في واحد منها (هو : المدح) الذي بلغ تسعة أعشار قريضه .

(١) سأقتصر في هذا البحث على ما يفيد العنوان ، ولن أنعرض لغيره من محاسن الألفاظ ، والمعاني ، وعيوبها ، وما يتصل بهما ؛ فقد أطلنا بحثه أول الكتاب .

وفَرَطَ في آخر (هو : الوصف) مع جلال شأنه ، وشدة الحاجة إليه ،
 (ولا سيما في العصر العباسي الذي عاش فيه المتنبي ، ورأى من مشاهده ،
 وآثار حضارته — ما يحتاج للتسجيل) . واعتدل في باقي الأغراض ؛
 برغم كثرة هجائه ، وورثائه . ولكنهما لم يبلغا من الكثرة العددية نصف
 المدائح . وإكثاره من هذه الأغراض الثلاثة التي حفزه إليها حافظُ
 شخصي بحث ؛ هو : رضاه أو غضبه — دليل أى دليل على أنه شاعر
 ذاتي لا إنساني ؛ يُسرف في الشعر ويُقتر لدافع خاص به ، لا يبالي
 أشاركه الناس فيه أم لم يشاركوه . على أن إسرافه إنما يقع في عدد
 القصائد ؛ لا في عدد أبيات القصيدة الواحدة ؛ فالمتنبي قصير النفس ،
 ضيق الباع في القصيدة ، لا يطيلها ، وقل أن يتجاوز بها الأربعين بيتا .
 والعيب في موضوعات المتنبي الشعرية ليس قَصْرًا على أنها قديمة ،
 مبدولة ، وأنها مُشوَّهة الألفاظ أو المعاني ، وأن المدائح مسرفة ،
 والأوصاف قليلة وغيرهما معتدل ؛ بل يمتدُّ إلى أمور أخرى تَمَسُّ صميم
 تلك الأغراض ، وكيانها . وإليك إيضاحا شافيا ، وتفصيلا وافيا : —

إن قصيدة المتنبي تُبَنَّى لغرض واحد أسامي ، ولكنها لا تقتصر
 عليه ؛ بل تشمل إلى جانبه — في الأكثر — أغراضا أخرى كما كان
 يفعل القدماء :

(١) فقد يبدأ قصيدته بالغرل — ؛ تشويقا للسامع ، وجلبا لانتباهه —
 ثم يتخلص إلى الغرض الذي بنى القصيدة من أجله ؛ كقصيدته في مدح
 كافور ، ومطلعهما :

من الجأذُرُ في زِيِّ الأَعرابِ مُحَرُّ الحَلَى ، والمَطَايَا والجَلابيبِ
إِنْ كُنْتَ تَسْأَلُ شُكَّاؤَ مَعَارِفِهَا فَمِنْ بَلَاكَ بِتَسْمِيدِ وتَعْذِيبِ ؟
إلى أن دخل في الغرض الخالص قائلا : —

ترعرع الملكُ الأستاذُ مَكْتَهلاً قَمَلِ اكْتِهَالِ ، أدبياً قبل تأديبِ
ومثل مدحه لعلى بن منصور ، ومطلعه : —

بأبي الشُّموسُ الجَانِحَاتُ غَوَارِبَا اللابساتُ من الحريرِ جَلَابِبا
الْمُنْهَبَاتُ قُلُوبَنَا ، وَعَقُولُنَا وَجَنَاتِهِنَّ النَاهِبَاتِ النَاهِبَا
النَاعِمَاتُ ، القَاتِلَاتُ ، الْمُخَيِّمَاتُ ، المَبْدِيَّاتُ من الدلالِ غَرَائِبا
إلى أن قال :

أَظْمَتْنِي ^(١) الدُّنْيَا ؛ فلما جِئْتُهَا مُسْتَسْقِيَا مَطَرَتْ عَلَى مَصَائِبَا
وَحُبِّيْتُ ^(٢) مِنْ خُوصِ ^(٣) الرِّكَابِ بِأَسْوَدِ ^(٤) مِنْ دَارِشِ ^(٥) ؛ فغَدَوْتُ أَمْشِي رَاكِبَا
حَالاً مَتَى عَـلِمَ ابْنُ مَنْصُورٍ بِهَا جَاءَ الزَّمَانُ إِلَى مِنْهَا تَائِبَا
.....

ولاعيب في محاكاة الأقدمين في تصدير القصائد بالغزل العاطفي الصادق ؛
لما له من حميد الأثر . وإنما العيب أن يكون غزلا مصنوعا ، مبتذلا .
وللمتنبي من هذا وذاك نصيب .

(ب) وقد يبدأ قصيدته ببيكاء الديار ، والوقوف على الأطلال ، ثم الانتقال

(١) أظلمتني . (٢) مُبْدَلَتْ .

(٣) جمع خوصاء ؛ ومي : الناقة الفائرة البينين من التبع والشفقة .

(٤) خف أسود . (٥) نوع ردىء من جلد الضأن .

إلى الغرض الخاص : كقصيدته في مدح عبید الله بن یحیی البعتری ،
وأبیاتها الأولى : —

بکیتُ یاربُ حتى کدتُ أبکیکا وَجُدْتُ بی وبدمی فی مغانیکا
فعم صباحًا ؛ لقد هیجتُ لی شجنًا واردُدْ تحیتنا ؛ إِنَّا مُحیوکَا
بأیِّ حُکمِ زمانٍ صرتَ مُتَّخِذًا رِیمَ الفلّابِ بدلًا من رِیمِ أهلیکا ؟
أیامَ فیکِ شمسٌ ما انبعثن لنا إلا انبعثن دَمًا باللحظِ مسفوکا
والعیشُ أخضرُ ، والأطلالُ مشرقٌ کأن نورَ عبید — د الله یعلوکا
نجا امرؤٌ — یابن یحیی — کنتَ بُقِیمَةً وخاب ركبُ ركبٍ لم یؤمؤکا
والوقوفُ علی الأطلالِ ، وديارُ الأحبابِ — قد یلهبُ الشعورُ الحی
بذکریاته الطیبة الخالدة ، ویهیجُ الوجدانَ المرفه ؛ فیدفعُ اللسانُ إلى
البيان الشَّجِیِّ . أما الذی یساقُ محاکاةً وتقلیدًا فلا قیمة له ، والشأنُ فیهِ
کالغزل .

(ج) وقد یبدأ القصيدة بالغزل ، أو الوقوف علی الأطلال ونحوها ؛ ثم ینتقل
إلى وصف البید والقفار التي قطعها إلى المدوح (مطیلاً فی الوصف ،
أو مُقصرًا) ثم یدخل فی الغرض الخاص^(١) ؛ كقصيدته فی مدح الحسین
ابن إسحاق التنوخی ، ومطلعها : —

هو البینُ حتى ماتأنی^(٢) الحزائنی^(٣) ویأقلبُ ، حتى أنبتُ ممن أفارقُ
وقفنا ، ومما زاد بُثًا وقوفنا فریقَی هَوًى ؛ منا مَشُوقٌ وشائِقُ

(١) وقد یجئ الغرض الخاص قبل وصف البید ، والقفار ، وسرد المشاق والمتاعب .

(٢) أي : تَأَنَّى وتسهل . (٣) الجماعات ، والفرد : حَزَقَة .

وقد صارت الأجفان قُرَحَى من البُكَاءِ وصار بهَارًا في الحُدُودِ الشَّقَائِقُ
إلى أن قال : —

سل البِيدَ: أين الجن منا بِجَوَزِها^(١) ؟ وعن ذى المَهَارَى: أين منها النِّقَاقُ^(٢) ؟
وليلٍ دَجُوجِيٍّ كَأَنَا جَلَّتْ لَنَا مُحَيَّاكَ فِيهِ — فاهتدينا — السَّمَّاقُ
... ..

(د) وقد يبدأ القصيدة بغرضها الخاص غير مسبوق بشئ ؛ كقصيدته التي

يخاطب بها كافورا ويصف الصلح الذي تم بينه وبين منافسيه : —

حسم الصلح ما اشتتهه الأعادى وأذاعته ألسُن الحسادِ
وأرادته أنفُسُ حال تديبـرك ما بينها وبين المرادِ

(هـ) وقد يستهل القصيدة بكشف خواطر تتوجُّ بها نفسه ، ثم ينتقل بعدها

إلى الغرض الخاص (وربما عرضَ الخواطرَ في موضع آخر أيضا)

وهذا النوع كثير في قصائده ، نادر في شعر القدامى ؛ كقصيدته في مدح

محمد بن سيار التي سبقت ، ومطامها : —

أقلُّ فعَالِي — بله أ كثره — مجدُّ وذا الجدِّ فيه ، نلتُ أم لم أنل جدَّ

سأطلب حقِّي بالقفـسا ، ومشايخ كأنهمو من طول ما التَّشْمُوا مُردُّ

إلى أن قال : —

وأرحم أقواما من العِيِّ والغَبَا وأعذرُ في بُغْضِي لأنهمُ ضدُّ

ويعننى ممن سوى ابن محمد أبادٍ له عندى يضيق بها عندُّ

وقوله في هجاء كافور بعد مغادرة مصر ليلة عيد الأضحى :

(١) بقطمها . (٢) جمع : نقق ، وهو : ذكر النعام ، ويشتهر بسرعه .

عيدٌ بأيةِ حالٍ عدتَ يا عيدُ بما مضى أم بأمرٍ فيك تجديدٌ ؟
أما الأحبُّه فالبيداهِ دونهمُ فليت دونك بيداً دونها بيدُ
إلى أن قال : —

إني نزلتُ بكذايين ؛ ضيفهمُ عن القرى وعن الترحالِ محدودُ
جودُ الرجالِ من الأيدي، وجودهمُ من اللسان ؛ فلا كانوا ولا الجودُ

* * *

وفي هذا الغرض الأصلي الذي يبنى عليه القصيدة ، وفي غيره من الأغراض
ظواهر تبدو للفاحص المتمهل

(١) ففي المدائح نلاحظ كثرة عددية في القصائد لم تقع لغير المتنبي من شعراء
المدح ، والمتكسبين بالشعر ؛ على وفرتهم ، ووفرة مدائحهم . ومن ثمَّ كان
المتنبي المداح الأول الذي لا يكاد يسبقه سابق في هذا الميدان العددي^(١) .
ومن كان هذا شأنه تضيق أمامه ساحات المعاني الجديدة ، وتُقصَّر ذخائره
عن إمداده بالطرائف ؛ لكثرة ما استنفذ منها ، ولكثرة المداحين
في عصره وقبل عصره ، ممن لم يتركوا معنى جديداً إلا اختطفوه . فأنى
له المعنى الطريف الذي لم ينتزعه هو في مواقفه الكثيرة ، أو لم ينتزعه
سواه من المداحين ؟

لهذا جاءت معانيه متشابهة في المواقف المختلفة ؛ يمدح هذا بما يمدح به ذلك .
ويسجل في هذه القصيدة ما سجله في تلك . بل إنه يشابه نظائره المداحين
في معانيهم وأوصافهم ، ويقع معهم على هدف ؛ حتى جاءت المعاني بينهم
مشتركة ، متكررة ؛ هي إلى التبذل ، والفتور العاطفي ، والبيلى - أقرب ؛ وحلت

(١) إذا قسنا عدد مدائحهم بغيرها من شعرة .

بعض الباحثين على أن يقولوا : إن شعر المديح قد أساء إلى الأدب العربي ، وغَضَّ من شأنه ، ونباهة ذكره ؛ لجمود أساليبه ، وابتذال معانيه الضيقة ، المحصورة ، الجملة ، التي لا تخصيص فيها ولا تفصيل ، ولا توليد .

فالمثنبي (وهو من شعراء القرن الرابع الهجري) يمدح عبيد الله بن يحيى البحتري فيقول فيه :

إلى لَيْثٍ حَرْبٍ ؛ يُلْحِمُ^(١) اللَّيْثَ سَيْفُهُ وَبِحَرْبِ نَدَى ؛ فِي جُودِهِ يَفْرُقُ الْبَحْرُ
تَبَاعَدَ مَا بَيْنَ السَّحَابِ وَبَيْنَهُ فَنَائِلُهَا^(٢) قَطْرٌ ، وَنَائِلُهُ غَمْرُ
مَتَى مَا يُشِرُّ نَحْوَ السَّمَاءِ بِوَجْهِهِ تَخَرَّ لَهُ الشَّعْرَى ، وَيَنْكَسِفُ الْبَدْرُ

فالممدوح شجاع كالأسد أو أجرداً . كريم كالبحر أو السحاب بل هو أغزر . على المسكاة ، جميل كالشعري وكالبدر أو أجمل . وتلك صفات وتشبيهات أربعة تعاور الشعراء ألفاظها ومعانيها من عهد الجاهلية الأولى ، وظلوا يرددونها حتى جاء المثنبي ؛ فأقرهم عليها بمقتابهم فيها . يمدح بها عبيد الله حيناً ، وسيف الدولة أو غيره حيناً آخر . ومثل هذا باقي المدائح وصفات المديح .

وجدير بنا أن نقف برهة عند هذه الدعوى التي أثارها أولئك الباحثون . لقد لامست الحق من جانب ، وزايلته من جانب آخر ؛ فصحيح أن التشبيهات مكررة ، شائعة اللفظ والمعنى ، مُجْمَلَةٌ ، لا تخصيص فيها ، ولا تفصيل ولكن لا سبيل إلى الاستغناء عنها ؛ لأنها تتضمن فضائل وأوصافاً خالدة ؛ فالشجاعة ، والكرم ، وعلو المنزلة ، والجمال — محاسن لا يختص بها جيل دون جيل ، ولا يرضى عنها قبيل دون قبيل . فالناس قديمهم وحديثهم في الإعجاب بها

(١) يقتل . (٢) الضمير يعود على السحاب (جمع : سحابة) .

سواء ، وسيظل شأنهم كذلك فيما نُقدِّرُ . أما تشبيه أصحابها بالأسد ، والبحر ،
والثريا ، والقمر ، وأمثالها — فلا خير فيه مادمتا نرى الأسد أشجع
المخلوقات ، والبحر أغزر الأشياء مادة ، والسحاب أعمها فيضا ، والنجم أعلاها
مكانا ، والقمر أجملها وجها ، وأوسعها ضياء . ولم ترشدنا الطبيعة حتى اليوم
إلى ما يفوق تلك الأشياء في خصائصها أو ما يماثلها . وقد نستبدل بالقمر
الشمس ، وبالسحاب حاتمًا ، وبالشعري الشها ... كما فعل كثير من الشعراء
ورددوه — واسكن هذا لا يغير من الأمر قليلا أو كثيرا ؛ فازلنا أمام أشياء
لامثيل لها في خصائصها وأوصافها ، ولا غنى عنها في التشبيه حتى نعثر على
ما يضارعها في تلك الخصائص ، أو يفوقها . فنحن إزاء ضرورة حافزة ؛
لم نستطع التغلب عليها حتى وقتنا هذا . وليس من الإنصاف أن نؤاخذ
الشاعرها ونحن نعترف بقسوتها ، واستحالة تذليلها . اللهم إلا أن نطالبه بشئ*
من حُسن التأني ، وسعة الحيلة ؛ وهما يدفمان إلى التوليد في المعاني الشائعة ،
وجميل الفنن في الأساليب المطروقة : فيظهر القديم في ثوب الجديد ، والمبدول
في عروض المصنوع ؛ كما فعل ابن الرومي ، والنوامي وأبو تمام وغيرهم . ولم
يفعله المتنبي قصورا .

نم إن الاقتصاد والتجبر على تلك الالفاظ والمعاني العامة الجملة المشتركة
عيب ، والتزامهما في أغلب المدائح — كما فعل المتنبي — إساءة للشاعر وللشعر .
وكان في استطاعته أن يتصرف فيهما ، وأن يضم إلى المعاني أوصافا خاصة
بمدوحه لا تكاد تنطبق على غيره ؛ فيخفف بهذا من التعميم ، والإجمال ،
والابتذال ؛ كأن يصفه بما انفرد به بين قومه من ذكاء كهربي ، وآثار ذكائه ،
أو عمل صالح تفرغ له مع بيان مظاهره ، أو فضيلة لا بسنها ولا بسنته ودلائلها

في حياته . وَقَلَّ أَنْ يَخْلُو ممدوح من خصائص أو ما يشبهها . أما نظم الممدوحين جميعا في سِمَط واحد من الألفاظ والأوصاف والألقاب ، وتردادها دون تفریق ، ولا تخصيص ، ولا توليد ، ولا افتنان — فذلك العيب الذي لا يجد العذر . وقد توفاه المتنبي أحيانا (كدحه ابن العميد) وتوفاه بعض الشعراء العباسيين بل بعض الجاهليين ؛ فهذا زهير يمدح هَرِمًا والحارث لتوسطهما في وقف الحرب الدائرة بين عبس وذُبْيَان ، واحتمال مغارمها ، فيقول :

يَمِينًا ؛ لِنِعْمِ السَّيِّدَانِ وَجِدْتُمَا على كل حال من سَحِيلٍ ومُهْرَمٍ
تداركتُمَا عبسًا وذُبْيَانَ بعدمَا تَقَانُوا ، ودَقُّوا بينهم عِطْرَ مَنْشَمٍ
وقد قلتُمَا إِنَّ نَدْرِكَ السَّلَمَ واسعًا بَمَالٍ ومعروفٍ من القول نَسْلَمُ
فأصبحتما منها على خيرٍ موطنٍ بعيدين فيها من عقوبٍ ومَأْتَمٍ

... ..

(٢) وكان من نتائج الإفراط في المدح ، واستنزاف المذخر — تهافت المتنبي ، ووهنه في كثير من مدائحه ، وبرود عاطفته ؛ فيقذف بالأوصاف قذفًا ، ويرصّها رصًا لاروح فيه ، ولا فن ؛ كالمغتب الضجر ، يرمى بما يحمل ؛ لا ليبالى أكان سائغًا أم غير سائغ . كقوله يخاطب سيف الدولة : —

كُلُّ عِيشٍ مَالٌ تَطِيئُهُ^(١) حِمَامٌ كَلُّ شَمْسٍ مَالٌ تَكْنُهَا ظَلَامٌ
أَزَلِ الْوَحْشَةَ الَّتِي عِنْدَنَا يَا مَنْ بِهِ يَأْنِسُ الْخَيْسُ^(٢) اللَّهُامُ^(٣)
إِنَّمَا هَيْبَةُ الْمُؤَمَّلِ سَيْفُ الدَّوْلَةِ الْمَلِكِ فِي الْقُلُوبِ حَسَامُ^(٤)

(١) تجمعه طيا . (٢) الجيش . (٣) العظيم .

(٤) أى : كالسيف يخافه الناس .

ويقول فيه :

فليس بواهب إلا كثيراً وليس بقاتل إلا قريباً^(١)
على ليس يمنع من مجيء . مبارزُهُ ، بمنعهُ الرجوعاً
على قاتل البطلِ المفسدِ ومُبدلُهُ من الزردِ النجيعا

... ..

ويمدح عبد الواحد بن العباس الكاتب فيقول :

الحازم ، اليقظ ، الأغرّ ، العالم السّطن ، الألدّ ، الأريحيّ ، الأروعا
الكاتب ، اللبق ، الخطيب ، النّفس^(٢) اللبيب المبرز^(٣) المضعفا^(٤)

ويمدح عبيد الله بن خراسان الطرابلسي فيقول :

أبا الفطارفة الحامين جارهو وتاركى الليث كلباً غير مفترس
من كلّ أبيض ، وضاح عمامته كأنما اشتملت نورا على قبس
دان ، بعيد ، محب ، مبغض ، بهج أغرّ ، حلو ، مُمرّ ، نين ، سرس
ند ، أبيّ ، وافي ، أخى ثقّة
جعد^(٥) ، سري^(٦) ، نه^(٧) ، ندب^(٨) ، رضا ، ندس

ويمدح محمد بن عبد الله القاضي الأنطاكي فيقول :

العارضُ الهتِنُ ، ابنُ العارضِ الهتِنِ ، ابنُ العارضِ الهتِنِ ، ابنُ العارضِ الهتِنِ .
فأى شعر هذا ؟ وأى جمال أو فن فيه ؟

(١) سيداً شريفاً . (٢) الباحث الفهم .

(٣) السيد الكريم ، أو : الجليل . (٤) الفصيح .

(٥) ماض في الأمر . (٦) شريف . (٧) عاقل .

(٨) مسرع عند الطلب .

(٣) ولأمرٍ ما قد يضطرب المتنبئ ، أو ينهر نفسه ؛ فيسوق الدم في مقام المدح من حيث يدرى أو لا يدرى ؛ كقوله في مدح علي التنوخى : —

يَغُضُّ الطَّرْفَ مِنْ مَكْرٍ وَدَهْيٍ ^(١) كَأَنَّ بِهِ — وليسَ به — خُشُوعًا
فأين المدحُ في هذا البيت وهو يصفه بالمكر والدهي (كما يقول العكبري) ؟

(٤) وقد يمدح بما لا مدح فيه ؛ كقوله في أعداء سيف الدولة ومحاربيه :

إذا قاتوا الرماحَ تناولَتْهُمْ بِأَرْمَاحٍ مِنَ الْعُطَشِ الْقِفَارُ

فأى مدح ، بل أى نخر لسيف الدولة في أن يَسَلِّمَ أعداؤه من رماحه ؛ فتصيدهم الصحارى برماحها ؟ وما رماحها إلا العطش . قد يريدُ : أنهم فرُّوا مذعورين ، هائمين في البوادي ، يَرَوْنَ التعرض لمهالكها أيسر وقعا ، وأهون هولا من التعرض لسيف الدولة ، وهذا على حسنه — يخفف عنه الملام ولا يدفعه .

(٥) نعم هو أحيانا يسوق الكلام غامضا ؛ يصلح للمدح وللذم معا . كقوله في سيف الدولة : —

أنت الذى لو يُعَابُ في ملاٍّ ما عِيب إلا بأنه بشرٌ
وقوله في مدح كافور : —

ولله سِرٌّ في علاك ؛ وإِنَّمَا كلام العدا ضرب من الهديان
وأبياته الأولى من قصيدته التى يمدح بها سيف الدولة ، ومطلعها :

غيرى بأكثرِ هذا الناس ينخدعُ إن قاتلوا جَبَفُوا ، أو حَدَّثُوا شَجَعُوا
وقوله في كافور : —

قضى الله يا كافورُ أنك أولٌ وليس بقاضٍ أن يُرى لك ثانٍ

وقوله في مدحه أيضاً :

يَضِيقُ عَلَيَّ مِنْ رَأَاهُ^(١) الْعَذْرُ أَنْ يُرَى ضَعِيفَ الْمَسَاعِي ، أَوْ قَلِيلَ التَّكْرَمِ^(٢)
وغير هذا كثير .

(٦) وترى المتنبي في مدائحه يُقَجِّمُ نفسه مع ممدوحه ، ويمنحها حظاً من الإطراء . وقد يكون في هذا كغيره من فرسان الشعر . ولكنه بزَّهم بكثرة القصائد التي شارك فيها ممدوحه ، وبكثرة ما يقوله عن نفسه في القصيدة الواحدة . وقد يفسد ذوقه وبسوه أدبه فيستهلها بالحديث عن نفسه وعن مزيائه ؛ كقصيدته التي مرَّت بنا في مدح محمد بن سيار ومطلعها : —
أَقُلُّ فَعَالِي — بَلَهَ أَكْثَرُهُ — مَجْدُ وَذَا الْجَدُّ فِيهِ ؛ نَلْتُ أُمَ لَمْ أَنْلِ جَدُّ
سَأَطْلُبُ حَقِّي بِالْقَنَاءِ وَمَشَائِخِ كَأَنَّهُمْ — مِنْ طَوْلِ مَا التَّمَّوْا — مُرْدُ
وانبرى يتكلم عن خاصة أمره في نحو خمسة عشر بيتاً من هذه القصيدة التي تبلغ سبعة وثلاثين بيتاً . وكقصيدته في مدح علي بن أحمد الأنطاكي ومطلعها : —

أَطَاعَنُ خَيْلًا مِنْ فَوَارِسِهَا الدَّهْرُ وَحِيدًا . وَمَا قَوْلِي كَذَا وَمَعِيَ الصَّبْرُ ؟
وَأَشْجَعُ مَنِي كُلِّ يَوْمٍ سَلَامَتِي وَمَا ثَبَّتَتْ إِلَّا وَفِي نَفْسِهَا أَمْرُ

.

(١) أبصره . (٢) معنى البيت : من رآه ورأى أفعاله لم يكن له عذر في ضعف المساعي ، وقلة التكرم ، فنه يعلم الناس هذه الأشياء ؛ فن رآه ولم يتعلمها فليس بمعذور . وقال ابن جني : هذا البيت داخل في المهجاء ؛ لأن معناه إذا كان كافور في خسة طبعه ، ولؤم أصله — يتفضل ويتكرم فلا عذر لأحد بعده في ترك هذه الفضائل .

فقد تحدث عن نفسه ومزايه في خمسة عشر بيتاً من أبياتها الواحدة والأربعين . ومثلها قصيدته في مدح علي بن مكرم التميمي ومطلعها : -

ضروبُ الناسِ عشاقٌ ضروباً فأعذرُهم أشفهُمُ حبيباً

وقصيدته في مدح علي بن إبراهيم التنوخى وأولها : -

أحادٌ أم سداسٌ في أحادٍ أُمَيَّلَتُنَا المنوطة بالتَّنَادِ

ومن عجيب أمره أن إسراره في إقحام نفسه مع ممدوحيه - أنساه المواضع التي يليق فيها الإقحام ، والتي لا يليق ؛ فبينما تراه يرثي شخصاً ، تراه يكرُّ فيمدح أقارب الميت ، ويمدح نفسه أيضاً ، ويذكرها بالخير في هذا المقام الذي يحسن فيه الاقتصاد على الرثاء .

هذه قصيدته في محمد بن إسحاق التنوخى ؛ يرثيه فيها ، ثم ينتهي إلى أبناء عمه فيمدحهم ، ثم يختمها بالحديث عن نفسه قائلاً : -

فأعيذُ إخوتَهُ رَبَّ مُحَمَّدٍ أَنْ يَحْزَنُوا ، وَمُحَمَّدٌ مَسْرُورٌ
أَوْ يَرْغَبُوا بِقُصُورِهِمْ عَنْ حَفَرَةٍ حَيَّاهُ فِيهَا مَنَكْرٌ وَنَكِيرٌ
نَفَرٌ إِذَا غَابَتْ غُمُودُ سَيُوفِهِمْ عَنْهَا فَأَجَالُ الْعِبَادِ حُضُورٌ
وَإِذَا لَقُوا حَيِّشاً تَبَيَّنَ أَنَّهُ مِنْ بَطْنِ طَيْرِ تَنْوُفَةٍ ^(١) مَحْشُورٌ ^(٢)
لَمْ تَنْنَ فِي طَلَبِ أَعْنُ خَيْلِهِمْ إِلَّا وَغُرٌّ طَرِيدُهَا مَبْتُورٌ
يَمُتُّ شَاعِعَ دَارِهِمْ عَنْ نِيَمَةٍ إِنَّ الْمُحِبَّ عَلَى الْبَعَادِ بَزُورٌ
وَقَنَعْتُ بِاللُّقْمَا وَأَوَّلِ نَظَرَةٍ إِنْ الْقَلِيلُ مِنَ الْحُبِّ كَثِيرٌ

(١) أرض بعيدة .

(٢) أى : أن هذا الجبش يعتقد أنه سيحشر يوم القيامة من بطن الطيور التي أكلته .

وبالرغم من إسرافه في المدح ، وما عَدَدْنَا من هفواته - نقرأ له حَشْدًا من شوارد الأبيات الحالية بطريف المعاني ، وبديع الأخيصة ، وعذَّب الصياغة ؛ سبق بها في المدح جميع الشعراء حتى شوقي . كقوله بمدح ابن العميد (بَارِجَان) وبيوده :

وَمَنْ يَصْحَبُ اسْمَ ابْنِ الْعَمِيدِ مُحَمَّدٍ يَمِرُّ بَيْنَ أُنْيَابِ الْأَسَاوِدِ ، وَالْأُسْدِ
كَأَنَّا أَرَادَتْ سُكْرُنَا الْأَرْضُ عَنْدَهُ فَلَمْ يُخْلِنَا جَوْهَ بَطْنَانَهُ مِنْ رِفْدٍ^(١)
لَنَا مَذْهَبُ الْعُبَادِ فِي تَرْكِ غَيْرِهِ وَإِنْيَانِهِ نَبْغِي الرِّغَائِبَ بِالزُّهْدِ
رَجَوْنَا الَّذِي يَرْجُونَ فِي كُلِّ جَنَّةٍ بَارِجَان ؛ حَتَّى مَا يَلْسِنَا مِنَ الْخُلْدِ
تَفَضَّلْتَ الْأَيَّامُ بِالْجَمْعِ بَيْنَنَا فَلَمَّا حَمَدْنَا لَمْ تُدِمْنَا عَلَى الْحَمْدِ
فَجَدَلِي بِقَلْبٍ إِنْ رَحَلْتُ ؛ فَإِنِّي مُخَلِّفٌ قَلْبِي عِنْدَ مَنْ فَضَّلَهُ عِنْدِي
وَلَوْ فَارَقْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ حَيَاتَهَا لَقُلْتُ أَصَابْتُ غَيْرَ مَذْمُومَةٍ الْعَهْدِ
وقوله في مدح سيف الدولة :

إِذَا الدَّوْلَةُ اسْتَكْفَتْ بِهِ فِي مُلْكَةٍ كَفَأَهَا ؛ فَكَانَ السَّيْفُ ، وَالْكَفُّ وَالْقَلْبُ
تَهَابُ سَيُوفُ الْهِنْدِ ، وَهِيَ حَدَائِدُ فَكَيْفَ إِذَا كَانَتْ زَرَارِيَةً غُرْبًا^(٢)
وَبُرْهَبُ نَابِ اللَّيْثِ ، وَاللَّيْثُ وَحْدَهُ فَكَيْفَ إِذَا كَانَ اللَّيْثُ لَهُ صَحْبًا ؟
وَيُخَشَى غُبَابُ الْبَحْرِ ، وَهُوَ مَكَانُهُ فَكَيْفَ بَيْنَ يَغَشَى الْبِلَادَ إِذَا عَابًا^(٣) ؟
هَنِيئًا لِأَهْلِ الثَّنَرِ رَأْيُكَ فِيهِمْ وَأَنَّكَ حِزْبُ اللَّهِ صَرَّتْ لَهُمْ حِزْبًا

(١) معنى البيت - كما سبق - أن كل موضع نزلنا ونحن في طريقنا إليه - أصابنا منه خيرا ؛ لأن البقاع كلها أكرمتنا ؛ لإرضاء له ، وتقربا منه .
(٢) لأن سيف الدولة من عرب نزار . (٣) أي : جرى وتدفق في البقاع .

وَأَنْتَ رُعْتَ الدَّهْرَ فِيهَا ، وَرَبِّهَ
بَنَى عَجَبًا أَنْ يَعْجَبَ النَّاسُ أَنَّهُ
وَمَا الْفَرْقُ مَا بَيْنَ الْأَنَامِ وَبَيْنَهُ
لِأَمْرِ أَعْدَتِهِ الْخِلَافَةُ لِلْعِدَا
فَمَنْ كَانَ يُرْضَى الْوُثْمُ وَالْكَفَرُ مُلْكُهُ
وَقَوْلُهُ فِيهِ :

يُقَرُّ لَهُ بِالْفَضْلِ مَنْ لَا يَوَدُّهُ
أَجَارَ^(٢) عَلَى الْأَيَّامِ حَتَّى ظَنَنْتُهُ
أَتَحْسَبُ بَيْضُ الْهِنْدِ أَضْلَكَ أَضْلَهَا
إِذَا نَحْنُ سَمَيْنَاكَ خِلْفًا سَيُوفِنَا
أَخَذْتَ عَلَى الْأَيَّامِ كُلَّ ثَنِيَّةٍ
فَلَا مَوْتَ إِلَّا مِنْ سِنَانِكَ يُتَّقَى
وَيُفْضَى لَهُ بِالسَّعْدِ مَنْ لَا يُنْجَمُ
تُطَالِبُهُ بِالرَّدِّ عَادٌ ، وَجُرْهُمُ
وَأَنْتَ مِنْهَا ؟ سَاءَ مَا تَنْوَهُمُ !!
مِنْ النَّيِّهِ فِي أَعْمَادِهَا تَنْبَسَّمُ
مِنْ النَّعِيشِ ؛ تُعْطَى مِنْ نَشَاءٍ ، وَتَحْرِمُ
وَلَا رِزْقَ إِلَّا مِنْ يَمِينِكَ يُقَسَّمُ

* * *

« ب » الهجاء

هجاء المتنبي كثير كما أُلْحِنَا - يسجله حيناً في قصائد ، وحيناً في مقطوعات .
وهو إلى المقطوعات أُمِيلُ . ولكنه في طوإله وقصاره سواء أمام ثلاث
صفات تشيع في هجائه :

(١) الضمير في كلمة فيها وكلمة ساحتها - يعود على « الأرض » ، وهي غير مذكورة ،
ولكنها مفهومة من السياق ، أى : أزعجت الأرض (فان شك فليحدث
بساحة الأرض خطبا) (٢) ساعد ونصر .

أولها : الذاتية ؛ فهو لا يصدر إلا عن باعث خاص ، وغرض شخصي لاصلة له بالأسباب العامة ، والأغراض الإنسانية العالية ؛ فليس هجاؤه نزيهاً ، بريئاً ؛ تحفه إليه جريمة عامة ارتكبتها المهجؤون ، أو تقصير بالغ عده الناس عليه . وإنما يهجو من حرّمه ، أو : خيّب رجاءه ومطمعه ، أو : أساء إليه إساءة يستحقها ؛ فهجاؤه نوع من شتائم السفهاء ، أو الحاقدين والحاسدين .

وثانيها : السّذاجة التامة التي تسوق الشتائم سَوْفاً أوّلياً ، هزلياً ؛ لا أثر فيه الموهبة الأدبية ، ولا الفن الرفيع . ويعرضها عرضاً صريحاً لاتكنية فيه ، ولا تلصيح ؛ شأن العامة ، ومن لا نصيب له من الزاد الأدبي البارع . استمع إليه يقول في ذم إسحاق بن كيّفْلغ (حين هدد وأوعد بالانتقام من المتنبي الذي سبه وأهانته) :

أَتَانِي كَلَامُ الْجَاهِلِ ابْنِ كَيْفَلْغِ يَحُوبُ حُزُونًا نَيْفًا ، وَسَهْوَلاً
وَلَوْلَمْ يَكُنْ بَيْنَ ابْنِ صَفْرَاءَ ^(١) حَائِلٌ وَبَنِي سَوَى رَحَى لَكَانَ طَوِيلًا
وَإِسْحَاقُ مَأْمُونٌ عَلَى مِنْ أَهَانُهُ وَلَكِنْ تَسَلَّى بِالْبُكَاءِ قَلِيلًا
وَلَيْسَ جَمِيلًا عَرْضُهُ فَيَصُونُهُ وَلَيْسَ جَمِيلًا أَنْ يَكُونَ جَمِيلًا
وَيَكْذِبُ ؛ مَا أَذَلَّتْهُ هِجَاؤُهُ لَقَدْ كَانَ مِنْ قَبْلِ الْهَجَاءِ ذَلِيلًا
وَيَقُولُ فِي ذَمِّ قَوْمِ تَوَعَّدُوهُ : (مِنْ نَسْلِ رَجُلٍ يَدْعَى : أَبَا الطَّيِّبِ)
أَمَاتَكُمُ مِنْ قَبْلِ مَوْتِكُمُ الْجَهْلُ وَجَرَّكُمْ مِنْ خِفَّةِ بَكْمِ النَّمْلِ
وَلَيْدَ أَبِي الطَّيِّبِ الْكَلْبُ ، مَا لَكُمْ فَطَنْتُمْ إِلَى الدَّعْوَى ، وَمَا لَكُمْ عَقْلُ ؟

(١) اسم أمه . واسم : للدبر .

ولو ضربتكم من جنيتي^(١) وأصلكم قَوِيَّ - لَهَدَّنتُكُمْ فكيفَ ولا أضلُّ؟
وقوله في كافور وبطانتة :

إني نزلتُ بكذابين ؛ ضيفُهُم
جودُ الرجال من الأيدي . وجودُهُم
ما يقبضُ الموتُ نفسًا من نفوسِهِم
من كل رِخْوٍ وكاءِ البطنِ ، مُنفَتِقي ؛
من علَّمَ الأسودَّ المخَصِيَّ مَكْرُمَةً
أقوَمُهُ البيضُ أم آباؤُهُ الصَّيْدُ ؟
وقوله فيه (من مرثية نظمها في رثاء أبي شجاع فانك) :

أيموتُ مثلُ أبي شجاعٍ فانك
أبقيتَ أكذبَ كاذبٍ أبقيتهُ
وتركتَ أثنَ ربحَةٍ مَذْمُومَةٍ
وسلبتَ أطيَبَ ربحَةٍ تَقْضُوعُ
وقوله فيه :

لقد كنتُ أحسبُ قبل الخَصِيَّ أن الرءوسَ مَقَرُّ النُّهى
فلما نظرتُ إلى عقلِهِ رأيتُ النُّهى كلها في الخَصِي
وقد ضلَّ قومٌ بأصنامِهِم^(٢) فأما بَرَقُ رِيّاحٍ فَلَا
وذاك^(٤) صموتٌ ، وذا ناطقٌ إذا حرَّ كوهُ فساً ، أو : هَذَى

.

-
- (١) المنجنيق - يذكر ويؤنث - : آلة تُرمى بها الحجارة .
(٢) الأحق . أو : من في يده ورجله عيب . وهذا من عيوب العبد .
(٣) بعبادة أصنامهم . (٤) أى : الصنم .

فأى براعةٍ أوفنَّ في أن يهجو رجلاً بأنه جاهل ، ويدكر اسم أمه ،
 وأنه لن يستطيع الوصول إلى المتنبي ، وأنه ذليل ، غير مصون العِرض ؟
 وأن يهجو آخرين فيصفهم بالجهل ، وضالة الشأن ؛ حتى ليستطيع
 الممل أن يجرهم ؟ وأن أباهم كلب ، وليس لهم عقل ، وأنه يستطيع تهديهم
 بغير عناء ؟ وأن الأسود الخصى كَيْت وكيت ... ؟ أليس العجز الفنى ،
 والفقر الأدنى — بادِين في هذا الهجاء ؛ وأنه بالشتائم العامية الساذجة أشبه ؟
 وثالثها : إسفافه وفحشه أحيانا حتى يهوى إلى درك لم ينزل إليه سواه .
 نعم إن إسفافه متفاوت الدرجة ، ولكن الغالب عليه الإفداع الذى
 لم يَسفل إليه شاعر قط ، ولم ينحط إليه هجاء أديب . ويزيده شناعة
 وبشاعة ما فيه من استعراض السوءات والمخازى بألفاظها النابية
 المكشوفة الصريحة بغير تلميح أو إيماء ؛ كقصيدته في هجاء ضُبّة بن
 يزيد ، وأولها :

مَا أَصَنَتِ الْقَوْمُ ضُبَّةً وَأَمَّهُ الطَّرْطُبَةَ

فلمست أعرف قصيدة جمعت من بذىء القول ، وشذيع الوصف —
 ما جمعت هذه الملباة . وحسبك أن يكون أيسر أبياتها هجاء ، وأهونها
 قدحا — قوله :

وَمَا عَلَيْكَ مِنَ الْغَدْرِ ، إِنَّمَا هِيَ سُبَّةٌ

وَمَا عَلَيْكَ مِنَ الْعَا ، إِنَّ أُمَّكَ قَحْبَةٌ

وَمَا يَشُقُّ عَلَى الْكَلْبِ أَنْ يَكُونَ ابْنُ كَلْبَةٍ

مَاضِرُهَا مَنْ أَنَاهَا وَإِنَّمَا ضَرَّ صُلْبُهُ

.....

أما باقى أبياتها فليس يليق نشره هنا .

ومثل هذا في شناعته وبذاته ، وإن خفَّ عنه في فداحته — قوله
في هجاء رجل من طيٍّ اسمه: وَرْدَان ، أفسد على المتنبي عبيده ، وحرَّضهم عليه :

إن تَكُ طيٌّ كانت لِسَامًا فالأَمْهَا رِبِيعَةٌ ، أَوْ : بَنُوهُ
وإن تَكُ طيٌّ كانت كَرَامًا فوردانٌ لغيرهم أبوه
مَرَزْنَامِنُهُ^(١) في «حِصْنِي»^(٢) بَعَبْدِ يَمْجُجُ اللُّؤْمَ مَنخِرُهُ ، وَفَوْهُ
أَشَدَّ بَعْرَسِهِ عَنِّي عَيْيِدِي فَأَلْفَهُمْ ، وَمَالِي أَتْلَفُوهُ^(٣)

وقوله فيه :

لِهَا اللهُ وَرْدَانًا وَأُمَّا أَتَتْ بِهِ
فَمَا كَانَ فِيهِ الْغَدْرُ إِلَّا دَلَالَةٌ
إِذَا كَسَبَ الْإِنْسَانُ مِنْ هُنَّ عِرْسِهِ
وقوله في رجل يسمى : الذهبى :

لَمَّا نَسَبَتْ وَكُنْتُ ابْنًا لغير أب
سُمِّيتَ : بِالذَّهَبِيِّ الْيَوْمَ ؛ تَسْمِيَةً
ثُمَّ امْتَحِنْتَ فَلَمْ تَرْجِعْ إِلَى أَدَبٍ
مَشْتَقَّةً مِنْ ذَهَابِ الْعَقْلِ ؛ لَا الذَّهَبِ

وقوله في كافر :

العبد لا تَفْضُلُ أَخْلَاقُهُ
لَا يُنْجِزُ الْمِعَادَ فِي يَوْمِهِ
عَنْ فَرَجِهِ الْمُتَنِّينِ ، أَوْضِرُّسِهِ
وَلَا يَبْعِي مَاقَالَ فِي أَمْسِهِ
مَرَّتْ يَدُ النَّخَّاسِ فِي رَأْسِهِ
فَلَا تُرَجِّحِ الْخَيْرَ عِنْدَ امْرِئٍ

(١) من وردان . (٢) أرض بالبادية غليظة لا خير فيها .

(٣) أى : أنه فرق عني عبيدى بسبب امرأته ؛ إذ كان يدعوهم للفجور بها .

فأى هجاء هذا ؟ وأين منه هجاء الحُطَيْيئة ، وشِعْرُ المَنَاقِضَاتِ (بين جرير ، والأخطل ، والفرزدق) وإنداع بشار ؟ إن هؤلاء — على إسفافهم وتبذلم — لم يُوعِلُوا في هذه الحِجَاة كما أوْغَلَ المتنبي ، ولم ينضحوا بمثل ما نضح به . وأين الفن في ذلك النوع وهو بكلام السُّفلة أنسب ، وإليهم أنْزَعَ ^(١) ؟ بل أين الكُنَايَاتِ والتَّوْرِيَّاتِ التي تَجْرَحُ مالا يجرح التصريح ؟ وأين أنواع البراعات الأدبية التي تؤذي مالا يؤذي الإسفاف واللفظ الوَفَاح ؟ أين المتنبي من ابن الرومي وأضرابه في هذا الفن الذي لا يعدو أن يكون موضوعا من موضوعات الأدب ؛ يقتضى صاحبه البراعة والمهارة والذوق جميعاً ؟ .

ومن هنا صَحَّحَ أن يكون هجاء المتنبي بعيداً عن الفن الأدبي الحق ، أو هو منه بأضعف نسب ، وأوهى سبب .

بقي أن نشير إلى أن الهجاء العربي كله (من أقدم عصوره إلى اليوم) موسوم بِسِمَةِ الذاتية ؛ واعلموا هي التي تناسب البيئة العربية ؛ حيث الثقافة محدودة ، والآفاق العقلية والفنية ضيقة . ولكن هذا لا يعنى المتنبي من تبعية التقصير وإن خففها عنه ؛ فليس شموع العيب ، وتقادم العهد عليه — مما يزيل عنه صفته المردولة ، ولا مما يدخله في عِدَادِ المحاسن ، أو يقرّبه منها . وإذا وَجَدَ المتنبي ما يخفف عنه عيب الذاتية فهل يجد ما يدافع به عن عيبه الآخرين ، ولا سيما السذاجة التي لا تلائم عصره الحضري ، ولا مواهبه التي يزهو بها في قصائده ، ويسرف في الحديث عنها ؟

(ج) الرثاء :

لا تخلو مرأى المتنبي من قوة وجمال فنى . ولكن تسايرها عيوب أربعة :
أولها : الذاتية — كدحيه وهجائه — فقلّ أن يرثى ميتاً لمزاياه الفطرية ،
ومنافعة العامة ؛ وإنما يرثيه لنفع خاص ، ومعمونة اقتصرت عليه .
فليس رثاؤه إلا جزاء المعروف ، أو للنفع الخاص ، ومقابلة
المعروف بالمعروف . وإن شئت فقل : إنه الثمن الأدبى لذلك
النفع المادى المحدود . وليس فى هذا عيب ؛ فهو نوع من حسن
الجزاء ، أو جميل الوفاء . وإنما العيب أن يقصره الشاعر على من
أحسنوا إليه وحده بالمنح والمطايا ، وإن لم يكن لهم نصيب من سائر
المواهب ، وكريم السجايا ؛ أو من الإحسان إلى غيره . كدأبحه
فى كافور قبل أن يفاضبه .

والعيب كذلك أن يضمن بمراثيه على العطاء ، وإن لم يُعْدَقوا عليه ؛
فليس يليق بالشاعر أن يكون مأجوراً فى كل موافقه ، بائعاً أو مشترى فى كل
ما ينظم . وليس يليق بالشاعر أن يكون على الدوام ثمناً أدبياً لجزاء مادى
اقتصر نفعه على فرد واحد . وماذا يبقى للشعر من مآثر إن لم يسجل
للعظماء والأبطال والأخيار مواقفهم الرائعة ، ويخلد كراثم أعمالهم النبيلة ،
لا يقيس ذلك بمقياس المنفعة الفردية ، أو الهوى المدخول . وإنما يزنه بميزان
العدالة الدقيقة ، والنزاهة التامة التى تؤثر النفع الأعم ، وتقدر من يعملون
له حق قدرهم ، وتخصهم بمزيد من الإكبار والتعجيد ؟

قد يستساغ من الشاعر أن يقف بشعره موقف البائع أو المشتري حينما ؛

ولكن لا يستساغ منه أن يقف هذا الموقف كل الأحيان ، كما فعل المتنبي ؛ فقد حوى ديوانه من المراثي اثنتى عشرة قصيدة ، كلها لمن أحسنوا إليه إحسانا خاصا ، أو أفردوه بمهونة . وليس من بينها مرثية واحدة لغيرهم . وقد يكون من المفيد أن تعلم أن إحداها فى رثاء جدته لأمه ، وستأ فى أقارب سيف الدولة ومن يتصل به^(١) . وثنتان فى محمد بن إسحاق التتوخى ، ومثلهما فى أبى شجاع فأنك ، وواحدة فى عمة عضد الدولة .

فأين ما قاله فى رثاء العلماء ، والأدباء ، والأئمة ، والقواد ، والأمراء ، وسائر العظماء ممن كان يَمُوج بهم عصره ، وتمتلى بهم البلاد التى زارها ، أو أقام فيها ؟ فلا غرابة أن تكون مرثيته فى جملتها كدأحه ؛ فآرة ، ضئيلة الحظ من العاطفة ؛ لأنها ليست وليدة الرغبة الوجدانية الصادقة ، وإنما هى دين حل قضاؤه . وخير قصائده من هذه الناحية مرثيته فى جدته لأمه (وكانت قد بئست منه ؛ لطول غيبته . فكتب إليها كتابا فرحت به ، وأكبّت على تقبيله ؛ حتى أصابتها الحمى من فرط السرور ؛ فماتت) وفى تلك القصيدة مظاهر من القوة الفنية ، والعاطفة الجياشة . ومن أبياتها .

لأ الله من مفجوعة بحبيها قتيلة شوق غير ملحها وضما
أحن إلى الكأس التى شربتها وأهوى ليمثواها التراب وما ضمما
بكيته عليها خيفة فى حياتها وذاق كلانا نكسل صاحبه قدما
عرفت الليالى قبل ما صنعت بنا فلما دهنتى لم تزدنى بها علما

(١) فواحدة قيلت فى رثاء والده ، وواحدة فى ابنه ، وثنتان فى أخته ، والخامسة فى ابن عمه ، والسادسة فى عبده يملك التركى .

أناها كتابي بمد يأسٍ وترحةٍ فمات سروراني ؛ فت بها هماً
حراماً على قلبى السرور ؛ فأننى أعدُّ الذى ماتت به بعداً سماً
أما العيوب الثلاثة الباقية فتتمثل فى :

(١) سرد الأوصاف العامة الجملة^(١) ، وتكرارها فى القصائد المختلفة ،
وسوتها سوقاً ساذجاً لم يمسسه الفن السامى ، ولم تصقلها وسائله الحميدة ؛ على
الوجه الذى شرحناه فى المدائح . كقوله فى محمد بن إسحاق التتوخي :

ما كنت أحسبُ قبل دفنك فى الثرى أن الكواكب فى الترابِ تَغُورُ
ما كنت أمل قبل نعشك أن أرى رَضَوَى على أيدي الرجال تسير
خرجوا به ، وَإِكلٍ بالكِ خَلْفَهُ صَعَقَاتُ موسى يوم ذكَّ الطورُ
والشمسُ فى كبدِ السماء مريضةٌ والأرض واجفة تكادُ تمورُ

(٢) وخلط الرثاء بما يفسده ، كالحديث عن النفس ، أو الكلام عن جمال
الفقيدة ، وحسن وجهها مما هو بالفرل لا بالرثاء أشبه . كقوله فى رثاء والده
سيف الدولة (من أبيات سبقت) :

صلاة الله خالقنا حفظٌ على الوجه المكفن بالجمال
بعيشك هل سلوت ؟ فإن قلبى وإن جانبك أرضك غير سالى
وقوله فى رثاء أخت سيف الدولة : —

وهمها فى العلا والمُلك ناشئة وهم أترابها فى اللهو واللعب
يعلمن حين تحميًا حسن مبسمها وليس يعلم إلا الله بالشنب

(١) أى: التى تصلح أن تقال لكل شخص. دون أن تبرز خصائصه التى تميزه من غيره ،
كما هو الشأن فى المدائح العامة أيضاً .

(٣) وفطور العاطفة فتورا يُحيل الكلامَ مَوَاتَا ؛ لا يهيج ألما ، ولا يحرك شجنا ، ولا يحمل تيارا من الحزن إلى السامع أو القارئ ، كالأبيات السالفة .

(د) الغَزَل :

غَزَل المتنبي — كسائر الغزل العربي — يتجه إلى المحسوس والمشاهد من جسم الحبيب ، ووصف جماله المادى ، وما يجلبه الحب من تعب ، وسهر ، ونحول ، وعذاب ...

وأكثر ما يتجه الوصف الحسى إلى بياض الجسم ، وإشراق الوجه ، وسواد الشعر ، واعتدال القامة ، ونحول الخضر ، وثقل الأرداف ، وحلاوة الريق ... ، وما إلى ذلك من ضروب الحسن المادى الذى تختلف الآراء والأذواق فى تقديره وتحديدده ؛ باختلاف العصور والبيئات .

وكان حقيقا بالشعراء أن يُسجلوا صور الجمال وألوانه بحسب كل عصر وبيئة ، بحيث يكون تسجيلهم صادقا يُطابق رأى أهل ذلك العصر — فى الجمال وأوصافه . ولسكنهم لم يفعلوا ؛ بل ارتضوا من أوصاف الجمال ومحاسنه ما ارتضاه السابقون من شعراء الجاهلية وصدُر الإسلام ؛ سواء أكان موافقا لما تنالاً عليه الناس فى عصر الشاعر أم مخالفا . وسواء أكان محمودا أم مذموما . وقد عرض علينا المتنبي بعض نماذج منه حين يقول :

مَظْلُومَةُ الْقَدِّ فى تشبيهه غُصْنًا مَظْلُومَةُ الرِّيقِ فى تشبيهه ضَرْبًا^(١)

بيضاه ، تطمع فيما تحت حُلتها وعزّ ذلك مطلوبا إذا طُلِبَا

كأنها الشمس؛ يُبْشِي كَفًّا قَابِضِهَا شِعَاعُهَا ، ويراها الطَّرْفُ مُقْتَرَبًا

* * *

ويقول :

صَرِيحُ مُقْلَتِهَا ، سَأَلَ دِمْنَتَهَا قَتِيلَ تَكْسِيرِ ذَاكَ الْجَفْنِ ، وَاللَّعْسِ ^(١)
خَرِيدَةً؛ لَوْرَاتِهَا الشَّمْسُ مَا طَلَعَتْ وَلَوْ رَأَاهَا قَضِيبُ الْبَانِ لَمْ يَمْسِ
مَا ضَاقَ قَبْلَكَ خَلْخَالٌ عَلَى رَشَاءٍ وَلَا سَمِعْتُ بِدِيَابِجٍ عَلَى كَنْسٍ ^(٢)

وليس من عيبٍ في التغزل بالحسن المادى ، والجمال الحسى ، بلفظ عَفٍّ ،
وأسلوب بعيد عن الخفا ؛ فذلك نوع من الغزل مطلوب ؛ بل مرغوب أحياناً .
ولكن العيب كل العيب في التزامه ، والتزام طريقة القدماء فيه ، والاقتصار
عليها ؛ كأن لم يكن هناك غيره ، أو كان التغزل بالأوصاف النفسية والمعنوية
لا يَعدُّله أو يَفُوقه . فمن ينكر قوة الحاسن الخلقية ، والمزايا العقلية ، وخفة الروح ،
وشدة الأسر في استهواء النفوس ، وإيقاعها في شَرَكِ الحبِّ ؟ أليست هذه
الحاسن السامية في منزلة سابقتهما ، إن لم تفضلها ؟ فما بال المتنبي — وأنداده —
يقبل على نوع ، وينصرف عن الآخر ؟ وهل لطبيعة الشرقيين ، ووسائل
حياتهم وثقافتهم — دخل في ذلك ؟ أغلب الظن أن الجواب : نعم .

وكيفما دار الأمر فالمتنبي أقْبَلَ على الناحية الحسية مُقَرِّطاً ، وحاكياً القدماء
فيها لفظاً ومعنى ، ورددَ ما استهلكوه منها ؛ فجاء غزله صناعياً ، تقليدياً ، مبتذلاً ،
مسلوب العاطفة . وربما أهمل الصياغة الجيدة ، واللفظ القفّ ، والأسلوب
المتنبي الذى يتجنبُ الإشارة إلى المتعة المادية الرخيصة ، وأعضائها ،

(١) سمره في الشفة مستحسنة عند العرب .

(٢) بيت الظبي . والديابج على كَنَسٍ لأنها كانت في الهودج .

وكل ما يتصل بها ، أَوْ يُوجِّهُ الذَّهَنَ إِلَيْهَا مِنْ قُرْبٍ أَوْ بُعْدٍ ؛ كَقَوْلِهِ
فِي وَصْفِ حَبِيبَتِهِ :

هَرَأَقْتُ دَمِي سَنَ بِي مِنَ الْوَجْدِ مَا بَهَا مِنْ الْوَجْدِ بِي ، وَالشَّوْقُ لِي وَلَهَا حِلْفُ
وَمَنْ كَلَّمَا جَرَّدَتْهَا مِنْ ثِيَابِهَا كَسَاهَا ثِيَابًا غَيْرَهَا الشَّعْرُ الْوَخْفُ^(١)
وَقَابَلَنِي رُؤْمَانَتَا غُصْنٍ بَانَةٍ يَمِيلُ بِهِ بَدْرٌ ، وَيُمْسِكُهُ حِقْفُ^(٢)
وَقَوْلُهُ يَخَاطَبُ خِيَالَهَا : —

عُدْ ، وَأَعِدْهَا ؛ فَبِهَذَا تَلَفْتُ أَلَصَقْتُ ثَدْيِي بِثَدْيِهَا النَّاهِدُ
وَقَوْلُهُ :

أَعَارَنِي سُمْمَ عَيْنِيهِ وَحَمَلَنِي مِنْ الْهَوَى ثِقْلَ مَا تَحْوِي مَازِرُهُ
وَقَوْلُهُ :

إِنِّي عَلَى شَفْعِي بِمَا فِي خُرِّهَا لِأَعِفُّ عَمَّا فِي سَرَائِيلَاتِهَا
وَقَوْلُهُ :

بِيضَاءُ تَطْمَعُ فِيمَا تَحْتَ حُلَّتِهَا وَعَزَّ ذَلِكَ مَطْلُوبًا إِذَا طُلِبَ
وَرَبَّمَا قَصَّرَ أَوْ عَجَزَ عَنْ اخْتِيَارِ أَلْفَاظِهِ الْغَزَلِيَّةِ رَقِيقَةً ، حُلُوةِ الْجُرْسِ ،
وَاضِحَةِ الْمَعْنَى كَقَوْلِهِ^(٣) :

بَانُوا بِخُرْعُوْبَةٍ لَهَا كَفَلٌ يَكَادُ عَنْدَ الْقِيَامِ يَقْعِدُهَا
رَبِّحَلَةٍ ، أُنَمِّرُ مُقْبَلَهَا سَبَخَلَةٍ ، أَبْيَضُ مُجَرَّدَهَا

(١) الشعر الوحف : السكندر الملتف — يريد أنها إذا تعرَّت من ثيابها غطاها شعرها

الطويل . (٢) الرمل المترج .

(٣) قد سبق البتان وشرح كلأتهما في ص ٨٣ .

فإذا أَغْصَيْنَا عَنْ هَذِهِ النِّوَاحِي — رَأَيْنَاهُ فِي غَيْرِهَا مِنَ السَّبَاقِينَ ؛ دَقَّةُ
وصف ، وقوة رَصْف ، وحسن أداء . وقد نحسَّ حرارة العاطفة في غزله أحياناً
(وما أَقَلَّ ظُهُورِهَا فِي شَعْرِهِ ! وما أَظْهَرَ فَتُورِهَا وَبُرُودِهَا فِيهِ ! لما بَيْنَاهُ أَنْفَا)
كقوله في قصيدة عرضنا لأبيات منها :

أَرْقُ عَلَى أَرْقٍ ؛ وَمِثْلِي يَأْرُقُ	وَجَوَى ^(١) يَزِيدُ ، وَعَبْرَةٌ تَتَرَقُّ
جَهْدُ الصَّبَابَةِ أَنْ تَكُونَ كَمَا أَرَى	عَيْنٌ مُسْهَدَةٌ ، وَقَلْبٌ يَخْفَقُ
مَالِاحِ بَرْقٍ أَوْ تَرْتَمِ طَائِرٌ	إِلَّا ائْتَنَيْتُ وَلِي فَوَادُ شَيْقٍ
جَرَّبْتُ مِنْ نَارِ الْهَوَى مَا تَنْطَفِئُ	نَارُ الْغَضَى وَتَكِلُ عَمَّا تَحْرِقُ
وَعَذَلْتُ أَهْلَ الْعَشْقِ حَتَّى ذُقْتُهُ	فَعَجِبْتُ كَيْفَ يَمُوتُ مَنْ لَا يَعْشَقُ
وَعَذَرْتُهُمْ ، وَعَرَفْتُ ذَنْبِي ؛ أَنِّي	عَيَّرْتُهُمْ ؛ فَلَقِيتُ فِيهِ مَا لَقُوا

* * *

ويقرب من هذا قوله (برغم برود عاطفته) :

وَلَمَّا التَّقِينَا — وَالنَّوَى وَرَقِيبُنَا	غَفُولَانِ عَنَّا ظَلَمْتُ أَبْصَى ، وَتَبَسَّمَ
فَلَمْ أَرْ بَدْرًا ضَاحِكًا قَبْلَ وَجْهِهَا	وَلَمْ تَرَ قَبْلِي مَيِّتًا يَتَكَلَّمُ
ظُلُومَ كَمْتَنِيهَا لَصَبٍ كَخَضِرِهَا	ضَعِيفِ الْقَوَى ، مِنْ فَعْلَاهَا يَتَنَطَّلُمُ
بَفَرَعٍ يَعِيدُ اللَّيْلَ وَالصَّبِيحُ نَبِيرُ	وَوَجْهِ يَعِيدُ الصَّبِيحَ وَاللَّيْلُ مُظْلِمُ
فَلَوْ كَانَ قَلْبِي دَارَهَا كَانَ خَالِيًا ^(٢)	وَلَكِنْ جِيشَ الشَّوْقِ فِيهِ عَرَمَرُمُ

وقوله :

تَرَشَّفْتُ فَأَمَّا سُحْرَةٌ ؛ فَكَأَنِّي تَرَشَّفْتُ حَرَّ الْوَجْدِ مِنْ بَارِدِ الظَّمِّ ^(٣)

(١) حزن . (٢) لأنها رحلت عن دارها وتركتها . (٣) الريق .

فتاةٌ تَسَاوَى عِقْدُهَا ، وكَلَامُهَا وَمَبْسَمُهَا الدَّرِيءُ فِي الْحُسْنِ وَالنَّظْمِ .

* * *

أما بقية أغراضه من تهنئة ، وخر ، ووصف ... فلا تخرج في جملتها عن حدود ما وصفنا به المديح . غير أن الوصف في شعر المتنبي مظلوم من ناحيته العددية ، والموضوعية ؛ فنصيبه من القصيدة الواحدة ومن عدد القصائد قليل ، وحظه من العناية والتجديد والتنوع — ضئيل ، محدود ، بل مفقود . فأين الأبيات والقصائد التي تسجل معالم عصره ، ومشاهد الحضارة فيه ؟ أين وصف المواكب ، والمآكب ، والقصور ، والملابس ، والحلى ، والبساتين ، والأثمار ، والأطيار ، والأغاني ، ومجالس الأنس ، ومحافل الطرب ، ومجامع الصحاب ، ومتع الأنهار ، ومفاتيح الحياة ، في الحواضر العباسية ، والبلاد الإسلامية ، وحال المجتمع ، ونظام الأسرة ، وما يتصل بذلك من الشؤون السياسية ، والمذهبية ... وغيرها مما أشرنا إليه بإيجاز أول الكتاب^(١) ؟ بل أين وصف الطبيعة ، ومجاليها المختلفة في البلاد التي زارها ، والممالك التي طاف بها ؟ شغل عن ذلك كله بمطامعه ، ومآربه ، واستجدائه الملوك والأمراء . ولم يحفظ ديوانه من الأوصاف إلا بعض مقطوعات تافهة قليلة العدد في بعض الأغراض ، وإلا وصف الحرب الذي أجاده .

والحق أن المتنبي قَصَّرَ في هذا الغرض تقصيرا بالغا لا يستطيع عنه دفاعا ، واتسع تقصيره فيه حتى شمل النواحي الثلاث : العدد ، والألفاظ ، والمعاني . أو : الكم ، والكيف ؛ كما يقولون . ومن ثم كان مقصرا في رسالته الأدبية (كما سبق) . لكنه في وصف الحرب يَتَجَلَّى شاعرا قويا في عباراته ،

ومعانيه ، وأخيلته ، وبدائع افتنانه ؛ لا يكاد يسبقه في هذا الميدان أحد من شعراء العربية ؛ فقد اقتحم نيران الحرب بنفسه ، وكابد أهوالها ، ورأى ببصره وبصيرته وسائلها ودخائلها ، وعرف من جلائلها ووقائعها ما لا يعرفه إلا الخبراء ؛ « فإذا وصف معركة كان لسانه أمضى من نصالها . وأشجع من أبطالها ، وقامت أقواله للسامع مقام أفعالها ؛ حتى يظن أن الفريقين قد تقابلا ، والساالحين قد تواصلوا . فطريقه في ذلك يضل بسالكه ، ويقوم بعذر تاركه . ولا شك أنه كان يشهد الحروب مع سيف الدولة ؛ فيصف لسانه ما أداه عيانه ^(١) . » وقد تقدمت صور من أوصافه الحربية ^(٢) ، وإليك أخرى يخاطب بها سيف الدولة ، ويعرض بالروم وبطريقهم « ابن شُمُشَقِيق » الذي حلف لينتقم من سيف الدولة وأتباعه :

صَدَمْتَهُمْ بِخَيْمِيسَ ^(٣) أَنْتَ غُرَّتُهُ وَشَمَّهَرِيَّتُهُ فِي وَجْهِهِ نَعَمَ ^(٤)
فَكَانَ أَثْبَتَ مَا فِيهِمْ جُسُومُهُمْ يَسْقُطُنَ حَوْلَكَ ، وَالْأَرْوَاحُ تَهْزُمُ
وَالْأَعْوَجِيَّةُ ^(٥) مِلءُ الطَّرْقِ خَلْفَهُمْ وَالْمَشْرِفِيَّةُ مِلءُ الْيَوْمِ فَوْقَهُمْ
إِذَا تَوَافَقَتِ الضَّرْبَاتُ صَاعِدَةً تَوَافَقَتْ قُلُلُ فِي الْجَوِ تَصْطَدِمُ ^(٦)
وَأَسْلَمَ ^(٧) ابْنُ شُمُشَقِيقٍ أَلَيْتَهُ ^(٨) إِلَّا أَنْتَنِي ؛ فَهَوَّيْنَايَ ، وَهِيَ تَبْتَسِمُ ^(٩)

- (١) الكامل لابن الأثير — باختصار ، والصبح ج ١ ص ٢٥٠ هامش العكبري .
(٢) ص ٣١ وما بعدها (٣) جيش كبير . (٤) كثرة الشعر المنسدل على الوجه ، جعل الرماح الكثيرة تحيط بالوجه كالشعر الذي يتدل عليها .
(٥) الخيل التي من نسل أعوج ، وهو أشهر حصان عربي في القديم .
(٦) أي : أن الضربات حين ترن في الفضاء وتتلاقى يتبعها تلاقى الرءوس المقطوعة وتصادمها ؛ فشكل ضربة برأس ، ورنين الضربات يعادلها صدام الرءوس الطائرة .
(٧) ترك وتنازل . (٨) يمينه التي حلفها على ألا ينثنى عن رأيه ، ولا يرجع عنه .
(٩) أي : أن يمينه التي حلفها تضحك سخرية واستهزاء من حثته .

لا يأمل النفسَ الأفصى ^(١) لمُجَتِّهِهِ فَيَسْرِقُ النفسَ الأدنى ، وَيَقْتَنِمُ
تَرُدُّ عَنْهُ قَنَّا الفُرْسَانِ سَابِغَةً ^(٢) صَوْبُ ^(٣) الأَسْنَةِ فِي أَثْنَائِهَا دِيمُ
تَخَطُّ فِيهَا الْعَوَالِي ، لَيْسَ تَنْفُذُهَا كَأَنَّ كُلَّ سِنَانٍ فَوْقَهَا قَلَمٌ ^(٤)
أَلَقْتُ إِلَيْكَ دِمَامَ الرُّومِ طَاعَتَهَا فَلَوْدَعَوْتُ بِلا ضَرْبٍ أَجَابَ دَمٌ ^(٥)
يُسَابِقُ الْقَتْلُ فِيهِمْ كُلَّ حَادِثَةٍ فَا يُصِيبُهُمْ — مُمُوتٌ ، وَلَا هَرَمٌ ^(٦)
ومثلها قصيدته القافية التي مطلعها :

لعينيك ما يلقى الفؤادُ ، وما لقي وللحُبِّ ما لم يبقَ مني ، وما بقي

... ..

ومن بارع أوصافه - غير الحربية - ورفيقها وصفه لخيمة سيف الدولة
(وكانت أثوابا ، - أى : أجزاء متضامة - من الديباج المنقوش ،
المُحَلَّى برسوم مختلفة) : -

وأَحْسَنُ مِنْ ماء الشَّيْبَةِ ^(٧) كُلُّهُ حَيًّا ^(٨) بَارِقٍ ^(٩) فِي فَازَةٍ ^(١٠) أَنَا شَائِمُهُ ^(١١)
عَلَيْهَا ^(١٢) رِيَاضٌ لَمْ تَحْكَمْهَا ^(١٣) سَحَابَةٌ وَأَغْصَانُ دَوْحٍ لَمْ تَغْنِ ^(١٤) حَامَتُهُ
وَفَوْقَ حَوَائِي كُلِّ ثَوْبٍ مُوَجَّهٍ ^(١٥) مِنْ الدَّرِّ سَمَطٌ لَمْ يُمَقِّبَهُ نَاطِمُهُ ^(١٦)

- (١) العميق الأبعد .
(٢) مطر ، والمراد به : دم غزير كالطر . (٤) أى : أن آثار المراح فوقها كأنها
الكتابة . (٥) أى : أرواح الروم طوع أمرك تستجيب لك من غير قتال .
(٦) أى : أنك تقتلهم ، ولا يموت منهم أحد موتا طبيعيا .
(٧) ماء الشبيبة - حسنها ونضارتها . (٨) مطر وخصب .
(٩) برق لامع . (١٠) خيمة ، أو : قبة . (١١) طالبه .
(١٢) على الخيمة ، أو : القبة . (١٣) لم تنسجها . (١٤) لم تتغن ولم تصدح .
(١٥) له وجهان . (١٦) معنى البيت : كل ثوب تستقبله من هذه الفائزة ترى فوق
حواشيه سلوك لآلئ غير مثقوبة ولا منظومة ؛ لأنها لآلئ مرسومة ، لا حقيقية .

تَرَى حَيَوَانَ الْبَرِّ مُصْطَلِحًا بِهَا يَحَارِبُ ضِدَّ ضِدِّهِ ، وَيُسَالِمُهُ
 إِذَا ضَرَبَتْهُ الرِّيحُ مَاجَ : كَأَنَّهُ نَجُولُ مَذَاكِيهِ ^(١) ، وَتَدَأَى ^(٢) ضَرَاغُهُ
 وَفِي صُورَةِ الرُّومِيِّ ^(٣) ذِي النَّجَاحِ ذِلَّةٌ لَا بُلْجَ لَا تَيْجَانَ إِلَّا عَمَامُهُ
 لَهُ عَسْكَرًا خَيْلٍ وَطَيْرٍ ؛ إِذَا رَمَى بِهَا عَسْكَرًا لَمْ يَبْقَ إِلَّا جَمَاحُهُ
 أَجْلَتْهَا ^(٤) مِنْ كُلِّ طَاغٍ ثِيَابُهُ وَمَوْطِئُهَا مِنْ كُلِّ بَاغٍ مَلَاغُهُ ^(٥)
 فَقَدْ مَلَّ ضَوْهَ الصَّبْحِ مِمَّا تُغَيِّرُهُ وَمَلَّ سَوَادُ اللَّيْلِ مِمَّا تُزَاحِمُهُ
 وَمَلَّ الْقَنَازِمَ تَدُقُّ صُدُورُهُ وَمَلَّ حَدِيدُ الْهِنْدِ مِمَّا تَلَاطِمُهُ
 سَحَابٌ مِنَ الْعِقَابَانِ يَزْحَفُ تَحْتَهَا سَحَابٌ إِذَا اسْتَسْقَتْ سَقَتَهَا صَوَارِمُهُ
 وَقَدْ سَبَقَتْ أَيْبَاتُهُ الْجَمِيلَةَ فِي وَصْفِ شَعْبِ بَوَّانٍ ^(٦) ، وَلَهَا نَظَائِرُ ، كَقَصِيدَتِهِ
 الدَّالِيَةِ فِي الصَّيْدِ وَغَيْرِهَا .

أَمَّا ضَعْفُهُ وَتَهافتُهُ فِي الْوَصْفِ فَكَثِيرٌ . وَمِنْ أَمْثَلَتِهِ : أَيْبَاتُهُ فِي لَعِبَةٍ كَانَتْ
 تَدُورُ فَسَقَطَتْ عِنْدَ بَدْرِ بْنِ عِمَارٍ (وَبَيْنَ الْبَيْتِ الْأَوَّلِ وَالثَّلَاثِ تَنَاقُضٌ) ^(٧) .

مَا نَقَلْتُ فِي مَشِئْتِهِ قَدَمًا وَلَا اشْتَكْتُ مِنْ دُورِهَا أَلَمًا
 لَمْ أَرِ شَخْصًا مِنْ قَبْلِ رُؤْيَيْهَا يَفْعَلُ أَفْعَالَهَا وَمَا عَزَمَا
 فَلَا تَلُمُهَا عَلَى تَوَاقُعِهَا أَطْرَبَهَا أَنْ رَأَيْتُكَ مُبْتَسِمًا

(١) خيوله المُسَيَّنة . (المفرد : مُذَلَّك) .

(٢) تحائل وتحادع .

(٣) ملك الروم ، وكانت مرسومة على الخيمة .

(٤) جمع : مُجَل ، وهو : ثوب يغطي ظهر الفرس وجوانبه .

(٥) المواضع التي حول الفم (المفرد : مَلْفَم) . (٦) ص ٣٠ .

(٧) لأنه جعلها أول الأمر لا تشاء ، ولا نحس بألم . ثم عاد فجعلها تطرب لا يتسام المدحج

(راجع المكبري في شرح البيت)

وقوله حين سمع زئير أسود بالفراديس ^(١) :

أَجَارِكِ يَا سَدَ الْفَرَادِيسِ مُكْرَمٌ فَتَسْكُنَ نَفْسِي أَمْ مُهَانَ فَمُسْلَمٌ ؟
وَرَأَى وَقْدَامِي عُدَاةً كَثِيرَةً أُحَازِرُ مِنْ لَصٍّ ، وَمِنْكَ ، وَمِنْهُمْ
فَهَلْ لَكَ فِي حِلْفِي عَلَى مَا أُرِيدُهُ ؟ فَإِنِّي بِأَسْبَابِ الْمَعِيشَةِ أَعْلَمُ
إِذَا لَأَنَّاكَ الْخَيْرُ فِي كُلِّ وَجْهَةٍ وَأُثْرِبَتْ بِمِمَّا تَفْنَمِينَ وَأَغْنَمُ
وأضعف من هذا كله ، وأشد تهافتاً ، وأوضح عجزاً — أن يصف
مجلس الأمير ، وقد كثرت البخور ، وارتفعت رائحة النذ ، وعلت الأصوات —
فلا يزيد في هذا الموقف الرائع على البيتين الآتين :

أَنْشَرُ الْكِبَاءَ ^(٢) ، وَوَجْهَ الْأَمِيرِ وَصَوْتَ الْغِنَاءِ ، وَصَافِي الْخُورِ ؟
فَدَاوِ نُحَارِي ^(٣) بِشُرْبِي لَهَا فَإِنِّي سَكِرْتُ بِشُرْبِ الشُّرُورِ

ومثله وصفه للعبة في صورة جارية في يدها طاقة ريحان . وهذه القلعة
أوضح دلالة على عجزه وقصوره ^(٤) :

- (١) موضع بالشام . (٢) العود الذي يحرق فتفوح رائحته . (٣) دوار الخمر .
(٤) ذلك لأنه قالها وهو في موقف يشبه موقف الامتحان ، وإظهار القدرة والبراعة ؟
فقد روى العكبري قبل هذه الأبيات : أن بدر بن عمار كان يجالسه رجل أعور ،
يعرف بابن كروّس ؛ يحسد أبا الطيب ؛ لما كان يشاهده من سرعة خاطره ؛
لأنه لم يكن شئ يجري في المجلس إلا ارتجل فيه شعرا . فقال الأعور لبدر :
أظنه يعمل قبل حضوره ، وبعده . ومثل هذا لا يجوز . وأنا أمتحنه بشئ أحضره
للوقت . فلما كان في المجلس ، ودارت الكؤوس — أخرج لعبة لها شعر في طرفها
تدور على لولب ، لإحدى رجليها مرفوعة ، وفي يدها طاقة ريحان . فاذا وقت
لإزاء إنسان شرب ، فدارت . فقال الأبيات المذكورة ، ونجح في الامتحان ،
ولكنه نجاح لا تفوق فيه ولا امتياز .

وجاريةٍ شَعَرُهَا شَطْرُهَا مُحْكَمَةٌ ، نَافِذٍ أَمْرُهَا
تَدَوَّرُ وَفِي كَفِّهَا طَاقَةٌ تَضَمَّنَهَا مُكْرَهَا شِبْرَهَا
فَإِنْ أَسْكَرْتَنَا فِي جَهْلِهَا مِمَّا فَعَلْتَهُ بِنَا عُدْرَهَا
* * *

ونكتفي من موضوعاته بما تقدم ؛ فباقيها كسابقتها في تلك الأحكام العامة التي عرضنا لها . ولكن نختتم الكلام بأبيات من نغره (وما الفخر إلا مدح يوجه المرء لنفسه وخاصته) ونصيب المتنبي منه أوفر نصيب . ولا أعرف شاعرا عربيا يسبقه فيه ؛ كثرة ، وقوة . وإعلاء كان يُرضى به غروره ، ويشقى ألم نفسه ، وحقدتها على الزمان والناس ؛ فقد زعم أن الأيام تنكرت له ، وأنكرت مواهبه . وأن الناس جحدوا فضله ؛ فلم يرفعوه إلى المكانة اللائقة به ، ولم يمنحوه ما يستحق وتستحق مواهبه ؛ من ملك ، أو ولاية ، أو زعامة عامة ؛ فجاء بفخره يهُوِّن الأمر على نفسه ، ويخفف عنها ؛ بترداد محاسنها ، أو بدم الزمان والناس ، أو بالتظاهر بالصبر ، والاستهانة بالحوادث ، أو أشباه هذا مما يشقى أحقادهم ؛ وإن نمت كلماته عن ثورة داخلية عميقة ، ومرارة متمكنة ، وألم دفين . ولقد كان شعوره النفسى بهذا قويا صادقا ؛ فجاء تصويره قويا صادقا كذلك ؛ إذ دفعه الإحساس العميق المتغلغل إلى ترجمته ، والتعبير عنه ترجمة تلائمه ، وتظهر حقيقته . ومن هنا امتاز فخره بأنه وجداني رصين . استمع إليه يقول :

أَيَّ حِلٍّ أَرْتَقِي . أَيَّ عَظِيمٍ أَتَقِي
وَكُلُّ مَا خَلَقَ اللَّهُ وَمَا لَمْ يَخْلُقْ
مَحْتَقِرٌ فِي هَمِّي كَشَعْرَةٍ فِي مَفْرِقِي

ويقول :

فالحليل ، والليل ، والبيداء — تعرفني
كم تطلبون لنا عيباً فيعجزكم
ما أبعد العيب والنقصان من شرفي
والضرب ، والطنن ، والقرطاس ، والقلم
ويكره الله ما تأتون ، والكرم
أنا الثريا ؛ وذان الشيب والهرم
وقوله :

ودى حياض الردى - يأنفس - وأتركي
إن لم أذكرك على الأرماع سائلة
أملك الملك - والأسياف ظامئة
من لورآني ماء مات من ظما
حياض خوف الردى للشاء والنعم
فلا دُعيت ابن أم المجد والكرم
والطير جائعة - لحم على وضم^(١)
ولو مثلت له في النوم لم يتم^(٢)
وقوله :

ما مقامي بأرض نخلة^(٣) إلا
مفرشي صهوة الحصان ولكن قيصي مسرودة من حديد

....

لا بقومي شرفت ؛ بل شرفوا بي
وبهم نخر كل من نطق الضا
إن أكن مُعجَباً فعُجِبَ عجب
وبنفسى فخرت ، لا بجدودي
د ، وعوذ الجاني ، وغوث الطريد
لم يَجِدْ فوق نفسه من مزيد

(١) الوضم : كل شيء يوضع عليه اللحم . ويضرب مثلاً للضعيف الذي لا يدفع الضر عن نفسه . ومعنى البيت - أملك الملك قوم أذلاء؟ كاللحم على الوضم ، وأسيفنا ظامئة إلى دماءهم ، والطير جائعة لا تشبعها من لحومهم ؟ .

(٢) المعنى : كيف يملك الملك من لو رآني ماء وهو عطشان لئله خوفه أن يقترب مني ، فيموت عطشا ، ومن لو رآني في منامه فر النوم من عينيه .

(٣) قرية شامية لبني كلب على ثلاثة أميال من بعلبك . نزلها المتقي أياما .

أَنَا تَرْبُ النَّدَى ، وَرَبُّ الْقَوَافِي وَسَمَامُ الْعِدَا ، وَغَيْظُ الْحُسُودِ
أَنَا فِي أُمَّةٍ - تَدَارَكُهَا اللَّهُ - غَرِيبٌ ؛ كَصَالِحٍ فِي ثَمُودِ
وقوله مخاطباً سيف الدولة :

وما أنا إِلَّا سَمِيرِي حَمَلَتَهُ ؛ فزَيْنَ مَعْرُوضًا ، وَرَاعَ مُدَدًا
وما الدهرُ إِلَّا مِنْ رِوَاةٍ قَلَانْدِي إِذَا قَلْتُ شِعْرًا أَصْبَحَ الدَّهْرُ مَنْشَدًا
فسار به مَنْ لَا يَسِيرُ مُشْمَرًا وَغَنَى بِهِ مَنْ لَا يُغْنَى مُقَرَّدًا
أَجِرْنِي إِذَا أَنْشَدْتُ شِعْرًا ؛ فَإِنَّمَا شِعْرِي أَتَاكَ الْمَادِحُونَ مُرَدَّدًا
وَدَعِ كُلَّ صَوْتٍ غَيْرَ صَوْتِي ؛ فَإِنِّي أَنَا الصَّاحُّ الْمَخْكِيُّ وَالْآخِرُ الصَّدَى

* * *

أما شوقي فقد حافظ كذلك على عمود الشعر ، وسلك مسلك المتنبي
والقدماء في الفن الشعري ؛ شكله ، وموضوعه . ولكنه منح نفسه بعض
التحرر ، وحسن التصرف ، وقد حرَّهمَا المتنبي .

(١) فمن حيث الشكل كانت طريقته في تأليف الجمل ، وبناء الأساليب ،
واستخدام الوسائل البلاغية ، والأوزان الشعرية — هي طريقة المتنبي
والسابقين . ويفضله بأمر ثلاثة :

أولها: أن شوقي جانب — ما استطاع — الوقوع في كثير مما وقع فيه قريته ؛
من لفظ معيب ، أو أسلوب مجرَّح ، أو خروج على محاسن البلاغة ،
أو اختيار بحر غير مناسب أوقافية مضطربة ... إلى غير ذلك مما
وصفنا به المتنبي .

ثانيها: أنه لم يقتصر على حسن اختيار الوزن الشعري (البحر) ملائماً كل

للملاءمة للموضوع (على الوجه الذى شرحناه) واختيار الغاية مناسبة مطمئنة ثابتة فى مكانها — بل لجأ إلى أوزان أخرى قديمة لم يلجأ إليها المتنبي ؛ كالמושحات ، والمربعات ، والخمسات ، وأشباهاها ، واستخدمها فى أنسب المواضع وأحكمها استخداما بأرعا عجبها ؛ يلائم موضوعاتها ، ويسير الحياة الحاضرة ، والحوادث الجارية ؛ كالموشح الأندلسى ، والأناشيد الوطنية ، وأناشيد الكشافه ، والنيل ، وكرة القدم ، والانتصار فى الحروب ولم يَتَزَمَّتْ فى استعمال الأوزان القديمة ؛ بل كان يتحلل حيناً من بعض قواعدها الفرعية البسيطة الشأن ، (كالتى تتعلق بالزحاف والعلل) استجابة لتوقيع موسيقى ، أو تلحين غنائى ، أو أمر آخر تقتضيه طبيعة الموضوع ، وصياغته صياغة فنية حديثة ؛ توافق التلحين ، أو الترقيم ، أو العاطفة ، فى غير جراءة منكورة على علم العروض وقواعده العامة الأساسية . ومطالع الموشح الأندلسى كما عرضناه ...

مَنْ لِيَنْصُورِ يَتَنَزَّى أَلَمَّا بَرَّحَ الشَّقُوقُ بِهِ فِي الْفَلَسِ
حَنٌّ لِلْبَّانِ وَنَاجَى الْعَلَمَا أَيْنَ شَرِقُ الْأَرْضِ مِنْ أُنْدَلَسِ ؟

... ..

ومن أناشيد الوطنيه :

بَنِي مِصْرٍ ، مَكَانُكُمْ تَهَيَّأ فَهَيَّأْ ؛ مَهْدُوا لِلْمَجْدِ هَيَّأ
خُذُوا شَمْسَ النَّهَارِ لَهُ حُلِيَّأ أَلَمْ تَكُنْ تَاجُ أَوْلِيكُمْ مَلِيَّأ ؟

... ..

ومن أناشيد الكشافة :

نحن الكشافة في الوادى جبريلُ الروحُ لنا حادى
يا رب بعيسى ، والهادى وبموسى خذ بيدِ الوطنِ

... ..

ومن أناشيد النيل :

النيلُ العذبُ هو الكوثرُ والجنّةُ شاطئُهُ الأخضرُ
رَبَّانُ الصَّحَّةِ ، والمنظرُ ما أبهى الخلدَ !! وما أنضرُ !!
البحرُ الفيّاضُ ، القدُّسُ السَّاقِ الناسُ ، وما غرسُوا
وهو المَنَوَالُ لِمَا لَبَسُوا والمنعمُ بالقطنِ الأنورُ

... ..

ها : أن شوق استطاع في رواياته المختلفة — مسرحية وغير مسرحية — أن يُخضِعَ أوزان الشعر للمحاورة الطويلة ، والحديث المتبادل بين اثنين وأكثر ؛ وهذه أول مرة — فيما نعرف — في تاريخ الشعر العربى ، يقع فيها مثل ذلك النقاش ؛ فى البيت الواحد وفى الأبيات المتعددة ؛ بحيث يستطيع الشاعر أن يُنطِقَ أشخاص الرواية فى مواقفهم المختلفة بلفة سليمة ، مُواتية الأداء ، صادقة التعبير عن المراد ، مع الحرص على الوزن الشعرى ، والقافية الصحيحة . نعم إن « شوق » قد يغير الوزن (البحر) والقافية ؛ فينتقل من بحر ، ومن قافية لغيرها ؛ إذا طال الحوار ، وكثر الجدل ، واقتضى الموقف التمثيلى ، والنغم الموسيقى ذلك . ولكن فى كل حالاته لا يهمل الوزن العربى المأثور ، والقافية السليمة . ترى هذا وغيره ، وانحما فى رواياته الساحرة التى امتاز بها على أدباء

العربية جميعا ؛ سلامة لغة ، وبلاغة أسلوب ، وروعة معنى ، ودقة وقائع ، وبراعة حوار^(١) ، وحسن تقسيم للفصول ، واختيار للشخصيات . تراه فى مسرحية « كليوباترة » و « قبيز » و « على بك الكبير » و « مجنون ليلي » ... وهى روايات ممتازة أثبت بها شوقى نجاح الشعر العربى فى الميدان القصصى والتمثيلى ، وكذب بالفعل ما ادعاه الأديباء بالقول عن قصور شعرنا ، وعجزه فى ذلك الميدان

(١) ورد الحوار فى الشعر فى العصور الأدبية المختلفة ؛ ولكنه حوار سطحي قصير ، لا يتجاوز من القصيدة بعض أبياتها . يدور بين شخصين غالبا ، وعماده : « قال » « قلت » ... « قالت » ... ومن أمثله مادار بين أبى نواس وخماره (أى : صاحبة حانة) :

نَبَّهْتُهَا سَجْرًا ، والليل معتكِرٌ	والديك يَمْزُجُ تصفيقا بتصويت
فَأَوْجَسَتْ خيفةً منى ، وما شعرت	أنى طَرُوقَ لرباتِ الحوانيتِ
فقلت : لا تجزعى . قالت : حسبكم	طراقَ ليلٍ أرادونى لتببيتِ
وقلتُ : عندك خمْرٌ مُتَمَعِينَ بها	بِكِرٍّ ، وحظُّك عندى كل ماشيتِ ؟
قالت : أثبتَ المنى من عانسٍ عُصرتُ	فى الدن مذ صاحب اليَقْطِينِ والحوثِ
فقلت : ما إنْ لها غيرى . فكيف بها ؟	قالت : فَأَتَى بها ؟ قلت : لها إيتى
فَوَدَّجَتْ خَصْرَ دَنٍْ فى زجاجتها	فأبرزت خمرة فى لونِ ياقوتِ
فقلت : لما رأيت الشمس طالعة	تجلو الظلام — ألا ياخر حيتِ ... ؟

وهذا حوار — على حلاوته — ساذج . أين هو من حوار شوقى الذى لا قال فيه ولا قيل ، والذى يؤديه أشخاص مختلفون فى أبيات كثيرة ، أو بيت واحد ؛ مع لمصابة الغرض التمثيلى ، وإجادة المعنى ، وإحكام المناسبة ، وتسلل الفكرة ، واتصالها .

المسرحي^(١) . وهالك مشهداً من رواية كليوباترة يُسجل فيه موقف « أنطونيوس » حين جرح ، وموقف كليوباترة التي يحبسها الجريح .

كليوباترة وهي تخاطب أعوانها :

ما تَسْمَعُونَ ؟ أَصِيحُوا شَرٌّ ، وهذا بَرِيدُهُ

كان الضجيجُ بعيداً والآنَ يَدْنُو بَعِيدُهُ

حابي^(٢) : أَسَمِعْتُمْ ؟! ضجةٌ صاخبةٌ وجريحٌ ، وجنودٌ في الطريق .

هأُمُّ قَدْ دَخَلُوا الدَّارَ بِهِ

أنوبيس^(٣) : دَارُنَا الشَّاطِئُ لَا يَأْبَى الْفَرِيقُ

حابي : هَأُمُّ قَدْ حَضَرُوا

أنوبيس : يَا مَرْحَباً أَعَدُّوْا كَانَ أُمُّ كَانَ الصَّدِيقُ

كليوباترة : (وقد دخل جنديان يحملان أنطونيوس الجريح)

ويح عيني ماذا ترى ؟ ومن المَحْمُولُ كالسيفِ في الأَكْفِ خَضِيْباً ؟

أيها الجند ما بأيديكم اليوم ؟

جندي : جَرِيحٌ عَلَى الطَّرِيقِ أَصِيباً

كليوباترة : أَفَتَدْرُونَ مَنْ حَمَلْتُمْ ؟

جندي : حَمَلْنَا هَيْكَلًا عَزَّ فِي الرِّجَالِ ضَرِيباً

قد عرفناه خير من هَزَّ رُحْمًا ونَضَّا صَارِمًا ، ولأَقَى الْحَرْبَا

(١) وضعت في عصر النهضة الحاضرة روايات زمن شوقي وقبلة . ولكنها لم تبلغ من الجودة والإحكام إلا بعض ما بلغته الروايات الشوقية . ولا يزال الشعراء يحتذونها ، ويحاولون محاكاتها .

(٢) مساعد أمينة المكتبة الملكية . (٣) الكاهن الأكبر .

كليوباترة: آه أنطونيو!! حبيبي أدركوني بطبيب
ما تَرَوْنَ الأرضَ تَرَوِي من دَمِ اللَّيْثِ الصَّيْبِ؟

... ..

هذه لمحة يسيرة من مشهد واحد . فأما المشهد كله ، وأما الرواية كلها ،
والروايات الأخرى — فعجائب أدبية لم تشهد لها اللغة العربية قبل شوقي .
وليس في هذا الحكم مبالغة ولا إسراف ؛ بل هو الحق الصراح . نعم سبقه إلى
هذا آخرون فكانوا — بعملمهم — كالأقزام المهازيل إزاء المردة الجبارين .

* * *

(ب) ومن حيث الموضوع نراه — كالمُتَنَبِّى والأقدمين — نظم الشعر في تلك
الأغراض السبعة الماثورة ، وزاد سبعة أخرى ؛ هي : شعر الدُعابة والزرع ،
وشعر الأغاني الخاصة ، وشعر الأناشيد ، وشعر الحكايات ، والشعر الروائي
(الذي أشرنا إليه) وشعر الخصوصيات ، والشعر التاريخي الذي خص
به عظماء الإسلام .

نعم إن هذه السبعة الأخيرة قد عرفها الشعراء الأقدمون (إلا المتنبي)
ولكن ليس فيهم من أكثر منها ، وأفرد لكل غرض بابا خاصا ، وقسما
مستقلا من شعره ، تناولها بالبراعة والتجديد كما فعل شوقي .

وكان شوقي في السبعة الماثورة القديمة معتدلا ، إلا في الهجاء ؛ فقد تركه
أو كاد . وفي الوصف ؛ فقد أفرط فيه وزاد . وهو بهذا كله يخالف المتنبي في خطته ؛
فقد أفرط المتنبي في المديح إفراطا ذميا ، وزاد في الهجاء ، وقصّر في الوصف ،
وتصوّر الحياة تقصيرا شائنا ؛ أساء إليه وإلى رسالته الشعرية . وأهمل الدعابة

وبعض الأغراض السبعة الأخيرة ، فاستحق من أجل ذلك كله أن يلقب بالشاعر الذاتى . على حين يستحق شوق أن يلقب بالشاعر الإنسانى ؛ إذ لم يترك شأنا خطيرا فى بلاده ، ولا أمرا هاما فى أرجاء العالم — إلا ترجمه شعرا وجدانيا ، وموسيقى عاطفية ، وإليك تفصيلا مناسبا عن موضوعات شوق كالتفصيل الذى قدمناه لقرينه) .

كان شوق يبني قصيدته على غرض أساسى مُعين ؛ ولكنه لا يقتصر عليه إلا فى شعر الأغاني والأناشيد ، وبعض المراثى . أما ما عداها فله أغراض فرعية تقوم إلى جانب الغرض الأساسى :

(١) فقد يستهل قصيدته بالغزل — انتفاعا بمزاياه — ثم ينتقل منه إلى الغرض الذى أنشأ القصيدة من أجله . وهذا النوع قليل فى شعره عامة — والمتنبى أكثر التجاء إليه . كقصيدته فى مشروع « مانر » وقد رجع به أربعة من وفد المفاوضين المصريين ؛ ليعرضوه على البلاد ، ويستمعوا للآراء المختلفة فيه . ومطلعها :

اِنَّ عِيْنَ القلبِ ، واسْلَمَ بِهِ مِنْ رَبِّ الرَّمْلِ ، ومن سِرِّهِ
ومن تَشَنَّى الغيدِ عَنْ بانهِ مِنْجَةَ الأردافِ عَنْ كُنْهِهِ
ظِلْاوُهُ الْمُنْكَسِرَاتُ الظُّبَا يَعْلِيْنَ ذا اللَّبِّ عَلَى لُبِّهِ
إلى أن تحدث عن فؤاده قائلا :

ما خَفَّ إِلَّا للهوى والعُلاَ أَوْ : لجلالِ الوفدِ فى رَكْبِهِ
أربعةٌ تَجْمَعُهُمْ هِمَّةٌ يَنْقُلُها الجيْلُ إلى عَقْبِهِ
قَطَارُهُمْ كالقَطْرِ هَزَّ التَّرَى وَزَادَهُ خِصْبًا عَلَى خِصْبِهِ

وكهزيمته ، ونهج البردة (وهما في مدح الرسول) . وكثير من غزله الذى يفتح به قصائده - مصنوع ، فاتر الحرارة ؛ لأنه يسوقه محاكاة وتشبهاً بالأقدمين ، لاستجابة عاطفة مشبوبة ، ولا تلبية لوجدان ملتهب . على غير غزله فى أغانيه ؛ فأكثره مثال صادق للشعور المتدفق ، والحس المتوقد . وهو - فى كليهما - قد يجيء بمعان لم يعينها الشيوخ والابتدال ، وأخرى عابها التردد والامتهان .

(٢) وقد يستهل قصيدته بكاء للديار ، والوقوف على الأطلال والرسوم . وهذا أقل الأنواع عدداً فى شعره (والمتنبى أكثر فيه) كقصيدته بعد عودته من المنفى فى وصف الأندلس ، ووصف الغلاء بمصر .

أنادى الرسم ، لوملك الجوابا !! وأجزيه بدمى ، لو أنابا !!
وقل لحقه المستبرات تجرى وإن كانت سواد القلب ذابا
إلى أن قال :

وداعاً أرض أندلس ، وهذا ثنائى إن رضيت به ثوابا
وما أثبت إلا بعد علم وكم من جاهل أثنى فعابا
ثم قال :

ويا وطنى لقيتُك بعد يأس كأنى قد لقيت بك الشبابا
وكل مسافر سيثوب يوماً إذا رزق السلامة والإيابا
إلى أن قال :

أمن حرب البسوس إلى غلاء يكاد يعيدها سبعا صهابا ؟
وهل فى القوم يوسف يقيها ؟ ويحسن حشبة ويرى صوابا ؟
عبادك رب قد جاعوا بمصر أنيلا سقت فيهم أم سرابا ؟

(٣) وقد يتبدى القصيدة بموضوعها الخاص ، لا يقدم عليه شيئاً . وهذا أكثر من النوعين السابقين ؛ كقصيدته في الصحابة ، ومطلعها :

لسكلٌ زمانٍ مضى آيةً وآيةُ هذا الزمانِ الصحفُ
لسانُ البلادِ ، ونبضُ العبادِ ، وكهفُ الحقوقِ ، وحربُ الجَنَفِ

(٤) وقد يفتح القصيدة بإعلان خواطره الطارئة ، وما يشغل باله وبال الناس وقت نظمها من أحداث هامة عامة ، ثم ينتقل إلى الغرض المعين (وقد يعرض للخواطر مرة أخرى) كقصيدته في الذكرى السابعة عشرة لمصطفى كامل ، وقد جاءت والبلاد فريسة خلاف سياسى ، ونزاع حزبي عنيف - كما سبق - ؛ فبدأها بقوله :

إلامَ اختلفُ بينكم ؟ إلاما ؟ وهذى الضجةُ الكبرى علّاما ؟
وفيمَ يَكِيدُ بعضكمو لبعضٍ ؟ وتُبْدُونِ العداوةَ والخصاما ؟

إلى أن وصل إلى موضوع القصيدة فقال :

شهِيدَ الحقِّ ، فَمُ تَرَهُ يَتِيماً بَارِضَ ضُيْعَتٍ فِيهَا الْيَتَامَى
وَمَا أَنْسَاكَ فِي الْمَشْرِينَ لَمَّا طَلَعْتَ حَيَاهَا قَرّاً تَمَامَا
يُشَارُ إِلَيْكَ فِي النَّادَى ، وَتُرْمَى بِعَيْنَيْنِ مَنْ أَحَبَّ وَمَنْ تَعَامَى

فيبدو من هذا أن « شوقي » في استهلاله يحاكي القدماء ، وأنه والمتنبى سواء . ولكنه يخالف المتنبى في أمور أربعة :

أولها : أن استهلاله بالغزل ، والوقوف على الدمن والرسوم — قليل .

ثانيها : أنه لا يصدر قصائده بوصف متاعب الأسفار ، وتحمل المشاق ، وقطع الفياثى والقفار للوصول إلى ممدوحه أو غيره كما فعل المتنبى أحيانا

(ولعل سبب ذلك أن عصره لم يكن عصر أسفار شاقة ، ولارحلات مرهقة ، ولا صحارى مهلكة ؛ فقد زالت هذه المتاعب - أو كادت - بكشف البخار ، واختراع المحركات الآلية ، وذبوع الأمن ، وباقي الوسائل التى جعلت السفر متعة ونعما ، بعد أن كان عذابا وجحما)
نالتها : أنه - وإن حاكى الأقدمين فى مطالعهم ، ومعانيهم ، وأساليبهم - لم يعدم كثيرا من المعانى الطريفة الشائقة التى فاز المتنبى بقليلها دون كثيرها .

رابعها : أنه قد يبدأ قصائده بالحديث عن موضوعات عامة تشغل خواطر الناس .

* * *

هذا ، وفى الغرض الأساسى الذى يقوم عليه بناء القصيدة الشوقية ملاحظات نجملها فيما يلى :

(١) المديح :

نلاحظ فيه نوعين متفاوتين غاية التفاوت ؛ « أحدهما » ضعيف هزيل فى سائر مناحيه . وهو الذى ورد فى الديوان فى طبعته الأولى القديمة تحت عنوان باب المديح . وهو - على ضعفه وهزاله - كثير العدد ، وافر الأبيات ؛ فقصائده تربي على خمس وأربعين ، وكثير منها طويل النفس ، عديد الأبيات . « والآخر » قليل العدد لا يتجاوز تسعاً ، وردت فى الطبعة الثانية من الديوان ، ولم ترد فى الأولى . والمتأمل فى قصائد النوعين يجد التفاوت بينهما عظيماً « فالأولى » واهية اللفظ ، فقيرة المعنى ، عتيقة الفكرة ، جذبة الخيال ، فاترة العاطفة ، إذ يمدح بها الملوك والأمراء ممن اختاروه لهذا الأمر ، وأعدّوه ليكون شاعرهم الخالص الرسمى ؛ فجاءت مدائحه فيهم رسمية

كذلك . وإن شئت فقل إنها حكومية ؛ يؤدي بها واجب الوظيفة ومقتضياتها ، لا يدفعه دافع من شعور دفاق ، ولا وجدان متوثب . والأخرى أحسنُ حظاً من سابقتها ؛ فقد نالت نصيباً من اللفظ الحسن ، والمعنى الجيد ، وخطاً من الخيال الصنع ، والعاطفة المأسجة ؛ إذ لم تتجه للملوك ، والأمراء ؛ وإنما اتجهت للعظماء والأخيار ، وتحدثت عن خصائصهم ، وجلائل أعمالهم . ولم يلجأ فيها — إلا قليلاً — لتلك الأوصاف العامة التي تداولها شعراء المديح من أقدم عصورهم إلى اليوم ؛ وهي الأوصاف التي تكاد تنحصر في الشجاعة ، والسمو ، والجود ، والجمال . يرددونها لكل ممدوح ، ويرددون معها تشبيهاتها الماثورة : بالأسد ، وحاتم ، والقمر ... سواء أكان الممدوح جديراً بهذا الوصف أم غير جدير . وإن النصف ليقدر أن مدائح شوقي دون مدائح المتنبي في المعنى ، وقوة الأسلوب^(١) ، بل يرى أن التفاوت بينهما عظيم . ونولا مزية التخصيص التي أخذ بها شوقي لكان التفاوت أعظم . وإذا كان المتنبي من نشأته ويثمه ما ينهض عذراً أو ما يشبه العذر فإن مجال الاعتذار أضيقُ أمام شوقي . ولأمرماً أهل الديوان في الطبعة الثانية بعض المدائح التي حوتها الطبعة الأولى . وقد يكون ذلك لسبب سياسي ، أو : لأنه شعرُ الحداثة الذي لا تجويد فيه ولا إتيان ، أو : لأنه ينظم صاحبه في عداد المداحين ، ويسجل عليه أنه من المتكسبين بالشعر ، وهذا ما يفزع منه شوقي ، ومن كان مثله في النشأة والبيئة ، والغنى .

ولقد عرفنا أنه عاب على المتنبي إسرافه في المديح ، وكثرة قصائده في هذا النوع المصنوع ، ولكنه وقع فيما عابه عليه ، فبادر بحذف الكثير منه ، والإضراب

(١) هذا إن أغضينا عن عيوب المتنبي اللفظية .

عن المدائح بعد ذلك ، إلا قليلا خلا من التكلف ، وزانه الطبع والإتقان .
وقد يكون عذر شوقي في الإكثار المعيب أول حياته الأدبية أنه كان
صنيعة الخديوى توفيق ، وشاعره الرسمى ، وشاعر ابنه عباس بعده ؛
فلا مناص من امتداحهما ، وامتداح أسرتهما . والإشادة بهما في المناسبات
المختلفة ؛ رضيت نفسه أم سخطت ، واثته طبيعته أم خالفته ؛ فشأنه شأن
الموظف ، يؤدي عمله راضياً أو كارهاً . ومن هنا كان الإكثار المعيب ،
وضعف الفن الشعرى . وساعد عليهما عوامل من البيئة العامة وروح العصر ،
واستهلال الشاعر حياة أدبية لم تصقل بمزيد من القراءة ، والتجربة ، وفنون
الآداب المختلفة ، أجنبية ، وغير أجنبية . فلما تحرر الشاعر من قيود الوظيفة ،
ومن الاتصال الرسمى بالقصور الخديوية ، وانسعت تجاربه وآفاقه الأدبية ، ونهضت
البيئة — أفلح عن المديح ، وعزف عنه ، إلا إن أُجبرَ عليه لداعى مجاملة أوسياسة
— كما أشرنا — ؛ فيسوقه شعراً جامداً ، ونظماً مقهوراً ، يبدو عليه الفتور ،
والهزال ، والتهرب من وصف الممدوح إلى الكلام على أمور عامة تُشعرك
بأنه يفر من مدحه . وفي الندرة قد ينتهز مناسبة نبيلة ، أو عملاقاً نافعاً —
فيمدح صاحبها مدفوعاً بميل صادق ، وعاطفة بريئة من الملق والرياء ؛
فيجىء شعره صورة طيبة للفنِّ والافتنان ، وطاقاة من الرياض الأدبية
البديعة ؛ يُهديها إلى من يستحقها . وإليك نماذج من المهدين :

فن الأول قوله في مدح الخديوى عباس حلمى (وهو ابن الخديوى
محمد توفيق) :

بِعَبَّاسٍ عِشْنَا ؛ حِينَ لَا الْعِيشُ هَيِّنٌ وَحِينَ بَنُوهُ لَا جَمِيلٌ ، وَلَا حَمْدُ

وَرُبَّ كَثِيرٍ قَوْمُهُ ، وَهُوَ قَوْمُهُ
وَأَنَّ (ابْنَ تَوْفِيْقٍ) لَا كَرَمَ مِنْ سَرَتْ
فَتَى تَتَّقِيهِ فِي خَلَاتِقِهِ الْعِمْدَا
مُحِبُّكَ يَا خَيْرَ الْمُلُوكِ رَعِيَّةَ
فَأَنْتَ حَبِيبٌ ، وَاللَّيَالَى عَوَازِلُ
كُنَ الْبَدْرُ شَاوَا ، أَوْ : كُنَ ابْنُ مُحَمَّدٍ
وَقَوْلُهُ فِيهِ :

وَجَهَ عَبَّاسٍ ، وَجَهَ عَبَّاسٍ ، أَكْرَمُ
بِكَ ! أَكْرَمُ وَجَهَ الْهَدَى وَالرَّشَادِ !
كُلَّ يَوْمٍ فِي ذَا الْوَرَى لَكَ - حِلْمِي (٢) -
وَقَوْلُهُ فِيهِ :

فَتَّ النُّجُومَ الزُّهْرَ فِي طَلَبِ الْعَلَا
وَنَزَلَتْ فَوْقَ مَنَازِلِ الْأَقَارِ
وَضَهَرَتْ فِي شَرْقِ الْبِلَادِ ، وَغَرَبَهَا
كَالْشَّمْسِ مَظْهَرَ رَفْعَةٍ ، وَوَفَارَ
وَقَوْلُهُ فِي مَدْحِ الْخَلْدِيِّ تَوْفِيْقٍ :

لَكَ مَصْرُ يُجْرَى تَحْتَ عَرْشِكَ نَيْلُهَا
وَلَكَ الْبِلَادُ ؛ عَرِيضُهَا ، وَطَوِيلُهَا
أَنْتَ الْعَزِيزُ ، وَهَذِهِ مَصْرٌ ؛ فَلَا
عَجَبٌ إِذَا احْتَقَرَ الْبِلَادَ نَزِيلُهَا (٣)

(١) معنى البيت : من الناس من قومه كثيرون ولكن لا قيمة لكثرتهم إلا به ؛ فكأنه القوم . وقبيلة طى العربية المشهورة لم تشتهر إلا بقتام الكرم حاتم ؛ فإذا عددها فلا قيمة لأفرادها إلا به . (٢) يا حلمي .

(٣) معنى الشطر الثاني غريب ، أريد أن الأجنبي يحتقر بلاده حين يرى مصر وجلالها ومظاهر النعمة فيها ؟

آلت لجاهك بالرجاء مكارمٌ مُستكثرٌ عند الملوك قليلها
ومن الثانى قوله فى مدح أم الخديو السابق ، وتهنئتها بالعودة إلى مصر ،
زمن الملك فؤاد ، بعد غيابها سنوات طويلة ، فى بلاد الترك ؛ انتقل فيها
العرش المصرى إلى فرع آخر غير فرعها ؛ فلم تلق الحفاوة الرسمية وغير الرسمية
التي كانت تجدها أيام ابنها الخديو عباس :

يَأمِثِلًا للعَقِيَلَاتِ العُـلَا وَكَلَاً لِنِسَاءِ العَالَمِينَ
وَجَمَالًا نَزَلَتْ آيَتُهُ مِنْ حِجَابِ اللَّهِ ، وَالْحَصَنِ الْحَصِينَ
مَلَكْتُ نَفْسِكَ حَتَّى سَمِئْتُ ضَجَّةَ الْمَلِكِ ، وَهَمَّ الْمَالِكِينَ
رَبِّ يَوْمٍ عُدْتُ فِيهِ مِنْ (مَنَى) وَمِنْ (الْخَيْفِ) ، وَمِنْ دَارِ «الْأَمِينِ»
مَنْ دَنَا مِنْ رَكْبِكَ الْعَالِي بِهِ أَبَ فِي الْقَرْيَةِ مَعْدُومِ الْقَرِينِ
نَسِيتُ رَوْعَتَهُ فِي بَلَدٍ كُلِّ شَيْءٍ فِيهِ يُنْهَى بَعْدَ حِينٍ
لَا تَرَوِي غَيْرَ شَعْرِي مَوْكِبًا إِنَّ شَعْرِي دَرَجَاتُ الْخَالِدِينَ
أَقْبَلِي ؛ أَحْسَنَ دُنْيَا أَقْبَلْتُ لِبَنَى الْأَمَالِ ، فِي أَحْسَنِ دِينٍ
أَقْبَلِي ؛ صَبَحًا لَأَنْضَاءِ الشَّرَى وَسَمَاءٍ لِلْعِجَافِ الْمُسْتَنِينَ
أَقْبَلِي ؛ كَالشَّمْسِ لَمْ تَجْعَلْ لَهَا مَوْكِبًا ، أَوْ تَتَخَذُ مِنْ حَاشِرِينَ
أَقْبَلِي كَالشَّمْسِ رَاقَتْ فِي الضُّحَا ثُمَّ رَاعَتْ فِي الْأَصِيلِ النَّاطِرِينَ

وقوله فى الجراح المصرى الكبير « على باشا إبراهيم » :

على ، لقد لَقِيتُكَ الْبِلَادُ بِأَسَى الْجِرَاحِ . وَنِعَمَ الْقَبْ !!
سَلَاخُكَ مِنْ أَدْوَاتِ الْحَيَاةِ وَكُلُّ سَلَاخٍ أَدَاةُ الْعَطْبِ

ولفظك بنج ، ولكنه لطيف الصبا في جفون العصب
 أنامل مثل بنان المسيح أوامى الجراح ، مَوَاحِي الثَّدْبِ
 تعالجُ كفاك بؤس الحياة ؛ فكفَّ تدَاوِي ، وكفَّ تَهَبِ
 كأنك للموت موتٌ أنيحَ فلم يرَ وجهك إلا هَرَبِ

ومن ذلك قوله في « محمد طلعت حرب باشا » المؤسس الأول لأكبر
 مصرف وطني حديث . (بنك مصر) وكان نجاحه في تأسيسه ، وتأسيس
 شركاته ، واطراد نموها — معجزة مصرية ؛ قوامها الصبر ، والحزم ، وإصابة
 الرأي ، ودقة العمل ، والجراة في غير استهتار :

شَرَفًا « محمد » هكذا تُبْنَى العلا ؛ بالصبرِ آوَنَةً ، وبالإقدامِ
 هَمُّ الرجالِ إذا مضتْ لم يَثْنِها خُدْعُ الثناء ، ولا عَوَادِي الذَّامِ
 المالُ في الدنيا منازلُ نُقْلَةٍ من أين جِئْتَ له بدار مقام ؟
 فرفعتَ إيوانًا ؛ كرُكْنِ النجمِ ، لم يُضْرَبْ على كَمْثَرِي ، ولا بهرامِ
 صَيَّرَتْ طينته الخلود ، وجِئْتَ من وادي الملوك بجندلٍ ورغامِ
 هذا البناءُ المبقرُّ أُنِيَ به بيتٌ له فضلٌ ، وحقُّ ذِمَامِ
 كانت به الأرقامُ تدركُ حِسْبَةً واليومَ جاوزَ حِسْبَةَ الأرقامِ
 يا طالما شَغَفَ الظُّنونَ ! وطالما كَثُرَ الرجاءُ عليه في الإلمامِ !
 ما زلتَ أنتَ وصاحبك بركنِهِ حتى استقام على أعزِّ دعامِ
 أَسْتَتُمُو بالحاسدين جِدَارَهُ وبنيتمو بمعاول الهُدَامِ
 شركائك الدنيا العريضة لم تُنَمَلْ إلا بطول رِعايةٍ ، وقِيَامِ

اللَّهُ سَجَّرَ لَكِنَانَهُ خَازِنًا أَخَذَ الْأَمَانَ لَهَا مِنَ الْأَعْوَامِ
وَكُنَّ عَهْدُكَ عَهْدُ يُوسُفَ ؛ كُلُّهُ ظِلٌّ ، وَسُنْبُلَةٌ ، وَقَطْرُ غَمَامٍ
وَكُنَّ مَالُ الْمُودِعِينَ وَزَرْعُهُمْ فِي رَاحَتِكَ وَدَائِعُ الْإِيْتَامِ
مَا زِلْتَ تَبْنِي رُكْنَ كُلِّ عَظِيمَةٍ حَتَّى أَتَيْتَ بِرَابِعِ الْأَهْرَامِ
إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَشِيعُ فِي دِيَوَانِهِ ، وَمِنْ أَمْلَقَتِهِ قَصِيدَتُهُ فِي مُحَمَّدٍ عَلَى
الْكَبِيرِ وَمُطْلَعُهَا :

عَلِمْتُ أَنْتَ فِي الْمَشَارِقِ مَفْرُودٌ لَكَ فِي الْعَالَمِينَ ذِكْرٌ مُخَلَّدٌ
وَقَصِيدَتُهُ فِي الْخَدِيوِ إِسْمَاعِيلِ وَمُطْلَعُهَا :

حُلُمٌ مَدَّةُ الْكَرَى لَكَ مَدًّا وَسُدَى تَرْجَمِي لِجُلُوكِ رَدًّا
وَلَقَدْ كَانَ « شَوْقِي » مَسْرُوفًا مَبَالِغًا فِي الثَّنَاءِ عَلَى مَدْحِيهِ أَوَّلَ عَهْدِهِ بِالشَّعْرِ
فَلَمَّا نَضَجَ اعْتَدَلَ ، وَقَالَ أَنْ تَقْرَأَ لَهُ مِثْلَ قَوْلِهِ فِي الْمَلِكِ فُوَادٍ :
اللَّهُ أَكْبَرُ يَا بْنَ إِسْمَاعِيلَ ! لَمْ تَتْرِكْ لَصْنَانِ الْمَآثِرِ مَفْخَرًا

فَمِنْ الْحَقِّ أَنْ نُسَجِّلَ عَلَى مَدَائِحِهِ — بَعْدَ عَهْدِ الْحِدَاثَةِ — اقْتِصَادَهَا
فِي الثَّنَاءِ ، وَتَجَافِيهَا عَنِ الْمُبَالَغَاتِ الْمُسْرِفَةِ الَّتِي كَانَ يَلْجَأُ إِلَيْهَا الْمُتَنَبِّى وَأَشْبَاهُهُ
الْمَدَاحُونَ . بَلْ إِنْ شَوْقِي لِيَلْجَأَ أَحْيَانًا إِلَى بَعْضِ نِقَائِصِ الْمَدْحِ ، وَيَوْمِي إِلَيْهَا
فِي مَهَارَةٍ ، وَلِبَاقَةٍ ، وَحَسَنِ تَلْطُفٍ ؛ لِيَكُونَ ذِكْرُهَا عِظَةً وَإِرْشَادًا ، وَيَكُونَ
الشَّعْرُ صَادِقًا نَافِعًا . اسْتَمِعَ إِلَيْهِ يَقُولُ لِلْخَدِيوِ إِسْمَاعِيلِ الَّذِي انْدَفَعَ بِمَصْرَ
إِلَى طَرِيقِ الْمَدِينَةِ انْدَفَاعًا لَا هَوَادَةَ فِيهِ وَلَا تَرِيثَ ؛ فَتَمَثَّرَتْ ، وَزَلَّتْ بِهَا
الْقَدَمُ زَلَّةً جَعَلَتْ الدُّوْلَ الْأُورُبِيَّةَ تَقِفُ فِي وَجْهِهِ ، كَمَا وَقَفَتْ فِي وَجْهِ جَدِّهِ
الْأَكْبَرِ مُحَمَّدٍ عَلَى ، وَتَعْمَلُ عَلَى عِزْلِهِ ، وَإِنْزَالِهِ عَنْ عَرْشِ مِصْرَ ، وَتَمُدُّ
أَصَابِعَهَا فِي الشُّؤْنِ الْمِصْرِيَّةِ الصَّيِّمَةِ :

يا كبيرَ الفؤادِ ، والهمُّ ، والآ
 لم تكنْ حِقْبَةُ أَسَاسَاتِ (علما) في جَنَى عُمرِهِ لِيَحْفَظَ وَدًّا^(١)
 خَذَلْتُ مِنْهُ وَاحِدَ التُّرْكِ ، والعُرُ بَ ، وسامت سيفَ المِشَارِقِ غِذَا
 لا غراما بحاسديه ؛ ولكن رَهْبًا أن يبلُغَ الشَّرْقُ قَصْدًا
 ولأنتِ ابْنَه الذَّكِيُّ : فهَلَّا جثت بالطلَّبةِ الطَّريقَ الأَسَدَا
 فَتَأَنَّبْتِ ، وَالتَّائِي فَلَاحٌ وهو يا نَاقِبَ النِّهي - بك أَجْدَى
 وَحِمَتِ الأَيْدِي العَوَاتِي أن تد نو ، وأن تعْتَلِي وأن تَتَصَدَّى
 بالفت بعد لينها لك في العُسر رِ وصار الوعيدُ ما كانَ وَعْدَا
 وإذا العَصْرُ والملوكُ خصومٌ لك ، والنَّاسُ والمحبونُ أَعْدَا^(٢)
 ففركت السريرَ مضطربَ الأَحْوالِ ؛ من نَأَى رَبِّه ، ليس يُهْدَى
 (ب) الهجاء :

صرح شوقي أنه هَمَّ بالهجاء حينما ولم يفعل ، وأن نفسه راودته إليه فلم يجبها ؛
 صَفًا بِالْكَرَامَةِ ، وحرصًا على حميد الخلال . سجل هذا في حديث بينه
 وبين غادة كانت تسأله عن أمور مختلفة :

قالت : كَأَنِّي بالهجاء قِلَادَةٌ سارت . فقلتُ : هَمَّتُ ، ثم تركتُه
 أَخَذْتُ بِهِ نَفْسِي ؛ فقلتُ لها : دَعِي ما شئتِ الأَخْلَاقُ ؛ لا ماشئتُه
 من رَاحَ قَالَ الهَجَرَ ، أو نطق الخلفاء هَذَا بَيَانِي عَنْهُمَا تَرْهَاتُ

(١) أى : أن الزمن الذي لم يحفظ الود لأبيك محمد على لا ينتظر منه أن يحفظ الود لله .
 (٢) أعداء .

اللهُ عَلَّمَنِيهِ سَمَحًا طَاهِرًا نَزَّةَ الْخِلَالِ . وَهَكَذَا عَلَّمَتْهُ
ويقول عن ابن زيدون : إنه ترك الهجاء تأديبا ؛ لأن الشاعر النبيل لا يهجو ،
وإلا كان كمن يدس العقارب لمن يشم الرياحين ؛ استمع إليه يصف
ابن زيدون بأنه :

بُرْسِلُ	الْحَنَ	كَلَّةُ	مُبْدِعًا فِيهِ ، مُغْرِبًا ^(١)
أَحْسَنُ	النَّاسِ	هَاتِفًا	بِالْفَوَانِي ، مُشَبِّهًا
وَنَزِيلُ	الْمُتَوَجِّهِ	نَ ،	النَّدِيمِ ، الْمُتَرَبِّبَا
كَمْ	سَقَاهُمْ	بِشَعْرِهِ	مِذْحَةً ، أَوْ تَعَقَّبَا
وَمَنْ	الْمَدْحِ	مَا جَزَى	وَأَذَاعَ الْمُنَاقِبَا
وَإِذَا	الْهَجْوُ	هَاجَهُ	لِمَعَانَاتِهِ أَبَى
وَرَأَهُ	رَذِيلَةً	لَا تَمَاشِي	التَّأْدُبَا
مَا رَأَى	النَّاسُ	شَاعِرًا	فَاضِلَ الْخَلْقِ طَيِّبَا
دَسَّ	لِلنَّاشِئِينَ	فِي	زَنْبَقِ الشَّعْرِ عَقْرَبَا

فهو بهذه الأبيات والتي قبلها ، يكشف عن رأيه في المدح والهجاء .
على أن التأمل ديوانه يصادف أنواعا ثلاثة من الهجاء الأدبي الهين ، المُبْرَأُ
من الإقذاع والإسفاف :

أولها : أبيات قلائل متفرقة خِلَالِ موضوعات مختلفة ؛ يذم بها فردا أو جمعا
أسماء إليه من غير أن يذكر أسماء ، ولا أوصافا تدل على شخص بعينه .
ذلك أن الهجو الصريح يفتح باب الملاحاة ، ويوقظ الشر ، أو يزيد ،

(١) يأتي بغريب الكلام وعجيبه ونوادره .

وَيُنَمِّي القطيعة . والخير كله في ذم العيوب نفسها ، وكشف آثارها ؛
ليتوقاها الناس ، من غير تعرض لأسماء أصحابها تعرّضاً يجافي كريم
الخلق ، ويُدْنِي إلى الضمة ، ويُدخل الهجاء في عِدَادِ السوق . ومن أمثلة
هذا النوع قوله بعد عودته من منفاه في الأندلس ؛ يخاطب تلك البلاد
ويمدحها ، وبذكر حسّاده ، وأعدائه الذين كادوا له ، وظاهروا على
إخراجه من وطنه ، ونفيه لتلك الأصقاع :

شَكَرْتُ الْفُكْكَ يَوْمَ حَوَّيْتُ رَخْلِي فَيَا لِمَفَارِقِ شَكَرَ الْغُرَابَا !!
فَأَنْتِ أَرْحَتَنِي مِنْ كُلِّ أَنْفٍ كَأَنْفِ الْمَيْتِ فِي النَّزْعِ انْتِصَابَا
وَمَنْظَرِ كُلِّ حَوَّانٍ يَرَانِي بَوَجْهِ كَالْبَغْيِ ؛ رَمَى الْفُقَابَا
وَلَيْسَ بِعَاصِمٍ بَنِيَّانُ قَوْمٍ إِذَا أَخْلَقُهُمْ كَانَتْ خُورَابَا
وهذا يدخل في عِدَادِ الهجاء الذاتي الهين ، إذ لم يفصح عن أسماء .
ولم يبلغ في المكثرة والعنف معشار ما بلغه عند المتنبي أو غيره من المجانين .
ثانيها : قصائد يهجو بها صفوة رفاقه ، فيجيب هو إلى الدّعاة والفكاهة أقرب .
بل هو نوع من المزح المحبب ، لم يعرفه المتنبي . وفيه أمارات من حسن الصناعة ،
وجمال المعاني ، وسمات التجديد المستملحة . كقصائده المعنونة بعنوان :
« محجوبيات ^(١) » : والتي يقول في واحدة منها :

بِرَاغِيثُ مَحْجُوبٍ لَمْ أَنْسَهَا وَلَمْ أَنْسَ مَا طَعِمْتُ مِنْ دَمِي
تَشَقُّ خَرَاطِيمُهَا جُورِي وَتَنْفُذُ فِي اللَّحْمِ وَالْأَعْظَمِ
تُرْحَبُ بِالضَّيْفِ فَوْقَ الطَّرِيقِ فَبَابِ الْعِيَادَةِ ، فَالسَّلَمِ
قَدْ انْتَشَرَتْ جَوْقَةٌ ^(٢) جَوْقَةٌ كَمَا رُشَّتْ الْأَرْضُ بِالسَّمَمِ

(١) يوجهها لصديقه الدكتور محجوب بك ثابت (كما سبق) . (٢) جاعة .

وترقصُ رقصُ المَوَاسِي الحِدَادِ على الجَلَدِ ، والعلَقِ ^(١) الأسحم
وقوله فيه ، وفي دنائيره التي بلغت ألفين :

يا هَلْ تُرَى الْأَلْفَانِ وَقَفٌ لَا يُمَسُّ ، وَحَرَمٌ
« بنك السعيد ^(٢) » عليهما حتى القيامةِ قَسِيمٌ
« لاشيك » يظهرُ في « البنو كِ » ولا « حِوَالَةَ » تُخَصِّمُ
وأَعَفٌ مَنْ لَا قِيَتَ يَلْقَاهُ فَلَا يَتَكَرَّمُ

ثالثها : قصائد فيها شيء من القسوة والإيلام يوجهها إلى من أساء للوطن ،
وما لآ أعداءه ، أو تَوَانَى في إنهاضه . وهو في توجيهها ، والإيلام بها —
نزيه الغاية ، شريف المقصد ؛ إذ لا يوجهها لأرب خاص ، ولا هوَى
مَرِيب . على أنها — بالرغم مما فيها من إيلام وتجريح — أشبه بالعتاب
القاسى منها بالهجاء المرّ ؛ كقصيدته في وداع « اللورد كرومر » المندوب
البريطانى في مصر ، وكان طاغية جبارا ؛ فنقته حكومته استجابة
للمصريين ، الناقمين عليه . وأقيم لتوديعه حفل كبير بدار « الأوبرا »
حضره الأمير حسين كامل (الذى صار سلطانا بعد) وخطب فيه بعض
المصريين خطبة ضافية ، أثنى فيها على الإنجليز واللورد ، وأشاد بفضلمهم
على مصر ، وعظيم أياديهم . ثم وقف (اللورد) يردّ على الخطباء ،
ويشكر المودعين ، فأفليت منه زمام القول ، وانطلق يعيب مصر والمصريين ،

(١) نوع من الدود الأسود الطويل يوضع على الجلد ليتمص الدم الفاسد . أى : أن تلك
البراغيث ترقص على الجلد كالعلق .

(٢) يريد « بنك » إبراهيم سعيد باشا ، أحد المصارف المصرية بالقاهرة .

فانبرى له شوقى ؛ يَرُدُّ عليه ، ويُعرِّضُ بمن حضر من كبار المصريين
الذين استمعوا إلى السبِّ والطعن ساكتين :

أيامكم ، أم عهد إسماعيل ؟ أم أنت فرعون يسوس النيل ؟
أم حاكم فى أرض مصر بأمره لاسائلا أبدا ، ولا مسئولا ؟
يا مالكا رِقَّ الرقابِ بيأسه هلا اتخذت إلى القلوب سبيلا ؟
لما رحلت عن البلاد تشهدت فكأنك الداء العيَّاه رجلا

... ..

فى ملب^(١) للمضحكات مُشيد متلت فيه المبكيات فصولا
شهد (الحسين)^(٢) عليه لعن أصوله وتصدَّر الأعمى^(٣) به تطفيل
جُبْنُ أفلَّ وخطَّ من قدرَيهما والمرءُ إن يجبن يعش مردولا
لما ذكرت به البلادَ وأهلها مثلت دَوْرَ مماتها تمثيلا
أنذرنا رِقًّا يدوم ، وذلة تبقى ، وحالا لا ترى تحويلا
أحسبت أن الله دونك قدرة لا يملكُ التغيير والتبديلا
فرعونُ قبلك كان أعظم سطوة وأعزَّ بين العالمين قبلا
اليوم أخلفت الوعودَ حكومة^(٤) كنا نظن عهدَها الإنجيلا

(١) هو : دار الأوبرا الملكية للتشيل والفناء . (٢) الأمير حسين كامل .

(٣) الشيخ عبد الكريم سلمان أحد كبار العلماء الأزهرين فى عصره ، وقد كف بصره آخر حياته ، أو كاد .

(٤) يشير إلى وعود الحكومة الإنجليزية عقب الاحتلال بأنه احتلال مؤقت ، وسيزول سريرا .

دَخَلْتُ عَلَى حُكْمِ الْوَدَادِ وَشَرِّهِ مَصْرًا؛ فَكَانَتْ كَالسَّلَالِ^(١) دُخُولًا
هَدَمْتُ مَعَ الْمَهْمَا، وَهَدَّتْ رُكْنَهَا وَأَضَاعَتْ اسْتِقْلَالَهَا الْمَأْمُولَا

... ..

وكقصيدته في أحد رؤساء الوزارات المصرية (مصطفى رياض باشا)
وقد خطب في افتتاح مدرسة محمد علي الصناعية بالإسكندرية خطبة أثنى فيها على
العميد البريطاني (اللورد كرومر، وكان حاضرا) وكال له المديح بغير حساب،
فقال شوقي : —

كبيرَ السابقين من الكرامِ ، برغمي أن أنالكَ بالسلامِ
مقامك فوقَ ما زعموا ، ولكنْ رأيتُ الحقَّ فوقك ، والمقامِ
لقد وجدوك مفتونا ؛ فقالوا : خرجتَ من الوقارِ ، والاحتشامِ
وقال البعضُ : كيدُكَ غيرُ خافٍ وقالوا : رميةٌ من غيرِ رامِ
وقيل : شططتَ في الكفرانِ ؛ حتى أردتَ المنعمينَ بالانتقامِ
غمرتَ القومَ إطرَاءً وحمداً وهم غمروك بالنعَمِ الجسامِ
رأوا بالأسفِ أنفَكَ في الثريا فكيف اليومَ أصبحَ في الرغامِ ؟
أما والله ما علموك إلا صفيرا في ولائكَ ، والخصامِ
إذا مالم تكن للقول أهلاً فمالك في المواقفِ والكلامِ ؟
خطبتَ ؛ فكنتَ خطيباً ، لا خطيباً أضيفَ إلى مصائبنا العظامِ
لهجتَ بالاحتلالِ وما أناهُ وجرحك منه - لو أحسستَ - دامِ

وهذا النوع الأخير من الهجاء لم يكن شوقي يلجأ إليه إلا في الندرة ؛
رعاية لحرمة الأخلاق ، وتجنباً لإذاعة السوء . وما كان يصطنعه إلا مدفوعاً

بحافز عام نبيل ، ولا يكون فيه مُسِفًا ولا مُقَدِّعًا كما كان المتنبي ؛ لاختلاف طبيعة الشاعرين ، وتباين الدافع ، والفرص عند كل منهما . على أن هذا الهجاء ليس فيه شيء من النمط الأدبي العالي ، ولا الفن الرائع ؛ بل هو كشعره في الطور الأول ؛ ساذج ، يسرد العيوب — كما يسردها سائر المنقذين — في كلام إن سحت لفته لم تَدَسَّامَ عبارته ومعانيه ؛ فهو يقول في قصيدة كرومر :

هلا اتخذت إلى القلوب سبيلا ؟ كأنك الداء العيَاء . وتصدر الأعمى به تطفيلًا . أحسبت أن الله دونك قدرة . فرعون قبلك كان أعظم سطوة .

ويقول لرياض باشا : غمرت القوم بالإطراء وهم غمرك بالإحسان . كان أنفك في الثريا فصار في الرغام . مادمت لا تحسن القول فلم تحظب ؟ لقد كنت خطبا علينا . وهذه ألفاظ وأساليب ومعان قد توصف بالسلامة والسلاسة والوضوح ، ولكنها لا توصف بالطرافة ، والبراعة ، وجيل التعمق . وهو من هذه الجهة شبيه بالمتنبي . غير أن المتنبي قد يكون إلى الطرافة والقوة اللفظية والمعنوية أقرب ، وإن كان إلى الإسفاف والإقذاع أميل . وليس في ترفع شوق عنهما ما يشفع له في إهمال الفن العالي ، والبراعة المحبوكة ؛ فن الهجاء ما هو أخرج من السيف ، وأقتل من السم ، من غير تهافت إلى ألفاظ العامة ، وكناياتهم ، وتصريحاتهم . وكذلك كان يفعل ابن الرومي ، وبشار ، وأضرابهما في كثير من الأهاجي الأدبية . وكان الظن بشوقي أن يسبقهما في هذه الطريقة الفنية ؛ لما أتيح له من وسائل وأسباب لم تهَيَّأ لشعراء العصور النابرة

فشوقي — إذا — ليس من الهجّاءين بفنّه ، ولا بعدد قصائده الهجائية . (أو ليس في عداد الهجّاءين كيفًا وكما — كما يقولون) وهذا مما يعاب عليه

قطعاً ؛ فإن إهمال الهجاء ، أو التقصير فيه — إهمال وتقصير في غرض أدبي تدعو الحاجة إليه كما ندعو إلى سائر الأغراض الأخرى ؛ فن الأحداث الوطنية ، والجرائم السياسية ، وغير السياسية — ما يفرض على الشاعر أن يسجله في شعره ، ويدفع الطغاة الخائنين والمُعَوِّقين بهجائه ؛ ليكونوا عبرة وذكري ، وليتمتع الأدباء والمتأدبون بهذا النوع الفني كما يتمتعون بغيره من بقية الفنون الأدبية . فلا عذر لشوق في أن يتحاشى هذا الميدان ؛ تورعاً أو تقصيراً . ولا يفييه من التبعة الثقيلة أن يتعلل بالأخلاق ؛ فالهجاء النزيه ، البريء من الهوى المشوب ، والمطعم الذميم — ليس إلا غرضاً نبيلًا ، يساير الخلق الكريم ويؤاخي السجاياء الحميدة ، وقد استمع إليه الخلفاء ، والآئمة الأبرار ، واستعانوا به في محاربة الرذيلة . بل استمع إليه الرسول عليه الصلاة والسلام ؛ ودعا شاعره حساناً للردِّ على الكفار ومهاجاتهم

والحق أن ساحة المذرامام شوق ضيقة . ولعل خشى العقاب فآثر السلامة وكان في استطاعته أن يسجل الأحداث الهامة ، ويذم القبيح منها ، ومن آثارها ، والمتصلين بها — من غير أن يصرح بأسمائهم وأوصافهم التي توضح ذواتهم ، مكفياً بالتلويح المُبْهَم ، والرمز الغامض ؛ كما فعل في النوع الأول فيرضى بذلك نفسه التي تخشى العواقب ، ويرضى الأدب والأدباء الذين يتهمونه بالتقصير ، ويتخذ هذه المنزلة وسطاً بين الكمال والإهمال .

ولعل خير الأنواع الثلاثة التي سلكها شوقي هو النوع الثاني ؛ ولكنه أدخل في باب آخر — كما سبق — وأبعد مما نحن فيه .

(ح) الرثاء :

اقتصرت الجزء الثالث من ديوان شوقي على المرأى ؛ فيه تسع وخمسون مرثية ، سجل فيها مآثر العظماء ، ومجد النابغين ، وخلد ذكراهم بما اشتهروا به في نواحي الحياة السياسية ، أو الحربية ، أو العلمية ، أو الأدبية ، أو الفنية . . . لم يحفره لذلك إلا نبوغهم ، وعظمتهم ، وما قدّموا من خير عام لبلاדם ، أو للإنسانية جمعاء ؛ فلم يقتصر على عظماء بلاده ونابغها ، بل اتجه وجهة عامة ؛ لاتفرق بين شرق وغرب ، ولا تميز بين إمام سباق وآخر ، ولا تتأثر في التمجيد بقراية ، أو جنس ، أو لغة ، أو وطن ، أو دين . فبينما تراه يرثي شاعر النيل وإسماعيل صبرى تراه يرثي شكسبير وهيجو . وبينما تسمعه يتحدث عن عبده الحمولى وعبد الحى تسمعه يتحدث عن فرداى . ويتكلم عن محمد عبده كما يتكلم عن تولستوى . ويذكر مصطفي باشا فهمى ؛ ورياض باشا ، ومصطفي كامل باشا ، وسعد باشا ، وعثمان غالب باشا ، والمنفلوطى ، كما يذكر طرّس غالى باشا ، وجورج زيدان ، ومولانا محمد على ، ومحمد تيمور ، ويعقوب صروف ، والدكتور فؤاد ، وأمّ الحسنيين . . .

وقد يرثي بعض أقاربه الأقربين ، أو بعض الذين تهدوه في نشأته الأولى ، وأغدقوا عليه من الأسرة المالكة وأشباهها ؛ وهذا وفاء ختم ، ودين واجب السداد . ولكن وفرة مراثيه بعد هذا لم تكن لقراية ، أو صلة خاصة ؛ وإنما كانت تقديرا للمجد ، وتسجيلا للمحامد ، والعظمة . (إلا قليلا من القصائد كان فيه مجاملا ، أو مسابرا هووى غيره) ولم يقع فيما وقع فيه المتنبي من الخضوع لشهوة المطامع ، والتأثر بدواعيها . ومن هنا تدفقت مراثيه

(فى طوره الثانى) لوعةً صادقة ، وزفرات ملتهبات . وفوق هذا فرائيه لم تركن إلى تلك الأوصاف العامة ، والنوعوت المهمة التى لجأ إليها المثنبى — وغيره — وهى التى تصلح لكل رثاء ، ولكل ميت ؛ تقال لهذا كما تقال لذلك ، وتخلع عن شخص لتسبغ على آخر ، كأنها ثياب الإعارة ، ليس لها وصف معين ، ولا تحديد مضبوط ، ولا شرائط خاصة ؛ بل كل ما يراعى فيها أن تصلح للراغبين جميعا ؛ وإن اختلفت جسومهم طولا ، وقصرا ، وسمنة ، وهزالا ... وما مثلها إلا كملك المدائح المهمة ، الغامضة ، التى تساق للأحياء جميعا من غير تفرقة بين الممدوحين ؛ فيوصفون بالشجاعة ، والكرم ، والجمال ، وأشباهها ... ويوصفون بها بعد الممات فى المراتى .

صان شوقى مرأتى الطور الثانى عن هذا العيب ، واعتمد فى التأبين على الصفات المُمَيِّزَة ، والخصائص الفردية التى تبرز المرثى وحده ، وتظهر حقيقته دون اشتراك ؛ فكأنها الصورة الشمسية لا تشترك مع صاحبها أحدا ، ولا تخطئ بين سَمَاتِهِ وسَمَاتِ غيره . إنه يستجمع أجزاءها من تاريخ صاحبها ، ويستلهم ذلك التاريخ وحده ؛ فيلهمه السداد . هذا إلى صفاء الألفاظ ، ونقاء الأسلوب ، وطرافة المعانى ، والتفنن فيها ، وربط الحوادث بالخصائص ، واستخلاص العبر والعظات . ولولا اقتصاده فى الخصائص ، وإلمامه بها فى خفة وإسراع — لكان الرأى الفرد ، أمامك قصائده فى والدته ، وفى إسماعيل صبرى ، وفى مصطفى كامل ، وفى عمر المختار ، وفى أم الحسين ، و ... و ... إنها خير مصداق لما أقول . تَمَلَّ أبياتها ، ولا تكثف عن بعض ببعض — تسمع الرثاء الحق ، والفن العجب . استمع إلى قصيدته فى رثاء العالم القانونى الأملح

« عبد الحميد أبوهيف بك » صاحب المقالات الذائعة التي كشف بها عن أخطار المشروع الإنجليزي المسمى : مشروع « ملنر » وهتك أسرارها التي خفيت على كثير من المتصدرين للقانون ، وشئون السياسة المصرية ؛ فنجى البلاد من بلاء عظيم . كان ذلك العالم أعرج ، ذا مشية خاصة تفرضها آفته فقال شوقي :

اجعل رِثاءك للرجال جزاء	وابعثه للوطن الحزين عزاء
إن الديار تريقُ ماء شـثونها	كالأمهات ، وتندبُ الأبناء
تُكلُّ الرجال من البنين ، وإنما	تُكلُّ الممالك فقدها العلماء
يجزعن للعالم الكبير إذا هوى	جزع الكتائب قد فقدن لواء
علمُ الشريعة أدركته شريعة	لموت ينظم حكمها الأحياء
بالأمس كانت « لابن هيف » غيبة	للحق نذكرها بدءاً بيضاء
مشت البلادُ إلى رسالة « مانر »	ونحفزت أرضاً لها ، وسماء
فلمحت أعرج في زوايا الحق ؛ لم	أعلم عليه ذمة عرجاء
ارتدت العاهات عن أخلاقه	لسموهن ، وحلت الأعضاء
عطفته عطف القوس يوم رماية	ونذته كالماضي ؛ فزاد مضاء
لما رأى « التقرير » ^(١) ينفث سمة	سبق الحواة ؛ فأخرج الرقطاء
هتك الحامية ، والرجال وراءها	يتلمسون لها الستور رياء

(١) يريد به تقرير « ملنر » أى : مشروعه وقد وصفه بأنه كالأنى اللينة الناعمة في مظهرها ؛ الفتاة في حقيقتها ، المختبئة في جحرها ، تنهز الفرص للفتك ونفث السموم . نجاء الحاوى (أبوهيف) فأخرجها من مكمنها ، وقضى على شرورها .

واستمع إليه في رثاء الشهيد الوطني^(١) ، والزعيم الفذ في تضحية ماله ،
وأهله ، ودينياه ، وحياته من أجل استقلال بلاده : « محمد فريد » :
فريد ، ضحايانا كثيرٌ ؛ وإنما بحال الضحايا أنت فيه فريد
فما خلف ما كابدت في الحق غايةً ولا فوق ما قاسيت فيه مزيد
تغربت عشرًا ؛ أنت فيهن بئس تجوع ببلدان ، وتقرى بغيرها
ألا في سبيل الله والحق طارف من المال ، لم تبخل به ، وتليد
وجودك بعد المال بالنفس صابرًا إذا جزع الحضور ، وهو يجود
فلا زلت تمثلاً من الحق خالصاً على سيرة نبي العلا ، ونشيد
يُعلمُ نَسْء الحى كيف هوى الحى وكيف يحامى دُونُهُ ، ويدودُ ؟

.....

وقوله في سعد زغلول الزعيم الوطني الأكبر ، والخطيب المشهور :
يا عدوَّ القَيْدِ ، لم يلح له شبحاً في خطّةٍ إلا أباه
لا يضقُ ذرعك بالقيد الذي حَزَّ في سوقِ الأوالي ، وبرأها
وقع الرُّسُلُ عليه ، والتوت أرجلُ الأحرارِ فيه ؛ فمقامها
يارفأنا مثل رَيْنَجَانِ الضَّحَا كَلَّتْ (عَذَن) به هامَ رُبَاهَا
وبقايًا هيكل من كَرَمٍ وحياءٍ أترع الأرضَ حَيَاهَا
ودع العدلُ بها أعلامه وبكت أنظمة الشورى صَوَاهَا
حضنت نعشك ، والتفت به رايةٌ كنت من الذل فِدَاهَا

(١) قالها في سنة ١٩٢٤ الذكري الخامسة للزعيم الوطني الشهيد في غربته .

ضمت الصدر الذى قد ضمَّها وتلقى السهم عنها ؛ فوقها
عجبي منها ، ومن فائدها كيف يجمي الأعزل الشيخ حماها ؟

* * *

نسكب الدمع على « سعد » دماً حملته ذمة ؛ أوفى بها
ابن سبعين تلقى دونها غربة الأسر ، ووغشاء نواها
سفر من « عدن »^(١) الأرض إلى منزل أقرب منه قطباًها
ولد الثورة « سعد » حرّة بحياتنى ماجدٍ حرّ نماها
ما تمّنى غيرها نسلًا^(٢) ومن يلد الزهراء يزهد فى سواها

ولا تفوتنى الإشارة إلى أن هذه الأبيات القلائل المنتزعة من مواطنها
لا تؤدى — فى صحة الحكم ووضوحه ودقته — ما تؤديه قصائدها الكاملة ،
وأصولها التى نزعَت منها ؛ فلا مناص للمعتبث الرّكين من الرجوع
إلى الديوان .

أما المراتى الشوقية فى طورها الأول فشأنها شأن قصائد ذلك العهد الذى
لم تنضج فيه مواهبه ، ولم تكمل ثقافته وتجاربه ؛ فهى معيبة بما فيها من
تفاهة ، وسطحية ، وتعميم ، وإبهام ، ومحاكاة جامدة لطرائق الأقدمين .
وما أشبهه فى هذا بالمتنبى ، بل إن المتنبى يفوقه صياغة ، وجودة أسلوب .

(١) نرى الإنجليز زمن الاحتلال سعدا إلى مدينة « عدن » ثم نقلوه منها إلى جزائر
« سيشل » ثم إلى « طارق » ثم أرجعوه حين ثار المصريون لنفيه .

(٢) لم يرزق سعد ذرية .

أى جوده فى مرثيته لعلى أبى الفتوح^(١) إذ يقول :

مشتِ الشبيبةُ جَحْفَلًا تبكى لواءَ الْجَحْفَلِ
فانظرْ سريرَكَ هل جرى فوق الدموعِ الهُطْلُ ؟
اللهُ فى وطنٍ ضعيفِ الركنِ ، واهى المقلِ
وأبِ وراءكُ حزنُهُ لِنَوَاكِ حزنُ المشكلِ
يَهَبُ الضياعَ العماراتِ لمن يَرُدُّ لَهُ « عَلَى »
ليس الغنى من البريةِ غيرَ ذى البالِ الخلى
ونجاسةٍ بين العقلا نلِ هُمُها لا يَنْسِلِ^(٢)
دخلتُ منازلها المنو نُ على الجرىءِ المشبلِ
كسرتُ جَنَاحَ مُنْعَمٍ ورمتُ فؤادَ مُدَالِ

ومرثيته فى رثاء سليمان أباطة ومطلعهما :

مَنْ ظَنَّ بِعَدَاكَ أَنْ يَقُولَ رِثَاءَ فَلْيَرِثْ مِنْ هَذَا الْوَرَى مِنْ شَاءَ
فَجَمَعَ الْمَكَارِمَ فَاجْعَ فى رِثَها والمجدَ فى بَانيهِ ، والعلياء
ونعى النعاةِ إلى المروءةِ كَنَزَها وإلى الفضائلِ نَجَمَها الوضاء
أبَا مُحَمَّدٍ اتَّيَدُ فى ذَا النَّوَى وارفق بآلِكَ ، وارحم الأبناء

* * *

ومن الخير والإينصاف أن نرجى فى خاتمة الرثاء قصيدتين - أشرنا إليهما من قبل - للشاعرين العظيمين ؛ إحداهما : المثنى فى رثاء جدته التى ماتت سروراً

(١) قانونى كبير تولى وكالة وزارة المعارف ، واشتهر بعلمه ، وخلفه ، وفاته فى واجبه

وكانت وفاته سنة ١٩١٣ .

(٢) لا ينسل : لا يذهب سريعاً .

برسالة تلقتها منه ، يذبها بقدمه ، ورجوعه إليها بعد أن يثست من عودته ؛ فقبّلت الرسالة ، وفرحت بها فرحاً غلبها على نفسها ؛ فأصابها الحمى ، وأودت بها . والأخرى لشوق في رثاء والدته التي قضت سنوات الحرب العالمية الأولى حزينة ، موجعة القلب ؛ ألماً على فراق ابنها المنفى في بلاد الأندلس . فلما انتهت تلك الحرب المشثومة بعد سنوات أربع ، وشاع في مصر أن الغرباء المشردين — ومنهم شوقي — سيعودون إلى موطنهم ، فرحت فرحاً ضاق به جسمها ؛ فحمت ، وماتت ، من فرط ابتهاجها . فرثاها بمرثيته التي سنذكر بعض أبياتها .

والقصيدتان متشابهتان في أمور كثيرة ؛ في الدافع عليهما ، وفي الوزن ، والقافية ، وبعض الألفاظ ^(١) والأساليب ، وكثير من المعاني ، والخواطر النفسية . وهما مختلفتان في أمور أخرى كذلك ؛ فطلع شوقي أقوى صياغة ، وال عاطفة فيه أحرّ ، ومناسبته للموضوع أبين . ولكن تلك القوة اللفظية تضعف بعد ذلك ، وال عاطفة تفتّر ، والخواطر تنهافت ؛ حتى تصير هواجس شوقية ، يبدو شوقي خلالها واهناً من الغربة ، متحطاً بما أصابه ، أقرب إلى الجازع الهالع من الجلد الصبور ، ناقساً على الحرب ، متبرئاً منها ، ومن آثارها ، وكل ما يتصل بها . وتتكشف طبيعته الوادعة الحنون عن أسى عميق ، لما يصيب المتحاربين . على حين يبدأ المتنبي ضعيف المطلع ، خفيّ ال عاطفة ، ولكنه يندفع بعد ذلك في رثاء حق ؛ قوامه اللفظ المنتقى ، والأسلوب الرصين ، والمعنى المتخّير ، وال عاطفة الحزينة التي تقاطر أسى وألماً يعمّران الألفاظ والحروف ، والخواطر النفسية التي تلاثم

(١) من اليسير الموازنة بين ألفاظهما ومعانيهما باستخدام قواعد النقد المدونة أول الكتاب .

الموقف ، وتسائر الطبع العنيف المتجلد ، بل الحريص على منازلة الدهر ، ومقاومة الأيام .

ومع أن شوقي اطلع قبل مرثيته هذه على قصيدة المتنبي ، وانتفع — دون شك — ببعض نواحيها ، لم يستطع أن يأتي بخير منها ، أو بما يقاربها ، ولم يستطع أن يزيل الغموض المعنوي عن بعض أبياته .
وإليك مطلع القصيدتين ، ثم أبياتاً مختلفة ؛ في أكثرها تشابه واشتراك : فطلع شوقي :

إلى الله أشكون عوادي النوى سَهْمًا أصابَ سويداءَ الفؤادِ ، وما أضْمَى
من الهاتكاتِ القلبِ أولَ وهلةٍ وما داخلتُ لحماً ، ولا لامست عظاماً
تواردَ والناعي ؛ فأوجستُ رَنَّةً كلاماً على سمي ، وفي كبدِي كَلَمًا
فما هتفا حتى نَزَا الجنبُ وانزوى فيا ويح جنجهم!! كم يسيل!! وكم يَدْمَى!!
ومطلع المتنبي :

ألا لا أرى الأحداثَ حَمْدًا ولا ذَمًّا فما بطشها جهلاً ، ولا كفها حِلْمًا
إلى مثل ما كان الفتى سَرَجْعُ الفتى
يعود كما أبدى^(١) ويُكرى^(٢) كما أَرَمَى^(٣)
لك الله من مفعوعةٍ بحبيها فتيلةُ شوق ، غير مُلَحِّقِهَا وَصَمًا
ونظير البيت الثاني والثالث قول شوقي :

إلى حيثُ أباه الفتى يذهبُ الفتى سبيلُ يدينِ العالمونَ بها قِدَمًا
وما العيشُ إلا الجسمُ في ظلِ روحِهِ ولا الموتُ إلا الروحُ فارقتِ الجسمًا

لك الله من مطعونةٍ بقنأ النّوى شهيدةٍ حربٍ ، لم تقارف لها إنما
مدلّه ، أذكى من النار زفرةً وأنزه من دمع الحيا عبّرةً سجنماً^(١)
ففي أبيات شوقٍ فتور ووهن ولا سيما بيته : (وما العيش ...) .
ويقول المتنبي :

عرفت الليالي قبل ما صنعت بنا فلما دهنتني لم تزدني بها علماً
فيقول شوقي :

زَجَرْتُ تصاريِفَ الزمان ؛ فما يقع لي اليوم منها كان بالأمس لي وهما
ويقول المتنبي :

ولم يُسْلِها إلا المنايا ، وإنما أشدُّ من السقم الذي أذهب السقماً
فيقول شوقي :

أَسْتُ جُرْحها الأنبياء غير رفيقةٍ وكل نازعٍ سهماً فكان هو السهما
ويقول المتنبي :

ولو لم تكني بنتَ أكرمٍ والدٍ لكان أباكِ الضخمَ كونك لي أمّا
فيقول شوقي :

لئن فات ما أُمِّلْتِهِ من مواكبٍ فدونك هذا الحشدُ ، والموكب الضخم^(٢)
ويقول المتنبي عن نفسه :

تَرَبَّبَ ؛ لأُسْتَعْظَمًا غيرِ نفسه ولا قابلاً إلا لخالقه حُكماً
ولا سالكاً إلا فؤادَ حَاجَةٍ ولا واجداً إلا لمكرُمَةٍ طَعْماً

(١) مصبوبة : (في الديوان سحما بالحاء ، أي : سحما) وفسرها بالسوداء . لكن أرى الصواب بالجيم . (٢) يريد : رثاءه .

يقولون لى : ما أنت ؟ فى كل بلدة
 كأنَّ بينهم عالمونَ بأننى
 ولكننى مستنصرٌ بذبابه^(١)
 وما تبتغى ؟ ما أبتغى جَلَّ أن يُسمى
 جَلوبٌ إليهم من معادِنه اليُمنَا
 ومرتكبٌ فى كل حال به القُشَا^(٢)
 فيقول شوقى مخاطبا والدته :

حلفتُ بما أسلفتُ فى المهدِ من يدٍ
 لما كان لى فى الحربِ رأىً ، ولا هوَى
 ولم يك ظلمُ الطيرِ بالرقِّ لى رضا
 وأوليتُ جُثمانى من المنقِ العُظمى
 ولا رُمتُ هذا الثُكلَ للناسِ ، واليُمنَا
 فكيفِ رضاى أن يرى البشرُ الظُلما

 ولو اوازننا بين قصيدة المتنبى فى جدته وقصيدة شوقى فى جدته ومطلعها :

خُلِقْنَا للحياةِ والعماتِ ومن هذينِ كلُّ الحادثاتِ
 لحكنا للعتبى بالسبق الذى تفهر دونه أنفاس شوقى ، وتعجز عنه وسائله .
 ومن السيرِ الرجوعِ إلى قصيدة كل منهما فى ديوانه : وتتمد الموازنة بينهما على
 ضوء ما قدمنا من معالم للنقد ، وسراشد للموازنات .
 (د) الغزل :

لشوقى نوعان من الغزل ؛ أحدهما : يَبْدَأُ به القصيدة على عادة القدماء ،
 ويتخذ قنطرة للوصول إلى الغرض الأصلي منها ؛ كما كانوا يفعلون . والآخر
 لم يتخذ صلة ولا قنطرة ؛ وإنما قصد به الغزل نفسه ، وترجمة شعوره ووجدانه ،
 وتصوير ما يعتل فى نفسه من عواطف مشبوبة ، وأحاسيس متقدة .
 وإذا كان شوقى فى النوع الأول يجارى القدماء فى استهلالهم ، ويتخذ

(١) الضمير يعود على السيف المفهوم من سياق الكلام . وذباب السيف : طرفه .

(٢) الظلمة .

الغزل وسيلة ناجعة للتشويق ، واستمالة السامع أو القارئ إليه - فهو يجاريهم كذلك في طريقتهم ، وأوصافهم الغزلية ، والميل إلى تصوير الجمال الحسى ، وظواهر الجسم . وليس في هذا عيب مع الاعتدال . وإنما العيب في الإسراف ، وإهمال النواحي الروحية والخلقية كما سبق - فالعشوق عندهم غزال نافر ، قرى الوجه ، ليلى الشعر ، لؤلؤى الثنايا ، أهيف القوام ، مبال الأعطاف ، كحيل الطرف ، ثقيل الردف ، ساحر النظرات . . . والعاشق ناحل الجسم ، ساهر الجفن ، دائم الفكر ، يتمنى رؤية الحبيب ، أوزورة خياله . يراقبه العذال ، ويسىء إليه الوشاة . وهو بين هؤلاء وهؤلاء محترق بنار البعد ، معذب بالصد ، معرض للهلاك والاستشهاد في سبيل الحب . . . إلى آخر ما هناك من أوصاف تناقلها الشعراء على وجه التاريخ ، وتشابهوا فيها جيلا بعد جيل . وشوقى والمتنبى - وغيرها - في هذا سواء . ألفاظ مُرددة ، وتشبيهات مُعادة ، ومعان مبدولة ، وعاطفة باردة أومفقودة ، وفن مصنوع ، وأدب لا روح فيه ولا قوة .

لكن شوقى - في هذا النوع التقليدى الغائر - لم يقع فيما وقع فيه المتنبى من الإيغال الحسى ، وذكر الشهوة الجسدية ؛ بالتعرض للشباب وما تحتها ، والسراويلات^(١) وما فيها . بل كان عفاً للفظ ، طاهر القول ، متحفظاً متحرّزاً في غزله بل في سائر أشعاره . على أن غزله القديم - على ما فيه من محاكاة ، وفتور ، ونسج ضعيف - لم يخل من عاطفة تذكو حيناً ، وتخبو حيناً . وهى فى الحالتين أوضح ظهوراً ، وأقوى لهيباً من عاطفة المتنبى . ونحن لا نقنع من شوقى بهذا القدر . وكنا ننتظر مزيداً من

(١) هذه من ألفاظ المتنبى نفسه . وقد سبق البيت الذى يحويها ، وأبيات أخرى تحوى

عاطفة ، وفضلاً من غزل لا عيب في نسجه ، ولا تقصير في معانيه وخياله .
فإن نحن أغضينا عن غزل المتنبي — راضين أو ساخطين — معتذرين عنه
بطبيعته الجامدة القاسية ، وحياته التي تشبه حياة البدو في كثير من مظاهرها
وأوصافها — فهل نغضى عن غزل شوقي ، وما فيه من بلى وقصور ، وهو
الذى يعيش في عصر يموج بألوان الحضارات المستحدثة ، وأفانين المتع التي
لم يشهدها عصر آخر ، وفنون من الجلال لم يعرفها الشعراء في غير عصره ؟
ولقد انغمس شوقي في هذه الحضارات ، وأثرعَ بِمُتَمَعِهَا ، وتقلب في أعطاف
النعم ، وأحضان الجلال ؛ حتى لم يدع منها بُغْيَةً لنفسه ، ولا أملاً في استزادة ؛
فما عذرُه في التعلق بالقديم البالى ؟ وهل نغفر له حديثه عن الظباء والآرام
في قيعانها ، بدّل الكواعب الأتراب في قصور القاهرة ، وشواطئ
الإسكندرية ، وبور سعيد ، وضاف البسفور وهل نستسيغ اليوم
ما يقوله عن ريم على القاع بين البان والعلم ؛ تاركاً الكلام عن غادات
الحفلات الساهرة ؛ وغوانى القاهرة ، وباريس ، وبرلين ، وغيرها من حواضر
الحسن ، ومدن الفتنة ؟

وماباله قنع من الغزل الحديث بقصيدتيه :

(١) حف كأشها الحبب ... (٢) مال واحتجب ...

وقصيدته في البحر الأبيض المتوسط :

(أمن البحر صائغ عبقرى . . .) ثم عاد أدراجَه ؛ لفظ قديم ،

وتشبيهات أثرية ، ومعان مرددة .

فأين ريم القاع ، والرشا الأغنّ ، وظباء الغلا ، وأشباهها — من

فاتنات اليوم ، وساحراته ؟ أين الشعر الأسود — وإن كان جميلا — من الشعر الذهبي ، وغير الذهبي من صنوف الشعور الجديدة ؟ وأين العيون ، والجفون ، والقُدود ، والأرداف ، والأعناق ، بأوصافها التي سجلها قدامى الشعراء — مما نشهده ونراه ، وقد شهدته شوقي وتملاه ؟ ما أشبه ألفاظه الغزلية القديمة بنظائر لها في موضوعات أخرى ، يُردّد فيها ذكر العيس ، والإبل ، والحَداء ، والرَّحْل ، واللجام ، والهودج ، ونحوها ، مما أشرنا إليه فيما سبق^(١) ؛ كاستقباله أم المحسنين (والدة الخديو عباس) وهي راجعة من تركيا بقصيدة مطلعها :

ارفعى السَّتر ، وحيّى بالجبين وأرينا فلقَ الصبحِ المبين
وقفى الهودجَ فينا ساعةً نقتبسُ من نورِ أمِّ المحسنين

يقول هذا في عصر السيارات والطيارات والبواخر والموسيقى ... ولن يقوله ؟ للمنفسة في الترف وأسبابه ، المُترعة من النعمة وألوان الرفاهة ... إن الأمر في الغزل قد يختلف عنه في المديح ؛ فإن ارتضينا في المديح — مختارين أو مكرهين — أوصاف الشجاعة ، والكرم ، والرفعة ، والجلال ، وارتضينا معها التشبيه بالأسد ، وحاتم ، والنجم ، والقمر — فلأن تلك الأوصاف قوية ومشهورة لدى الناطقين بالضاد جميعا ، والمشبّهات بها معروفة قديما وحديثا ، ولا تزال النفوس تتقبلها عن رضا قليل أو كثير ؛ إذ لا ترى فيها غموضا ولا عيبا إلا ما يكون من شيوعها وامتنانها . وليس الشأن كذلك في القاع ، والعلم ، ووخش وجرة ، وطبء جاسم ، وذات

الشَّيْخ ، وذى سَلَمَ ؛ فالأما كن مجهولة ؛ وظباؤها وبقرها الوحشى ليس أقرب إلى نفوس الحضريين اليوم ، ولا أجمل فى عيونهم — من غادات الحواضر الشرقية والغربية ، وملكات الجمال العالمى . وإن صَحَّ أن فى الظباء والغزلان وبقر الوحش ملامح للجمال المثالى ليست فى النساء — فان تلك الملامح والشَّيْآت ليست معروفة إلا للقليل — بل الأقل — من أهل العصور التى نعيش فيها . فليس من البراعة الأدبية أن تساق التشبيهات الضعيفة التى لا تُدْرِك غاياتها ، ولا يستبين المراد منها .

ويظهر أن شوقى قد فطن للأمر بعد لآي ؛ فأخذ يرجع عنه وتبدأ وتبدأ حين جاوز طَوْرَ الحداثة الشعرية ، ودلف إلى طَوْرِ النضج والقوة ؛ فتراه فى النوع الثانى من غزله لا يستهل به المطالع — إلا قليلا — كما كان يفعل ؛ بل يَقْصِرُ المنظومة كلها على ترجمة شعوره ، وما يجيش فى نفسه من لوعة صادقة فى الحب ، ونفثات غرامية غير مدخولة . وفى هذا النوع نُحَسِّسُ قوةَ العاطفة ، وحرارة الوجدان ، وفيضا روحيا عجيبا . ونرى « شوقى » قد خفف من الأوصاف والتشبيهات القديمة ، ولم يسرف فى وصف الناحية الحسية الجسدية كما كان يفعل ويفعل الشعراء ؛ بل يشرك معها الناحية المعنوية ، ويزيد حظها وما يتصل بها ؛ فيصف الحب ، وعذابه وأنعيمه ، ودلال الحبيب ، وعقابه ، ولقاءه ، وهجره ، ومناجاته ، وكلامه ... فليس الأمر كله خدًا ، ووجها ، وقدًا ، وثغرًا ، وعناقًا ، وتقبيلا ... كما كان قَبْلًا . ولو أن شوقى جعل للناحية الروحية الخلقية نصيبًا فى غزله لكان قد بلغ الغاية ؛ فإنها الناحية التى فقدتها النوع الثانى الذى فاز بمزايا أخرى جليلة ؛ فقد فاز بأصنى الألفاظ ،

وأرقها ، وأسَمَى المعاني وأحلاها ، وأعف العبارات ، وأنسب البحور والقوافي الشعرية للتغزل والأغاني التي ليس في الترنم بها ما يחדش كرامة الرجل ، أوهسيء إلى العذارى ؛ وبهذا كله تفوق^(١) على التنبي وسبقه . وإليك أمثلة من النوعين :

(١) فن أمثلة الأول مطلع قصيدته في مدح الخديو توفيق :

سَفَرَ الحبيبُ؛ فقلتُ: يا عينُ أنظري	وتنزهِي في حُسْنِ ذاك المنظرِ
وَبَدَأَ يَمِيسُ؛ فلاحَ لي قمرٌ على	غُصْنِ رطيبٍ ، بالحاسنِ مشمرِ
رَشَاءً ، إذا هَزَّ الدسيمُ قَوَامَهُ	أُزرى بغُضنِ البانةِ المُتَخَطِرِ
متمايلُ الأعطافِ ، وَرَدَ خدودهِ	يُغنى الحبَّ عن الشقيقِ الأحمرِ
جمعَ الحاسنَ ؛ إذْ تَنَثَّى قَدَهُ	وتفردتِ الحِطاطُهُ بِتَكَشُّرِ
فإِذَا رَنَّا يَسْبِي العقولَ ، أو انثنى	تَحَلُّو رَشاقَهُ قَدَهُ المُبْصِرِ

... ..

(٢) ومطلع قصيدته في مدح الخديو عباس (وهي قصيدة حلوة النغم ، عذبة الجرس ، بالرغم من تهافتها في النواحي الأخرى)^(٢) .

عَرَضُوا الأمانَ على الخواطرِ	واستعرضوا السُّمَرَ الخواطرِ
فوقفتُ أحذرُهُم ، ويا	بَنِي القلبِ إِلَّا أنْ يُخَاطِرُ
يا قلبُ شأنَكَ والهوى	هَذِي الفصونُ ، وأنتَ طائرُ
إن التي صادتكَ تس	عَى بالقلوبِ لها النواظرُ

(١) كلمة : « تفوق » عربية صحيحة .

(٢) وهو يمارض بها رائية البهاء زهير المشهورة . وقد دخل القطعة في الطبعة الثانية من « الشوقيات » تغيير لبعض الكلمات ، وتقديم أو حذف لبعض الأبيات .

يا ثغرها ، أُنْسِيتُ كما
بالحظها من أُمِّها
يا شعرها ، لا تَسْمَعِ في
يا خصرها ، لي منك في
يا رذنها بالله كن
فَوَاصِرِ أَحْلَمُ بِالْجَوَاهِرِ
أَمْ مَنْ أَبُوهَا فِي الْجَاذِرِ ؟
هَتَكِي ؛ فَشَانُ اللَّيْلِ سَاتِرِ
لَيْلِ الْهَوَى وَهَمُّ مَسَارِ
بَعْرِضِ جَاهِكِ لِي مُوَازِرِ

(٣) ومطلع قصيدة في مدحه :

صَالَ الدَّلَالُ بِقَدَّهَا الْمَيَّاسِ
وَيْلَ الْبَرِيَةِ مِنْ حَوَادِثِ فِي الْهَوَى
سَتَذُوقُ بِلَوَاهَا ، وَتَصَلَّى نَارَهَا
وَلِلَّهِ أَكْبَرُ !! يَا قُلُوبَ النَّاسِ
أَبْقِظَنَّ فَتَنَةَ طَرْفِهَا النَّعَّاسِ
وَتَبَيَّتْ خُوفَ السَّيْفِ فِي إِبْجَاسِ

.....

هَيْفَاهُ ، مِمَّا صَاغَ مُنْشَى الْحُسْنِ مِنْ
تِلْكَ الْغَزَالَةِ فِي الْحُبَاءِ بَعَيْنِهَا
تَغْدُو لَهَا فِي الْقَلْبِ أَبْهَى مَشْرِقِ
نَثَرِ الشَّقِيقِ وَمِنْ لُبَابِ الْآسِ
وَبِذَاتِهَا جَلَّتْ عَنِ الْإِنْبَاسِ
وَتَرَوْحُ مِنْهُ فِي أَعَزِّ كِنَاسِ

(١) ومن أمثلة النوع الثاني أغنيته^(١) :

رُدَّتِ الرُّوحُ عَلَى الْمَضْنَى مَعَكَ
مَرَّ مِنْ بَعْدِكَ مَارَوْعِي
كَمْ شَكُوتُ الْبَيْنِ بِاللَّيْلِ إِلَى
وَبَعَثْتُ الشُّوقَ فِي رِيحِ الصَّبَا
أَحْسَنُ الْأَيَّامِ يَوْمٌ أَرْجَعَكَ
أُتْرَى يَأْخُلُوْهُ بُعْدِي رَوْعَكَ
مَطْلَعِ النَّجْرِ عَسَى أَنْ يَطْلِمَكَ
فَشَكَكَ^(٢) الْحُرْقَةُ مِمَّا اسْتَوْدَعَكَ

.....

(١) وقد سبقت ص ٢٧٧ . (٢) أى: الريح (وهو يذكر ويؤنث) .

وفي هذه القطعة من حلالة الأسلوب ، وعذوبة المعاني ، وبراعة الخيال -
 ما لا يحتاج إلى إبانة بعد الذي أوضحناه أول الكتاب من أمارات للحسن
 اللفظي ، والمعنوي ، وما يتصل بهما من أسس وأصول .
 (٢) قوله في مطلع قصيدة :

بأبي وروحي الناعماتِ الغيدا	الباسماتِ عن اليتيمِ نَصِيدَا
الرامياتِ بكلِ أحورٍ فاترٍ	يَذَرُ الخَلِيَّ من القلوبِ عَمِيدَا
الراوياتِ من السلافِ محاجرًا	الناهلاتِ سَوَالِفًا وخذودًا
اللاعباتِ عَلَى النسيمِ غدائرًا	الرائعاتِ مع النسيمِ قُدُودَا
أقبلنَ في ذهبِ الأصيلِ ووشيه	مِلءِ الغلائلِ لُؤْلُؤًا وفريدًا
يَحْدِجْنَ بِالْحَدَقِ الحواسِدِ دُمِيَّةً	كظَبَاءٍ وَجَرَةٍ مُقَلَّتَيْنِ وَجِيدَا ^(١)
حَوَتْ الجَمَالَ؛ فلوذهبتِ تزيدها	في الوهمِ حُسْنًا ما استطعتْ مزيدًا
لو مَرَّ بِالْوِلْدَانِ طيفُ جَمَاهَا	في الخلدِ خِرٌّ وَارٍ كَمَا، وسُجُودَا
أشهى من العودِ المرَّحِمِ مَنَظِقًا	وَالَّذِ من أوتارِهِ تفريدا

(٣) وقصيدته التي يتزعم الشادون ببعض أبياتها ، ومنها : —

يا جارةَ الوادى ، طربتُ وعادنى	ما يُشبه الأحلامَ ؛ من ذكراك
مَثَلْتُ في الذِّكْرِى هَوَاكَ، وفي الجوى	والذِّكْرِيَّاتُ صَدَى السنينِ الحاكى
ولقد مررتُ عَلَى الفديرِ بربرةٍ	غَنَاءَ ؛ كَنتُ حِيَالَهَا أَلْقَاكَ

(١) يقصد بالدمية : فتاة حسناء باهرة الحسن . وقد شبهها بظباء وجرة ؛ فهاكى القدماء

في هذا الاسم ، ولم يتحرر من قديمهم .

نَحِكتُ إِلَى وُجُوْهَهَا ، وَعَيُوهَا وَوَجَدْتُ فِي أَنْفَاسِهِمْ رَبَّكَ
فذهبتُ فِي الْأَيَّامِ أَذْكَرُ رَفَرَفًا بَيْنَ الْجَدَاوِلِ وَالْعَيُونِ حَوَاكٍ
أَذْكَرَتْ هِرْوَلَةَ الصَّبَابَةِ وَالْهَوَى لَمَّا خَطَرْتُ ؛ يُقْبِلَانِ خُطَاكَ
لَمْ أَدْرِ مَا طِيبُ الْعِنَاقِ عَلَى الْهَوَى حَتَّى تَرَفَّقَ سَاعِدِي ؛ فطَوَاكَ
وَتَأَوَّدْتُ أَعْطَافُ بَانِكَ فِي بَدِي وَاحْمَرَّ مِنْ خَفَرِئِهِمَا خَدَاكَ
وَدَخَلْتُ فِي لَيْلَيْنِ ؛ فَرَعِكَ وَالْدُّجَى وَلَثَمْتُ — كَالصَّبْحِ الْمُنَوَّرِ — فَالِكَ
وَتَعَطَّلْتُ لَفْظَةَ الْكَلَامِ ، وَخَاطَبْتُ عَيْنِي فِي لَفْظَةِ الْهَوَى عَيْنَاكَ
وَمَحَوْتُ كُلَّ لُبَانَةٍ مِنْ خَاطِرِي وَنَسِيتُ كُلَّ تَعَاتِبٍ ، وَتَشَاكِي
لَا أَمْسِرُ مِنْ عُمْرِ الزَّمَانِ ، وَلَا غَدَّ جُمُوعَ الزَّمَانِ ؛ فَكَانَ يَوْمَ رِضَاكَ
وَفِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ فَنُونٌ وَفَتْوَنٌ ، وَإِنْ كَانَ فِيهَا بَعْضُ جَرَاةٍ عَلَى
الْحَيَاءِ وَاسْتَهْتَارِ .

وفِيَا بِلَى نَمَازِجٍ أُخْرَى مُخْتَلِفَةٌ تَوْضِحُ رَأْيَنَا فِي الْغَزَلِيَّاتِ الشُّوقِيَّةِ ، وَتُوَيْدُ
حُكْمِنَا السَّابِقِ .

فَنَهَا مَطْلَعُ قَصِيدَتِهِ فِي لَبْنَانَ ، وَقَدْ سَاقَ فِيهِ الْمَعَانِي الْغَزَلِيَّةَ الْمَأْلُوفَةَ ،
وَلَكِنْ بَعْدَ أَنْ تَنَاوَلَهَا بِشَيْءٍ مِنَ التَّجْدِيدِ ، وَحَسَنَ التَّصَرُّفِ فِي الصِّيَاغَةِ ،
وَالْمَعْنَى ، وَالْخِيَالِ ، يَقُولُ :

السَّحَرُ مِنْ سَوْدِ الْعَيُونِ لَقِيَّتُهُ وَالْبِالِيُّ بِلَحْظَيْنِ سُقِيَّتُهُ
الْفَاتَرَاتِ^(١) ، وَمَا فَتَرْنَ رِمَايَةً بِمُسَدِّدٍ بَيْنَ الضُّلُوعِ مَبِيَّتُهُ

(١) صفة للعيون .

الناعسات^(١) ، الموقظاتي للهوى المغريات به ، وكنْتُ سَلِيمَتُهُ^(٢)
 الفاتلات^(١) بعابثٍ في جفنه تَمَلِّ الغرَّارِ ، معرِداً ضَلِيمَتُهُ^(٣)
 الشارعات^(١) الهدب أمثالَ القنأ يحجى الطَّعِينَ بنفارةٍ ، وُيْمَتُهُ
 الناسجات^(١) على سَوَاءِ سَطُورِهِ سَقَمًا ، على منوالهنَّ كَسِيمَتُهُ
 فلهذه الأبيات روعة ، مَرَدُّها إلى موسيقى الوزن الشعري والقافية من
 جهة ، وإلى حسن التصرف في المعاني الشائعة من جهة أخرى ، وإجادة التعبير
 عنها إجادة توهم القاري أنها مبتكرة لم تتناولها الشعراء من قبل . مع أنها من
 المعاني الشائعة ، المرهقة بالتداول والذبوع .

ومثل هذا أغنيته التي تملأ على إجادتها حسنُ التصرف ، وسلامة الذوق
 في اختيار الوزن الشعري الأنسب الذي عُرِفَ به شوقي ، بل امتياز ، وكان
 من دواعي التغنى بفزله :

يَا نَاعِمًا رَقِدْتَ جَفُونُهُ مُخْذَنَّاكَ لَا تَهْدَا شُجُونُهُ
 حَمَلَ الهَوَى لَكَ كُلَّهُ إِنْ لَمْ تَعْنَهُ فَمَنْ يُعِينُهُ ؟
 عُدْ مَنْعِيًّا ، أَوْ لَا تَعُدْ أَوْ دَعْتَ سِرَّكَ مَنْ يُصُونُهُ
 بَيْنِي وَبَيْنَكَ فِي الهَوَى سَبَبٌ ؛ سَيَجْمَعُنَا مَتِينُهُ
 رَشَاءُ يُعَابُ السَّاحِرُ نَ وَسَحَرُهُمْ ، إِلَّا جَفُونُهُ
 الرُّوحُ مَلِكٌ يَمِينُهُ يَنْدِيهِ مَا مَلَكَتْ يَمِينُهُ
 مَا الْبَانُ إِلَّا قَدُّهُ لَوْ تَيَمَّتْ قَلْبًا غُصُونُهُ
 وَيَزِينُ كُلَّ يَنِيمَةٍ فَمَهُ ، وَتَحْسَبُهَا تَزِينُهُ

(١) صفة للعيون . (٢) لغة في سلوته ؛ بمعنى : نسبته . (٣) سيفه .

ما العمرُ إلا ليلةٌ كان الصباحُ لها جبينه
وكذلك أغنيته المذبة المعنى ، الشَّجِيَّةُ النِّغمُ الموسيقيّ ، ومطلعها :
رَوَّعُوهُ ؛ فَتَوَلَّى مُقْضَبًا أَعْلَمْتُمْ كَيْفَ تَرْتَاغُ الطَّبَّا
خُلِقْتَ لَاهِيَةً ، نَاعِمَةً رُبَّمَا رَوَّعَهَا مَرُّ الصَّبَا

... ..

يا غزالاً أَهْلَ^(١) القلبُ به قَلْبِي السَّفْحُ ، وَأَخْنَى مَلْعَبًا
لك ما أَحْبَبْتَ مِنْ حَبِّتِهِ ؛ مِنْهَا عَذْبًا ، وَمَرْعى طَيِّبًا
لك قد سَجَدَ الْبَيَانُ لَهُ وَتَمَنَّتْ لَوْ أَقْلَعَتْهُ الرُّبَا
ولحَاطٌ مِنْ مَعَانِي سَجَرِهِ جَمَعَ الْجَفْنُ سَهَامًا وَظَبًّا
وقد نجىء ألفاظه واهية ، ومعانيه سوقية ، لاصلة بينها ولا تآلف .
ويكثر هذا في غزليات الطور الأول ؛ كآيانه المشهورة :

خَدَعُوهَا بِقَوْلِهِمْ حَسَنًا وَالْفَوَانِي يُغْرُهُنَّ الثَّنَاءُ
أَتَرَاهَا تَنَاسَتْ أَسْمِيَّ لَمَّا كَثُرَتْ فِي غَرَامِهَا الْأَسْمَاءُ
إِنْ رَأَيْتِي تَمِيلُ عَنِّي ؛ كَأَنَّ لَمْ تَكُنْ بَيْنِي وَبَيْنَهَا أَشْيَاءُ
نَظَرَةٌ ؛ فَابْتِسَامَةٌ ؛ فَسَلَامٌ فَكَلَامٌ ؛ فَوَعْدٌ ؛ فَلِقَاءٌ
وقد نجىء في غزله بما يرفضه الموضوع ، ويأباه الغزليون كقصيدته :
أُرِيدُ سُلوَكُمْ ؛ وَالْقَلْبُ يَأْبَى وَأَعْتَبُكُمْ ؛ وَمِلُّ النَّفْسِ عَتْبِي
وَأَهْجُرُكُمْ ؛ فَيَهْجُرُنِي رُقَادِي وَيُضْوِينِي الظَّلَامُ ؛ أَسَى ، وَكَرْبًا

(١) امتلاء وعمر .

وأذكرُكمُ برويةِ كلِّ حُسنٍ فيصبُو ناظري ، والقلبُ أضبى
وأشكو من عذابي في هواكم وأجزىكم عن التعذيبِ حبًّا
وأعلمُ أنَّ رأيكمُ جفائي فإلى جعلتُ الحبَّ دأبًا

... ..

فليس من شأن الغزلى الماهر ، ولا الحب الصادق — أن يذكر رغبته
في الشلو، وحرصه على العتاب ، والمهجر ، ويصرخ من عذاب الحب شاكيًا ،
ويعلن جفاء حبيبته دائماً

(هـ) الوصف :

يُعَدُّ شوقي أول شعراء العربية الوصافين ، وأظهرهم في تناول المشاهد
والوقائع بالتسجيل ، والتصوير الأدبي . ولا أعرف بينهم من سبقه في هذا
الفن . وحسبك أن تتصفح ديوانه لتستبين منه موضوعات الوصف التي عرضنا
لها من قبل : (كالنيل ، والأهرام ، وأبى الهول ، والجزيرة ، ومنظر الشروق
والغروب من سفينة ، والنخلة ، والمنار ، والربيع ، والبلبل الكنارى ،
والبسفور ، وجبال سوسة ، وليلة ساهرة في عابدين ، ومرقص ، وقبر نابليون ،
ومملكة النحل ، ومقبرة توت غنخ آمون ، ورومة ، و « براكين » اليابان ،
والطيارة ، و « كوك صو » ، والبحر الأبيض ، وطابع البريد ، وغواصة ،
ولبنان ، وأنس الوجود وغير هذا من المشاهد الأخرى التي امتلأت
بها الأجزاء الأربعة من ديوانه ، غير قصصه ورواياته ومنشوره .)

وكثير من تلك الأوصاف قد استقل بنفسه ، وانفرد بموضوعه ، وبعنوانه
الخاص ، وبعض آخر جاء في ثنايا غيره ، وتبعاً له .

وسواء أكانت الأوصاف مستقلة بنفسها أم تابعة لغيرها فإنى ألاحظ عليها ما يلى :

(١) أنها على كثرتها قد أهملت مشاهد جليلة ، وحوادث هامة تستحق التصوير والتسجيل فلم تعرض لها . ومن هذه المشاهد والحوادث ما هو طبيعى ؛ كبير الشأن ، عظيم الأثر وما هو مصنوع حديث بادی الشهرة ، يرموق المكاة ، عمره شوق ورآه ، وخبره بنفسه . فأين وصف البحار ، والمحيطات ، والسماء ، والنجوم ، والسحب ، والأمطار ، والزلازل ، و « البراكين » (غير زلزال اليابان) ؟ وأين الهواء ؛ ما كان منه نسima منعشا ، أو عاصفا مدمرا ، أو نديا رطبا ، أو جافا محرقا ؟ أين الزروع ، والضرع ، والفواكه ، والثمار ، وضخام الدّوح ، وصغار الشجر ، وزواحف النجوم^(١) النباتية ؟ أين أطيّار الزينة ، وأزهار الحديقة ، وسائر الطيور ، والرياحين ، والحيوانات الأليفة . والبرية ، والمتوطنة والدخيلة ؟ وأين ... وأين ... من مظاهر الطبيعة التى خلقتها القدرة التى ليس فوقها قدرة ...

وأين وصف القناطر الخيرية ، وخزان أسوان ، وحديقة الحيوان ، ودار الآثار القديمة ، والعربية ، وقلعة محمد على ، ومسجده الفخم ، وسائر المساجد الأخرى التى اشتهرت بها القاهرة ، وانفردت بآياتها الفنية الباقية على الأيام ؟ أين وصف الملاعب ، والمسارح المصرية ، والشواطىء ، والمصايف ، ومدن الآثار الفريدة ؛ كالأقصر ، ومصر القديمة ... ؟

(١) النجم النباتى : نبات ليس له ساق .

أين القطر ، والبواخر ، والسيارات ، والمذياع ، والبرق ، والمِسْرَة ،
وسائر المخترعات الحديثة ؛ وما جرت في أذيالها من حروب ، وويلات ،
أو جلبت من سلام ، وأمن ، ورفاهة ؟ إلى غير ذلك من المظاهر الطبيعية ،
وغير الطبيعية في بلادنا وفي نواحي العالم أجمع ؟

(٢) على أن المشاهد التي تَعَرَّضُ لوصفها شوق إنما تعرض لكل منها مرة ،
ولم يُنَبِّ (في الغالب) . والشاعر المقتدر كالمصور المقتدر ؛ يرسم الصورة
الواحدة مرات مختلفة ، كل واحدة تغاير سابقتها ، وتختص بلون من
الفنِّ والحُسن ليس لأختها . وشئ آخر هو أننا (نحن المصريين) لا يقنعنا
من شاعر مصري أن يقتصر في وصف مشاهدنا وأبجاذنا على قصيدة
واحدة ، أو بعض قصيدة . فهل نقنع بها في وصف النيل ، أو الهرم ،
أو حضارتنا القديمة أو ... أو ... مما نحن في حاجة إلى سماع الكثير
الطريف منه ؛ لينهض العزائم ، ويحرك الهمم .

الحق أن حظ شوقي في هذه الناحية ضئيل ؛ لا يناسب مكانته ، ولا عصره .
ونحن حين نقول إنه وصاف ، كثير التصوير — إنما نقوله بموازنته مع
نظرائه من شعراء العربية . أما إن وزنناه بميزان الثقة به ، والأمل المرجو
فيه — فلن نصفه إلا بأنه مُقِلٌّ بل مُقَصِّر . ولا ندرى سبب تقصيره .

(٣) وأوصافه — على قِلَّتِها أو كثرتها — يغلب عليها طابع التعميم والإجمال ؛
فلست أعرف له وصفا تناول فيه أجزاء الموصوف ، وخصائصه التي تميزه
من سواه — تناولاً حميداً . خذ لذلك مثلاً قصيدتيه العظيمتين في الربيع ،
ومطلع إحداها :

« آزار » أقبل ؛ قم بنا يا صاحِ حَيَّ الربيعَ حديقةَ الأرواحِ

ومطلع الأخرى :

مَرْحَبًا بِالرَّبِيعِ فِي رَيْعَانِهِ وَأَنْوَارِهِ ، وَطَيْبِ زَمَانِهِ

فليس فيهما — على حسنهما وجهالهما — ما يوضح حقيقة الأزهار، ويرسم صورتها ، ويميز واحدة من واحدة بحجمها ، وألوانها ، وسائر خصائصها . بل إنه في القصيدة الثانية قد أوغَلَ في الإجمال والإبهام ؛ فلم يتعرض لأسماء الأزهار والرياحين كما تعرَّض في الأولى . وإنما اقتصر على مظاهر عامة للربيع ؛ لا تفصيل فيها ، ولا تحديد ؛ من أمثال : الترحيب به وبأنواره ، وطيب زمانه ، وازدحام مواكب الطبيعة فيه ، وطول أنهاره ، وعرض جناته ، وسحر صنمته ، وفننة عيونه ، وعبقريته خياله ، وترنيم جداوله ، وغناء أطياره ، وشدو رياحينه . وهذا كل ما ضمنه أبياته في وصف الربيع . أما وصف زهرة بعينها ، أو بستان ضاحك برياحينه ، أو تصوير جدول ، أو غدير ، أو طائر — تصويرا خاصا مُميزًا فلا . ومن الخير أن أعرض عليك أبياته هذه :

مَرْحَبًا بِالرَّبِيعِ فِي رَيْعَانِهِ وَأَنْوَارِهِ ، وَطَيْبِ زَمَانِهِ
رُفَّتِ الْأَرْضُ فِي مَوَاكِبِ « آزَا ر » ، وَشَبَّ الزَّمَانُ فِي مَهْرَجَانِهِ
نَزَلَ السَّهْلُ ضَاكِكَ الْبِشْرِ يَمْشِي فِيهِ مَشَى الْأَمِيرِ فِي بُسْتَانِهِ
عَادَ حَلِيماً بِرَاخَتَيْهِ وَوَشِيّاً طُولُ أَنْهَارِهِ ، وَعَرْضُ جِنَانِهِ
أَفَّ فِي طَيْلَسَانِهِ طَرَّرَ الْأَرْضَ ضِ : فطاب الأديم من طيلسانه
ساحرٌ ، فتنَةُ الْعَيُونِ ، مُبِينٌ فَصَّلَ الْمَاءَ فِي الرُّبَا بِجُمَانِهِ
عَبَقْرِيُّ الْخِيَالِ ، زَادَ عَلَى الطَّيْفِ ، وَأَرْزَى عَلَيْهِ فِي أَلْوَانِهِ
صِبْغَةُ اللَّهِ ؛ أَيْنَ مِنْهَا رَفَائِيسُ ، وَمِنْ قَاشُهُ وَسِخْرُ بَنَانِهِ ؟
رَنَّمَ الرُّوضُ ؛ جَدُولاً وَنَسِيماً وَتَلَا طَيْرٌ أَيْكَهُ غَضْنُ بَانِهِ

وَشَدَّتْ فِي الرِّبَا رِيَّاحِينَ هَمْسًا كَتَعَنَى الطُّرُوبُ فِي وَجْدَانِهِ
كُلُّ رِيحَانَةٍ بِلَحْنٍ ؛ كَمُرْسٍ أَلَفَتْ لِلْعَنَاءِ شَتَّى قِيَانَهُ
نَمَّ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ شَتَّى مِنْ مَعَانِي الرَّبِيعِ ، أَوْ الْحَانَةِ

هذه هي أبياته في وصف الربيع ؛ وهي ساحرة الصوغ ، والمعنى ، والخيال .
وما أعرف شاعرا عربيا قاربها في ناحية من نواحيها الثلاث السالفة . ولا يشوبها
إلا ذلك التعميم الذي يشوب الأدب العربي عامة . وإذا تلصصنا العذر لشوقي هنا
بأنه يتحدث عَرَضًا عن الربيع في مظهره العام ، وآثاره المجملّة من غير أن يوجه
همه للحديث عن رباحينه ، وأزهاره ، وتسميتها بأسمائها ، وتحديدتها بخصائصها^(١) ؛
فهل نستطيع أن نتعبد له العذر في قصيدته الأخرى التي خصّ بها الربيع ؛
فعرّض للأزهار ، والرياحين بأسمائها ، وبعض شاراتها ، واكتفى بذلك ؛
من غير أن يزيل غوضها وإجمالها ؟ يقول :

« الْوَرْدُ » فِي سُرْرِ الْغُصُونِ مُفْتَحٌ مُتَقَابِلٌ يُبْنِي عَلَى الْفَتْحِ
وَيَقَانِقُ « النَّسْرِينَ » فِي أَغْصَانِهَا كَالدَّرِّ ؛ رُكْبٌ فِي صُدُورِ رِيَّاحِ
« وَالْيَاسْمِينُ » لَطِيفُهُ ، وَنَقِيبُهُ كَسَرِيرَةٍ أُنْتَهَزَهُ الْمِسْمَاحُ
مُتَأَلِّقٌ خَلَلَ الْغُصُونِ ؛ كَأَنَّهُ فِي بُلْبَجَةِ الْإِصْبَاحِ ضَوْؤُهُ صَبَاحُ
« وَالْجُلْنَارُ » دَمٌّ عَلَى أَوْرَاقِهِ قَانِي الْحُرُوفِ ؛ كَخَاتَمِ السَّفَاحِ
وَكُنَّ مَحْزُونِ « الْبَنَفْسَجِ » نَاكِلٌ يَلْقَى الْقَضَاءَ بِخَشْيَةٍ ، وَصَلَاحِ
وَعَلَى « الْخَوَاطِرِ » رِقَّةٌ وَكَابَةٌ كَخَوَاطِرِ الشُّمَرَاءِ فِي الْأَتْرَاحِ
فهل رأيت في هذا الشعر وصفا يوضح الموصوف ، ويكشف علامته ؟ لينا

(١) ذلك لأن موضوع القصيدة هو : شكر المؤتمرين في حفل تكريمه ، ولم يكن
موضوعها الأساسي : الربيع .

نريد من التفصيل أن يتعرض للدقائق ، والصغائر التي تخرج الموضوع عن الفن الأدبي ، وتباعد بينه وبين الجمال الشعري ، وتدخله في عدادِ الحَصْرِ البغيض ، والإحصاء المقيت ، والكلام العلمي الجامد ، وإنما نريد من « شوق » حين يتحدث عن الورد أن يصف ورقها ، ولونها ، وشذاها ، ونعومة ملمسها ، وتداخل طياتها ، وتفتح أطرافها^(١) .

وحين يتحدث عن الياسمين يذكر لونه الخاص ، وورقه الصغير الضَّرْس ، المنحني ، وانثناء الورق ، وظهور داخله برسومه وألوانه ... نريد ذلك كله وأشباهه . ولكن بطرائق شعرية عالية ، تفصل بينه وبين الكلام المألوف ، والأحاديث التي لا تمت للأدب الرفيع بأقوى الصلات .

(٤) فإن نحن أغضينا عما سلف وقدرنا « شوق » بمعايير^(٢) الألفاظ المذبة المصفاة ، والأساليب المؤلفة المتسلاطة ، والمعاني الطريفة المشرقة ، والنغم الموسيقي الشجي — كان في طليعة الوصافين من شعراء الضاد ، بل أسبقهم جميعاً في هذا الميدان ، لا أستثنى البحترى ولا غيره . هذا إلى ما وهبه الله من خيال مبتكر ؛ تظهر آثاره فيما يَخْلُقُه من صور ناطقة تُجَسِّمُ الموصوف أمامك ، وتبرزه مثلاً بين يديك ؛ وما هو بمائل ، وتوهمك أنك تراه ؛ ولست تراه . كما تظهر فيما يسوقه من تشبيهات دقيقة ، محكمة التناسب^(٣) .

(١) راجع ماقلناه في هذا الموضوع أول الكتاب ص ١٨ وما بعدها .

(٢) وقد وضعنا هذه المعايير أول الكتاب .

(٣) أي: كما يقول البلاغيون : فيها صلة التشابه بين الطرفين قوية ؛ ووجه الشبه بينهما واضح ، وهو أظهر صفات الشبه به .

ومع أن الوصول إلى تشبيه واحد بحكم أمرٍ عسيرٍ على كثير من الشعراء — ترى « شوقي » يسهل عليه الوصول إلى عدة تشبيهات من هذا النوع الأسمى لموصوف فرد ، ويؤالي بينها ، ويوضح بها حقائقه ، وقد يعدد فوائده . كل ذلك في مهارة وإجادة وبراعة أشرنا إليها فيما سبق ، وعرضنا لها الأمثلة^(١) ونعرض هنا أمثلة أخرى ؛ منها قصيدته في البحر الأبيض المتوسط ، وفيها يقول عن الإسكندرية وشاطئها المزدان بالغانيات زمن الصيف :

وترى الغيدَ لؤلؤاً نثماً — رطباً وُجْناً ، حوَالِي^(٢) المَاءِ نَثْراً^(٣)
وكأنَّ السماءَ والماءَ شِقاً صَدَفٍ ؛ مُحَلَّلاً رَفِيفاً وَدُرّاً
وكأنَّ السماءَ والماءَ عُرْسُ مُتَرَعِّعُ الْمِهْرَجَانِ أَمْحاً^(٤) ، وَعِطْراً
أو ربيعٌ ، من ريشة الفَنِّ . أبهى مِنْ رِبْعِ الرُّبَا ، وَأَفْتَنُ زَهْراً
أوتهاويلُ شاعرٍ عبقريٍّ طَارَحَ الْبَحْرَ والطَّبِيعَةَ شِعْراً
ياسوارى فَيْرُوزِجٍ وَلَجَيْنِ بِهِمَا خَلِيتَ مَعَاصِمُ مِصْرَا
في شُعَاعِ الضُّحَا يَعُودَانِ مَاسَاً وَكَلَى لَمَحَفِ الْأَصَائِلِ تَبْرَا
ومشتَ فيهما النجومُ ؛ فكانتَ فِي حَوَاشِيهِمَا يَوَاقِيتَ زَهْراً
لك في الأرضِ مَوْكِيبُ لَيْسَ بِأَلْوَالِ — رِيحٍ ، وَالطَّيْرِ ، وَالشَّيَاطِينِ — حَشْدَا
سِرَتْ فِيهِ عَلَى كَنُوزِ (سُلَيْمًا نَ) تَعْدُ الْخُطَا ؛ اخْتِيَالاً ، وَكِبْرَا

.....

(١) ص ١٧٨ . (٢) حوله ، أو : حوَالِي ، بمعنى : حالياته التي تزينه .

(٣) مشورات متفرقات (٤) إظهاراً للحسن .

وفيه يقول أيضاً :

شاطى مثل رُفْعَةِ الْخُلْدِ حُسْنًا وأديم الشباب ، طيباً وبشراً
جَرَ قَيْرُوزَجًا عَلَى فِضَّةِ الْمَا ، وجَرَ الْأَصِيلُ وَالصَّبْحُ تَبْرًا
كَلِمًا جِئْتُهُ تَهْلَلُ بِبَشْرًا من جميع الجهات ، وافتراً نَعْرًا
اِثْنَى مَوْجَةً ، وَأَقْبَلَ يُرْخِي كَلِمَةً تَارَةً ، ويرفعُ سِتْرًا
شَبَّ وَانْحَطَّ مِثْلَ أَسْرَابِ طَيْرٍ ماضيات ؛ تَلَفُّ بِالسَّهْلِ وَغَرًا
رَبْمَا جَاءَ وَهَذَّةٌ ؛ فَتَرَدَّى فِي الْمَهَاوِي . وَقَامَ يَطْفِرُ صَخْرًا
وَتَرَى الرَّمْلَ وَالْقَصُورَ كَأَيْكٍ رَكِبَ الْوَكْرُ فِي نَوَاحِيهِ وَكُرَا
وَتَرَى جَوْسِقًا يُزَيِّنُ رَوْضًا وَتَرَى رَوْضَةً تَزَيِّنُ قَصْرًا

وفيهما يخاطبه :

كَمْ مَلَأْنَاكَ بِالسَّيْفَيْنِ مَوَاقِيْرَ كَشْمٍ الْجِبَالِ جُنْدًا ، وَوَفَرًا
شَاكِيَاتِ السَّلَاحِ ؛ يُخْرِجُنَ مِنْ مِصْرٍ بِمَلُومَةٍ ^(١) ، وَيَدْخُلْنَ مِصْرًا
شَارِعَاتِ الْجَنَاحِ فِي ثَبَجِ الْمَا ؛ كَذَمَرٍ يَشْدُ فِي الشَّخْبِ نَسْرًا
وَكَأَنَّ الْأَجَاجَ ^(٢) حِينَ تَنْزَى ^(٣) وَتَسْدُ الْفِجَاجَ كَرًا وَفَرًا ...
أَجْمَ بَعْضُهُ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ زَحَفَتْ غَابَةٌ لِمَزِيْقٍ أُخْرَى
قَذَفَتْ هَاهُنَا زَيْبَرًا وَنَابَا وَرَمَتْ هَهُنَا عُوَاءَ وَظَفَرَا

(١) كَتَابُ مَتَجَمَّة .

(٢) جَم : لُجَّة ، وَهِيَ : الْمَاءُ الْكَثِيرُ الَّتِي لَا تَرَى الْعَيْنُ أَطْرَافَهُ .

(٣) أَيْ : تَنْزَى ؛ بِمَعْنَى : تَتَوَثَّبُ وَتَقْفَزُ .

أَنْتَ تَعْلَى إِلَى الْقِيَامَةِ ؛ كَالْقَدْرِ ؛ فَلَا حَظَّ يَوْمُهَا لَكَ قَدْرًا
(٢) وقصيدته التي يخاطب بها نوت عنخ آمون ، ويصف مقبرته
الأثرية النفيسة :

ذَهَبُ بِيْطَانِ الْأَرْضِ ؛ لَمْ تَذْهَبْ بِمَحْطَةِ الْقُرُونِ
اسْتَحْدَثْتُ لَكَ جَنْدَلًا وَصَفَائِحًا مِنْهُ الْقِيُونُ
وَنَوَاسِيًا وَهَاجَجَةً لَمْ يَتَخَذْهَا الْهَامِدُونَ
لَوْ يَفْطَنُ الْمَوْتَى لَهَا سَرَحُوا الْأَنَامِلَ يَنْبَشُونَ
وَتَنَازَعُوا الذَّهَبَ الَّذِي كَانُوا لَهُ يَتَفَاتَنُونَ
أَكْفَانُ وَشِي فَصَّلَتْ بَرَاقَتِي الذَّهَبِ الْفَتَيْنِ
قَدْ لَفَّهَا لَفَّ الصَّمَا دِ مُحْنَطٌ ، آيسَ ، رَزِينُ
وَكَاثِبُهُ كَاثِمٌ وَكَأَنَّكَ الْوَرْدُ الْجَنِينُ
وَبِكُلِّ رُكْنٍ صَوْرَةٌ وَبِكُلِّ زَاوِيَةٍ رَقِيقٌ^(١)
وَتَرَى الدُّمَى ؛ فَتَخَالُهَا أَنْ تَمُوتَ عَلَى جَنْبَاتِ زُونِ^(٢)
صُورُ تُرِيكَ تَحْرُكًا وَالْأَصْلُ فِي الصُّورِ الشُّكُونُ
وَيَمُرُّ رَائِعُ صَمْتِهَا بِالْحِسِّ كَالنُّطْقِ الْمُبِينِ
صَحْبَ الزَّمَانِ دِهَانَهَا حِينًا عَهِيدًا بَعْدَ حِينِ
غَضٌّ عَلَى طَوْلِ الْبَلِي حَتَّى عَلَى طَوْلِ الْمُنُونِ
خَدَعَ الْعَمِيونَ وَلَمْ يَزَلْ حَتَّى تَحْدَى اللَّامِيِينِ

غِلْمَانُ قَصْرِكَ فِي الرِّكَابِ يُنَاوِلُونَ وَيَطَارُدُونَ
وَالْبُوقُ يَهْتَفُ ، وَاللَّهْيَا مُمْتَرِنٌ ، وَالْقَوْسُ الْحَنُونُ
وَكِلَابُ صَيْدِكَ لَهْتَ وَالْخَيْلُ جُنَّ لَهَا جُنُونُ
وَالْوَحْشُ تَنْفِرُ فِي الشَّهْوِ لِ ، وَتَارَةً تَثْبُ الْحَزُونُ
وَالطَّيْرُ تَرْسُفُ فِي الْجَرَا حِ ، وَفِي مَنَاقِرِهَا أَيْنُنُ
وَكَأَنَّ آبَاءَ الْبَرِيَّةِ فِي الْمَدَائِنِ مُحْضَرُونَ
وَكَأَنَّ دَوْلَةَ (آلِ شَمْسٍ) عَنْ شِمَالِكَ وَالْيَمِينِ

(٣) وقصيدته في قصر أنس الوجود (وهو الأثر الفرعوني الباهر الذي
يوشك أن ينهار وسط مياه النيل المحيطة به عند أسوان) وقد
مرت في ص ٥٠

(٤) وقصيدته في وصف الوقائع القديمة العثمانية واليونانية . وفيها يتكلم
بلسان الترك ويصف أعداءهم ^(١) ... (وقد سبقت أبيات منها) .
كَأَنَّا أَسْوَدُ رَابِضَاتٍ ، كَأَنَّهُمْ قَطِيعٌ بِأَقْصَى السَّهْلِ ؛ حَيْرَانُ مَذْذَبٌ ^(٢)
كَأَنَّ الدَّجَى بِحَرٍّ إِلَى النَّجْمِ صَاعِدٌ كَأَنَّ السَّرَايَا مَوْجُهُ الْمُتَضَرَّبُ
كَأَنَّ الْمَنَايَا فِي ضَمِيرِ ظِلَامِهِ هُمُومٌ ؛ بِهَا فَاضُ الضَّمِيرُ الْحَجَبُ
كَأَنَّ وَجْهَ الْخَيْلِ — غُرًّا وَسِيمَةً — دَرَارِيُّ لَيْلٍ ، طُلُعَ فِيهِ ، نُقْبُ
كَأَنَّ أَنْوْفَ الْخَيْلِ حُمْرًا مِنَ الْوَعَى بَحَامِرُ فِي الظُّلُمَاءِ ؛ تَهْدَأُ وَتَلْمَبُ

(١) تأمل -- بمناسبة هذه الأبيات وأشباهاها — ما ذكرناه قبلا من قدرة شوقي على
إحكام التشبيه ، والبراعة فيه ، وكثرته التي يسايرها الحذف والإيقان .
(٢) مذعور خوفا من الذئب .

كأن صدور الخيل غدُرَتْ عَلَى الدُّجَى كأن بقايا النَّصْحِ فِيهِن طُحْلُبُ
 كأن سنا الأبواقِ فِي اللَّيْلِ بَرْقُهُ كأن صداها الرعدُ ؛ للبرقِ يَصْحَبُ
 كأن نداء الجيشِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ دَوَى رِيَّاحٍ فِي الدُّجَى تَتَذَابُ
 كأن عيونَ الجيشِ فِي كُلِّ مَذْهَبٍ مِنْ السَّهْلِ جِنٌّ ، جُولٌ فِيهِ ، جُوبُ
 كأن الوغى نارٌ ، كأن جنودنا محوسٌ ؛ إِذَا يَمَمُوا النَّارَ قَرَّبُوا
 كأن الوغى نارٌ ، كأن الرَّدَى قَرَى كأن وراء النارِ (حاتِمٌ) يَأْدِبُ
 كأن الوغى نارٌ ، كأن بنى الوغى فَرَّاشٌ ؛ لَهُ فِي مَلَسِ النَّارِ مَأْرَبُ
 وثبنا ؛ يَضِيقُ السَّهْلُ عَنْ وَثْبَانَا وَتَقْدُمُنَا نارٌ إِلَى الرُّومِ أَوْثَبُ
 مشتٌ فِي سَرَايَاهُمْ ؛ فَحَلَّتْ نِظَامَهَا فَلَمَّا مَشِينَا أَذْبَرَتْ لَا تَعْقُبُ
 (٥) وقصيدته فِي وَصْفِ هَرَّةٍ عَثَرَ عَلَيْهَا مُحْتَبَةً فِي حِجْرَةِ نَوْمِهِ . وَهِيَ قَصِيدَةٌ

تصويرية بديعة ، نكتفي منها بقوله :

فَذَبَدَتْ لِي ، وَالتَّغَتْ نَظَرْتُهَا وَنَظَرَتْنِي :
 عَادَ رَمَادُ لَحْظِهَا مِثْلَ بَصِيصِ الْجَمْرَةِ
 وَرَدَدَتْ لِحْيَتُهَا كَحَنَشٍ بِقَفْرَةٍ
 وَلَبَسَتْ لِي مِنْ وَرَا السَّتْرِ جِلْدَ النَّمْرَةِ
 كَرَّتْ ؛ وَلَكِنْ كَالْجَبَا نِ قَاعِدًا ، وَفَرَّتْ
 وَانْتَفَضَتْ شَوَارِبًا عَنْ مِثْلِ بَيْتِ الْإِبْرَةِ
 وَرَفَعَتْ كَفًّا ، وَشَا لَتْ ذَنْبًا ؛ كَالدَّرَةِ (١)
 نَمَّ ارْتَقَتْ عَنْ الْمُوَا ءِ ؛ فَعَوَتْ ، وَهَرَّتْ

(١) الدَّرَّةُ : السَّوْطُ ، ونحوه مما يستخدمه الحاكم فِي ضَرْبِ الْحَرَمِينَ . وَقَدْ جَاءَ فِي الشُّوْقِيَّاتِ كَلِمَةُ « الْمَذْرَّة » بِدَلِّ : الدَّرَّةُ . وَلَعَلَّ الْأَنْبَ مَا كَتَبْنَاهُ .

لَمْ أَجْزِهَا بِشِرَّةٍ عَنْ غَضَبٍ ، وَشِرَّةٍ
 أَنْتَهَى بِشِرَّةٍ وَجْهَهَا بِكِسْرَةٍ
 وَزِدْتُهَا الدَّفْعَ ؛ فَقَرَّبْتُ لَهَا مِجْمَرَتِي
 وَلَوْ وَجَدْتُ مِضِيدًا لَجِئْتُهَا بِفَارَةٍ
 فَاضْطَجَعَتْ نَحْتِ ظِلَا لِ الْأَمْنِ ، وَاسْبَطَرَتْ
 وَقَرَأَتْ أَوْزَادَهَا وَمَا دَرَتْ مَا قَرَّتِ
 وَسَرَحَ الصَّغَارُ فِي نُدْيِهَا ؛ فَدَرَّتِ
 اخْتَلَطُوا ، وَعَيَّثُوا كَالْعُمَى حَوْلَ سُفْرَةٍ
 تَحْسِبُهُمْ ضَفَادِعًا أُرْسَلَتْهَا فِي جِرَّةٍ
 وَقُلْتُ : لَا بَأْسَ عَلَى طِفْلِكَ يَا جَوَيْرَتِي
 تَمَغْضَى عَنْ خَمْسَةٍ إِنْ شِئْتَ ، أَوْ عَنْ عَشْرَةٍ
 أَنْتِ وَأَوْلَادُكِ حَتَّى يَكْبُرُوا فِي خُفَرَتِي^(١)

وغير هذا كثير ، كقصيدته في طابع البريد ، وفيها يذكر مزاياء ،
 وقصيدته في الفواصة وبلاياها ، وقصيدته في النخلة ، وأبى الهول ، والبسفور ،
 والنار . . . و . . . وسواها من الشعر الوصفى الذى لا يحتاج إلى كشف
 محاسنه ، وتوضيح فنه . فما أسهل هذا على الأديب الخبير ، ومن يذكر
 الأصول النقدية العامة التى أوضحنها أول الكتاب .

* * *

على أن شوقى الوصاف البارع قد يَفْتَرُّ ، ويهوى ، فيعرض من الصور الواهية ، والتشبيهات الضعيفة — ما لا يرضاه له . كقصيدته فى نكبة اليابان بأقصى زلزال مرّ بها ، حيث يقول فى وصفها :

لو تأملتُها عشيةً جاشتْ خِلَتُها فى يدِ القضاءِ حَمَامَةٌ
استعذنا بالله من ذلك السَّيْلِ الذى يكسحُ البلادَ أمامَهُ
من رأى جَلَدًا يهْبُ هُبُوبًا وحيمًا يَسُحُّ سَحَّ القَمَامَةِ
ودخانًا يَلْفُ جُنْحًا بجح لا تَرَى فيه مِصْمِنَهَا اليَامَةَ
وهزيمًا كما عَوَى الذئب فى كُلِّ مكانٍ ، وزَجَرَ الضَّرْغَامَةَ

... أين هذه الصورة مما وقع ؟ وأين القمامة ، وزرقاء اليمامة ، وصوت الذئب ، وزئير الضرغام — مما هم فيه . ولهذا الصور الواهية نظائر تكثر فى شعر الطور الأول ، وتقل فى الثانى . ولكنها على قلتها أو كثرتها لا تزعزحه عن مكان الصدارة بين شعراء العربية الوصافين

* * *

وبلى هنا أكتفى بالكلام فى موضوعاته الشعرية ، وأستغنى عن الحديث فى باقى الأغراض السبعة القديمة بما فصلته فى نظائرها المتقدمة ؛ فحاسنه فى هذه وتلك متشابهة ، ومسأويه فى الواحق كالسوابق .

أما الأغراض الأخرى التى انفرد بها شوقى دون المتنبي (وهى : المزاح ، والأناشيد ، والقصص ، والمسرحيات ... الخ) فليس مكانها هنا ؛ لأننا نعرض للموضوعات المشتركة عند الشاعرين ، ونوازن بينهما فيما عالجاه معاً . أما ما انفرد به أحدهما فلا علاقة لبحثنا به . والحق أن تلك الموضوعات التى انفرد بها شوقى

جديرة بدراسة خاصة ؛ تكشف عنها ، وتظهر دقائقها ، وتعلن على الملأ مزاياها .
ولسكن هذا لا يمنعنا أن ننتهز المناسبة المواتية الآن لإعلان إعجابنا بها ، وثنائنا
عليها ، واعترافنا بجليل ما أقدم عليه صاحبها ، وعظيم ما قدّمَ للغة والناطقين
بها ؛ من مجد يبقى على الدهر ؛ وذِكْرٍ يُخلد على الزمان . ولمَ لا ؟

ألم يتخذ من أصفى الشعر ، وأعفّ الغزل ، وأكرم المعاني الوجدانية
أغاني سيارة ؟ يترنم بها الشيخُ المتوقر الجاد ، والفلّام المرح ؛ فتزهف
وجدانهم ، وتوقظ أنبل العواطف فيهم ، وتخفف عنهم حدة الجِدِّ ، وعناء
السكِّد ، وتضبط عنان المَرَح . من غير أن تذهب بوقار ، أو تُبقي على وحشة ،
أو تزيد في جهود ، أو عبث . بل تتفَتَّى بها الحرة المحصنة ، والكاعب المعُصر ؛
فتجد مُتعة النفس ، ولذة الروح ، والترجمة الطاهرة لأعمق المشاعر ، واللحن
الساوي البريء مما يخذش الحياء ، أو يجرح الفضيلة ، أو يومي من قُرب أو بُعد
إلى دَنَس . هذا إلى صوغ عَجَب ، ومعنى رفيع ، ووزن موسيقى مطرب .

فأين من هذه الأغاني العُلوية (بصوغها ، ومعناها ، وموسيقاها) ما كان
ذائعا مطلع هذا القرن في بلادنا والبلاد العربية الأخرى ؛ من تلك الخازي
الماجنة ، الخليعة ، الملهلة النسج ، الجوفاء المعاني ، التي جمعت في ثنائها كل مرذول
من القول ، ورجس من فنون الإغراء الدنيء ، وكانت من أكبر معاول الهدم
في حصون الأخلاق ، ومعاول الفضيلة ، ودعائم اللغة ؟ ولا أريد أن أسجل هنا
شيئا من تلك الأرجاس ، والأدناس ؛ فحسبنا ما صكَّتْ به أسماعنا ، وهوَّعتْ
به نفوسنا . حتى قَيَّضَ الله لنا وللناطقين بلغتنا «شوقيًا» فأخذ الأغاني من تلك
الحماة ، وسماها إلى مكانة من الفن الروحي الأقدس ، لم يكن يتسع لها أمل ،
ولا يسمو إليها وهم .

فن كان يقوم أو يتخيل أن أغانينا ستبقى حتى يكون منها الآيات الفنية المعجزة ، ويكون المترنمون بها أفراد الشعب جميعا : خاصته وعامته ، شبيهه وشبابه ، فتيته وفتيانه ؟ يتغنون بأغاني شوق التي مطالعها :

(١) يا جارة الوادي، طربت، وعادني ما يشبه الأحلام من ذكراكِ

... ..

(٢) ردت الروح على المضي معك أحسن الأيام يوم أرجعك

... ..

أرجفوا أنك شاكٍ موجع ليت لي فوق الضنى ما أوجعك...

(٣) بي مثل ما بك يا قمرية الوادي ناديت ليلي؛ تقوى في الدجى نادى

وأرسل الشجو أسجاء مفصلة أورد دى من وراء الأيك إنشادى

لا تكتمى الوجد؛ فالجرحان من شجن ولا الصباة ؛ فالدمعان من وادٍ

... ..

(٤) يا شراعا وراء دجلة يجرى فى دموعي ؛ تجنبتك العوادي

سر على الماء ؛ كالسميح رويدا وأجر فى اليم ؛ كالشعاع الهادي

... ..

(٥) ريم على القاع بين البان والعلم أحل سفك دمي فى الأشهر الحرم

نعم إنها المعجزة الفنية ، أظهرها الله على يد شوقي ، وآثره بها ؛ فكان

من ورائها ما يكون وراء المعجزات ؛ من إزالة مفاسد ، وقضاء على شرور ،

وإنذار بجديد فيه الخير ، والنفع ، والإسعاد . ولقد ظهرت بوادر الخير فى وقت

لم يكن يدور بخلد أحد فيه أن موج الأغاني الماجنة — وقد فاض بلاؤه ،

وتغلغل شره — سيخف تياره ، وينحسر طفياناه ، وينبرى له من يقف

فى وجهه ؛ يرده ، ويصده ، بل يقضى عليه ويزيل معالنه قدر استطاعة المجتد المخلص . ولا يكتفى بالرد ، والصد ، والقضاء ، والحو ؛ بل يُحل محلّه ما فيه شفاء النفس ، وهوى الفؤاد ، ومرضاة الأخلاق . من كان يقوم أو يتخيل ذلك ؟ ولكن الله أراد ، وهياً للأمر شوقى . وكفى .

* * *

وإذا كنا نُشيد بفضل أغانيه فلن نـجـد فضل أناشيده القومية ، والحماسية ، وباقى أناشيده التى بعثت فى النفوس حرارة الوطنية ، وأيقظت فيها حوافز الحرية ، وكشفت عن مآثرنا وأبجاذنا ، وهيات لطلابنا ، وصنّاعنا ، وجنودنا ، وكثير من طوائفنا — ما يترجون به عن مشاعرهم الخاصة ، وعميق أحاسيسهم فى ناحية معينة من نواحي حياتهم ؛ فيجدون متنفساً مأموناً لسكوان خواطرم التى تضطرم فى صدورهم ولا يجدون السبيل للتخفف منها إلا بمثل هذه الأناشيد توائم بين طبائعهم وأعمالهم ، وتجمع بين الشاعر والمظاهر ؛ فى عبارات ومعان وأوزان موسيقية تعدها الذوق المصقول ، وحسن الاختيار الموفق . وبهذا حلت الأناشيد الكريمة محل الأناشيد السوقية المهينة ، وتوات مكان الصدارة ، وسارت الأغاني فى امتناع النفوس ، وإشاعة السرور ، وإذاعة نبيل العواطف ، وكريم الحماد ، وشاركتها فى مقاومة العامية ، ومحاربة الابتذال والاستهتار ، وحبيت للجماهير فصيح اللغة ، وحلو التعبير . وحسبك من أناشيده ما أشرنا إلى عناوينه من قبل^(١) ، ونكتفى بأن نعيد الإشارة للنشيد الوطنى الذى مطلعُه :

بنى مصرى مكانكو تهياً فهياً ؛ مهّدوا المعجد ، هياً

خذوا شمسَ النهارِ له حُلِيًّا أَلَمْ تَكُ تَاجَ أَوَّلِكُمْ مَلِيًّا ؟
على الأخلاقِ خطُّوا المجدَّ ؛ وابنوا فليس وراءها للمجدِّ رُكْنُ
أليسَ لكم بوادي النيلِ عدنُّ وكوثرُها الذي يجري شهياً

... ..

أما باقى الأناشيد فوئلتها الديوان ، ومن تمام الفائدة الرجوع إليه .

* * *

وشىء آخر استأثرَ به شوقي دون المتنبى ، فقد هياً للأطفال شعراً يناسبهم ، ويسائر قواهم ، من غير أن يتقل عليهم ، أو يسىء إلى أصول الشعر . ولم يدعم يهيمون ويضطربون ، وقد يقعون على ما يفسد خلقهم ولغتهم ؛ فخدم الناشئة واللغة خدمةً غالية يدرك قيمتها الأدباء والمربون ، وتعد أجيال الغد كما تعد أجيال اليوم ، ولم يدع فريقاً بغير رعاية .

* * *

أما حكاياته^(١) ففنّ آخر من الفنون الشوقية الرفيعة ؛ لامن حيث إنها حكايات شعرية ، وإطائف تهذب الخلق ، وتُحبَّب إلى النفس دراسة الأدب . ولا من حيث إنها على ألسنة الحيوانات وأشباهها ، أو أنها مهلة المأخذ ، جيدة العبارة ؛ فقد سبقه إلى هذا بعض الأدباء قديماً وحديثاً — ولكن من حيث إنها جمعت تلك المحاسن كلها ، وزادت عليها أموراً أخرى جميلة الشأن .

أولها : أنها تضرب في موضوعات شتى ، تتصل بالحياة العصرية القائمة ، من غير

(١) أكثرها في الجزء الرابع ، وعددها خمس وخسون حكاية ، في نحو تسع وسبعائة

بيت (كما ورد في مقدمة ذلك الجزء) .

أن تُغفل الإشارة إلى الحوادث القديمة ، والتاريخ الماضى ؛ للانتفاع بِعَبْرِهِ ومواعظه ؛ كحكاية : حمامتان فى الحجاز (يرمى بها إلى حب الوطن) وحكاية : الديك الهندى والبلدى (يشير بها إلى الاستعمار الأجنبى ووسائله ، وكيف يُمكن له الخلاف بين أفراد الأمة) وحكاية : نَدُور الخادم (يومئُ بها إلى غطسة الملوك ، واستهانتهم ، وكيف تنتهى بهم إلى الدمار والهلاك) وحكاية : الغيل وأمة الأرانب (يوحى بها إلى أن اتحاد الضعفاء ، واتباعهم رأى عقلائهم ، وبعدهم عن الهوى — يقوّيهم ، ويدفع عنهم شرور الأعداء الأقوياء) .

ثانيها : أنها حكايات وضعت (فى أغلب الظن) للأطفال — بجانب ما وضعه لهم من شعر خاصّ — كي يجدوا فيها مَسَلاتهم ، وما يلائم مواهبهم . ولكنها بالرغم من ذلك قد أُحكمت لغتها — على سهولتها — وتضمنت معانيها الواضحة البسيطة معنىً أخرى عميقة ؛ فجاءت لغتها مُحَبِّبةً للناسِ الذى لا يتطلب أكثر من الخفة والسهولة ، والأدب المكتمل الذى يرى من إحكامها ، ودقائق تركيبها ، وبارع اختيار ألفاظها — ما لا يراه ذلك الناسُ . وجاءت معانيها جذابة للطفل بوضوحها ، وسهولة إدراكها شائعة للبلاغى الكبير الذى يدرك من ظواهرها ، وخفاياها ، وبعيد مراميها — ما لا يدركه سواه . فما مثلها إلا كصورة زيتية بارعة ؛ تناولها فنان مقتدر بريشته وألوانه ؛ فأبرزها طُرْفَة تسر الناظر الفنى وغير الفنى ؛ إذ يرى فيها كلاما ما يروقه بقدر خبرته ومواهبه .

ثالثها : أن تلك الحكايات الشائعة التى تستهوى الناشئة بصيغتها ودلالاتها ، وتُحِبُّ

الأدب إليهم في قابلهم — قد حوت حِكْمًا صريحة عالية ، فوق ماتضمنته
في ثناياها من أخرى يدركها المُحَفِّكُونَ . والعجب أن هذه الحِكَمَ
الظاهرة لم تصادف صعوبة في اللفظ ، ولا خفاء في الغرض ، ولا بُعدًا
في الفكرة يباعد بينها وبين الأطفال ، ولم تَلَقَ ما يصغر شأنها أمام
الكبار المحرِّين . وهذه كسابتها من دلائل الشاعرية المقتدرة ، والمهارة
الفنية البارعة .

ومن أمثلة الحِكَمَ (وأكثرها يجيء خاتمة للحكاية) :

- (١) قوله في نهاية قصة السلوقي والجواد
أَمَا تَرَى الطَيْرَ عَلَى ضَمْفِهَا تَطْوِي إِلَى الْحَبِّ مِثْلَ الْبِلَادِ
- (٢) وفي نهاية : النملة والمقطم
صَاحِ ، لَا تَخْشَ عَظِيمًا فَالذِي فِي الْغَيْبِ أَعْظَمُ
- (٣) وفي نهاية : سليمان والهدهد
إِنَّ لِلظَّالِمِ صَعْدًا يَشْتَكِي مِنْ غَيْرِ عِلَّةِ
- (٤) وفي نهاية القبرة وابنها :
لِكُلِّ شَيْءٍ فِي الْحَيَاةِ وَقْتُهُ وَغَايَةُ الْمُسْتَعْجِلِينَ قَوْنُهُ
- (٥) وفي نهاية الجمل والثعلب :
لَيْسَ بِحِمْلٍ مَا يَمْلَأُ الظُّهْرَ مَا الْحِمْلُ إِلَّا مَا يَمْلَأُ الصَّدْرَ
- (٦) وفي نهاية الثعلب والأرنب والديك :
مَا كَلَّمْنَا يَنْفَعُهُ لِسَانُهُ فِي النَّاسِ مَنْ يَنْطَقُهُ مَكَانُهُ

(٧) وفي نهاية الوطن :

هَبْ جَنَّةَ الْخُلْدِ الْبَيْنَ لَأَشْيءَ يَعْدِلُ الْوَطْنَ

(٨) وفي نهاية الثعلب والديك :

مُخْطِئٌ مَنْ ظَنَّ يَوْمًا أَنَّ لِلثَّعْلَبِ دِينًا

(٩) وفي نهاية : اليمامة والصياد (وقد اهتدى إلى مكانها بسبب حديثها ، فصادها) :

تَقُولُ قَوْلَ عَارِفٍ مُحَقَّقٍ ۝ مَلَكَتْ نَفْسِي لَوْمَلَسْتُ مَنْطِقِي

(١٠) وفي نهاية : الكلب والحمامة (وقد نجَّاهما من الهلاك كما نجَّته) :

هَذَا هُوَ الْمَعْرُوفُ يَا أَهْلَ الْفِطَنِ ۝ النَّاسُ بِالنَّاسِ ؛ وَمَنْ يُعِنْ يُعِنْ

.....

ولا عذر للمتنبي في إهمال هذا النوع من الحكايات ؛ فقد كان معروفاً له من كتاب : كذيلة ودمنة ، وألف ليلة وليلة ، وغيرهما من الكتب الموضوعة والمترجمة .

* * *

فأما القصص المسرحية وغير المسرحية فأية في لغتنا ، انفرد بها شوقي ، وأُنقِذَ بها سمعة الشعر العربي — كما قلنا — وقد كان متهماً بالعجز والقصور في هذه الناحية ، وتدارك بها المسرح ؛ فانتشله من الوهدة التي هوى فيها بتثليل روايات لا تتصل بالفن الرفيع بصلة ، ولا تمتُّ إلى الخلق الكريم بحُرْمَةٍ ، ولا تمتدُّ إلى اللغة السليمة بِوَشِيحَةٍ . فلما جاء شوقي ساعفه برواياته المعروفة التي كانت فاتحة عصر تمثيلي جديد ؛ تأخى فيه الفن

الإخراجي والموضوعي ، وباركتهما اللغة القويمة ، والأغراض الكريمة ؛ فكان من هذه المجموعة المثالية الآية التي انفرد بها شوقي ، وأنحف بها جيد العربية ، ومهدّ بها الطريق أمام رواد الأدب المسرحي المنظوم . وقد سبق^(١) أن أشرنا إلى بعض مزاياها في مناسبة عابرة سالفة ، ونقلنا مشهداً موجزاً منها .

ولشوقي قصص أخرى تاريخية ، أو تاريخ قصصى ، أودعه كتاباً مستقلاً سماه : دول الإسلام ؛ أشاد فيه بمجد الإسلام وأبطاله . وعرض مظاهر العظمة في دوله واحدة فواحدة ، مُنَوِّهاً بما لها من فضل ومآثر . ساق هذا كله في لغة سهلة ، وبيان جليّ ، وأمانة في الرواية . ولعله كان يقصد من وراء هذا جعله أدبا شعبيا عاما ؛ يفيء إليه المسلمون في مجامعهم ومهراتهم ، ويستعينون به على تذكر ماضيهم المجيد ، ويُقبلون عليه كما يُقبلون على قصة : عنتره ، والهلالي ، وغيرها من القصص الشعبي . وفي ذلك من جليل النفع ، وعظيم الأثر — ما لا يخفى .

* * *

أما باب المزاح « والخصوصيات » في شعر شوقي فيباب لم يطرقه المتنبي — كما سبق — ولكن طرّقه كثير من الأدباء في مختلف العصور ، وفي مقدمتهم بشّار ، والجاحظ ، وأبونواس ، والمعري . غير أن مزاح شوقي عَفّ لا يجرح ، ودعاباته حلوة لا تخلق عداً ، ولا توقظ فتنة ؛ وقد ذكرنا مثلاً منها فيما سبق^(٢) .

* * *

بقى من خصائص شوق التي امتاز بها على المتنبي : النثر الرائع حقا ؛ فله في هذا الميدان كتاب حافل بالموضوعات النثرية القديمة والحديثة ، سماه : (أسواق الذهب) ووصف موضوعاته وصفا نستغنى به عن غيره ، حيث يقول :

(إنها فصول من النثر مازعتُ أنها غُرُرُ زيادٍ ، أوفِقرُ الفصيح من إِيَادٍ ، أوسَّجَعُ المطوِّقَةَ على فرع غصنها الميَادِ . ولا نوهت حين أنشأتها أني صنعت : (أطواق الذهب) للزخشرى ، أو طبعت : (أطباق الذهب) للأصفهاني ، وإن سَمَّيتُ هذا الكتاب بما يشبه اسميهما ، ووسَّمتُهُ بما يقربُ في الحسن من وَسَمَئِهِمَا . وإنما هي كلمات اشتملت على معاني شتى الصُّورَ ، وأغراض مختلفة الخبرَ ، جليلة الخطَرُ ؛ منها ما طال عليه القِدَمُ ، وشاب على تناوله القَلَمُ ، وألمَّ به الفُؤَلُ من الكُتَّاب والعَلَمَ . ومنها ما كثر على الألسنة في هذه الأيام ، وأصبحَ يَعرَضُ في طرق الأقلام ، وتجري به الألفاظ في أعنة الكلام ؛ من مثل الحرية ، والوطن ، والأمة ، والدُّستور ، والإنسانية . وكثير غير ذلك من شئون المجتمع وأحواله ، وصفات الإنسان وأفعاله ، أوماله علاقة بأشياء الزمن ورجاله . يكتنف ذلك أويتمزج به حِكَمٌ عن الأيام تلقيتها ، ومن التجاريب استمليتها ، وفي قوالب العربية وعيبتها وعلى أساليها حَبَّرْتُهَا وَوَسَّيْتُهَا ...)

وقد صدق في وصفه الذي يوضح حقيقة ما اشتملت عليه تلك الموضوعات وطريقة صياغتها . وليس فيها للناقد التزيه مَفْعَمَز ، ولا عليها مأخذ . ولكن الذي يتلمس العيب يجده ، ومن يتتبع الزلات يصادفها ، وإن لم يصادفها يخيلها . فقد عابوا هذه الموضوعات بأنها مصنوعة متكلفة ، وأن سجع

الكهان فيها ملحوظ المكان . وتلك دعوى جريئة ، عَرَضْنَا لِمَثَلِهَا فِيهَا
سبق ؛ فليست الصنعة في كل مواضعها بغيضة ، ولا السجع في كل مواطنه
مستقبحا ؛ إنما البغيض المستقبح ما أساء إلى المعنى ، أو كان في موضعه
مقهوراً لا يؤيده الطبع السليم ، وفي موطنه غريباً لا يؤلفه الذوق الناضج .
٤ وليست موضوعات شوقي الثرية بسبب من هذا أو شبه سبب . وخير ما ترجع
إليه في هذا المقام قول شوقي في موضوع عنوانه : السجع

« قد ظَلَمَ العربية رجالٌ قبحوا السجع ، وعدَّوه عيباً فيها ، وخطبوا
الجميل المتفرد بالقبيح المردول منه ؛ يوضع عنوانا لكتاب ، أو دلالة على
باب ، أو حشوا في رسائل السياسة ، أو أثرت في المقالات العلمية . فيانشء
العربية . إن لغتكم لَسَرِيَّةٌ مُثَرِّبَةٌ ، ولن يضيرها عائب ينكر جلاوة
الفواصل في الكتاب الكريم ، ولا سجع الحَمَامِ في الحديث الشريف ،
ولا كل مأثور خالد من كلام السلف الصالح . . . »

ومن نماذج نثره :

(١) الجمال

جمعت الطبيعة عِبَرَتَيْهَا فكانت الجمال . وكان أحسنه وأشرنه ما حلَّ
في الهيكل الآدمي ، وجاورَ العقلَ الشريفَ ، والنفسَ اللطيفةَ ، والحياةَ
الشاعرةَ . فالجمالُ البشريُّ سيدُ الجمالِ كله .

وليس الجمالُ بِلُحْخَةِ العيونِ ، ولا بِبريقِ الثُّغُورِ ، ولا هَيْفِ القُدودِ ،
ولا أَسَالَةِ الخدودِ ، ولا لُؤْلُؤِ الثَّنَائِيَا وراءَ عقيقِ الشفاءِ . ولكن شُعاعٌ

عُلُوِّي يَبْسُطُهُ الْجَمِيلُ الْبَدِيعُ عَلَى بَعْضِ الْهَيَا كُلِّ الْبَشَرِيَّةِ ؛ يَكْسُوها رَوْعَةً
وَيَجْعَلُها سِحْرًا وَفِتْنَةً لِلنَّاسِ .

(٢) المسال :

يَا مَال . الدُّنْيَا أَنْتَ ، وَالنَّاسُ حَيْثُ كُنْتَ ؛ سَحَرْتَ الْقُرُونِ ،
وَسَحَرْتَ مَنْ قَارُونَ ؛ وَسَعَرْتَ النَّارَ يَا تَيْرُونَ . تَعَوَّدَ الْحَقْدُ أَنْ
يُخَالَفَكَ ، وَأَبَى الْحَسَدُ أَنْ يَخَالَفَكَ ، وَكُتِبَ عَلَى الشَّرِّ أَنْ يُخَالَطَكَ
وَيُؤْثِرَ الْفَلَكَ ...

(٣) الوطن

الْوَطَنُ مَوْضِعُ الْمِيلَادِ ، وَمَجْمَعُ أَوْتَاطِ الْفُؤَادِ ، وَمَضْجَعُ الْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ .
الدُّنْيَا الصَّغْرَى ، وَغَتَبَةُ الدَّارِ الْآخَرَى . الْمَوْرُوثُ الْوَارِثُ ، الزَّائِلُ مَنْ
حَارَثَ إِلَى حَارَثٍ . مُؤَسَّسُ لُبَانٍ ، وَغَارِسُ لِحْجَانٍ ، وَحَيٌّ مَنْ فَانٍ ؛
دَوَالِيكَ حَتَّى يُكْسَفَ الْقَمَرَانِ ، وَتَسْكُنَ هَذِي الْأَرْضُ مِنْ دَوْرَانِ .

(٤) الزهرة

صُورَةُ الرَّقَّةِ ، وَرَمَزُ الْعَاطِفَةِ ، وَهَيْكَلُ الْخَيْرِ وَالْحَبِّ وَالْجَمَالِ . قَدِيمًا
أُولَعَ بِهَا النَّاسُ ، وَقَدِيمًا ظَلَمُوهَا . أَمَّا هِيَ فَطَالَمَا مَلَأَتْ حُدُودَهُمْ
بِهَاءً وَحُسْنًا ، وَحَجَرَاتِهِمْ زِينَةً وَطِيبًا ، وَجَمَلَتْ عُرَى ثِيَابِهِمْ ، وَحَسَّنَتْ
أَعْرَاسَهُمْ وَوُلَاءَهُمْ ؛ فَكَانَتْ مَنَصَّةً لِلْعُرُوسِ وَإِكْلِيلًا ، وَشَارَةً
لِلْمَائِدَةِ وَمِنْدِيلًا ...

تِلْكَ نَمَازِجٌ مَقْتَبَسَةٌ مِنْ مَشْهُورِ شَوْقِي . وَهِيَ عَلَى قَصْرِهَا وَاخْتِصَارِهَا تَكْفِي

لتوضيح تلك الناحية الأدبية التي برع فيها براءته في النواحي الأخرى ؛ وإن كان في الشعر أظهرَ براءةً ، وأبلغ اقتداراً .

أما المتنبي فاستُ أعرف له منشوراً . إلا بضع جميلٍ قصارٍ نسبوها إليه ، ووصفوها بأنها مما كان يعارض به بعض الآياتِ وقصارِ السور القرآنية ليثبت نبوته ؛ كقوله :

« والنجم السيار ، والفلك الدَّوَّار ، والليل والنهار ، إن الكافر لفي أخطار . امضِ على سُنَّتِكَ ، واقفُ أثرَ من كان قبلك من المرسلين ؛ فإن الله قامعٌ بك زَيْغ من أَلَحَدَ في الدين ، وضل عن السبيل ... »

وأمثال هذه الآيات التي يثبتها قوم ، وينفيها آخرون . وهي قليلة غَنَّةً ، مصنوعة ، تضرب في ناحية واحدة . ومع أنه يُحاكى بها القرآن ، وينسج على منواله ، فقد جانبها الروعة ، وزايلتها حسنات التأليف ؛ برغم قلتها ، وحرص مبتدعها على التحدى ببلاغتها ؛ كما يزعم الرواة .

على أني أعرف له قطعة نثرية جميلة لا أعرف له غيرها ؛ وهي التي كتبها بعد شفائه من مرض كان يعود فيه صديق له ، ثم انقطع عن زيارته بعد الشفاء . قال :

« وَصَلْتَنِي — وَصَلَكَ اللَّهُ — مُعْتَلًّا ، وَقَطَعْتَنِي مُبِلًّا . فَإِنْ رَأَيْتَ أَلَا تُحِبُّ الْعَلَةَ إِلَيَّ ، وَلَا تُكَدِّرُ الصَّحَّةَ عَلَيَّ — فَعَلْتُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ . » . وهي قطعة مسجوعة قوية النسج والمعنى . ولكننا لاستطيع أن نتخذ منها حُكماً صادقاً على نثر المتنبي ، ولا أن نوازن بينه وبين نثر شوقي . ومن هنا صح القول بأن المتنبي أحلى هذا الميدان ، وهياً لشوقي فرصة التفرد والسبق فيه .

(٥) الحكمة التي اشتهر بها الشعاعران

وأثرها في شعرها .

إذا كانت الحكمة هي : الكلام الموجز ، البليغ ، الذي يحوى عظة نافعة ، وعلماً مفيداً ، وقد تشتهر فتكون مثلاً سياراً ، وقولاً ذائماً — فالمتنبى وشوق في مقدمة شعراء الحكمة والأمثال ؛ إذ لا تكاد تخلو قصيدة لأحدهما من حكمة ومثل ، بل حكم وأمثال .

بيد أن حكم المتنبى أوفر عدداً في القصيدة الواحدة وفي القصائد . (ولعل هذا يفسر ما وصفه به القدماء من أنه : حكيم) . وهي — على وفرتها — أقوى صياغة ، وأقرب في دلالتها إلى قلوب الأمم العربية وهواها . وبهذه المزايا الثلاث — الكثرة ، وقوة الصياغة ، وقربها من النفوس — تفوق المتنبى على شوقي في هذا المجال .

فأما الكثرة فأمر حسابي عددي لا يحتمل نقاشاً عقلياً ، ولا يتطلب أكثر من الرجوع لديوان كل منهما ، وحصر حكمه وأمثاله . وسينتهى الإحصاء والعدّ بإثبات الكثرة العددية للمتنبى .

وأما قوة الصياغة ، وإحكام النسيج — فمرّد الأمر فيهما للقوانين البلاغية والنقدية ؛ يحتكم إليها الباحث . (وقد ألحنا إليها أول الكتاب) فتحكم المتنبى في غير تردد .

وأما قربها من أفئدة الأمم العربية وهواها فلأن تلك الحكم توحى بالقوة ، بل تطالب بها وبالعرف والشدّة في إدراك الغايات ، واسترجاع الحقوق ، ودفع

المظالم . ولا ترى في هذا السبيل ملاينة ولا مسالمة ، ولا تنجح إلى مهادنة وصفح . كما تنجح الحِكم الشوقية في أكثرها .

فكلا الشاعرين يرسل حكمته ملونة بلون غرائزه وطباعه ، مُشكَّلة بشكلها ؛ فالمتنبى يدعو إلى محاربة الطغاة ، والفتك بالأعداء ، وطلب الحق بالقنا والأعوان ، وإهمال الرحمة ، وإيثار العز في الجحيم على الذل في جنان الخلد ، وتوسيد الأمور لأهلها ، وانتراعها من غيرهم قسرا ، ومحاربة الدخلاء ، ووقف الأجانب عند حدم ، وإنزال الناس منازلهم ؛ ولو اقتضى الأمر ركوب الأسنة ، وإراقة الدماء .

ثم هو يسبّ الزمان الذي يرفع الجهلة الأوغاد ، ويحط العقلاء الأبطال . وأمثال هذا مما قد يلجأ إليه شوقي ولكن بخفة ورفق لا يرضيان الأمم العربية في أيام المتنبى ولا في أيامنا ؛ فقد كانت منكوبة في عصر المتنبى بالضعف والتفكك ، والانقسام ؛ يمدكها الأجانب ، ويتحكم في أمرها العبيد ، والإماء ، والجنود المرتزقة ، ويحطم كياناتها الحلاف السياسية ، والنزاع المذهبي . حتى هوت إلى درجة لم تشهد لها من قبل . وهل أدل على هذا من أن تكون مصر — إذ ذاك — محكومة بعبد حبشي ، قذفت به أسواق النخاسين إلى قصور الحكم المصري ؟ وأن تكون الخلافة العباسية في بغداد مغلوبة على أمرها . وإن شئت فقل : صورية ؛ تحرَّكها أيدي الإماء ، والجنود الدخلاء ، وتلعب بها لعب الصَّوالج بالأكر . ومن استشعر العزة من الخلفاء ، أو تظاهر بالقوة — وثبوا عليه ؛ فأوردوه موارد الهلاك ، في غير تردد ولا إهمال .

وأن تكون بلاد فارس وما يليها خاضعة لسلطان جماعة من الأمراء ،
والقواد الأعاجم ؛ فَمَزُوا إليها من صفوف الجند — غالباً — وفي نفوسهم
ما فيها من كره للعرب وُبُغْض - برغم الدين الإسلامي الذي يظللهم برأيته ،
ويجمع بينهم بأحكامه - إذ لم ينسوا لهم أنهم قَضَوْا على مملكة فارس الأولى ،
وحضارتها ، وأنهم أَدَجَّوها في الدولة العربية الفتية ؛ فهم يضمرّون للعرب
العداء من أجل ذلك ، ولا يعترفون لهم بفضل ، ويعملون دائبين على
التحرر بأنفسهم وبلادهم ولقتهم ، ما استطاعوا لذلك سبيلاً .

وأن يكون الحجاز وما حوله شيعاً وقبائل ، لا تخمد ثورتها ، ولا تنطفئ
فتنتها . وليست بقية البلاد الإسلامية بأحسن حالاً مما وصفنا . إلا ولاية حلب
وما يليها ؛ فقد كانت — على الرغم من تبعيتها الاسمية للخلافة العباسية
ببغداد — محكومة بأمر عربي ، يجري في عروقه الدم العربي الأصيل ،
ويصدر في أقواله وأفعاله عن مثل ما كان عليه آباؤه الأجداد ، هو :
سيف الدولة الحمدانيّ .

على أن عريته الأصيلة ، ونبيل أخلاقه — لم يدفعاً عنه كيد
الكائدين ، وفتن الأعداء ؛ ففضى مدة الإمارة في حروب ، وجِلَاد بينه
وبين أقاربه حيناً ، وحيناً بينه وبين الخارجين عليه ، وآونة بينه وبين
الروم المتأخّنين لبلاده ؛ فلم يكن يخرج من حرب إلا ليستعد للحرب ،
ولا يطفى ناراً إلا ليستقبل أخرى ؛ أقوى لهيباً ، وأشد اندلاعاً .

كل هذا وأفراد الشعوب الإسلامية مستسلمة ، ساكنة ، تؤثر السلامة
وترجو العافية ؛ لطول مالاقت من عنت ، واحتملت من مظالم . فلم يكن

أمامها إلا أن تَنْجُوَ بنفسها ، وتنصرف عن شئون الحكم والحكام ، وكل ماله صلة بهما ؛ إشارا للراحة ، وفرارا من البلاء . وأهل المتنبي قصد هذا كله أو بعضه حين قال :

أَحَقُّ عَافٍ بِدَمْعِكَ الْهِمَمُ أَخَذْتُ شَيْءَ عَهْدٍ بِهَا الْقِدَمُ
وإِنَّمَا النَّاسُ بِالْمُلُوكِ . وَمَا يُفْلِحُ عَرَبٌ مُلُوكُهَا عَجَمُ
لَا أَدَبٌ عِنْدَهُمْ ، وَلَا حَسَبٌ وَلَا عَهْدٌ لَهُمْ ، وَلَا ذِمَّةٌ
فِي كُلِّ أَرْضٍ وَطَنَتْهَا أُمَمٌ تُرْعَى بَعْدُ ؛ كَأَنَّهُمْ غَمٌ
يَسْتَخْشِنُ الْخَزَّ حِينَ يَلْبَسُهُ وَكَانَ يُبْرَى بِظَفَرِهِ الْقَلَمُ

تلك حال الأمم الإسلامية الكبرى أيام المتنبي . وإنها لسكذلك أوقرية منه أيام شوقي الأولى ، في مستهل القرن العشرين ؛ حيث كانت الأمم العربية عامة خاضعة للدولة العثمانية خضوعا اسميا . أما في الحقيقة فلم تكن واحدة تبرا من استعمار أوربي ، واحتلال أجنبي ؛ يبسط نفوذه عليها ، ويطلق سلطان أبنائه وأعوانه في شئونها ، ولا يدع صغيرة ولا كبيرة من تلك الشئون إلا يتصرف فيها كما يشاء . مستعينا في ذلك بوسائله ؛ من نشر الإرهاب حيناً ، وبسط الأمل حيناً آخر ، وخلق الأحزاب ، وإيقاع العداوة بينها ، وضرب بعضها ببعض ، وإذاعة أسباب التفرقة ، وإشاعة العداوة والبغضاء بين الجماعات والأفراد . . . إلى غير ذلك مما هو معروف من وسائل المستعمرين . وقد مكن له ما كانت تلاقيه الأمم العربية من حكامها ، ولا سيما الأتراك منهم . فلما جاءت العهود الاستعمارية لم يفزع الناس للشر الطارىء ، وحسبوه امتدادا للشر القديم ، ووصلة للبلاء السابق ،

واستقبلوه ساكتين ، أو خائفين ، أو مؤلمين أن يكون فيه خير ونجاة مما يعانون . وانتظروا حتى طال بهم الانتظار ، وصبروا حتى كاد الصبر يكون تبكلاً . ثم حركتهم الأحداث الخاصة والعامة ؛ فاستيقظوا على صوتها ، ودخلوا في فجر حياة جديدة .

في الفترة الأولى من عصرنا الحاضر ، وفي الفترة التي تشابهها من عصر المتنبي كان الناس يؤثرون السلامة — كما أشرنا — لا يرفعون صوتاً ، ولا يتحدثون حركة . وكان نظرهم للحكام نظر الطير للصادك كما يقولون ؛ لا يستطيعون محاسبتهم ، بل لا يأمنون جانبهم ، ولا يستطيعون الاقتراب منهم ، ولا يملكون دونهم من الأمر شيئاً ؛ فكانت الجرائم والمصائب ، والكبائر ، والصغائر — تقع من حولهم وهم لا ينبسون ، ولا يملكون أن يقولوا ، ولا أن يعملوا شيئاً ، ولا يجرؤ واحد أن يصرح بما يدور في خلد . فجاء المتنبي ، وتحدث عن الختوق المسلوقة واستردادها ، والعزة والحرص عليها ، ومقاومة الطغاة ، والبغاة ، وعزل الدثني من مناصب الحكم ، و . . . و . . . فكان المترجم الصادق عن شعور الناس وأمانهم ، وكان الناطق بلسانهم حيث لا ينطقون ، أو لا يجرؤ واحد منهم على النطق ؛ فطربوا ، وصادف حُرُّ كلامه هوى في نفوسهم ، ولاقت آراؤه مكانها من أفئدتهم ؛ فاهتزوا لها ، ورددوها ، وتحدثوا بها ، وبقائلها الذي خفف عنهم بعض ما يجدون ، وناب عنهم في ترجمة ما يحسون ، واحتمل التبعات دونهم . وكان كلامه فوق هذا ماضوفاً في قالب من الحكمة ، رصين الصوغ ، متين الأداء ، قوى الآصرة ، فزاد في قوته ، وذيعه ، وحب صائمه . وأقبلوا على حكمه يحفظونها ، وينشدونها ،

غير ملتفتين إلى الكثرة الأخرى من شعره ؛ لأنها لاتعنيهم ، وغير مدركين ما فيها من عيوب ومثالب ؛ لأنها لاتتصل بحياتهم وأحوالهم . فمن ثم كانت الحكمة بصياغتها وصفاتها هي السبب الأقوى في شهرة المتنبي ، وخلود اسمه ، ولا أومن بسبب قَوِيٍّ آخر ، إلا ما قد يكون من ادعائه النبوة ؛ فإن هذا الادعاء في بلاد إسلامية هو أكبر الأحداث التي ترجحها رجا عنيفا إذ ذاك . فلا عجب أن تحدث الناس بمدعيها ، ولهجوا بذكره ، وتظلموا إلى أخباره ، وكل ما ينسب إليه من قول أو عمل ، لا إعجاباً به وبفنه وأدبه ؛ ولكن ليعرفوا حقيقة هذا المدعى الجريء الغريب .

* * *

أما الحكم والأمثال الشوقية فلها نصيبها وأثرها في شهرة شوقي ، ولكنها ليست السبب الأوحده في تلك الشهرة ، بل ليست أهم الأسباب ، وإنما هي عامل من عوامل كثيرة تَضَامَّتْ ، واثقلت ، وتمالأت على أن تجعله نابه الشهرة ، ذائع الصيت ، فكان لها ما أرادت . وقد عرضنا لتفصيل ذلك فيما مضى . ولم ننس بعد ما قلناه عن تخلف شوقي في هذا الميدان الحكيم الذي كان المتنبي السَّابِق الأول فيه . وإليك طائفة من حكم كل وأمثاله :

(١) من قصيدة للمتنبي وصفها الديوان بأنها قيلت في صباه :

عش عزيزا ، أومت وأنت كريم بين طعن القنا ، وحقق البنود

فردوسُ الرماحِ أذهبُ للغيظِ ، وأشقى لِنِيلٍ صدر الحفودِ

لا كما قد حيت غير حميدٍ وإذ امتّ مت غير فقيـد
 فاطلب العزّ في لظى ، وذر الذلّ ولو كان في جنان الخـلود
 (٢) ومن قصيدة يمدح بها على بن أحمد الرّميّ الخراساني ، مطلعها :
 (وفيه كثير من الحكم والأمثال المتواليّة) :

لا افتخارٌ إلا لمن لا يُصَامُ . مدركٌ ، أو محاربٌ لا ينَامُ
 ليس عزمًا ما مرّضَ المرء فيه . ليس همًّا ما عاق عنه الظلامُ
 واحتمال الأذى ، ورؤية جانبيه غداة تَصَوَّى به الأجسامُ
 ذل من يغبطُ الدليل بعيش . ربّ عيشٍ أخفُّ منه الحامُ
 كل حلم أتى بغير اقتدارٍ . حجةٌ لاجئٍ إليها اللثامُ
 من يهنّ يسهل الهوانُ عليه . ما لجرحٍ بميتٍ إيلامُ
 (٣) ومن قصيدة في ذم إسحاق بن كَيْفَلَمَغ (وفيها الحكم والأمثال
 المتواليّة الآتية) :

ولقد رأيتُ الحادثات ؛ فلا أرى . يَقَقَّ^(١) يُمَيّتُ ، ولا سوادا^(٢) يَحْضِمُ
 والهَمُّ يَخْتَرُمُ الجسيمُ نخافةً . ويشيبُ ناصيةَ الصبيّ ، ويُهْزِمُ
 ذو العقل يشقى في النعيمِ بعقله . وأخو الجهالة في الشقاوة يَنعَمُ
 والناس قد نبذوا الحِمَاطَ ؛ فطَلَقَ . يَنمى الذى يُولى ، وعافٍ يَندمُ
 لا ينجِدُ عَنكَ من عدوّ دمعهُ . وارحمْ شبابك من عدوّ تَرْحمُ

(١) أبيض شديد البياض : يريد : الشاب .

(٢) يريد : سواد الشعر ، كناية عن الشباب .

لا يسلّم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم^(١)
يؤذى القليل من اللثام بطبعه من لا يقل^(٢) كما يقل ويؤم
والظلم من شيم النفوس؛ فإن تجد ذا عفة فليعه لا يظلم
(٤) وقوله من قصيدة يمدح بها الحسن بن طنج :

من الحلم أن تستعمل الجهل دونه إذا اتسمت في الحلم طرق المظالم
وأن ترد الماء الذي شطره دم فتسقى إذا لم يسقى من لم يراحم
ومن عرف الأيام معرفتي بها وبالناس روى ربحه غير راحم

(٥) ومن قصيدة يمدح بها سيف الدولة (وجاءت الحكم التالية بها متفرقة) :

(أ) ومن سحّب الدنيا طويلاً تقلبت على عينه حتى يرى صدقها كذباً
(ب) ومن تكن الأسد الضواري جدوده يكن ليله صباحاً ، ومطعمه غضباً
(ج) ولست أبالي بعد إدراكى العلا أكان ترأثاً ماتناولت أم كسباً
(د) أرى كلنا يبغى الحياة يسعيه حريصاً عليها ، مستها ما بها ، صبا
محب الجبان النفس أو رده التثقي وحب الشجاع النفس أو رده الحرباً
ويختلف الرزقان والفعل واحد إلى أن يرى إحسان هذا لذاتنا
(٦) ومن حكمه وأمثاله الأخرى :

(أ) يهون على مثلى إذا رام حاجة وقوع العوالي دونها ، والقواضب
كثير حياة المرء مثل قليلها يزول ، وباقى عمره مثل ذاهب

... ..

(١) قال ابن جني : أشهد بالله إن لم يقل غير هذا البيت لتقدم به أكثر المحدثين

(صباح ج ٢ ص ٣٩٩) .

(٢) أي : من لا يقل قدره ، ولا تنحط درجته .

إذا لم تكن نفسُ النسيبِ كأصله فما الذي يُغني كرامَ المناصبِ
(ب) وكل امرئ يولى الجليلَ مُحَبَّبٌ وكل مكان يُنبِتُ العز طيبُ
(ح) تركنا لأطرافِ القنا كلَّ شهوةٍ فليس لنا إلا بهنٌ إِيَابُ
تُصَرِّفُهُ للظمنِ فوق حواذِرِ قد انقصتُ فيهن منه كِمَابُ
أعزُّ مكانٍ في الدُّنْيِ سَرَجُ سَامِحٍ وخيرُ جليسٍ في الزمانِ كِتَابُ

* * *

(١) ومن حكم شوق وأمثاله ما جاء متفرقا في قصيدة رحالة الشرق :

(أ) ما الجاهُ والمالُ في الدنيا وإن حَسُنَا إلا عَوَارِي حَظٍّ ، نَمُّ تَرْجَمُ
(ب) وكل بنيانٍ قوم لا يقوم على دعائمِ العصرِ من رُكْنِيهِ مُنْصَدِعُ
(ح) وما البطولةُ إلا النفسُ ، تدفعُها فيما يُبْلَغُها حمداً ؛ فتندفعُ
(٢) وفي قصيدة أبي الهول :

(أ) أبا الهولِ ، ماذا وراء البقا ء إذا ما تطاول غير الضجر ؟
(ب) فإب الحياة تَقُلُ الحديدِ د إذا ابستهُ ، وتُبلى الحجرُ
(ح) فيارب وجهِ كصافي النمي ر تشابهَ حاملهُ والنمـر
(د) فدع كل طاغية للزما ن ؛ فإن الزمان يقيم الصَّـمـر
(٣) وفي قصيدة الأندلس الجديدة :

(أ) الدهر لا يآلو الممالك مُنْذَرًا فاذا غَفَلن فما عليه مَلَامُ
(ب) ولقد يقام من السيوف وليس من عثرات أخلاقِ الشعوبِ قِيَامُ
(ح) ودعوا التفاخر بالتراث وإن غَلَا فالجد كسب ، والزمان عِصَامُ

(٤) إن الغرور إذا تملك أمةً كالزهر؛ ينحى الموت وهو زوأم

(٤) ومن حكمه وأمثاله في قصائد مختلفة :

(أ) من سره ألا يموت فبالأملا خلد الرجال ، وبالفعال التاب

(ب) مامات من حاز الثرى آثاره واستولت الدنيا على آدابه

(ج) والمستعمرين وإن ألانوا قلوب كالججارة ؛ لا ترق

وللاوطان في دم كل حر يد سلفت ، ودين مستحق

ومن يسقى ويشرب بالنساي إذا الأحرار لم يسقوا ، ويسقوا؟

ولا يبنى المالك كالضحايا ولا يدنى الحقوق ، ولا يحق

ففي القتل لأجيال حياة وفي الأسرى فدى لهمو وعنت

والحرية الحراء باب بكل يد مضرجة يدق

(وفي هذه الأبيات الأخيرة قوة في نواحيها المختلفة)

(٥) صبرا على الدهر، إن جلت مصائبه إن المصائب مما يوقظ الأمما

إذا المقاتل من أخلاقهم سلفت فكل شيء على آثارها سلما

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن تولىوا مضوا في إثرها قدما

(٥) ما المجد زخرف أفعال تطالعه لا يدرك المجد إلا كل فعّال

(و) ما تصنع اليوم من خير تجده غدا الخبير والشر مثقال بمثقال

أخلاق الشعارين من شعرهما وأثرها في الحكم عليهما .

قد يبدو غريبا أن نعرض لأخلاق الشاعر ونحن في صدد دراسته ،
والحكم على شعره . ولكن هذا أمر لامناص منه في الوصول إلى ما نريد ؛
لما للأخلاق من صلة وثيقة بالحُكم ، وأثر واضح فيه ؛ فما الشعر إلا كلام فني
ممتاز ، يتناقله الناس مشوقين ، شغفين بما فيه من فن رفيع ، وتميز ظاهر .
وهم لهذا يروونه ، ويحفظون منه ما يستطيعون ، ويرجعون إليه في المناسبات
المختلفة ، ويخضعون لوحيه في كثير من المواقف ؛ فكم أرنجية جامدة حرّكتها
أبيات من الشعر ، وهزّتها إلى النّدى وجلال الأمور !! وكم شجاع حمّله على
الإقدام ، أو صدّه عن الفرار — بيت من الشعر !! وكم محسن لم يستطع أن
يكفّ عن الإحسان بسبب بيت من الشعر ، أو أبيات تدّكرّها ودفعتّه إلى
حيث يريد قائلها !! وكم صاحب مروءة ، أو همة ، أو موهبة — تردّد
في إظهارها ، أو همّ بتعطيلها ، فلم يحل بينه وبين ذلك إلا وحي الشعر المحفوظ .
فللشعر أثره في النفوس ، بل سلطانه عليهما ، وقدرته على إخضاعها لوحيه ،
واقدر كان عند الأقدمين بمنزلة الصحف عندنا ؛ يذيع ، ويشيع ، ويتغلغل
بين مختلف الطبقات ؛ ينشر الآراء ، والمذاهب ، ويوجه الجماعات حيث يريد
ويشعل الفتن أو يطفئها ، ويبدّل الخواطر أو ينشر لواء الدعة والسكون ،
ويعلن المحامد والمساوى أو يخفيها . ولا يزال له حتى اليوم الكثير من تلك
الآثار . بل إنه بذيوعه ، وسرعة تنقله في عصرنا ، وما هيأت له المطابع ،

والمعاهد التعليمية ، والصحف السيارة من شيوع وتغلغل — نوع من الإذاعة العامة ، بل هو أقوى وأبقى ؛ ذلك أن الإذاعة تمرّ وتُنسى . أما هو فيستقر أطيئه في أعماق النفس ، وينقش في صحائفها ؛ فتذكره في مناسباته ، وتردده حين تهيجها الحوادث ، وتستعين بإرشاده على ما هي فيه . ولهذا كان الشاعر في الخير والشر قدوة ، وإن اختلفت درجة الاقتداء به والمحاكاة ، وكان الشعر جليلاً الخطر ، عظيم الأثر ؛ شأنه شأن الصحف والإذاعة ، بل هو أظهر ؛ فهو أداة قوية في إنهاض الهمم ، ونشر المذاهب النافعة ، والآراء الفاضلة ، وإذاعة مكارم الأخلاق ، ومحاربة مساوئها . وقد يكون أكبر داعية للردية ، وأقدر ناشر للآراء المدمرة ، وأقوى أداة للهدم والإفساد . وقدما وحديثا عرف الناس له هذا ، وأطالوا الكلام فيه ؛ حتى صار العود إليه بغيضا لا حظّ له من جدّة ، أو إفادة ، أو استحسان .

وإذا كان للشعر هذا الجلال وهذا الخطر الخلقى — فليس بمتبول ولا مستساغ أن نوازن بين شاعرَيْن ، وأن نتصدى للحكم على شعرهما — من غير أن نعرض لأخلاقيهما التي انعكست على ذلك الشعر ، ونصّحت فكان صورة منها ، وقبسا من خصائصها . وإني حين أعرض لأخلاقيهما سأستمد الأوصاف من كلامهما ؛ لأنه المرجع الاوثق . ولن أعوّل — إلا بقدر — على كلام النقلة ، والرواة ؛ لما قد يتسرب إليهم من فتون الهوى ، وضلال الرأي .

(١) المتنبي :

فأما أخلاق المتنبي فصورة من صور الأخلاق السيئة كما عرضها علينا ديوانه .

(١) فهو شاعر منافق ، كاذب ، يمدح حيناً ويذم حيناً بدافع خاص ، ونفع ذاتي ؛ فرائده في المدح والذم إرضاء نفسه ، وتحقيق مآربها ، وما ظنك بشاعر يغمره سيف الدولة الحمداني بغطايا وهباته ، ويرضيه ؛ فيعترف له بالفضل ، وبأن كل ما يملكه هو من عطايا ، ويقول فيه :
أسيرُ إلى إقطاعه^(١) في ثيابه على طريفه^(٢) ، من داره بحُسامه
وما مطرَ تنبيه من البيض والقنا ورُوم العبدى^(٣) هاطلات غمامه
فَقَّ يَهَبُ الإقليم بالمال والقرى ومن فيه ؛ من فرسانه وكرامه
ويبالغ في التزلف له ، ومراءاته فيقول :

ليت أنا - إذا ارتحلت - لك الخيلُ ، وأنا إذا نزلت الخيامُ
ثم يقع بينهما جفوة ؛ فيهجره إلى مصر ، ويهجوّه حين يمدح
كافورا ، قائلا :

رأيتكم لا يصونُ العرضَ جاركم ولا يدُرُّ على مرعاكم اللبنُ
جزاه كل قريبٍ منكم مللٌ وحظُّ كلِّ محبٍ منكم ضغنُ
وتفضبون على من نال رِفدكم حتى يعاقبه التنغيصُ ، والهنُ
وإن بُليتُ بؤدٍ مثل ودكم فإنني بفراق مثله قمينُ

(١) الإقطاع : البلاد التي يمنحها الأمير ونحوه لمن يشاء . (٢) فرسه .

(٣) العبد .

عند الهام أبى المسك الذى غرقت
ويمدح كافورا أيضاً فيقول :

وأخلاقُ كافورٍ إذا شئتُ مدحه
إذا ترك الإنسانُ أهلاً وراءه
فتى يملأُ الأفعالَ رأياً ، وحكمةً
إذا ضربتُ بالسيفِ فى الحربِ كفه
تزيد عطاياه على اللبثِ كثرةً
وإن لم أشأْ تُمَلِّحْ لى عَلَى وَأَكْتُبْ
وَيَمِّمْ كافوراً فما يَتَغَرَّبْ
ونادرةً ؛ أيا نَ يَرَضَى وَيَقْضَبْ
تبينتُ أن السيفَ بالكفِّ يَضْرِبْ
وتَلَبَّتْ أمواه السماء فتَنْضَبْ

ثم يقع بينه وبين كافور نفور فيقول فيه أشنع ما يقول إنسان ، ويذم
المصريين جميعاً من أجله بقوله :

من أَيْةِ الأُلُوقِ يَأْتِي نَحْوُكَ الكَرَمُ ؟
جَازَ الأُلَى مَلَكَتْ كَفَاكَ قَدْرَهُمْ
لأشئٍ أَقْبَحُ مِنْ خِلِّ لَهُ ذَكَرُ
سَادَاتُ كُلِّ أَنَاسٍ مِنْ نَفْسِهِمْ
أَغَايَةُ الدِّينِ أَنْ تُخَفُّوا شَوَارِبَكُمْ
ويقول فيه وفيهم :

إِنِّي نَزَلْتُ بِكَذَّابِينَ ، ضِيفَهُمْ
جودُ الرجالِ مِنَ الأَيْدِي ، وَجودُهُمْ
أَكَلَمًا اغْتَالَ عَبْدَ السَّوءِ سَيِّدُهُ
عن القِرْمَى وعن التَّرْحَالِ مُحْدُودُ
مِنَ اللِّسَانِ . فَلَا كَانُوا وَلَا الْجُودُ
أَوْخَانَهُ فَلَهُ فِي مِضْرَ تَمْهِيدُ

صارَ الخَصِيَّ إِمَامَ الْآيِقِينَ بِهَا فَالْحُرُّ مُسْتَعْبِدٌ ، وَالْعَبْدُ مُعْبُودٌ
نَامَتْ نَوَاطِيرُ^(١) مَصْرِ عَنِ ثَعَالِبِهَا فَقَدْ بَشِمَنَ^(٢) ، وَمَا تَفَنَّى الْعَنَاقِيدُ
وَيَقُولُ :

أَقْدَكُنْتُ أَحْسَبُ قَبْلَ الْخَصِيِّ أَنَّ الرُّبُوسَ مَقَرُّ النَّهْيِ
فَلَمَّا نَظَرْتُ إِلَى عَقْلِهِ رَأَيْتُ النَّهْيَ كُلَّهُ فِي الْخَصِيِّ
وَمَاذَا بِمَصْرَ مِنَ الْمُضْحَكَاتِ وَلَكِنَّ ضَحِكَكَ كَالْبِكَاءِ
بِهَانَبَطِي^(٣) مِنْ أَهْلِ السَّوَادِ يُدْرَسُ أَنْسَابُ أَهْلِ الْقَلَاءِ
وَأَسْوَدُ مِشْفَرُهُ نِصْفُهُ يُقَالُ لَهُ : أَنْتَ بَدْرُ الدَّجَى
وَيَقُولُ فِيهِ :

أَمِينًا ، وَإِخْلَافًا ، وَغَدْرًا ، وَخِيَمَةً وَجِبْنًا ؟ أَشْخَصًا لَحَتْ لِي أُمُّ مَخَازِيَا ؟
وَتَعْجِبْنِي رَجْلَاكَ فِي النَّعْلِ ؛ إِنِّي رَأَيْتُكَ ذَا نَعْلٍ إِذَا كُنْتُ حَافِيَا
وَإِنَّكَ لَا تَدْرِي : أَلَوْ أَنَّكَ أَسْوَدٌ - مِنَ الْجَهْلِ - أَمْ قَدْ صَارَ أَيْضَ صَافِيَا
وَمَنْ عَجِبَ أَنْ يَتَوَدَّدَ إِلَى سَيْفِ الدَّوْلَةِ بَعْدَ ذَلِكَ شَاكِرًا لَهُ هَدِيَّةَ أَرْسَلَهَا إِلَيْهِ
فَيَقُولُ :

إِنْ تَبَوَّأْتَ غَيْرَ دُنْيَايَ^(٤) دَارًا وَأَتَانِي نَيْلٌ فَأَنْتَ الْمُنِيلُ
مِنْ عِبِيدِي إِنْ شِئْتَ لِي أَلْفَ كَافُو رَءٍ ، وَلِي مِنْ نَدَاكَ رَيْفٌ وَنَيْلُ
هَذِهِ صُورَةٌ مِنْ أَكَاذِيبِ الْمُتَنَبِّئِ ، وَتَقْلِبُهُ . وَلَا يَنْفَعُ فِي الْإِعْتِذَارِ عَنْهُ أَنْ تَزِدَ
قَوْلَ الْقَدَامِيِّ : (خَيْرُ الشُّعْرِ أَوْ كَذِبُهُ) « وَالشُّعْرُ يَكْفِي عَنْ صَدَقِهِ كَذِبُهُ » .

(٢) امتلأت بطونهم .

(١) سادة عظماء .

(٣) يقصد ابن حنزابه وزير كانور . (٤) يريد : إن قصدت بلادا غير بلادك .

فلم يريدوا بهذا ما وقع فيه المتنبي ، وإنما أرادوا — كما أشرنا من قبل ^(١) — :
 (أن مقاييس الشعر لا تجرى على حدود المنطق ، والقول المحقق الذي يقوم عليه
 من العقل برهان يقطع به ، ويلجئ إلى موجه ؛ إذ الشعر يكفى فيه التخيل ،
 والذهاب بالنفس إلى ما ترتاح إليه من التعليل . وبعبء أن يراد بالكذب
 إعطاء المدحوظ حظا من الفضل والسؤدد ليس له ، ويبلغه بالصفة حظا من
 التعظيم يجاوز به من الإكثار محله ^(٢) ...)

(٢) ومن عيوبه أنه نخور بل مغرور ، مُفرط الزهو والادعاء ؛ فلا تكاد
 تجد له قصيدة لا يثنى فيها على نفسه ، حتى حجب غروره وادعائه عن عينيه
 عيوبه الكثيرة ، ومساويه الجملة :
 استمع إليه يقول :

أىَّ محل أرتقى أى عظيم أتقى
 وكل ما قد خلق الله وما لم يخلق
 محقر في همتي كشرة في مفرق

ويقول :

إن أكن معجباً فعجب عجب لم يجد فوق نفسه من مزيد
 أنا ترب الندى ، ورب القوافي وسام العدا ، وغيط الحسود
 أنا في أمه تداركها الله غريب ؛ كصالح في ثمود
 ويقول :

وما الدهر إلا من رواة قصائدى إذا قلت شعرا أصبح الدهر منشدا

(١) ص ٢٢٨ . (٢) أسرار البلاغة ص ٢٣٥ باختصار .

ويقول :

أَمِطْ عَنْكَ تَشْبِيهِي بِمَا ، وَكَأَنَّهُ
فَمَا أَحَدٌ فَوْقِي ، وَلَا أَحَدٌ مِثْلِي
ويقول أمام سيف الدولة :

أَنَا الَّذِي نَظَرَ الْأَعْمَى إِلَى أَدَبِي وَأَسَمِعْتُ كَلِمَاتِي مِنْ بِهِ صَمَمُ
أَنَا مَلءُ جَفُونِي عَنْ شَوَارِدِهَا وَيَسْهَرُ الْخَلْقُ جَرَّاهَا، وَيَخْتَصِمُ
وَجَاهِلٍ غَرَّةً فِي جِهْلِهِ ضَحِكِي حَتَّى أَتَتْهُ يَدُ فَرَّاسَةٍ ، وَفَمُ
إِذَا نَظَرْتَ نِيُوبَ اللَّيْثِ بَارِزَةً فَلَا تَظُنِّي أَنَّ اللَّيْثَ ... مَبْتَسِمُ
فَالْخَيْلِ، وَاللَّيْلِ، وَالْبِيدَاءِ - تَعْرِفُنِي وَالضَّرْبَ وَالطَّنَّ وَالْقِرَاطَ وَالْقَلَمُ
كَمْ تَطْلُبُونَ لَنَا عَيْبًا فَيَمَجِّزُكُمْ وَيَكْرَهُ اللَّهُ مَا تَأْتُونَ ، وَالْكَرَمُ
مَا بَعْدَ الْعَيْبِ وَالنَّقْصَانِ مِنْ شَرَفِي أَنَا الثَّرَيَا ، وَذَانِ الشَّيْبِ وَالْهَرَمُ

وهل أدل على كذبه وغروره مما أن يخرج من مصر هاربا ،
خائفا ، غاضبا من كافور ، فلا يزول عنه الذعر والفرع إلا بوصوله
للعراق ؛ فيقول :

فَلَمَّا أُنْخَنَّا رَكَرْنَا الرُّمَّا حَافً فَوْقَ مَكَارِمِنَا، وَالْعَلَا
وَتَبْنَا ؛ نُقْبِلُ أَسْيَافَنَا وَنَمْسَحُهَا مِنْ دِمَاءِ الْعِدَا
لَتَعْلَمَ مَصْرُ ، وَمِنْ بِالْعِرَاقِ وَمِنْ بِالْعَوَاصِمِ - أَيْ النَّقَى
وَأَنْيَ وَفَيْتُ ، وَأَنْيَ أَيْتُ وَأَنْيَ عَتَوْتُ عَلَى مَنْ عَتَا

فأين المكارم والعلا ممن يطوف بالممالك والأفطار وراء المنح والاستجداء ؟
وأين العدا ودمائهم التي سالت على السيوف وقد خرج بليل هائما خائفا

يترقب ؟ وأين الوفاء والإباء من رجل قُلِّبَ ؛ يسقط كما يسقط الطير حيث يلتقط الحب ، لا يبالي بنزاهة الطعنة ، ولا شرف المورد ، ولا حل المتاع ؟ (٣) وهذا المدعى المذموم هو المستجدي الصفيق الذي يستعطف الملوك والأمراء لينحوه ولاية أوضيمة ، بل هو الذليل المهين الذي ينسى العزة والكرامة في أيسر صورها ؛ ليقف سائلا ، مادّا يده إليهم كي يمنحوه بعض المال ، بل مادّا يده إلى سيف الدولة الذي ضربه بالدواة في وجهه حين كان ينشد قصيدته التي مطلعها :

وَأَحَرَّ قَلْبَاهُ مِمَّنْ قَلْبُهُ شَيْمٌ . . .

فلم يغضب للضربة ، ولم يثر للكرامة والعزة ؛ بل قال :
 إن كان سرّكم ما قال حاسدنا فسا لجرح - إذا أرضاكم - ألم
 فرضى عنه سيف الدولة ، وأرضاه بألف دينار ، ثم ألف . فأنسته
 الدنانير كل شيء وقال للأمر :

جاءت دنانيرك مختومة عاجلة ألفاً على ألف
 أشبهها ففعلك في فيلق قلّبتَه صفّاً كلّ صفّ

ويقول في بدر بن عمار مستجدياً :

طلبنا رضاهُ بترك الذي رضىنا له ؛ فتركنا السجودا .

(٤) ثم هو رجل حقود ، ملأ الحقد نفسه ؛ فأفسد عليه حياته . فلا تراه إلا ساخطاً على الدنيا ، برّماً بالناس ، ناقماً على أهل النعمة والجاه ، داعياً إلى شفاء الأحقاد بدواء عجيب ؛ هو : حدّ الطبابة ، ورءوس الرماح ؛ تسمعه يقول :

رمانى الدهرُ بالأرزاء ؛ حتى فؤادى فى غشاء من نبالٍ
فَصِرْتُ إِذَا أَصَابَنِي سَهَامٌ تَكْسَرُ النَّصَالُ عَلَى النَّصَالِ
نم يقول :

فرووس الرماحِ أَذهبَ للغيظِ ، وأشفى لغلٍّ صدر الحفودِ
ويقول :

أَذُمُّ إِلَى هَذَا الزَّمَانِ أَهْيَلَهُ فَأَعْلَمُهُمْ قَدَمٌ ، وَأَحْزَمُهُمْ وَغَدُ
وَأَكْرَمُهُمْ كَلْبٌ ، وَأَبْصَرُهُمْ عَمْرٍ وَأَنْهَدُهُمْ^(١) فَهَذُ ، وَأَشْجَمُهُمْ قَرْدُ
ولقد بلغ به الحقد القتال حد الشئامة بعدوَّ له مات (هو : إسحاق
ابن كَيْمَلُغ) فقال يهجوهُ حين سمع نعيه : ناسياً أن الموت يذهب بالأحقاد
أو يخفيها إلى حين :

قالوا لنا : مات إسحاقٌ . فقلت لهم : هذا الدواء الذى يَشْفِي مِنَ الْحُمُقِ
إِنْ مَاتَ مَاتَ بِلَا فَقْدٍ وَلَا أَسْفٍ أَوْعَاشَ عَاشَ بِلَا خَلْقٍ وَلَا خُلُقٍ
ووقف يرثى « فاتكا » عدو « كافور » ؛ فتعرض فى الرثاء لدم « كافور »
أشنع تعرض ، حيث يقول :

قَبِجًا لَوَجْهَكَ يَا زَمَانُ ؛ فَإِنَّهُ وَجْهُ لَه مِنْ كُلِّ لَوْمٍ بَرَقُ
أَيَمُوتُ مِثْلَ أَبِي شَجَاعٍ فَاتَكِ وَيَعِيشُ حَاسِدُهُ الْخِصْيُ الْأَوْكُ
أَيْدٍ مَقْطَعَةٌ حَوَالَى رَأْسِهِ وَقَفًا يَصِيحُ بِهَا : أَلَا مَنْ يَصْفَعُ ؟
أَبْقَيْتَ أَكْذَبَ كَاذِبٍ أَبْقَيْتَهُ وَأَخَذْتَ أَصْدَقَ مَنْ يَقُولُ وَيَسْمَعُ
وَتَرَكْتَ أَتَنَ رِيحَةٍ مَذْمُومَةٍ وَسَلَبْتَ أَطْيَبَ رِيحَةٍ تَتَضَوَّعُ

(١) أ كثرهم سهادا . والفهد مشهور بكثرة النوم .

(٥) وهو بخيل غاية البخل ، حريص على المال أشد الحرص ؛ يجود بحيائه وإبائه في سبيل الوصول للدرهم ، ثم يُحرِّم على نفسه إنفاقه ، وقد يرتكب أكبر الجرائم في سبيل الاحتفاظ به . وهل أدل على ذلك من أن يقتل غلامه لأنه سرق بعض ماله ، ومن القصة الآتية التي رواها بعض الأدباء ^(١) قال :

« أذكر ليلة وقد استدعى سيف الدولة بَدْرَةَ ؛ فشقتها بسكين ، فد ابن خالويه طيلسانه فثنا فيه سيف الدولة بعضاً ، ومددت ذيل ذراعى فثنا لى بعضاً . والمتنبى حاضر ، وسيف الدولة ينتظر منه مثل ما فعلنا ، فما فعل . فعاظه ذلك ، فنثرها كلها على الغلمان . فلما رأى المتنبى أنها قد فاتته زاحم الغلمان يلتقط معهم ؛ فمزمهم عليه سيف الدولة فداسوه ، وركبوه ، وصارت عمامته في رقبته . فاستحى ، ومضت به ليللة عظيمة وانصرف . فخطب ابنُ خالويه سيف الدولة في ذلك . فقال : أيتعاطم تلك العظمة ، وينزل تلك المنزلة لولا حاققه ؟

وقال الخوارزمي ^(٢) : كنت عند المتنبى وقد أحضر مالا بين يديه من صِلات سيف الدولة ، على حصير قد فرشهُ ؛ فوزنه ، وأعيد إلى الكيس ، وتخللت قطعة كأصغر ما يكون بين خلال الحصير ؛ فأكتب عليها بمجامعه ليستخلصها منه ، واشتغل عن جلسائه حتى توصل إلى إظهارها ، وأنشد قول قيس بن الخطيم :

تَبَدَّتْ لَنَا كَالشَّمْسِ تَحْتَ غَمَامَةٍ بَدَأَ حَاجِبٌ مِنْهَا ، وَضَنَّتْ بِحَاجِبِ

(١) أبو الفرج البغاء . والفصحة في ص ١٠٥ من كتاب أبو الطيب المتنبى الكامل حلمى بك .
(٢) في الكتاب السابق والصفحة .

ثم استخرجها . فقال له بعض جلسائه : أما يكفيك ما في هذه الأكياس حتى أذممت إصبعك في هذه القطعة ؟ فقال إنها تحضر المائدة ! !
 (٦) وهو بذى القول ، سليط اللسان ، يهوى في شتائم إلى درك ليس وراء قِحة ، ولا فحش ، ولا تبذل . وقد نشرنا بعض سبابه في ضبة^(١) وغيره من أسخطوه ؛ فقال فيهم ما لا يقوله سوق أصيل .
 (٧) ومع أن القارى لا يقع في ديوانه على ما يدل على قوة الإيمان ، وصدق اليقين ، فإنه تد يرى فيه ما يدل على الاستهتار ، ويحمل على الاتهام وخدش العقيدة ؛ إذ يبالغ في مديح بعض الناس ، فيفضلهم على الخلق كافة ، حتى الأنبياء ، كقوله في سيف الدولة :
 إن كان مثلك كان ، أو هو كائن فبرئت حينئذ من الإسلام
 وقوله في محمد الأوسى :

لم يخلق الرحمنُ مثلَ محمدٍ أحداً ، وظنّي أنه لا يخلقُ

ويقول في بدر بن عمار :

لو كان علمك بالإله مقسماً في الناس ما بحث الإله رسولا
 أو كان لفظك فيهم ما نزل القرآن ، والتوراة والإنجيل

تلك بعض أبياته التي تدل على جرأته واستهتاره . أما سواها — مما أخذ عليه الناقدون — فليس صريحاً في اتهامه وتجريح عقيدته . وله فيه منادح لإزالة الشبهة عنه ، وتبرئته مما اتهم به . على أن ادعاء النبوة كافٍ وحده في الحكم عليه بسوء العقيدة ، وفساد اليقين . وقد سئل عن هذا الادعاء ؟ فقال : كان في عهد الحداثة . ولكن هذا قد يزيل عنه التهمة الكبرى

« تهمة النبوة » ويترك بعض آثارها لاحقا به ، ولا سيما إذا جاء شعره خاليا من الدعوة للدين ، والخص على احترامه ، والإشادة بالأنبياء والأئمة ، وما يتصل بهذه النواحي الكريمة .

وإني أميل إلى القول بأن المتنبي ليس ملحدا ولا زنديقا ، وذلك لأن شعره خال مما يصلح دليلا قاطعا أو شبه قاطع على هذا الاتهام القاسى . أما الأبيات السالفة وأشباهها من المبالغات ، وادعاؤه النبوة التى رجع عنها — فنوع من الجرأة والاستهانة التى عرف بها المتنبي للوصول إلى غاياته ؛ لا يبالى فى ذلك بما ينفرط به لسانه . وهذا عيب لامية فيه . ولكن فرّق بين الزندقة والعيب وإن كان شنيعا ؛ فالعيب نقص أو خطأ وقع فيه صاحبه من غير أن يتعمد به الخروج على الدين ، أو تغيير أصوله وقواعده العامة . وليست كذلك الزندقة والإلحاد . فن الإنصاف القول بأن شعره — وإن خلا مما يدل على قوة إيمانه ، ورسوخ عقيدته — قد خلا مما يدل على الفض من الدين ، أو تحقيره ، أو إظهار الكراهة له . بل خلا من كل ما يحض على الرذيلة ، ويدعو إلى الخلاعة والجحون . فقد كانت حياة المتنبي حياة جد ، وصرامة ، وطموح ؛ فجاء شعره صورة منها ، ومصدقا لها ؛ فلست تقع فيه على لهو أو لعب أو صغار^(١) .

(٨) وقد بقى من أخلاقه السيئة أنواع أخرى ؛ كالجبين ، وعدم العناية بنفسه ، ومظهره . ولا سيما نظافة ثيابه ؛ وتلك عيوب تملأت عليها الروايات والأخبار ؛ كما حملت إلينا أنه كان لا يصوم ، ولا يصلى ،

(١) بالرغم من أن أطفاله تخالف هذا .

ولا يقرأ القرآن^(١) ، ويدل شعره على أنه كان يحمى الخمر أحياناً ، فقد شربها في مجلس محمد بن طفج ، وهمّ بالنهوض حين ضاقت نفسه ، وثقل رأسه ، قائلاً :

يا من رأيت الحليم وغداً وحُرَّ الملوك عبداً
مالاً على الشراب جدّاً وأنت بالمكرمات أهدى
فإن تفضلت بانصرافى عددته من لذلك رفداً

وكذلك في مجلس بدر بن عمار فأراد الانصراف قائلاً :

نال الذى نلت منه منى الله ما تصنع الخمر
وذا انصرافى إلى محلى أأذن أيها الأمير

وفى شعره ما يوحى بأنه كان يشرب الخمر مكرهاً ، لا استجابةً لنفسه ؛ وإنما إرضاءً للأمير ، أو كبير ، فقد سمعناه يقول حين عرض عليه بدرُّ الصلبة والشرب في غد :

وجدت المدامة غلابةً تهيج للقلب أشواقه
تسىء من المرء تأديبه ولكن تحسن أخلاقه
وأنتس ما للفتى لبُّه وذو اللب يكره إتاقه
وقد ميت أُمس بها موتة ولا يشتهي الموت من ذاقه

إلى هنا عرف المتنبي في أخلاقه السيئة التى نَمَّ عليها شعره . أما المتنبي في صفاته الحميدة التى يَمُّ عليها شعره أيضاً (دون فعله) فهو الشاعر الحكيم ، المهاتف

بالعزّة ، والأنفة ، الداعى إلى القوة ، والإباء ، وطرح الاستجداء ، المنادى بمقاومة الظلم ، ومحاربة الاستعباد ، القائل (وإن لم يفعل) :

- (١) عِشْ عَزِيزًا ، أُمِّتْ وَأَنْتَ كَرِيمٌ بين طعن القنا ، وخفق البنود
(٢) ذَلَّ مَنْ يَغِيْطُ الذِّلِيلَ بِعِيشٍ رب عيش أهون منه الحام
(٣) وَشَرَّ الْحَامِيْنَ ^(١) الزَّوَامِيْنَ ^(٢) عِدْشَةً يَذِلُّ الذِّى يَخْتَارُهَا وَيُضَامُ
(٤) وَلَا تَحْسَبَنَّ الْجَدَرَ قَا ، وَقِيْنَةً ؛ فالجدد إلا السيف والفتكة البكر
وتركك في الدنيا دويًّا ؛ كأنما تداول سمع المرء أنمله العشر
(٥) وَمَا الْخَوْفُ إِلَّا مَا تَخَوَّفَهُ الْفَتَى ولا الأمن إلا ما رآه الفتى أمنًا
(٦) لَوْلَا الْمَشَقَّةُ سَادَ النَّاسُ كُلَّهُمْ الجود يفقر ، والإقدام قتال
(٧) ذِكْرُ الْفَتَى عَمْرُهُ الثَّانِي ، وَحَاجَتُهُ ما فاته ، وفُضُولُ الْعِيشِ أَشْغَالُ
(٨) وَلَا تَشْكُ إِلَى خَلْقٍ ؛ فَتَشْمِيتُهُ شكوى الجريح إلى الغربان والرحم
(٩) وَإِلَامَتْ تَحْتَ السِّيُوفِ مَكْرَمًا تمت ، وتقاسى الذل غير مكرم
(١٠) فَثَبَّ وَاثِقًا بِاللَّهِ وَثَبَّةً مَا جَدِ يرى الموت في الهيجاجنى الفحل في النهم
(١١) لَيْسَ التَّعَلُّلُ بِالْأَمَالِ مِنْ أَرَبِيٍّ ولا القناعة بالإقلال من شيمى
(١٢) ذَرِنِي أَنْلَ مَا لَا يَنْأَلُ مِنَ الْعَمَلِ

فصعبُ العلا في الصعب ، والسهل في السهل

(١٣) تُرِيدِينَ لِقَايَا الْمَعَالَى رَخِيصَةً ولا بد دون الشهد من إبر النحل

(١٤) وَمَنْ طَلَبَ الْفَتْحَ الْجَلِيلَ فَإِنَّمَا مفاتيحه البيض الخفاف الصوارم

(١) الموت الحقيقى ، وموت الذل والمهانة . (٢) العاجلين المكروهين .

وما أكثر هذا وأشباهه في ديوانه !! وما أكثر أن ترى فيه الدعوة إلى العنف ، واستخدام القوة في نيل المطالب !! على حين ينادى شوقى بغير هذا ويردد — حتى عيب عليه التردد — قوله :

لا تطلبوا حقكم بغيا ولا صلفاً ما أبعد الحق عن باغ ومختال !!

(ب) شوقى :

لا ترى في ديوان شوقى — على طوله ، وكثرة قصائده ، وتنوع موضوعاته — ما يחדش الفضيلة ، أو يسئ إلى الخلق الكريم . وليس هذا بالوصف الدقيق . إنما الوصف الدقيق أن نقول إن شوقى لم يدع فضيلة إلا دعا إليها ، ولا خلقا كريما إلا حض عليه ؛ فلم يقنع بالرضا القلبي ، أو الصمت السلبي ؛ بل قرن ذلك بالقول المردد ، والدعوة القوية الصريحة . نعم إنى لا أعلم نصيبه من العمل بما يقوله ، وبما يدعو إليه . ولكنى أعلم أن شعره قد امتدح أمهات الفضائل ، وقبح مساوئها ؛ فنادى بطاعة الله ، واحترام الدين ، وحب الوالدين ، والوطن ، واتحاد أبنائه ، واحترام العلماء ، وإكبار السلف ، والمطف على الفقراء ، ومساعدة المحتاجين ، وتأييد الحق ، ونصر أهله ، واجتناب الأذى باليد واللسان وسائر الأعضاء ، ومدح الأخيار الأبرار ، وترك الخنى ، وقول الزور ، وأنواع الإساءة والأذى ... فوق ما نادى به من طلب العلوم قديما وحديثا ، والفنون والآداب شرقيها وغربيها ، والتسلح للحياة بسلاح العصر الحديث ، والعناية بالمادة والروح معا ، واقتباس ما يلائمنا من الحضارات المختلفة . مع اعتزازه بدينه ، ومصريته ، وعزوبته ، وشرقيته . وغير هذا مما يدل أقطع الدلالة على أنه قام بمهمة الشاعر على وجه لا يدانيه المتنبى ، وأنه أدى رسالته الأدبية (الخاصة والعامة بوصفه شاعرا إنسانيا وشاعرا مصريا عربيا) على خير نهج . لم يسبقه إليه شاعر عربى .

وهل نحن في حاجة إلى ما يؤيد هذه الدعوى بعد تلك الشواهد والأمثلة التي عرضت في مناسبات كثيرة سابقة ؟

على أنا نسوق أمثلة أخرى ، منها قصيدته التي أهداها إلى الأمير الناشئ (إذ ذاك) « محمد عبد النعم » وعنوانها « رسالة الناشئة » . إنها خير دستور للتربية ، وأعلى إرشاد يحرص على اتباعه من يطلب الدين والدنيا معا . وفيها يقول له ناصحا ؛ في خفة لفظ ، ووضوح معنى ، وعبرة تناسب الناشئين :

اعبد الله بعقلٍ يابني وبقلبٍ من رجاء الله حتى
ارجه تعطّ مقاليدَ الفلك واخشه خشية من فيه هلك
ومنها :

- | | |
|---------------------------------|----------------------------|
| (١) آمِنَا بالله إيمان العجوز | إن غير الله عقلا لا يجوز |
| (٢) كنْ إلى الموت على حب الوطن | من يخنْ أوطانه يوما يخنْ |
| وطنُ المرء حماء الفتدَى | يذكر المنّة منه ، واليدَا |
| قد عرفتَ الدار والأهل به | كل حب شعبة من حُبّه |
| هو محبوبك بادٍ محتجب | يعرف الشوق له من يغترّب |
| لك منه في الصبا مهدٌ رحيم | فإذا ووريت فالقبر الكريم |
| كم عزيزٌ عندك استودعته | وعهود بكّ استرعيته |
| ودفينٍ لك فيه كرمًا | تذرف الدمع لذكره دَمًا |
| (٣) إن للإقدام ناسًا كالأسد | فنشبهه ؛ إن من يُقدّم يسُد |
| (٤) قل إذا خاطبت غير المسلمين : | لكمودينٌ رضيتم ، ولّى دين |
| خلّ للذيان فيهم شأنه | إنه أولى بهم ؛ سبّحانه |

- (٥) واعمل الخير ؛ فإن عشت لقي
من يمت عن منة عند يتيم
(٦) جامل الناس تحز رق الجميع
عامل الكل بإحسان تحب
وتجنب كل خلق لم يرق
(٧) يامدِّم الصوم في الشهر الكريم
وإذا صليت خف من تعبد
واجعل الحج إلى أم القرى
(٨) وتسمج وتوسع في الزكاة
فرض البر بها فرض حكيم
(٩) ويقول في قصيدة معالي العهد :
وصن لغة بحق لها الصان
وكان الشعب ليس له لسان
(١٠) وخذ لغة المعاصر ؛ ففي دنيا
كما نقل الغراب ؛ فضل مشيا
ويقول في الوطن أيضا :

- (١) وطني لو شغلت بالخلد عنه
(ب) وللأوطان في دم كل حر
(هـ) وجانب من الثرى يدعى الوطن
نازعني إليه في الخلد نفسي
يد سلفت ، ودين مستحق
ملء العيون ، والقلوب ، والفطن
... الخ القصيدة التي موضوعها : الوطن .

(١١) الدين لله ؛ من شاء الإله هَدَى
لكل نفس هَوَى في الدين داعيها
ما كان مختلفُ الأديان داعيةً
إلى اختلاف البرايا ، أو تماديها
الـكُتُبُ والرسلُ والأديانُ قاطبةً
خزائنُ الحكمة الكبرى لداعيها
(١٢) ويخاطب الترك فيقول :

تحلِّكم مصرُ منها في ضمائرِها
وتعلنُ الحبَّ جَمًّا غيرَ منهمـ
فنحن إن بعدت دارُ وإن قرُبْتُ
جارانِ في الضَّادِ أوفى البيتِ والحرمـ
ناهيك بالسبب الشرقي من نَسَبٍ
وحبذا سببُ الإسلامِ من رَحِمـ
(١٣) ويقول في جيراننا الشرقيين :

رب جاري تلفتتُ مصرَ توليهِ سؤالَ الكريمِ عن جيرانه
بعثتني معـزِّيًّا بمآقٍ وطيني ؛ أو مهنشاً بلسانه
كان شعري الغناء في فرح الشر
ق ، وكان العزاء في أحزانه
قد قضى الله أن بؤلفنَا الجر
حُ ، وأن نلتقي على أشجانـ
كلما أن بالعراقِ جريح
لَمَسَ الشرقُ جنبه في عُمانـ
(١٤) ويقول :

ونحن في الشرقِ والفصحى بنو رحـ
ونحن في العلمِ فضله ، أو في مفاخره
(١٥) إذا مشتُ أمةٌ في العالمين به
يقلُّ للعلمِ عند العارفين به
والمُلكُ أن تعملوا ما استطعتمو عملاً
(١٦) المُلكُ أن تخرج الأموالُ ناشطةً
ونحن في الجرح والآلامِ إخوانُ
ركنُ الممالكِ ، صدرُ الدولةِ الحالى
أبى لها الله أن تمشى بأغلالٍ
ماتقدِرُ النفسُ من حُبِّه ، وإجلالٍ
وأن يبين على الأعمالِ إتقانُ
لمطلب فيه إصلاحٍ ، وعمرانُ

الملك تحت لسانٍ حوله أدبٌ وتحت عقلٍ على جنبه عرفانٌ
الملك أن تتلاقوا في هوى وطن تفرقت فيه أجناسٌ ، وأديانٌ
(١٧) ويقول في العرب :

الله — جلّ ثناؤه — بلسانهم خلقَ البيانَ ، وعلمَ الأمثالا
وتخير الأخلاقَ أحسنها لهم ومكّرمُ الأخلاقِ منه تعالى
(١٨) ويقول في الفن :

الفن ربحانُ الملوكِ ، وربما خلدوا على جنباته أسماءُ
لولا أياديه على أبنائها — لم نلَفَ أجمَدَ أمةٍ أبناءُ
جرّدٌ من الفن الحياةَ وما حوتُ تجد الحياةَ من الجمالِ خلاءُ
نبضُ الحضارةِ في المالكِ كلها يجرى السلامةَ ، أو يدُقّ الداءُ
إن صحَّحَ فهي على الزمانِ صحيحةٌ أوزافَ كانت ظاهراً وطلاءُ

إلى غير ذلك مما قاله في شئون الدين والدنيا معاً ؛ فن الصلاة ، والزكاة
والحج ، ومدح الرسول^(١) — إلى موضوعات اقتصادية ، وسياسية ، وعمرانية
مختلفة ... وكان في هذا كله نزيهاً ، نقياً ، بعيداً عن الملق ، والكذب ،
والتقلب ، واهتبال الفرص للمغنم الخاص ، والاستفادة الشخصية يشتريها
بالحياء ، وبالكرامة ، وإهدار الحقوق العامة ، ومنافع الوطن .

* * *

على أن المتتبع لديوانه يلاحظ فيه أموراً ثلاثة قد تجرح الخلق الكريم ،
وتخدش الفضيلة هوناً ما ؛ هي : الزهو ، والتحلل أو التسامح في بعض القيم

(١) وله في مدحه قصيدتان شهيرتان ؛ هما : نهج البردة ، والهمزية ؛ وقد بلغتا من الجودة
الأدبية والإتقان الفني ما لم تبلغه مدحة أخرى . فوق ما اشتغلنا عليه من سيرة
الرسول ، وتحليل شريعته ، والكشف عن محاسنها وأسرارها العجيبة .

الخلقية . والمواربة أو المداجاة في شئون الحكم والسياسة ونحوها مما يمس الولاة ، والزعماء ، وأصحاب السطوة والنفوذ .

فأما الزهو فلم يبلغ فيه مبلغ المتنبي ، ولا قريبا منه . وكل نصيبه أن يحمل نفسه شاعر مصر ، أو شاعر الأمير ، وأنه كجريح ، أو المتنبي ، أو البحتري ، أو حسان ، أو غيرهم . فكبار الشعراء غايته . وقد يصرح بأنه يفوق بعضهم ، يقول في قصيدة المرقص وقد تحدثت عنه غانية :

نَسْأَلُ أَتْرَابَهَا مُؤَمِّتَةً بِالْقَسَمِ
أَيُّ فَنَى ذَاكَ كُنَّ الْعَرَبِي الْعَلَمُ
يُشْرِبُهَا سَاهِرًا لَيْلَتَهُ لَمْ يَنْمِ
قَلْبُ تَجَاهَلَتِهِ ذَلِكَ رَبُّ الْقَلَمِ
شَاعِرُ مِصْرَ الَّذِي لَوْ خَفِيَ النَجْمُ لَمْ ...

ويقول في وصف ليلة راقصة أخرى بعابدين :

خَفَّ كَأَسْهَابِ الْحَبِيبُ فَنَى فُضَّةٌ ذَهَبُ
يَا نَدِيمُ خَفَّ بِهَا لَأَكْبَا بِكَ الطَّرْبُ
لَا تَنْقُلْ عَوَاقِبَهَا فَالْمَوَاقِبُ الْأَدَبُ
تَنْجَلِي وَلِي خُلُقُ يَنْجَلِي وَيَنْسَكِبُ
يَرْقُبُ الرِّفَاقُ لَهْ كَلِمَا سَرَى شَرْبُوا
شَاعِرُ الْمَزِيرِ وَمَا بِالْقَلِيلِ ذَا الْقَبْ
يَا عَزِيزُ دَامْ لَنَا رَوْضَ عَزْكَ الْأَشْبُ
هَذِي عُرُوسُ نَهْيَ فِي الْقَبُولِ تَرْتَنَّبُ (١)

زَفَّهَا لَكُمْ وَجِـلَا شَاعِرُ الْحَى الْأَرَبُ
احتفى الحضور بها واكتفى بها الغُيْبُ (١)
أَتَمَّ الظَّلَالُ لَنَا وَالْمَنَازِلُ الْخُصْبُ
لو مدحتكم زمني لم أقم بـ... يجب

وقوله يصف مجزه عن وصف حال السلطان عبد الحميد بعد سقوطه عن
عرش الخلافة : —

أنا إن عجزتُ فَإِنْ فِي بُرْدَى أَشْعُرُ مِنْ جَرِيرُ
خطب الإمام على النظـم يعزُّ شرحا والنشير
ويقول في استقبال أم الحسين (والدة الخديوى عباس) بعد غيبة طويلة
فى تركيا :

لا تروى غير شعرى موكباً إن شعرى درجات الخالدين
كل حمدٍ لم أصفه زائلٌ خالدُ الحمد بما صُفّت رهين
ويتكلم عن الخديوى إسماعيل فيقول :

قد خط شعرى على الشَّعْرَى لَهُ جَدُّا وخاط من لَمَحَاتِ الشَّمْسِ أَكْفَانَا
ولو مشتِ بِي اللَّيَالَى تَحْتَ مَوْكِبِهِ غادرت أحمد (٢) نسيّاً وابنَ حَمْدَانَا (٣)
... ..

وعلى الرغم من هذا وأشباهه مما يقع فيه جمهرة الشعراء ، نرى التفاوت بعيداً
بين المتنبي وشوقي فى هذه الناحية ؛ فإن شوقي لم يبلغ فيها معشار ما بلغه صاحبه
الذى أوغل حتى بزَّ فيها كل شاعر آخر .

* * *

(١) الغائبون . (٢) أحمد المتنبي . (٣) أبو فراس الحمداني .

وأما التحلل والتسامح في بعض القيم والقيود الخلقية فظهره عند المتورعين الصراحة الجريئة في بعض غزله وخبرياته ، ووصف مباله التي قد تُغرى بمحاكاته ، وتدفع الغرّة ، ومن لا تجرّبه له إلى مجاراته . على أن تلك الصراحة قد تكون معبرة عن الواقع ، وقد تكون وليدة الفن الشعري ، وصنيعة الخيال ، ولانتمت إلى الواقع والصدق بصله ، ولا تَعُدُّو أن تكون كلام شاعر يصف ما لم يقع ، ويقول ما لم يفعل ، ولا يحلّو الشعر بغيرها ، وإن كان أكثر شعر المتنبي قد عرّا منها .

(١) من ذلك قوله متفزلا (وفي البيت الأخير ما يخفف الملامة) :

لى حبيبٌ كلما قيلَ له صدّق القولَ، وزكّى الرَبِّبا
كذبَ العذالُ فيما زعموا أُملى في فاتني ما كذبا
لو رأونا والهوى ثالُثنا !! والدجى يُرخى علينا الحُجُبنا
في جوار الليل في ذِمَّتِه نذكر الصبحَ بالأَيُّقُرُبا
ملءَ بردينّا عفافٌ وهوى حفظ الحسنَ وصنّتُ الأذبا

وقوله يصف ليلة لاقى فيها حبيبته عند إحدى السواقى :

في ليلةٍ من ليالى الدهرِ طيبةٍ تحا بها كل ذنبٍ غيرٍ مغتفرٍ
لا أكذب الله ؛ كان النجم رابعا لو يُذكرُ النجمُ بعد البدر في خَبَرٍ
وأنصفنّا ؛ فظلم أن نجازيها شكوى من الطول، أو شكوى من القصر
دَع بعد ريقَةٍ من تهوى ومنطقه ما قيل في الكأس أو ما قيل في الوتر
وأوضح من هذا قوله في الغزل أيضاً :

لم أدرِ ما طيبُ العناقِ على الهوى حتى ترفّق ساعدى فطواك
وتأودت أعطافُ بانك في يدي واحمرّ من خَفَرِهما خَدَاك

ودخلت في ليلين : فرعك والدجى ولثمتُ كالصبح المنورِ فالكِ
وقوله في الخمر :

إذا ما الكأس لم تذهبِ همومى فقد تبَّتْ يد الساقِ ؛ وتبَّأ
على أنى أعفُ منِ اخنساها وأكرمُ من عذارى الدَّيرِ شرُّ بآ
ولى نفسُ أروِّيها ، فنزَّ كُو كزهر الوردِ ؛ ندَّوهُ فهبَّا
ويقول في قصيدته التى يصف بها المرقص الذى أقيم بقصر مولاهم الخديوى
عباس بعابدين :

ساقِ الطِّلا شربُها وَجَبْ
هايتها مشَّتْ فوقها الحُقُبْ
بالبليَّة تنفث الحَبَبْ
إنَّ كَرَمَها آدمُ العِنَبْ
هُذَّبَتْ فِي دَهَّها الأدبْ
اسقِها فتنى خيرَ من شربْ

ولهذا أشباه في قصائد أخرى .

(٣) ويقول في قصيدة باریس :

ياغاب بُولونِ ولى ذِمَّهْ عَلَيْكَ ، وَلِىْ عُهُودْ
زمنٌ تَقَضَّى لِلهُوى وَلنا بِظِلِّكَ هَلْ يَعُودْ ؟
هلا ذكرتِ زمانَ كُنَّا والزمانُ كما نُرِيدْ
نَطْوِيْ إِلَيْكَ دَجى اللِّيا لى ، والدجى عَنَّا يَنُودْ
فنقول عندك ما نَقُو لُ ، وليس غيرك مَنْ يُعِيدْ

نُظْفَى هَوَى ، وَصَبَابَةٌ وَحَدِيثُهَا وَتَرْتُّ ، وَعَوْدُ
نَسْرِي ، وَنَسْرَحُ . . فِي فُضَا نَكِ ، وَالرَّيَاحُ بِهِ هُجُودُ
وَالطَّيْرُ أَفْعَدَهَا الْكَرَى وَالنَّاسُ نَامَتْ ، وَالْوُجُودُ
فَنَبِيتُ فِي الْإِنْسَانِ يَنْسَبُنَا بِهِ النُّجُومُ الْوَحِيدُ
فِي كُلِّ رَكْنٍ وَقْفَةٍ وَبِكُلِّ زَاوِيَةٍ قَعُودُ
نَسَقِي وَنُسْقَى ، وَالْهَوَى مَا بَيْنَ أَعْيُنِنَا وَلَيْدُ
الْح

وأما مواربته ومداجاته — وقد يبلغان حد الجبن أحياناً — فظهرها
أن تقع الأحداث السياسية الخطيرة في البلاد ، فينتقل الملك من فرع علوى
(نشأ وترعرع في ظله شوق) إلى فرع آخر ، وتضطرع الأحزاب السياسية
في مصر ، وتشتد الجفوة بينها ؛ فتتقسم البلاد لأجلها ، وتقع المذابح ،
والمهالك بسبب ذلك — فلا تسمع من شوق إلا كلاماً غامضاً ، أو نصحاً
عاماً ؛ لا يتجه فيه إلى رأى صريح ، ولا مذهب واضح . وليس من الحق أن
يقال إنه كان يتجنب تأريث النيران المشتعلة ، وإمدادها بوقود يزيد
لهباً وإحراقاً ؛ فما الشعراء ، والعلماء ، وأشباههم — إلا منائر للإرشاد السافر ،
ومعالم للهداية الوضأة . فإذا تخلّوا عن مهمتهم — ولا سيما ساعة الشدة ،
وخين البأس — فقد أساءوا ، وقصّروا ، بل أجزموا .

لقد خلع الإنجليز الخديو عباس في بدء الحرب العالمية الأولى ، وحرّوا عليه
دخول بلاده ، وولّوا مكانه السلطان حسين كامل ، وأعلنوا الحماية على مصر
وحكموها بالأحكام العرفية ، وأطلقوا يدهم في أموال الدولة ، ورجلها ،

وسائر مراقبها - كما سبق - فإذا قال أمير الشعراء في هذه المصائب ؟ لقد استقبلها بقصيدته التي نُقِي بعدها ، والتي عنوانها : السلطان حسين ، ومطلعها :

الملك فيكم آل إسماعيل لا زال بيتكم يُظَلُّ النيل

والتي يقول فيها :

سبحان من لا عزَّ إلا عزُّه يبقى ، ولم يك ملكه ليزولا .

لا تستطيع النفس في ملكوته إلا رضا بقضائه ، وقبولا

الخير فيما اختاره لعباده لا يظلم الله العبادَ فتيلا .

ويقول :

يا أهل مصر ، كلوا الأمور لرؤسكم فالله خير مَوثلا ووكيلا .

جرت الأمور مع القضاء لغاية وأقرها من يملك التحويلا

ومضى في كلام مبهم كهذا ؛ لا يعرض فيه لولى نعمته الخديوى الساق ، ولا يذكر ما أصابه وأصاب البلاد كلها من طغيان الإنجليز وعدوانهم على هذى البلاد المسالمة الوداعة ، بل ربما امتدحهم في بعض أبياتها كما أشرنا من قبل .

وكان قصارى جهده في خلاف الزعماء ، واصطراع الأحزاب ، وفك بعضها ببعض — أن قال أبياتا متفرقات أو مجتمعات ؛ يتلمس لها مناسبات مختلفة ، فينفث النفثة يروح بها عن نفسه ، ويختبئ وراء الكلام المرسل ، والنصح المبهم ، كقصيدته التي قالها في ذكرى مصطفى كامل ، ونشرنا بعضها فيما سبق ، وأولها :

إلام الخلف بينكمو ؟ إلاما ؟ وهذى الضجة الكبرى علاما

وفيمَ يكيدُ بعضكمو لبعض وتُبدون العداوة والخصاما ؟
وأين الفوزُ ؟ لا مصر استقلتُ على حال ، ولا السودان داما ؟
تراميتُمُ ؟ فقال الناسُ : قومُ إلى الخِذلان أمرهمُ ترامى .
وكانت مصرُ أولَ من أصبتُمُ فلم تُخصِ الجراح ولا الكلاما .

.....

وكذلك الشأن في الأحداث الجسام الأخرى التي حلت بالبلاد عقب
تلك الحرب ، وبعد أن عاد شوق من منفاه ؛ وما أجملها حوادث وأقساها !!
وما كان أحقها برأى صريح من شوق ، وتسجيل فيه عبرة ، وموعظة ،
وذكرى !! لكنه — وأسفاه — لم يفعل .

الحكم الأخير

بسطنا القول في هذين الشاعرين العظميين ، ودعمناه بما يؤيده من أمثلة مختلفة ؛ تزيل عنه سحج الشك والريب ، وتدفع به إلى اليقين أو ما يشبهه قوة ، وصحة ، وإقناعا . وآخر ما نختم به الرأي ، ونتوج به أدلة الحكم كلمتان قيلت إحداهما في المتنبي ، وقيلت الأخرى في شوقي ، وما أصدقهما !!
(١) فأما الأولى^(١) (وهي لأحد الأدياء القدماي) فقد تضمنت وصفا دقيقا ، صحيحا المتنبي وشعره ؛ حيث جاء فيها :

(إنه يجمع بين البديع النادر ، والضعيف الساطع ؛ فبينما هو يصوغ آخر حَلًى ، وينظم أحسن عقد ، وينسج أنفَسَ وثنى ، ويختال في حديقة ورد — إذا به قد رمى بالبيت والبيتين في أبعاد الاستعارة ، وتفويض^(٢) اللفظ ، وتعقيد المعنى . إلى المبالغة في التكلف ، والزيادة في التعمق ، والخروج إلى الإفراط والإحالة ، والسفسفة ، والركاكة ، أو التبرد والتوحش ؛ باستعمال الكلمات الشاذة . فمحا تلك المحاسن ، وكدر صفاءها ، وأعقب حلاوتها مرارة لامتساع لها ، واستهدف لسهام العائبين ، وتحكك بأسنة الطاعنين . فن متمثل بقول القائل :

أنت العروسُ لها جمالٌ رائعٌ لكنها في كل يوم تُضَرَعُ
ومن مشبه إياه بمن يُقَدَّمُ مائدة تشتمل على غرائب المأكولات ،

(١) وردت في الجزء الثاني من الصباح ص ٤١ على هامش العكبرى .

(٢) قد يكون المراد : اختلاط صفات اللفظ واضطرابها ؛ فلم يظهر لبعض الألفاظ ماله

من خصائص وتحديد ومميزات .

وبدائع الطيبات ، ثم يتبعها بطعام وَضِرٍ ، وشرابٍ عَمَكِرٍ . ومن يتبحَّرَ
بالنَّدِّ المُعْشِبِ ، المُثَلَّثُ ^(١) المركب من العود الهندى ، والمسك الأصهب ،
والعنبر الأشهب . ثم يزفه ^(٢) بإرسال الريح الخبيثة ، ويفسده بالرائحة
السكرية ...) .

بل إنه ليحكم على نفسه بنفسه ؛ فقد روى الثعالبي أنه عوتب آخر أيامه على
تراجع شعره فقال : « تَجَوَّزْتُ فى قولى ، وأعفيت طبعى ، واغتنمت الراحة
منذ فارقت آل حمدان ... »

ونحن نعلم أنه قضى مع آل حمدان قرابة تسع سنوات قال فيها نحو ثلث
شعره ؛ فالثلثان — إذاً — مصنوعان ، معيَّبان ؛ كما يفهم من كلمته .
ومن كان هذا شأنه فليس بأسبق الشعراء إلى زعامتهم ، ولا أحقهم
بالإمارة عليهم .

(ب) وأما الأخرى : فهي من وصف الدعاة الذين نادوا بتكريم شوقى ،
ومبايعته بالزعامة الأدبية ، فاستجابت الأمم العربية لدعوتهم
وفيهما يقولون ^(٣) ...

« لَقَدْ جَاءَ شَوْقِي ، وَالْعَرَبِيَّةُ تُعْنِي فِي إِذْبَارِهَا ؛ حَتَّى أَوْفَتْ عَلَى
« الزَّوَالِ ؛ بِمَا تَشَايَعَ عَلَيْهَا وَعَلَى بِلَادِهَا مِنْ أَحْدَاثِ جِسَامٍ ؛ فَتَقَلَّصَتْ
« المَعَانِي ، وَأَسَفَ الْكَلَامُ ، وَضَاقَ مَأْثُورُ الْبَيَانِ بِمَطَالِبِ الْعَصْرِ ، »

(١) أى : الذى يكون تركيبه من ثلاثة أشياء . وقد ذكرها بعد .

(٢) فى الأصل : يربهه : ومى مقبولة : وقد يكون الأنسب : يزفه .

(٣) باختصار .

« وَضَاقَتْ مَطَالِبُ الْعَصْرِ بِمَا ثَوَّرَ ذَلِكَ الْبَيَانُ . وَكَذَلِكَ فَرَّقَ الدَّهْرُ »
 « بَيْنَ الْعَرَبِ ، وَلُغَتِهِمْ ، وَأَصْبَحُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا أَحَدَ رَجُلَيْنِ ؛ »
 « رَجُلٌ يَفْعَدُو إِلَى جَبَلٍ حَاجَاتِهِ فِي غَيْرِ لُغَتِهِ ، وَآخَرُ يَخْوِضُ لُغَتَهُ »
 « فِي غَيْرِ حَاجَاتِهِ . وَهَلْ كَانَ أَذَلَّ لِأَعْنَاقِ الْأُمَمِ ، وَأَضْمَعَ لِمَعَارِفِ »
 « حَيَاتِهَا — مِنْ أَنْ تَسْمَى بِغَيْرِ لُغَةٍ ؟ وَأَنْ تَقْنَعَ مِنْ لُغَتِهَا بِمَا »
 « لَا يُوَانِي حَاجَاتِ عَصْرِهَا مِنْ فَنُونِ الْبَيَانِ ؟ »

« نَعَمْ . لَقَدْ تَوَاضَعَتْ هَذِهِ اللُّغَةُ ، وَانْقَبَضَتْ عَنْ تَنَاوُلِ كَثِيرٍ »
 « مِنْ أَغْرَاضِ الْعَصْرِ ؛ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ فِي دِيَارِ الْعَرَبِيَّةِ رَجُلًا تَمَرُّوا »
 « عَلَى حُكْمِ دَهْرِهِمْ ؛ بِمَا زَوَّدَهُمْ مِنْ عِبْقَرِيَّةٍ ، وَجَلِيلِ مَوْهَبَةٍ ؛ فَمَا »
 « ضَمُّوا لِهَذِهِ الْعِلَّةِ ، وَلَا اسْتَكَنُوا لِتِلْكَ الدَّلَّةِ ؛ بَلْ مَضَوْا فِي الْعَزْمِ »
 « الْجَبَّارِ ؛ يَبْعَثُونَ لُغَتَهُمْ بَعْثًا يَجْمَعُ بَيْنَ جَدِيدِ الْعَمَانِي فِي قَدِيمِ »
 « الْبَيَانِ ، وَأُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُهَيِّئْهُمْ عَصْرُهُمْ لِمَا أَدْرَكُوا مِنْ عَظَمَةِ »
 « وَجْهِهِ ؛ بَلْ هُمُ الَّذِينَ هَيَّئُوا عَصْرَهُمْ لِمَا أَدْرَكَ مِنْ بَجْدِ »
 « وَسُلْطَانِ . وَفِي طَلِيعَةِ هَؤُلَاءِ الْفَاتِحِينَ : أَمِيرُ الشُّعْرَاءِ »
 « أَحَدُ شَوْقِي بَكِ . »

« شَوْقِي » ، وَمَنْ أَوْلَى يَقْدِرِ « شَوْقِي » مِنْ بَنَانِهِ ؟ وَمَنْ أَقْدَرُ »
 « عَلَى بَيَانِ شَوْقِي مِنْ بَيَانِهِ ؟ « شَوْقِي » يَضْدَحُ مِنْ ثَلَاثِينَ سَنَةً »
 « فَمَا بَقِيَتْ عَلَى فَنَنِ فِي كُلِّ بِلَادِ الْعَرَبِيَّةِ وَرَفَاقِهِ لَمْ تَهْتَفِ عَلَى »

« أَنْعَامِهِ ، وَلَمْ تَسْجَعْ عَلَى شِعْرِهِ وَنِظَامِهِ . فَإِذَا أَطْرَبَ بِالْقَوْلِ هَزَارُ »
« وَصَدَحَ بُلْبُلٌ بِبَدِيعِ الْأَشْعَارِ — فَشَوَقُ : « هُوَ الطَّائِرُ الْمُحَكِّىُّ »
« وَالْآخِرُ الصَّدَى » .

« وَبَعْدُ : فَإِذَا كَانَتْ الْأَمَمُ مَدِينَةً لِعُظَمَائِهَا بِمَا يَفْسَحُونَ لَهَا »
« فِي نَوَاحِي الْعُظَمَى وَالْتَمَكِينَ فِي الْأَرْضِ — فَمَا أُخْرَى الْعَالَمِ »
« الْعَرَبِيَّ أَنْ يَذْكُرَ هَذِهِ أَيْدٍ لِأَمِيرِ الشُّعْرِ !! وَإِذَا جَرَتْ الْأَمَمُ »
« عَلَى تَخْلِيدِ أَبْطَالِهَا فَمَا أُخْلِقَ شَوْقِي بِهَذَا الْخُلُودِ !! »

« يَا بَنِي الْعَرَبِ . مَا كَانَ فَضْلُ شَوْقِي مَقْصُورًا عَلَى مِصْرٍ وَخَدَهَا »
« فَإِنَّهُ شَاعِرُ الْعَرَبِيَّةِ جَمَاءَ . وَإِذَا كَانَتْ عُبْقَرِيَّتُهُ حَقًّا لِلْجَمِيعِ فَقَدْ »
« وَجَبَ أَنْ يَكُونَ تَسْكَرِيْمُهُ حَقًّا عَلَى الْجَمِيعِ » .

« يَا بَنِي الْعَرَبِ . هَذَا « شَوْقِي » الَّذِي ظَلَّ يَجْلُو عَلَى النَّبِيَّانِ »
« لَمُتَّكُمْ خَمْسًا وَثَلَاثِينَ سَنَةً ؛ فَأَعْلَى مَنَارَهَا ، وَأَعْلَى آثَارَهَا ، وَأَعَزَّ »
« أَهْلَهَا ، وَأَنْصَارَهَا » .

« هَذَا « شَوْقِي » الَّذِي جَادَ بِهِ الزَّمَانُ عَلَى هَذَا الْعَصْرِ ؛ »
« وَإِنَّ الزَّمَانَ بِمِثْلِهِ لَبَخِيلٌ » . فَجَدَّدَ لِلْعَرَبِيَّةِ كَرِيمَ إِهَابِهَا ، »
« وَنَشَرَ مَطْوِيَّ آدَابِهَا ، وَفَسَحَ لَهَا بَيْنَ اللُّغَا الْعَلِيَّةِ مَكَانًا عَلِيًّا » .
« وَإِنَّ لِهَوَالَاءِ الْعُبْقَرِيِّينَ — بِمَا قَدَّمُوا لِقَوْمِهِمْ — لَدَيْنَا يَلْحَقُ »
« كُلُّ فَرْدٍ ، وَيَشْفَلُ كُلُّ ذِمَّةٍ . وَمَنْ أَوْلَى مِنْكُمْ يَا بَنِي الْعَرَبِ »
« بِالْوَفَاءِ ؟ »

« وَإِنَّ الْأَجْنَئَةَ لَتَرْفَعُ هَذِهِ الدَّعْوَةَ إِلَيْكُمْ ؛ طَامِعَةً أَنْ تَكُونَ »
 « حَمَلَةٌ تَكْرِيمِ شَوْقِي مُؤْتَمَرًا تَتَجَلَّى فِيهِ عَظَمَةُ الْأَدَبِ ، كُفُوا لِيَدِ »
 « شَوْقِي ، وَجَدِيرًا بِقَدْرِ الْعَرَبِ . . . » وقد استجابت لها بلاد العروبة جميعاً .

* * *

وأختم البحث بما بدا أنه به ؛ إذ قلت ^(١) : لو أن سائلاً طلب إلى أن أرشده
 إلى شاعر عربي يستغنى به عن غيره ويكتفى بشعره عن كل شعر — ما ترددت
 أن أرشده إلى « شوقي » . ولو جاز لبعض المثقفين والطلاب — ممن
 ضاق وقتهم وعجزت وسائلهم — أن يقتصروا على شاعر عربي واحد ما كان
 غير شوقي .

الفهرس

الموضوع	رقم الصفحة
بيان : (يشمل الغرض من تأليف الكتاب ، إماره شوقى على شعراء عصره ، معنى إمارته الأدبية ، عمومها على شعراء عصره ومن سبقهم ، الموازنة بينه وبين المتنبي ، سببها ، وأقوم الطرق لها . وقوع الموازنة بين معاصرين أو مختلفي العصر . الدراسة الفردية والجمعية . مقاييسها . . .)	١
وسائل الرأى عند القدماء ، آراؤهم فى المتنبي .	٨
كيف تكون الموازنة ؟	١٦
(١) الشاعر ، رسالته ، نصيب المتنبي وشوقى منها :	١٨
(١) ترجمة المتنبي بإيجاز .	٢٣
ما يُستخلص منها ، نواحي التفصير وعدم التفصير فى رسالته الأدبية . ما نريده منه ومن الشعراء . أمثلة من شعره .	٢٥
(ب) ترجمة شوقى بإيجاز . ما يستخلص منها . نصيبه فى أداء الرسالة الأدبية . أمثلة من شعره .	٤٠
* * *	
(٢) الألفاظ وما يتصل بها ؟ حظ الشعارين منها :	٥٥
أفضلية اللفظ على المعنى ، أو العكس . أدلة كل رأى . رأى .	
رأى الجرجاني ومناقشته .	٦١
السبب فى جحود فضل الألفاظ .	٦٥

الموضوع	رقم الصفحة
الرأى فى المعنى الشريف والخسيس .	٦٧
عودة إلى الألفاظ وأوصافها . أمثلة مختلفة .	٦٨
ما وسائل الحكم عليها ؟ فضل القدماء .	٧١
علوم البلاغة العربية وأهميتها ، سبب التنكر لها . واجبنا .	٧٢
الأوصاف الحميدة للكلمة والكلام .	٧٨
قلة توفيق المتنبي فى ألفاظه ، أمثلة .	٨١
العجب من ذلك . وكلام العلماء والأدباء فيه ، وأمثلتهم .	٩٥
طبيعة المتنبي ، وأثرها فى ذلك .	١٠١
نماذج طيبة من ألفاظ المتنبي .	١٠٢
ألفاظ شوقى ومحاسنها .	١٠٤
نماذج متعددة منها .	١٠٥
هفواته اللفظية ، وأمثلة منها .	١١٠
هفوات لفظية أخرى (استخدام القديم ... تغليب الرقة ... طول بعض الكلمات ... قلق بعض الكلمات والقوافى ...) أمثلة .	١١٦
طرافة الألفاظ وخصوصيتها ، أخطاء الشاعر وضروراته ، ومبلغ قدرته على استخدام الأصول اللغوية والمحسنات البلاغية فى حدودها . . .	١٢٢
(١) تفصيل الكلام على الطرافة والخصوصية .	١٢٣
نصيب المتنبي من الطرافة والخصوصية . أمثلة كثيرة .	١٢٥
نصيب شوقى منهما . أمثلة كثيرة .	١٣٠

الموضوع	رقم الصفحة
(ب) تفصيل الكلام على الأخطاء والضرورات والأصول اللغوية والمحسنات البلاغية .	١٣٥
أخطاء المتنبي . مناقشتها . أمثلة .	١٣٧
الرأى فى أخطاء شوقى وضروراته . أمثلة .	١٤١
الكلام فى المحسنات البلاغية .	١٤٨
نصيب المتنبي منها .	١٤٩
من أكبر عثراته : خشونة اللفظ ، وجود الطريقة . معناها ، أمثلة .	١٥٣
أنواع أخرى من عثراته .	١٥٧
الكلام على سرقاته . أمثلة .	١٦٢
المطالع والاستهلال ، قيمتهما	١٦٨
حظ المتنبي منها .	١٧٠
حظ شوقى منها .	١٧١
أمثلة من مطالع المتنبي الجيدة .	١٧٢
» » » » الرديئة .	١٧٣
نصيب شوقى من إرضاء البلاغة والبلاغيين . أمثلة .	١٧٧
كلمة عن التشبيه فى شعر شوقى . أمثلة .	١٧٨
براعته فى الجمع بين الوصف والمزايا .	١٨١
قد يُعذر المتنبي ولا يُعذر شوقى	١٨٣

الموضوع	رقم الصفحة
مأخذ بلاغية وقع فيها شوقي أمثلة .	١٨٤
سرقانه . أمثلة .	١٨٦
مطالعه الجيدة . . .	١٨٨
وقفة عند مَطلعين قليل إنهما معيبان . . . والرأى فيهما .	١٩٠
مَطلعه الواهية . أمثلة .	٢٠١
* * *	
(٣) المعانى وما يتصل بها . أوصاف المعانى الجيدة :	٢٠٦
حظ المتنبي من المعانى الجيدة . آراء بعض الأدباء والناقدین فى معانيه	٢٠٩
أمثلة من معانيه المعيبة .	٢١١
فتور العاطفة فى شعره .	٢٢٢
بعض آخر من عيوبه المعنوية . ومنها المبالغة . . .	٢٢٧
ضآلة بعض معانيه ، وتناقضها .	٢٣٧
إلحاحه على بعض المعانى الشائعة . نصيبه من توفية المعانى ومن	٢٤٠
الفاسقة والمنطق .	
صور من معانيه الفاضلة .	٢٤٦
معانى شوقى وما يتصل بها ، وضوحها ، أسباب غموضها أحيانا	٢٥١
أمثلة .	
خيال شوقى فى قصائده .	٢٦٣
طرافة معانيه ، واستقامتها ، ومناسبتها .	٢٦٦

الموضوع	رقم الصفحة
بعض مآخذ .	٢٦٧
حظ شوق من توفية المعاني ، والمنطق ، والفلسفة .	٢٦٩
التماس المعاذير للشعراء في إهمال التوفية ونواحي المنطق والفلسفة .	٢٧٢
العاطفة في شعر شوقي . أمثلة .	٢٧٤
شعره الخالي من العاطفة ، الأسباب والأمثلة .	٢٧٨
عيبان آخرون : (المبالغة ، والتفاهة) .	٢٧٩
* * *	
(٤) الموضوعات والأغراض التي عالجها الشاعران ، طريقتهما في ذلك :	٢٨٣
(١) كيف عالج المتنبي الموضوعات من حيث الشكل .	
(ب) » » » الشعر من حيث الموضوع . وتفصيل ذلك .	
الظواهر التي تبدو في الغرض الأصلي .	٢٨٨
(١) المديح ، وبعض عيوب المتنبي فيه . أمثلة .	٢٨٩
شعر المديح ، وهل أساء للأدب العربي ؟	
بعض طرائفه في المدح .	٢٩٦
(ب) الهجاء :	٢٩٧
عيوب المتنبي فيه .	٢٩٨
ذاتية الهجاء العربي .	٣٠٢
(ح) الرثاء :	٣٠٣
عيوب المتنبي فيه . أمثلة .	٣٠٣

الموضوع	رقم الصفحة
(د) الغزل :	٣٠٦
تقصير المتنبي والشعراء فيه .	٣٠٦
عيوب الغزل في شعر المتنبي .	٣٠٧
محاسن » » » »	٣٠٩
باقى الأغراض الشعرية عند المتنبي والرأى فيها بإيجاز .	٣١٠
صور من شعره الجميل فى وصف الحرب وغيرها .	٣١١
» » » التهافت .	٣١٣
كلمة عن فخره . وأمثلة .	٣١٥
شوق فى موضوعاته . محافظته على الشكل والموضوع .	٣١٧
(أ) تفصيل الكلام على الشكل . أمثلة	
مشهد موجز من رواية كليوباترة .	٣٢١
(ب) تفصيل الكلام على الموضوع . أمثلة .	٣٢٢
ملاحظات عامة على الغرض الأساسى :	٣٢٦
(أ) المديح فى شعر شوقي . . . عيوبه ومحاسنه . أمثلة .	٣٢٦
(ب) الهجاء فى شعر شوقي ، وأنواعه ، وعيوبه ومحاسنه . أمثلة	
الرأى فى هجاء شوقي .	٣٢٩
(ج) الرثاء فى الشوقيات ، الرأى فيه . أمثلة .	٣٤١
موازنة قصيرة بين مربية المتنبي وأخرى لشوقي .	٣٤٦

الموضوع	رقم الصفحة
(د) الغزل . نوعاه . الحكم عليهما . أمثلة .	٣٥٠
(هـ) الوصف .	٣٦١
مكانة شوقي فيه . ملاحظات على شعره الوصفى ، والحكم عليه .	
أمثلة متعددة .	
كلمة عن موضوعاته الأخرى (غير السبعة الماثورة) .	٣٧٣
أغانيه . قيمتها وأهميتها . أمثلة .	٣٧٤
أناشيده ، منزلتها .	٣٧٦
قصص الأطفال وحكاياتهم . أهميتها ، وأمثلة لها .	٣٧٧
قصصه المسرحية . فضلها وآثارها .	٣٨٠
المزاح والخصوصيات .	٣٨١
نثر شوقي . قيمته . نماذج منه .	٣٨٢
نثر المتنبي والرأى فيه .	٣٨٥
* * *	
(٥) الحكمة التي اشتهر بها الشاعران :	٣٨٦
أثرها في شعرهما . أسبقية المتنبي فيها .	
الفرق بين الشاعرين فيها ، وكيف كانت سبب شهرة المتنبي .	٣٨٧
أمثلة من حكم المتنبي .	٣٩١
أمثلة من حكم شوقي .	٣٩٤
* * *	
أخلاق الشاعرين من شعرهما .	٣٩٦
أهمية الأخلاق في الحكم على الشاعر .	

الموضوع	رقم الصفحة
(١) أخلاق المتنبى مستمدة من شعره .	٣٩٨
نفاقه ، كذبه ، غروره ، استجدائوه ، حقهده ، بخله (وأثره في إهانتة والفض من قدره) . سفاهته .	
ضعف إيمانه ، الرأى فى زندقته .	
نقائص خلقية أخرى ، كالجن ، وإهمال المظهر . . .	
بعض ألياته الخلقية القوية .	
(ب) شوقى . فضائله مستمدة من شعره .	٤١٠
بعض عيوبه . (الزهو ، التحلل من بعض القيم الخلقية ، المداجاة) .	
كلمة عن كل . أمثلة	
* * *	
الحكم الأخير على الشاعرين .	٤٢٢

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

بحمد الله وخسن توفيقه تم طبع كتاب :

(المتنبي وشوقي)

القاهرة في { ٢٩ جادى الثانية سنة ١٣٧٠ هـ
٥ إبريل سنة ١٩٥١ م

مدير المطبعة
رستم مصطفى الحلبي

ملاحظ المطبعة
محمد أمين عمران

